الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الحادی عشر

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 7

الجزء الحادي عشر

سورة الأعراف‏

مكيّة و آياتها 206

[سورة الأعراف (7): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

المص (1) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (3) وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (4)

فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلاَّ أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (5) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ (7) وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 8

لقد سميت «الأعراف» بها، لأنها سيدة الموقف البارز لرجال الأعراف، حيث هم شؤونهم بارزة بالموقف الأعلى يوم القيامة على الأعراف، تعريفا بفريقي الجنة و النار، و تقريرا لمصير كلّ بأمر اللّه، و لأنها برجالها لم تذكر في سائر الذكر الحكيم، كما هم القمة العليا بين الرساليين المعصومين، فهم منقطعوا النظير. ذكرا في القرآن و محتدا عند الرحيم الرحمان بمن يرأسهم من هذا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

ذلك، إضافة إلى سائر الأعراف في مختلف حقول المعرفة الأعرافية المتميزة في هذه السورة عما سواها، و كما هي طبيعة الحال في كل سورة أنها تختص بميّزات و مواقف خاصة ليست فيما سواها كما هي فيها.

ندرس على أعراف الأعراف موضوع العقيدة بمختلف حقولها، و مختلف العقليات المأمور بها، و مختلف القابليات و الفاعليات و الواقعيات في مسارحها.

و هنا من مواضيع العقيدة- البارزة- عرضها عبر التأريخ الإنساني ككل، في مجال الرحلة الإنسانية ابتداء بالجنة الابتلائية الدنيوية، و انتهاء إليها الأخروية لمن عمل لها، عرضا لموكب الإيمان الوضي‏ء من لون آدم إلى محمد (عليهما السلام).

رحلة طويلة للغاية، تقطعها السورة مرحليا في مقاطع عدة، واقفة عند المواقف الرئيسية، البارزة المعالم منها، درسا عابرا لمعتبر، تدكرا لمدّكر.

و من مواقفها الرئيسية المعرفية تبيان واقع أحكام الفطرة بصيغة الحوار:

«أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏ ...» عبارة أخرى من آية الفطرة في الروم.

أعراف و أعراف ندرسها على ضوء الأعراف عقيدية و أحكامية، آفاقية و أنفسية، و ذلك لمن ألقى السمع و هو شهيد.

و ملامح السورة تؤيد نزولها كما هيه، أم و لأقل تقدير أنها مؤلفة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 9

كسائر التأليف القرآني زمن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و قد كان يقرأها في صلواته‏ «1».

المص 2 مقطع من الحروف المقطّعة القرآنية، التي هي برقيات رمزية خاصة بمهبط الوحي و «هي مفاتيح كنوز القرآن» لا نعرف منها معنى إلّا ما عرفه اللّه لنا أو أهلوها المعصومون عليهم السلام، ابتداء برأس الزاوية الرسولية، و انتهاء إلى الزاوية الأخيرة الرسالية.

لقد قيلت في «المص» أقوال- كما في غيرها- و غيلت أغوال، لا تستند إلى ركن وثيق، و إذا عنت فيما تعنيه معاني بحساب حروف الأعداد «2» فليست فوضى جزاف أن يحسبها كلّ كما يحب و يهوى، إنما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 67- أخرج سمويه في فوائده عن زيد بن ثابت قال: كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقرأ في المغرب بطولي الطولين «المص»،

و

عنه‏ انه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قرأ في المغرب بالأعراف في الركعتين جميعا،

و

أخرج البيهقي في سننه عن عائشة أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قرأ سورة الأعراف في صلاة المغرب فرقها في ركعتين.

(2)

نور الثقلين 2: 1 في معاني الأخبار بسند أتى رجل من بني أمية- و كان زنديقا- جعفر بن محمد (عليه السّلام) فقال له: قول اللّه: «المص» أي شي‏ء أراد بهذا و أي شي‏ء فيه من الحلال و الحرام، و أي شي‏ء مما ينتفع به الناس؟ قال: فاغتاظ من ذلك جعفر بن محمد (عليه السّلام) فقال: أمسك ويحك! الألف واحد و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الصاد تسعون كم معك؟ فقال الرجل: مأة و إحدى و ستون، فقال له جعفر بن محمد (عليه السّلام) فإذا انقضت سنة إحدى و ستين و مأة ينقضي ملك أصحابك، قال:

«نظر فلما انقضت إحدى و ستون و مأة عاشورا دخل المسودة الكوفة و ذهب ملكهم»

أقول: هذا طرف من الطرف «المص» بحساب خاص و ليس فوضى جزاف.

و

عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: إن حي بن أخطب و أبا ياسر بن أخطب و نفرا من اليهود من أهل نجران أتوا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا له: أليس تذكر أن فيما أنزل إليك «الم»؟ قال: بلى، قالوا: أتاك بها جبرئيل من عند اللّه؟ قال:

نعم، قالوا لقد بعث اللّه أنبياء قبلك ما نعلم نبيا منهم ما مدة ملكه و ما أكل أمته غيرك!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 10

هي حسابات خاصة بين اللّه و رسول الوحي و رسالته.

و هنا «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ» بعد «المص» مما تلمح أن المخاطب بها خصوص الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، ثم‏ «فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ» تلميحة أخرى أن «المص» تحمل- فيما تحمل- طمأنة لخاطره الشريف أنه ماض في سبيله، مجتازا عقباتها و عقوباتها، بفضل من اللّه و رحمته.

كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ‏ 2 «المص» هو «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ» و هذا القرآن‏ «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ» و قد يعني ماضي النزول في‏ «هذَا الْقُرْآنُ» نازل محكمه ليلة القدر، إلى نازل تفصيله في مثلث الزمان، تلحيقا لمستقبله بماضيه لتحقق وقوعه كماضيه، فنازل الثلاث من مراحل النزول يزيل عنه كل حرج، و في «المص» طمأنة رمزية بهذه البشارة السارة، أم- فقط- نازل ماضيه حتى الآن حيث لا يكلف إنذارا و ذكرى إلّا بما نزل بالفعل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: فأقبل حي بن أخطب على أصحابه فقال لهم: الألف واحد و اللام ثلاثون و الميم أربعون فهذه إحدى و سبعون سنة فعجب ممن يدخل في دين مدة ملكه و أكل أمته إحدى و سبعون سنة، قال: ثم أقبل على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال له يا محمد هل مع هذا غيره؟ نعم، قال: هات، قال: «المص» قال: هذا أثقل و أطول، الألف واحد و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الصاد تسعون فهذا مأة و إحدى و ستون سنة، ثم قال لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قال: «الر» قال: هذا أثقل و أطول، الألف واحد و اللام ثلاثون و الراء مائتان فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قال «المر» قال: هذا أثقل و أطول، الألف واحد و اللام ثلاثون و الميم أربعون و الراي مائتان، قال: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم قال: قد التبس علينا أمرك فما ندري ما أعطيت ثم قاموا عنه ثم قال أبو ياسر لحي أخيه و ما يدريك لعل محمدا قد جمع هذا كله و أكثر منه فقال أبو جعفر (عليه السّلام): إن هذه الآيات أنزلت منه آيات محكمات هن أم الكتاب و آخر متشابهات و هي تجري في وجوه أخر على غير ما تأول به حي و أبو ياسر و أصحابه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 11

«فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ» و ترى بالإمكان كائن الضيق من نازل القرآن في صدره المنشرح بما شرحه اللّه قبل نزول القرآن ليأهل له، و منذ بزوغ نزول القرآن؟: «أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ»!، و لقد شرح اللّه صدره (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قبل نزول القرآن لينزل عليه منشرحا، و شرحه بهذا القرآن ما لم يكن يشرح بغيره، فكيف‏ «فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ» تعني واقع ذلك الحرج!.

هنا في مثلث الحرج المحتمل نفسيا، و بلاغيا كأصل، و بلاغيا أمام ردود الفعل من المنذرين، لا موقع للحرج المنهي إلّا الثالث فان‏ «أُنْزِلَ إِلَيْكَ» من ربك يطمئنه أنه وحي الرحمن و ليس من وحي الشيطان أم خليط منهما و دخل من دجل حتى يتحرج في نفسه، فغير النازل من اللّه يحرّج في نفسه لمكان الخطأ، ف: «لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ» (10: 94)، «حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ» مهما كان‏ «ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» دون أي حرج أو مرج.

ف «لتنذر به» هي ذات تعلقين ثانيهما «حرج منه» مهما كانت‏ «وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» ذات تعلق واحد و هو «أُنْزِلَ إِلَيْكَ‏ ... ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ».

و قد تحتمل‏ «ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» ك «لتنذر» أنها ذات تعلق ثان، حيث الصعوبات في سبيل‏ «ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» واقعة مهما كانت أقل من‏ «لِتُنْذِرَ بِهِ».

إذا ف «أنزل»- «لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ»- «فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ- لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ».

و ترى ما هو دور «ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» و غيرهم أحوج منهم إلى ذكرى، ثم و هو ذكرى للعالمين؟: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْعالَمِينَ» (6: 90).

«ذكرى» هنا هي كما «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» تعني حاصلها، فمن يتذكر بالذكرى، أو يزداد ذكرى على ذكرى، فهو من المؤمنين، مهما اختلف إيمان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 12

أول عن إيمان ثان، فالأول حالة الإيمان حيث يفتش عنه، و الثاني هالته بعد حالته حيث يزداد به ذكرى: «وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى‏ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» (51: 55).

فطالما الإنذار شامل يحلّق على كافة المكلفين، و لكن لا دور للذكرى إلّا لمن ألقى السمع و هو شهيد ف: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى‏ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ» (50: 37) فهو «هُدىً وَ ذِكْرى‏ لِأُولِي الْأَلْبابِ» (40: 54).

فالذين كانت فيهم أجهزة الاستقبال للذكرى مفتوحة، كان القرآن لهم ذكرى معروفة، ثم الذين أغلقوا على أنفسهم هذه الأجهزة هو عليهم عمى: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» (17: 82).

فقد اختص الحرج المنهي عنه رفعا أو دفعا بما هو من قضايا الدعوة بملابساته أمام الناكرين، و لا سيما القوم اللدّ الذين كان يعيشهم منذ بزوغها.

و صحيح أنه‏ «ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» (33:) 38) إلّا أن ملابسات هذه الدعوة- المليئة بالأشواك و الأشلاء و العقبات- هي التي قد تحرج الداعية فتحوجه إلى انشراح أكثر و انفتاح أوفر في استقبال هذه الدعوة الملتوية.

ذلك، لأن هذا الكتاب بتلك الدعوة الصارمة الصامدة، صدعا بما فيه من الحق، و مواجهة للمرسل إليهم بما لا يحبون، و مجابهة لعقائد و تقاليد و رباطات جاهلية، و معارضة لنظم و أوضاع، لذلك كله و ما أشبه من ملابسات الدعوة، ليست طبيعة حال الداعية فيها إلا حرج واقع ليس ليزول إلّا بتصبّر زائد، و صمود حائد، و توفيق خاص من اللّه، و

«إن الله تعالى لما أنزل القرآن إلى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال:

إني أخشى أن يكذبني الناس و يلثفوا- يكسروا- رأسي و يتركوه كالخبزة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 13

فأزال الله الخوف عنه بهذه الآية» «1».

أم و حرج مستقبل في مستقبلات الدعوة عليه أن يطارده بتصبر و صمود بما وعده اللّه النصر: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51).

لذلك‏ «فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ» لأنه‏ «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ» من ربك، فالذي أنزله إليك هو حاسب كل حساباته، فخذ يا صاحب الدعوة الأخيرة مسيرك إلى مصيرك، و لا تتحرج في مواقفك، و لا تتخرّج إلا موفقا محبورا، فسر و عين اللّه ترعاك.

و هنا «لا يكن» نهي عن أن يكون، و ليس نهيا عما هو كائن، فقد تعني كما تعنيه‏ «فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى‏» (20: 16) في موسى، و في أضرابها لأضرابه من الدعاة الرساليين، و بأحرى في هذا الرسول: «ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» (33: 38).

و «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ..» و ما أشبه، إعلانا جاهرا في هذه الإذاعة القرآنية ألّا خمود و لا ركود و لا ارتجاع لهذه الداعية عن الدعوة، فليحسب الأعداء و المتاجرون كل حساباتهم، و لييأسوا عن القضاء عليه بمختلف المكائد و المصائد.

ثم و لو كان هنا واقع لذلك الحرج- لو خلي الرسول و طبعه- فهو كما كان لموسى أمام الدعوة الفرعونية حيث‏ «قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي‏ ...

قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى‏» (20: 36) و النهي عن هذا الحرج يعني الأمر بإزالته بما هو يسعى، و ما يرجوه من اللّه، أم يعنيهما رفعا و دفعا، رفعا لما كان، و دفعا عما قد يكون من حرج في هذه السبيل الطويلة الملتوية الصعبة، فلقد نازلوه بضربات هدّامة و واصلوا الدعايات المحتالة المتواصلة في تكذيبه لحد كان ينوي أن يترك بعض ما أوحي اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 4 في مجمع البيان و قد روي في الخبر أن اللّه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 14

فنزلت: «فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ» (11: 12) «وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» (15: 98) «وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» (27: 70).

و في الحق إن ذلك الحرج هو حجر عثرة لكل داعية إلّا من عصمه اللّه و هداه، و قد أمر هذا الرسول العظيم بالصبر: «وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ» (16: 127) و الاستقامة «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ» (11: 112).

فهذا «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ‏ ... لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» «فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» فاشدد شمرك، و تغاضّ عن إمرك في أمرك، فلا يمنعك عنه أي مانع، و لا يفت عضدك في صراعه أي رادع، سر فعين اللّه يرعاك.

ذلك كما و «المص كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ» مما يلمح أن «المص» تحمل- فيما تحمل- طمأنة لخاطر الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن دعوته ماشية ماضية مهما كثرت العراقيل أمامها.

إذا ف «المص» و هذا القرآن‏ «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ‏ من ربك» الذي رباك بالقمة الرسالية، فلم يكن ليدعك وحدك تتواتر عليك الرزايا التي ترضّك، فاللّه ربك هو الذي ينصرك و يرضيك و يوهن مناوئيك.

«كتاب أنزل إليك .. لتنذر به و ذكرى- فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به و ذكرى» فإنما هو الإنذار بالقرآن دون سواه، حقا لرسول القرآن، إنذارا بثابت الوحي الرباني.

فلا تجوز الدعوة الربانية إلا بعلم الوحي دون سائر العلم، و ذلك طليق للرسل و سائر المعصومين، و هو قدر المستطاع لمن سواهم.

ذلك، فليس الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) وحده هو صاحب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 15

المسؤولية في هذا الميدان، و إنما هو المسؤول الأول ما كان حيا، ثم الذين يحملون رسالته إلى يوم الدين، طول الزمان و عرض المكان، فإن الإسلام ليس حدثا تأريخيا حصل مرة ثم مضى، بل هو- قضية خلوده على مدار الزمن- مواجهة دائبة للمكلفين أيّا كانوا و أيان إلى يوم الدين، و على حملة هذه الرسالة- معصومين و سواهم- مواصلة الدعوة الصابرة الصامدة أمام كافة الجاهليات، غابرة متأخرة، و حاضرة متحضرة، حركة متواصلة و سبحا طويلا لاستنقاذ البشرية من مستنقعات الجاهلية الجهلاء:

«فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ» «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ..» (29: 48).

و لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء ذلك الدين المتين، و انتكست البشرية إلى جاهلية هي أعرق و أحمق من الجاهلية الأولى، حيث شملت كل جوانب الحياة دون إبقاء، فإنها جاهلية علمية علمانية متحضرة تخيّل إلى المجاهيل أنها تقدّمية بيضاء، رغم أنها رجعية سوداء، ضاربة أطنابها في كل أرجاء الأرض بكل جنبات الحياة، فلا بد من كفاح صارم قدر المستطاع، و بقدر ما اتسعت هذه الجاهلية في وجه الشرعة القرآنية بين أغارب و أقارب.

و لقد تكفي الدعوة القرآنية صدا لكل الهجمات الجاهلية بكل معداتها المتحضرة فانه كتاب الخلود: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ ..»؟.

ذلك، و هنا حرج آخر داخل في النهي هو الحرج عما أنزل إليه إذا كان باطلا أم خليطا من الحق و الباطل، و لأنه‏ «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ» من ربك، تأكيدا جاهرا أمام العالمين لكي يعلموا على علمه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أنه كتاب لا يحرّج الدعية في الدعوة.

فعصمة الداعية إلى عصمة مادة الدعوة هما يعصمانه عن أي خطأ قصورا أو تقصيرا، ثم عصمة الداعية عن أي تقصير، على عدم عصمته عن قصور غير مقصر، تعصمه عن كثير من الأخطاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 16

فأما إذا كانت مادة الدعوة غير معصومة، أم هي معصومة و الداعية مقصر أو قاصر بتقصير، فهنا لك الطامة الكبرى، و لذلك نرى تأكيد الأمر بالشورى من الرعيل الأعلى لربانيّ الأمة: «وَ أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ» حتى يجبروا عدم العصمة للدعات غير المعصومين، و هنا «للمصيب أجران و للمخطئ أجروا حد» إذا كان خطأ قضية عدم العصمة فقط، دون الخطأ القاصر عن تقصير.

ففي مثلث الحرج لا يعنى منه حرج صدره من الوحي، بل هو حرج في الدعوة تأثيرا، و لها مادة، فإن مادة الدعوة معصومة، و الداعية في دعوته على عين اللّه و رعايته.

ثم المسؤولية في حقل الدعوة القرآنية نذارة و ذكرى، ليست- فحسب- على عواتق الدعاة، و المدعوون عليهم مسئولية الإقبال و التقبل لتكون كلمة اللّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى- إذا ف:

اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (3) هنا «كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ» أنت كداعية، بعد ما يصنعك الكتاب كأفضل صنع في محط الدعوة، و هنا «ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» كمدعوين، و نازل الكتاب بنفسه في أيّ من منازله، هو بنفسه حجة لربانيته مصدرا و صدورا، للداعية و المدعوين به، حجة بالغة بنفسه دون حاجة إلى إثباتات أخرى و تأييدات، فانه رأس زوايا الحجج الربانية على مدار الرسالات بأسرها.

فقضية إتباع اللّه- الأولى- هي إتباع ما أنزل إليكم من ربكم، توحيدا عمليا بعد العقيدي منه.

و هنا «من دونه» قد تعني مع من دون الكتاب من دون اللّه، لمكان «أولياء» فاتبعوا الرب فيما أنزله و لا تتبعوا من دون الرب ربا، و لا من دون ما أنزله نازلا، من أولياء غير اللّه و غير كتاب اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 17

إذا فاتباع من دونه بكتابه من أولياء عمليا يصطدم و عقيدة التوحيد، فإنها ليست- فقط- تصورا قاحلا عن مظاهر، إنما هي حقيقة تحلّق على كل جنبات الحياة ظاهرة و باطنة.

فولاية الطاغوت و عبادته بكتاباته لا تعني- فقط- تأليهها، بل و اتباع أحكامها مهما خيل إليه أنه موحد للّه لا يشرك به شيئا «قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ» حق الإتباع في حقله حيث يخيل إلى مجاهيل أن العقيدة الصالحة هي الكافية مهما تخلفت طقوس و أعمال عما يرسمه المعبود الحق.

ذلك‏

«ففي إتباع ما جاءكم من الله الفوز العظيم و في تركه الخطأ المبين» «1».

و هنا «اتبعوا» يحلق على كافة الاتباعات بأسرها للشرعة القرآنية، علمية و عقيدية و عملية و دعائية، قفوا على آثارها دون إبقاء و لا استثناء.

فالولاية التوحيدية للّه هي ولاية إتباعه في شرعته ككل أصولا و فروعا، دون تشطير البلد شطرين و أخذ العصا من جانبين، اكتفاء في ولاية اللّه بمتخيّل العقيدة، ثم الأعمال تابعة لسائر الأولياء «قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ»! «قليلا» تذكركم و «قليلا» الذي تذكرونه من الحق، اعتبارا بعنايتي الموصول و الموصوف في «ما» و من قلة التذكر إتباع سائر الحجج اللجج، غامرة في التيه، بعيدة عن هدي القرآن بما فيه، فكل مستند غير «ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» خارجة عما أنزل اللّه، داخلة في «من دونه من أولياء» من إجماعات و شهرات تعارض ما أنزل الله، أم داخلة فی قياسات تمثیلیة و استحسانات و استصلاحات، أمّا هو آت مما یخالف «ما أنزل الله»، كما وكل إله من دون اللّه طاغوت. فهؤلاء الذين يفتون بغير ما أنزل اللّه أم ضده هم أولياء من دون اللّه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 4 في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال قال أمير المؤمنين في خطبته: قال اللّه: «اتبعوا ..» ففي اتباع ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 18

فاتباعهم خروج عن توحيد اللّه إلى الإشراك باللّه أو الإلحاد في اللّه.

و لئن قيل: إذا فاتباع السنة فيما لا توافق القرآن و لا تخالفه، هو أيضا خروج عن التوحيد الحق؟ و لا يستغنى عن السنة فيما لا نص له من الكتاب!.

قيل: السنة القطعية هي أيضا مما أنزل اللّه مهما كان على هامش الوحي القرآني، فمما أنزل اللّه هو فرض طاعة رسول اللّه: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ..» و لا تعني طاعة الرسول بعد طاعة اللّه إلّا طاعته في سنته الجامعة غير المفرّقة، فللّه الولاية الطليقة في كل حقولها، و لكتابه و الرسول ولاية شرعية طليقة لأنهما من اللّه، ثم لا ولاية طليقة بعد اللّه و كتابه و رسوله و الرساليين المعصومين بعده.

إذا «ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» تعم إلى نازل القرآن نازل السنة القطعية، و إلا لكان صالح التعبير «اتبعوا الكتاب» فالنازل من ربكم هو واجب الإتباع من أصل الكتاب و فرع السنة، دون شتات الروايات المخالفة للقرآن، أم غير ثابتة الصدور.

ذلك، فهذا السلب‏ «وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ» بعد ذلك الإثبات‏ «اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» يحصران الإتباع المسموح في شرعة اللّه بما أنزل اللّه، المحصور في الكتاب و السنة القطعية، تمثيلا لكلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

ثم‏ «لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ»: اللّه و كتاب اللّه، «أولياء» تنفي أية ولاية ربانية عن سائر الأرباب و سائر الكتابات، فكما أنه ولي المؤمنين، كذلك- و بأمره- كتابه وليهم الوحيد بين الكتابات.

فها هي قضية دين اللّه- الأساسية- إنه إما إتباع خالص لما أنزل اللّه إسلاما- فقط- للّه، إفرادا له بالحاكمية الطليقة، و إما إتباع الأولياء من دونه إلحادا فيه، أو إشراكا به، أم جعلا للبلد شطرين: عوانا بين التوحيد و الإشراك، و هذا الثالوث خارج عن إتباع ما أنزل اللّه، داخل في إتباع من دونه من أولياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 19

و لأن المحاولة ضخمة فخمة، فقد يمضي السياق يهزّ الضمائر، و يوقظ السرائر، و يرجّ جبلّات الأجيال الشاردة عن دين اللّه، السادرة في الجاهلية رجّا عنيفا، عرضا لمصارع الغابرين من المكذبين:

و هنا

في خطبة لعلي (عليه السّلام) معتبر لمعتبر، تحذيرا عن ترك الإتباع لما أنزل اللّه: «أما بعد فإن الله لم يقصم جباري دهر قط إلا بعد تمهيل و رخاء، و لم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل و بلاء، و في دون ما استقبلتم من عتب، و ما استدبرتم من خطب معتبر، و ما كل ذي قلب بلبيب، و لا كل ذي سمع بسميع، و لا كل ذي ناظر ببصير- فيا عجبا و مالي لا أعجب من خطاء هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لا يقتصمون أثر نبي، و لا يقتدون بعمل وصي، و لا يؤمنون بغيب، و لا يعفون عن عيب، يعملون في الشبهات، و يسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، و المنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، و تعويلهم في المبهمات على آراءهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرى ثقات، و أسباب محكمات» (الخطبة 87).

و

قد قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أنا أوّل وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، و كتابه و أهل بيتي ثم أمتي، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب اللّه و بأهل بيتي‏ «1».

و الأمة الإسلامية برمتها شيعة و سنة تاركة للثقلين، فإن حديث العترة دون سناد إلى الكتاب لا ثقل له، و ذلك سند أنه غير صادر عنهم.

و

«القرآن غني لا غنى دونه و لا فقر بعده»

و

القرآن أفضل شي‏ء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

جامع أحاديث الشيعة 15: 6 عن الكافي عن الباقر (عليه السّلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 20

دون اللّه، فمن وقر القرآن فقد وقر اللّه، و من لم يوقر القرآن فقد استخف بحرمة اللّه‏ «1»

، و

«حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده» «2».

و

في كتاب للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلى بعض عماله على اليمن: «فإن هذا القرآن حبل الله المتين، فيه إقامة العدل و ينابيع العلم و ربيع القلوب» «3»

(1، 7): أجل إنه حبل بين اللّه و خلقه، متين لا ينفصم و لا يفصم، عصمة لمستعصمهم، و مسكه لمستمسكهم، و هو ينابيع العلم، الينابيع المعرفية المتفجرة، من عيونه الجارية، ريا لكل غليل، و شفاء لكل عليل، و هو ربيع القلوب الواعية الراعية، حيث تنفع بتدبر آياته، و تأمل بيناته.

«تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث و تفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، و استشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، و أحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، و الحسرة له ألزم، و هو عند الله ألوم» «4».

و

«عدد درج الجنة عدد أي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: ارقأ و اقرأ، لكل آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة» «5».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 7 عن المجمع 1: 15- أنس بن مالك عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(2) المصدر 7 جامع الأخبار عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و رواه الشيخ أبو الفتوح في تفسيره عن أبي الدرداء عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مثله.

(3) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضى 141.

و

فيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول اللّه عزّ و جلّ: يا حملة القرآن تحببوا إلى اللّه تعالى بتوقير كتابه يزدكم حبا و يحببكم إلى خلقه.

(4) المصدر (8) عن نهج البلاغة (330) في خطبة له (عليه السّلام).

(5) المصدر 16- البحار 92: 22 كتاب الإمامة و التبصرة بسند مفصل عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 21

و

«من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه» «1».

و

«تعلموا القرآن و اقرؤه و اعلموا أنه كائن لكم ذكرا و ذخرا، و كائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآن و لا يتبعنكم، فإنه من تبع القرآن تهجم به على رياض الجنة، و من تبعه القرآن زج في قفاه حتى يقذفه في جهنم» «2».

و

عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: من قرأ ثلث القرآن أوتي ثلث النبوة، و من قرأ نصف القرآن أوتي نصف النبوة، و من قرأ القرآن كله أوتي النبوة كلها ثم يقال له يوم القيامة: اقرأ و ارق، بكل آية درجة حتى يختم ما معه من القرآن، ثم يقال له: اقبض فيقبض فيقال له: هل تدري ما في يديك؟ و إذا في يده اليمنى الخلد و في الأخرى النعيم‏ «3».

و لا تعني هذه القراءة قراءة فاضية عن المعرفة و التطبيق، بل هي الفائضة بمعرفة و تطبيق، «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

و

«إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم، و إن اصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى» «4».

فالمأدبة- ضما- هي الطعام‏ «5» و هي فتحا مفعلة من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 17- مجمع البيان 1: 16 عن علي (عليه السّلام) انه قال: ...

(2) المصدر 10- ابن أبي الجمهور في در اللئالي عن أبي موسى قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم: ...

(3) تفسير الكشف و البيان للثعلبي رواه عن أبي أمامة عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

(4)

أمالي الصدوق المرتضى (1: 354) عن نافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد اللّه بن مسعود عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إن هذا القرآن ...

(5) فالمأدبة في كلام العرب هي الطعام يصنعه الرجل و يدعو الناس إليه، فشبه النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما يكسبه الإنسان من خير القرآن و نفعه و عائدته عليه إذا قرأه و درس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 22

الأدب‏ «1» فقد أنزل اللّه القرآن طعاما للأرواح، و أدبا لها ربانيا، لا طعام لها أطعم، و لا أدب لها أءدب من هذا القرآن، و التاء في الوجهين هي للمبالغة، حيث تعني بالغ الطعام و الأدب في القرآن للأرواح.

لذلك «و إن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب الله تعالى» و «أصفر» هي تفضيل الصفر و هو الخالي.

إذا فأخلى البيوت و أجوفها من الأثاث هو الجوف الأصفر من كتاب اللّه من الأساس، مهما امتلأ مما سواه من علوم هي بجنب القرآن خاطئة الحلوم.

و الهرطقة الغافلة، القائلة: إن القرآن لا يفهم إلّا بالرواية، معروضة عرض، الحائط لمخالفتها بيان القرآن التبيان، إضافة إلى كرور الآيات أنه‏ «بَيانٌ لِلنَّاسِ».

فليس باب تفهم القرآن مقفلة على الناس، و إنما هي مغفلة مغفّلة فمقفلة لمن لا يتدبرون القرآن: «أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى‏ قُلُوبٍ أَقْفالُها» (47: 24) بأغفالها و إغفالها، تحريجا على الذين يحاولون تفهم القرآن، فتخريجا له عن حوزته.

و ما بيان المعصومين (عليهم السّلام) لآيات مسئول عنها، إلّا للقاصرين عما يسألون إفهاما، أو المقصرين إفحاما، دون أهل القرآن العائشين إياه حياتهم.

و ليس تفسيرهم (عليهم السّلام) إلّا سنادا إلى لفظية الدلالات المسؤول عنها قصورا أو تقصيرا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- ما فيه، بما يناله المدعو من طعام الداعي و انتفاعه به، يقال: أدّب الرجل يأدب فهو آدب، إذا دعى الناس إلى طعامه، و يقال للمأدبة المدعاة.

(1). المأدبة من الأدب فقد أنزل اللّه القرآن تأديبا للمكلفين بآداب اللّه، و تاء المأدبة على الوجهين للمبالغة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 23

إذا فنكران أن القرآن في الأصل بيان و تبيان نكران لمعجزة الفصاحة و البلاغة القرآنية، بل و نكران لهما عاديا من الناس العاديين!.

و لا يعني الحظر عن تفسير القرآن بالرأي في «من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار» حظره عن كل مناهج التفسير، تعطيلا له عن صالح التدبر و التفكر فيه، إنما هو تفسير خاص «بالرأي» أن تعتقد في رأي أنه صالح، تقليدا أو اجتهادا، ثم تستند إلى القرآن لتثبيت رأيك، الذي يخالف نصه أو ظاهره، أم لا يوافق نصا منه أو ظاهرا، فإنهما تفسير له بالرأي.

و أما تفسيره بنفسه و بالروايات و النظرات التي توافقه، و بالفطرة السليمة و العقلية الصالحة، و الحس السليم، فكل ذلك محبور في حقل التفسير دون أي محظور.

و ما تفسير «من فسر القرآن برأيه» بتعطيل القرآن عن التفكير فيه، إلا تفسيرا لهذا الحديث نفسه بالرأي، فليتبوء مقعد مفسره هكذا من النار.

و هل يقبل أي تفسير للقرآن إلّا بالعقلية السليمة، أم هل يقبل الحديث إلا بالعقل الذي يقبله تفسيرا للقرآن؟! و ليس العقل بالفطرة السليمة إلّا ذريعة للحصول على مرادات اللّه من كلامه، دون تحميل عليه و توجيه، إلّا توجيه نفسه بصورة صالحة صادقة للكشف عن معاني القرآن بذريعة اللغة الصالحة و الأدب الأديب الأريب، و تفكير صالح في هذه السبيل.

و كما اللغة لا تحمّل على القرآن، كذلك العقل، و إنما هما كاشفان عما يراد من آيات اللّه البينات.

و كما أن خالص التوحيد هو طليق السلب: «لا إله» و من ثم صالح الإثبات هو: «إلا الله» براحلة العقل و الفطرة، كذلك خالص التفسير ليس إلّا سلب كافة التقديرات و المحتملات المسبقة، و من ثم الإثبات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 24

براحلة الفطرة و العقلية السليمتين و اللغة و الأدب السليمين، و صالح التدبر في القرآن.

هؤلاء الخارفون الهارفون يقصدون من وراء ذلك التفسير لحديث الرأي نفي روح القرآن عن أمته، و اختصاص تفسير القرآن بآرائهم، كما عملته الكنائس في القرون الوسطى فحظروا تفسير الإنجيل على الأمة المسيحية حتى يفسح لهم مجالات التحريف و التجديف في تفسيره بآرائهم و شهواتهم.

و هنا المانعون عن تفسير القرآن فريقان اثنان، فريق يمنع عنه نفيا له من أمته عن بكرته تحت نقاب تقديسه، و آخرون هم مانعون لكي يفسح لهم مجال- دون منازع- لتفسيره بآرائهم فقهيا أو فلسفيا أو علميا و ما أشبه.

و هكذا أصبحت الأمة الإسلامية بعيدة عن روح القرآن، ناحية منحى تفاسير مختلقة مختلفة بآراء خاطئة.

ذلك، و هذا القرآن مصون عن كل تحريف و تجديف بعصمة ربانية مضمونة طول الزمان و عرض المكان، فآياته ال/ 6660/ و كلماته ال/ 66600، هما نفس العدد طول التاريخ الإسلامي دون زيادة أو نقصان و ان في حرف أو نقطة أو إعراب أو مكان كلّ، و هذه الكلمات لها سير تصاعدي سنوي منذ البعثة حتى ارتحال الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ذلك السير منظم منضد نجده في تصاعد/ 500 كلمة سنويا، فمثله مثل الشمس في اشراقته التصاعدية، فقد أشرقت آياته البينات بهذه الصورة على قلوب المكلفين.

وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ‏ 4.

إن أتعس البأس هو الجائي علي غفلة آمنة «بياتا» في أمن الليل نوما أم رياحة أخرى‏ «أَوْ هُمْ قائِلُونَ» نوما نصف النهار: «أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ. أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 25

ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» (7: 98).

و «قرية»- خلاف ما يزعم- هي المجتمع، و تسمية مكان الاجتماع ب «قرية» هي من باب المجاز دون العكس، و هنا «أهلكناها» دون «أهلكناهم» لرعاية أنوثة اللفظ: «قرية» ثم‏ «أَوْ هُمْ قائِلُونَ» رعاية لذكورة المعنى، و ما أجمله جمعا بين قضية اللفظ و المعنى في عبارة واحدة، و فيه عناية المعنيّ من القرية، أنهاهم دون مكانهم، إلّا مجازيا.

إضافة إلى أن الهلاك يشملهم و أمكنهم‏ «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا ..».

و ترى كيف‏ «فَجاءَها بَأْسُنا» بعد «أهلكناها» و ليس الإهلاك إلّا بالبأس؟ علّ «فجاءها» تفريع بيان لكيفية الإهلاك، أم و تعني «أهلكناها»- مع ما عنت- قضاء الإهلاك بما افتعلوا «فَجاءَها بَأْسُنا» أم و ثالث هو أمره تعالى بهلاكهم عقيديا و عمليا إذنا تكوينيا، و عدم التوفيق لإيمانهم من باب‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»- «و قيضنا لهم قرناء فزينوا ما بين أيديهم و ما خلفهم»- و «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا».

و علّ مثلث المعنى معنيّ حيث يوافق أدب اللفظ و المعنى و اللّه أعلم بما يوعون.

فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (5).

فطالما كانوا هم في رغد العيش و الأمن لا يعترفون بظلمهم، فهم‏ «إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا» ليست لهم دعوى أمام بأس اللّه إلّا الاعتراف: «إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ» علّ اللّه يعفو أو يخفف عنهم بأسه، و لكن لا مناص عن بأس اللّه إذا جاء، فقد فات يوم خلاص فلات حين مناص، حيث الإيمان عند رؤية البأس لا يقع موقع القبول إذ لا واقع له إلّا الفرار عن بأس اللّه:

«فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 26

هُنالِكَ الْكافِرُونَ» (40: 85).

و هكذا تأخذ السنة الإلهية من الظالمين دعواهم‏ «إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ» حيث لم يكونوا ليعترفوا بظلمهم في غمرات الشهوات، و يا له من موقف مذهل مرعب مرجف حيث أقصى الدعاوي فيه هو ذلك الاعتراف بالظلم.

ذلك، و إن مصارع الغابرين المعروضة في مصارح الذكر الحكيم، إنها خير منذر و مذكر، و القرآن يستصحبها في المجالات المؤاتية لها كمؤثرات موحية و مطرقات موقظة للهائمين في ورطات الشهوات و الغفلات.

هنا معرض الهلاك في الأولى، و إذا بالسياق ينتقل و ينقل معه السامعين إلى مشهد الآخرة، شريطة موصولة المشاهد حيث تضم الآخرة إلى الأولى، متخطية طول الزمان و عرض المكان، و ملحقة عذاب الأخرى إلى الأولى، و لا ينبئك مثل خبير: تشهيرا بهم على الملإ الحاشد في ذلك اليوم المشهود الشاهد:

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6).

فالرسل و المرسل إليهم هناك مسئولون في موقف الاستجواب، و لكن الرسل يسألون سؤال تقرير و تغرير و تعزير، و المرسل إليهم يسألون سؤال تأنيب و تبكيت و تنكير، اللهم إلّا من و في لرعاية الحق منهم:

«فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ» (15: 93) و هو سؤال استفحام دون استفهام.

فقد يسأل المرسلون- من الجنة و الناس و الملائكة- ماذا أجبتم:

«يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» (5: 109) و كما يسألون عن تأدية رسالاتهم‏ «1»، و يسأل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 68- أخرج أحمد عن معاوية بن حيدة أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: إن ربي داعيّ و انه سائلي هل بلغت عبادي و إني قائل: رب إني-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 27

المرسل إليهم- و هم كافة المكلفين من الجنة و الناس و سواهما- عما أجابوا الرسل، لا جهلا عما كانوا يعملون، و إنما استحصالا لما في الصدور حتى يقروا بأنفسهم بما كانوا يعملون.

هنا سؤال المرسلين يجمع إلى تغرير لهم و تعزير تقريرا في ذلك المشهد أنهم بلّغوا رسالات ربهم دونما قصور أو تقصير، فهو لهم احترام زائد و لمن تخلفوا عنهم اخترام بائد.

ثم و في وجه شمول «المرسلين» كافة الدعاة المسؤولين، تنديد بمن قصّر منهم في بلاغ الدعوة الربانية، ثم اللّه هو الذي يقص كلما حصل:

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ (7).

قصّ رباني لأعمالهم و أحوالهم «بعلم» سابق سابغ إذ «ما كُنَّا غائِبِينَ» ف: إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (45: 29).

و ذلك القص هو مربعة الجهات و الجنبات، هي 1: قص رباني دون وسيط، 2 و بوسيط الأعضاء 3 و الأرض 4 و سائر الشهداء من النبيين و الملائكة الكرام الكاتبين، و لكي تكمل الشهادة و يغرق المشهود عليهم في غمراتها فلا يجدوا سبيلا لنكران.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بلغتهم فليبلغ الشاهد الغائب، ثم انكم تدعون مفدمة أفواهكم بالفدام إنّ أوّل ما يبين عن أحدكم لفخذه و كفه،

و

فيه أخرج البخاري و مسلم و الترمذي و ابن مردويه عن ابن عمر قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): كلكم راع و كلم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن الناس و الرجل يسأل عن أهله و المرأة تسأل عن بيت زوجها و العبد يسأل عن مال سيده‏

، و

فيه أخرج ابن حبان و أبو نعيم عن أنس أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان اللّه سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته،

و

فيه أخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أنس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته فأعدوا للمسائل جوابا قالوا:

و ما جوابها؟ قال: اعمال البر، و فيه أخرج الطبراني في الكبير عن المقدام سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة بين يديه راية يحملها و هم يتبعونه فيسأل عنهم و يسألون عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 28

و هنا «عليهم» تعم المرسل إليهم إلى المرسلين، قصا بعلم لما فعل الرسل و ما فعل المرسل إليهم، قصّ غامر هامر لا يبقي و لا يذر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها: «وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» (18: 49).

و لماذا هنا «قصّ» بديلا عن «إنباء- أو- إخبار»؟ لأن أخبار الرسل و المرسل إليهم ليست كلها تنبأ، إنما هي مواضع المسؤولية حيث تقص قصا عن كل ما حصل، و كما يقص القرآن أنباء ما قد سلف دون عرض لكل ما حصل.

و هنا موازاة بين المسؤول عنه و بين المقصوص، فكل ما يسأل عنه يقص، و كلما يقص فهو مسئول عنه، و قد يشمل السؤال و القص كافة المسؤوليات الفردية و الجماعية و كما

في حديث الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته» «1».

«الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ» يشمل كافة المكلفين، معروفين لدينا و مجهولين، من الجنة و الناس و من سواهم من المسؤولين أجمعين، كما «المرسلين» تشمل إلى رسل الإنس الرسل الملائكية و الجنية، و من ثم كل المكلفين بالدعوة الرسالية من علماء ربانيين و آمرين و ناهين، و أية داعية راعية، فقد تشملهم كلهم «المرسلين»، فلا تجد مكلفا يوم الدنيا إلّا و هو مسئول يوم الدين دون إبقاء و لا إبطاء: «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» (37: 24).

ذلك، و لأن الحشر يعم كافة ذوات الحياة و كما في آية الأنعام:

«وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ» (6: 38) فمثنى المسؤولية تشملهم يوم الدين، مهما اختلفت درجاتها.

و هنا السؤال العام لا يناحر هناك عدم السؤال: «فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ» (55: 39) حيث السلب يعني سؤال الاستفهام إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الى ص 26

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 29

«يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» ثم الإيجاب بين سؤال استجهال أو استفحام أو استعظام، تقديرا لطالح ما كان، و تقريرا لصالحه في ذلك الحشد الحشر العام.

و ليس هناك- فقط- تساؤلات، فإنما يحلقها «الوزن»، فما هو ذلك الوزن؟ هل هو وزن الأبدان و الأموال و التشخصات المدّعاة، أم و وزن الأنساب و الأسباب و سائر الروابط المتخلفة عن الضوابط؟

أمّا هيه من أوزان من موازين الأرض و مقاييس أهليها المخلدين إليها؟ كلّا!:

[سورة الأعراف (7): الآيات 9 الى 26]

وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9) وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (10) وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13)

قالَ أَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20) وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ (24) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ (25) يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 31

وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (9).

«وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ».

و هل الوزن هنا الوازن أو الميزان أو الموزون أم نفس الوزن مصدرا؟ ثم الحق هل هو المعني من «حق» أو «الحق» اللّه، أم «الحق» المعروف من اللّه على العباد؟.

هنا احتمالات بضرب مثلث الحق المحتمل على الوزن فهي اثنتا عشرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 32

و الصحيح منها أن «الوزن» هنا هو الميزان، حيث‏ «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً» (21: 47) ثم الحق أن «الحق» هنا هو الثالث من محتملاته، حيث هو «القسط» في آية الأنبياء، كما «الوزن» هنا هو الموازين هناك.

و التعبير عن الميزان بالوزن عناية إلى حق الميزان، إنه خليصه دون خليطه، فكأنه هو الوزن بعينه لا يشوبه شائب غير الوزن.

كما و أن «الحق» هو خالص الحق المرغوب غير المشوب، إذا فالحق الحقيق بالاتباع من اللّه هو الميزان.

«فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ» جمع الموزون، لا الميزان، حيث الموازين هذه توزن و تقاس بالوزن الحق القسط.

ثم الحق أن «الحق» خبر لمحذوف معروف هو «هو» و الجملة- على تنكرها أدبيا- خبر ل «الوزن» فلا تصلح «يومئذ» و ما أشبه خبرا ل «الوزن»، و لو كان «الحق» خبرا ل «الوزن» بنفسه لكان الصحيح أدبيا «حق» ثم لا يتم المعنى حيث يعني أن «الوزن حق» ثابت لا حول عنه، و أما ما هو ذلك الوزن فلا خبر عنه اللّهم إلّا «هو الحق» الخالص غير الكالس، الفالس.

و لأن الخسران في التعارف إنما هو النقص في الأثمان، و هو يخص الأموال لا النفوس، فذكر الموازين هنا بثقلها و خفتها، إنما هو بمناسبة الخسران ليكون الكلام متفقا و قصص الحال متطابقا، فكأنه تعالى جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون أنفسهم كما يوصفون بأنهم يملكون أموالهم، و ذكر خسرانهم لها لأنهم عرضوها للخسار و البوار فأوجبوا لها عذاب النار جهنم يصلونها و بئس القرا، فقد تجاوزوا حد الخسران في الأثمان إلى حد الخسران في الأعيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 33

و وجه آخر هو أن الوزن لا يختص بالأثقال الجسمانية، بل هو في الروحيات أوزن، فالخسران فيها أخسر، و الربح أمتن، فالحق- إذا- أن‏ «الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ».

و ليس «الحق» هنا هو اللّه، إذ لو كان هو الميزان للموازين لم يك وزن لأحد حتى يوزن به، إضافة إلى أن ميزانية اللّه نفسه لموازين العباد ظلم بهم عظيم، إذ لا يستطيع أحد أن يشابهه في أيّ شأن من شؤونه!.

و لا هو «حق» حيث القصد تعريف الوزن: ما هو؟ لا تثبيت أصله دون معرفة بكيانه، ثم‏ «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ» تفرعا على «الحق» لا دور له إلّا بعد معرفة الحق بكيانه، لا التأكّد منه بكونه، مع أنه حق لا فقط «يومئذ» بل في كل الأيام.

كما و ليس «الوزن» هو الوزن مصدريا حيث المصدر ليس هو «الحق» الواقع الموجود، فإنما يخبر «الحق» عن واقع و هو هنا «الميزان»، و ليس هو الموزون حيث لا يوزن الموزون بالموزون.

فصالح المعنى الوحيد إذا أن «الوزن»: الميزان- هو «الحق» المقرر من اللّه لعباده، و حيا كأصل، و رسولا كمصداق واقعي عملي للوحي، و كما تعنيه‏ «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ» فالموازين هي الوزن هنا، كما القسط هو الحق هنا، ف: «الوزن الموازين» هو «الحق القسط» فلأن الموازين- جمع الموزون- عدة، كذلك الموازين- جمع الميزان- عدة، عدة بعدة و لا يظلمون نقيرا.

و كما الحق ليس هو صاحب الصالحات الموزونة، كذلك ليس هو الوزن، فإنما هو الحق علما و عقيدة و نية و عملا صالحا و حالا و قالا «1».

و الوزن الحق هنا و هناك هو كتاب اللّه و هو رسول اللّه المتمثل في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في البحار 7: 244: «سئل رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عما يوزن يوم القيامة؟ فقال: الصحف»

أقول: و لا تعني الصحف إلا الأعمال بأوصافها حيث تقاس بالحق و القسط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 34

أقواله و أفعاله و أحواله كتاب اللّه‏ «1»، و

قد يروى عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «أنا ميزان العلم و علي كفتاه» «2»

، فقد يوزن الرسل بكتب الوحي، و توزن الأمم بهما، دونما تخلّف عن حق اللّه قيد شعرة «3».

و ليس الأعمال توزن بسائر الموازين روحية و جسمية «4» إنما هو قسطاس الحق من اللّه، فإذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في قصد معناك و غور دعواك و غيّرهما بقسطاس من اللّه عزّ و جلّ كأنك في القيامة قال اللّه تعالى: «وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» فإذا اعتدل معناك بدعواك ثبت لك الصدق‏ «5».

ذلك و «الموازين» هي جمع الميزان حقا و قسطا في آية الأنبياء: ما يوزن به، أو الموزون كما في آيتنا، و هي العلوم الربانية و العقائد و النيات و الأقوال و الأعمال الصالحة، فهي في صيغة جامعة «الحسنات» فقد يوزن بها بوزن «الحق» فيها، فكلّما كانت أقرب إلى الحق المرام فهي أثقل، و كلما كانت عنه أغرب فهي أخف و أسفل، حتى تكون خاوية عن الحق عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في المعاني باسناده عن المنقري عن هشام بن سالم قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السّلام) عن قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ ..» قال: هم الأنبياء و الأوصياء.

(2) ملحقات إحقاق الحق 9: 209 و 18: 417 و 13: 79- 80.

(3) تجد تفاصيل البحث حول الوزن و الموازين في آيات الأنبياء و المؤمنون و القارعة و الكهف، فراجع إلى مجالاتها في الفرقان.

(4)

نور الثقلين 2: 5 في كتاب الإحتجاج للطبرسي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) حديث طويل و فيه: قال السائل: أو ليس توزن الأعمال؟ قال (عليه السّلام): لا- لأن الأعمال ليست بأجسام و إنما هي صفة ما عملوا، و إنما يحتاج إلى وزن الشي‏ء من جهل عدد الأشياء و لا يعرف ثقلها و خفتها و إن اللّه لا يخفى عليه شي‏ء، قال: فما معنى الميزان؟ قال: العدل، قال: فما معناه في كتابه‏ «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ»؟ قال: فمن رجح عمله.

(5)

مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السّلام) في كلام طويل: فإذا أردت،

و

في الخصال عن محمد بن موسى قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السّلام) يقول: إن الخير ثقل على أهل الدنيا على قدر ثقله في موازينهم يوم القيامة و ان الشر خف على أهل الدنيا على قدر خفته في موازينهم يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 35

بكرته فهنالك خفة الموازين عن بكرتها، و بينهما عوان كما و لكل ميزان درجات، و هذه الآية و أضرابها تتحدث عمن محّض الإيمان محصنا أو محّض الكفر محضا، ثم العوان بينهما عوان في الإفلاح و الإفلاج‏ «1».

و أثقل الثقل في الميزان هو التوحيد الحق و حق التوحيد «2»، كما أن أسفل السفل هو الإشراك باللّه.

و لأن الموازين: الحسنات، تعم الظاهر إلى الباطن و الباطن إلى الظاهر، فثقلها يعمهما:

«فمن كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه يوم القيامة، و من كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة» «3»

و القصد من الرجحان الثاني ما يترك به الرئاء، و إلّا فالسماوات بين الظاهر و الباطن هي القصد و العدل.

ذلك، و

في مختلف الموازين بين أصحابها يقول الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «يوزن يوم القيامة مداد العلماء و دماء الشهداء فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء» «4»

و لأن مدادهم هو الذي يمد المناضلين إلى خطوط النار بما وعوا منهم من آماد الإيمان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور: 71- أخرج أبو الشيخ عن جابر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «يوضع الميزان يوم القيامة فيوزن الحسنات و السيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة و من رجحت سيئاته على حسناته دخل النار»

أقول: قد ينافيه‏ «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» و ان الحسنات هي ثقل الميزان و السيئات هي خفتها، اللهم بتأويل أن الجامع بين الحسنات و السيئات له الموازنة بينهما دون أن يعني وزن السيئات.

(2)

المصدر أخرج الطبراني عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): و الذي نفسي بيده لو جي‏ء بالسماوات و الأرض و من فيهن و ما بينهن و ما تحتهن فوضعن في كفه الميزان و وضعت شهادة أن لا إله إلا اللّه في الكفة الأخرى لرجحت بهن.

(3) الدر المنثور 3: 71- أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن علي بن أبي طالب (عليه السّلام): ...

(4) المصدر أخرج المرهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 36

فالعلماء هنا هم الربانيون بما استحفظوا من كتاب اللّه، الذين تمتد علومهم إلى صحائف الصدور و سواها، و من حصائلها في ذلك المد المديد معرفة غالية عالية للممدود إليهم الذين يضحّون بأنفسهم في سبيل اللّه، إذا فمداد العلماء هو حقا أفضل و أوزن من دماء الشهداء، فأما إذا اجتمع العلم و الشهادة فنور على نور، ثم العلم غير الممدود و الشهادة الخالية عن شروطها المعرفية و الشرعية، أو الجهل و عدم الشهادة، فهي أضلاع أخرى بعد صالح العلم و الشهادة ليست بذلك النمط المرموق.

و لأن‏ «الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ» «و نصنع الموازين القسط» إذا فلا وزن للباطل، و إنما يقام الوزن للحسنات، ثم لا وزن للسيئات فإنها خفة الميزان‏ «1»: «وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» و منهم الأخسرون أعمالا: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (18: 105).

ثم لكل ميزان وزن يخصه، فميزان التوحيد هو التوحيد الحق، و ميزان الصلاة هي الصلاة الحقة، و هكذا كل ميزان بوزنه و كل وزن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في التوحيد باسناده عن أبي معمر السعداني عن أمير المؤمنين (عليه السّلام) في حديث قال: و أما قوله‏ «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ‏ و خَفَّتْ مَوازِينُهُ» فإنما يعني: الحسنات توزن الحسنات و السيئات، فالحسنات ثقل الميزان و السيئات خفة الميزان.

و

في الكافي باسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين (عليهما السّلام) فيما كان يعظ به قال: ثم رجع القول من اللّه في الكتاب على أهل المعاصي و الذنوب فقال عزّ و جلّ: «وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ» فان قلتم أيها الناس إن اللّه عزّ و جلّ إنما عنى بها أهل الشرك فكيف ذلك؟ و هو يقول: «وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَ كَفى‏ بِنا حاسِبِينَ» فاعلموا عباد اللّه أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين و لا تنشر لهم الدواوين و إنما يحشرون إلى جهنم زمرا و إنما نصب الموازين و نشر الدواوين لأهل الإسلام- الخبر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 37

بميزانه، و يجمع الكل «الحق- و- القسط».

«فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ» المؤاتية للحق و القسط «فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» في الآخرة كما أفلحوا في الأولى، حيث يفلحون عقبات و عقوبات و صعوبات في الأخرى بثقل موازينهم التي هي أثقل من كل ثقل، فلا تبقى عقبة إلّا و هم يجتازونها، فقد ربحوا أنفسهم دون خسران.

«وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ» و هي كل موازينه، إذ لا موازين له حسنات‏ «فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» بكل موازينها «بِما كانُوا بِآياتِنا» آفاقية و أنفسية «يظلمون»: «وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ» (23: 103).

و لأن الخسران في التعارف المتعوّد هو النقص في أثمان المبيعات و ليست منها النفوس، فالإتيان به لها قد يعني مناسبة «الموازين» في عرصات الحساب ليكون الكلام متفقا، و قصص الحال متطابقا، فكأنه تعالى جعل نفوسهم لهم بمنزلة العروض المملوكة، إذ كانوا يوصفون بأنهم يملكون نفوسهم كما يملكون أموالهم، و قد عرضوا أنفسهم بكل نفائسهم للخسار، و أوجبوا لها البوار و عذاب النار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»، فصارت في حكم العروض المتلفة، و تجاوزوا حد الخسران في الأثمان إلى حد الخسران في الأعيان.

و بتعبير أعمق هو أليق بحق الكلام للّه الملك العلام نقول: كل إنسان يملك نفسه بما ملّكه اللّه إياه، و على ضوءه يملك ما سواها، ثم جعل في مختبر الحياة الدنيا و متجرها لكي يتاجر بكل ما لديه من نفس و نفيس ليحصل على ما هو أنفس من النفس و النفيس، بثقل الموازين بعد خفتها، و لكنه باع نفسه بالأركس الأدنى و بقي صفر اليد عن كل نفسه و نفيسه، خفيفا عن كافة الموازين المعطاة و المكتسبة، فقد خلق في أحسن تقويم، و قرر له حسب مستواه أن يضيف تقويم كيانه إلى تقويم كونه، و لكنه رد نفسه إلى أسفل سائلين‏ «فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 38

كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ»- «.. فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ» و ذلك من أخسر الخسران: «قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» (39: 15).

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ‏.

«أنفسهم» هنا هي حق «أنفسهم» و هي فطرهم، و عقولهم التي عليها أن تتبنى فطرهم، و حواسهم التي هي بطبيعة الحال تتبع عقولهم و فطرهم.

فالخاسر نفسه هو الذي ضل عنها متغافلا متجاهلا، فهو- إذا- خاسر ربه، فإن‏

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»

و خاسر- كذلك- حياته الإنسانية التي خلق لأجلها، فقد وجد نفسه حيوانا سرشا حرصا على الحيونات و الشهوات، فهو منغمس فيها، تارك ما تعنيه الفطرة و العقلية السليمة من عنايات إنسانية على ضوء عنايات ربانية.

أجل فالخاسر نفسه خاسر كل موازين الإنسانية عن بكرتها، و الواجد نفسه واجد لموازينها في مجالتها الواسعة الفاسحة، فاحصة عما يجعلها و زينة متينة، فخسران النفس هو أساس كل خسران و وجدانها هو أساس كل وجدان.

ذلك، فلنجدّ المسير إلى مصير الحق ليكون لنا وزنا و إني أحذركم و نفسي هذه المنزلة، فلينتفع امرء بنفسه، فإنما البصير من سمع فتفكر، و نظر فأبصر، و انتفع بالعبر، ثم سلك جددا واضحا يتجنب فيه الصرعة في المهاوي، و الضلال في المغاوي، و لا يعين على نفسه الغواة بتعسّف في حق، أو تحريف في نطق، أو تخوف من صدق- فأفق أيها السامع من سكرتك، و استيقظ من غفلتك، و اختصر من عجلتك، و أنعم الفكر فيما جاءك على لسان النبي الأمي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مما لا بد منه، و لا محيص عنه، و خالف من خالف ذلك إلى غيره، و دعه و ما رضي لنفسه، وضع فخرك، و احطط كبرك، و اذكر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 39

قبرك، فإن عليه ممرّك، و كما تدين تدان، و كما تزرع تحصد، و ما قدمت اليوم يقدم عليك غدا، فامهد لقدمك، و قدّم ليومك، فالحذر الحذر أيها المستمع، و الجدّ الجدّ أيها الغافل‏ «وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»- إن من عزائم اللّه في الذكر الحكيم التي عليها يثب و يعاقب، و لها يرضى و يسخط، أنه لا ينفع عبدا- و إن أجهد نفسه و أخلص فعله- أن تخرج من الدنيا لاقيا ربه بخصلة من هذه الخصال لم يتب منها:

أن يشرك باللّه فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يغرّ بأمر فعلة غيره، أو يستنجح حاجة بإظهار بدعة في دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين، أعقل ذلك فإن المثل دليل على شبهه .. (الخطبة 152).

فيا

«عباد الله! زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا، و حاسبوها من قبل أن تحاسبوا، و تنفسوا قبل ضيق الخناق، و انقادوا قبل عنف السياق، و اعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ و زاجر لم يكن له عن غيرها زاجر و لا واعظ» (الخطبة 89).

و هنا عرض للرحلة الإنسانية الكبرى منذ البداية حتى النهاية، مزودة برحمات ربانية مفاضة عليها، دون اختصاص بأمم دون أخرى، فإنما الإنسانية ككل هي المخاطبة بهذه الخطابات المنونة الحنونة، المندّدة بها لتخلفها عما فرض اللّه لصالحها:

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (10).

.. إنها مقرة صالحة لهذا الجنس البشري بكل ما يصلحه و يصلح له من الحيوية الروحية و سواها إسكانا و تمكينا مكينا متينا أمينا في ذلك المهد المهيد غير الوهيد، بمعايش كأصلح ما يكون، و لكن‏ «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» ربكم بذلك الإسكان و التمكين و تلكم المعايش، حيث التمكين يعني إلى الإسكان- مكانا- مكانة الإقدار و التسليط، بل هو أمكن من الإسكان، فكما «لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (2: 36) كذلك‏ «هُوَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 40

الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (2: 29).

و قد يعني‏ «مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ» إلى هذه الأرض و سائر الأرضين السبع، أرض الجنة التي أسكن فيها آدم و زوجه، و «كم» اعتبارا بأنهما الأصل الأول، الحامل لكل الأنسال الإنسانية، و سائر سكنة سائر الأرضين المكلفين كما لمحت لهم آية الطلاق‏ «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ».

«قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» في الدور الأول لآدم الأول، ثم‏ «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» لما بعد من أدوار الأنسال في هذه الأرض البلية الاختبار بالاختيار، كما و «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» لسائر المكلفين الساكنين في سائر الأرضين.

فليس ذلك التمكين- فقط- تمكين المكان، بل و المكانة الحيوية المعاشة بتمكين كل الموافقات التي تسمح بحياة الإنسان عليها، تمكينات متصلة فيها بما أودع اللّه لها من موافقات و خصائص، و أخرى منفصلة بفصائل خاصة قاصدة بينها و بين الشمس و القمر و سائر الأنجم، و دورتها حول الشمس كدوران الشمس، و ميلها على محورها، و سرعة خاصة لهما في ذلك التداور، و إلى كافة التمكينات في كرتنا الأرضية التي إن تعدوها لا تحصوها «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ»! لقد مكن اللّه أبوينا الأولين في الأرض، ثم مكّن و يمكّن نطفنا في قرار الرحم المكين: «أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ» (81: 20) ثم التمكين العام رحمانيا لكل الأجنة في قرار الأرض، ثم تمكينات خاصة رحيميا لعباد بدرجاته على درجاتهم؛ «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (28: 57) و إلى تمكين و مكانة عامة: «وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ» (24:) 55).

و هنا تصورات سخيفة تصوّر الكون عدوا للكائن الإنساني، و تصوّر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 41

كل تعرّف للكون و انتفاع منه تسخيرا له في صراع بينه و بين الإنسان؟

و لكنه صراع بين الإنسان و نفسه، أو سعي في سبيل الانتفاع مما سخر اللّه له، و أما الكون نفسه ف: «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ» (67: 3).

فلو كانت النواميس الكونية معاكسة للإنسان فيما يمكّنه، و دون إرادة مدبرة له كما يزعمون، ما نشأ هذا الإنسان في الأصل، و لما استطاع أن يمضي قدما في حياة، لو أنه وجد دون تلك الإرادة الربانية، أم أوجد دون حكمة عالية، و لكنه بما أعد اللّه و مكنّه في الأرض يتعامل مع الكون تعاملا عاقلا عادلا و يشكر اللّه على ما منحه و مكّنه و لكن‏ «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ».

و من هذه القلة القليلة العليلة غير الشاكرة مأساة الوجودية الكبرى في هذه التصورة الجاهلة البائسة اليائسة، أن الكون بكل ثقله الساحق يسعى إلى سحق هذا الكائن الإنساني و محقه.

ذلك التصور الخائن الخاطئ عن هذا الكون المكين المتين تجاه الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، الذي ينشئ- فيما ينشئ- حالة من الانزواء و الالتواء و العدمية و الانكماش، أو حالة فردية تمردية تنمردية مستهترة، نشرا في التيه بما فيه من الهلكة و الانهيار!.

كلّا! إن الإنسان هو ابن هذه الأرض المستعمر هو فيها ف: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ» (11: 61) و «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (2:) 29).

فالأرض بنفسها موطئة مؤاتية مطيعة لاستعمارها العادل، و لكن المستعمرين الظالمين في صراع الاستعمار الغاشم هم الذين يخلقون جو الصراع و الظلم و الضيم في تطاولاتهم على الأرض و أهليها، «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» تصورا عن الحياة، و تعاملا مع أرض الحياة و عرضها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 42

بعرضها، و تعاملا مع أحياء الأرض و إحياءها، و مواجهة لخالق الأرض و من عليها.

ذلك، و من الذكريات المخجلة ل «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» بداية العصيان من أبوينا الأولين الذين مكّنهما جنته، و اسجد له ملائكته ثم نهاهما عن الشجرة فعصياه بإغواء الشيطان:

وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11).

من الأكيد أن‏ «قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» كان قبل «خلقناكم ..» كمجموعة، فكيف تأخر هنا في هذا العرض العريض؟.

أ فكان عرضا مشوشا خلاف واقع الترتيب؟ و هو مشوش من التأويل يمس من كرامة القرآن الرتيب الأديب فوق القمم كلها في الأدب الأريب!.

قد تعني «خلقناكم» بما خلق أبوينا الأولين حيث كنا ذرا هناك، و كما «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (36: 41) بوجه الذرية الصحيح أنها هناك من إضافة الشي‏ء إلى نفسه باعتبارين:

حملناهم و هم ذرية في أصلاب و أرحام الآباء و الأمهات المحمّلين في الفلك المشحون، و كما تشهد له: «و أنا لم طغى الماء حملناكم في الجارية» (69: 11).

فهنا «خلقناكم» بما خلقنا في صلب آدم و ترائب زوجه «ثم صورناكم» تصويرا بدائيا إنسانيا هو الصورة الأولى الإنسانية، ثم:

«النطفة» و ما أشبه من سابقتها.

و علّ القصد من جمعية الخلق و التصوير هنا هو التلميح بأن سجود الملائكة لآدم بمعناه الصالح لم يكن- فقط- حرمة لشخصه الشخيص، و من ذريته من هم أعلى منه محتدا و أهليه لذلك الاحترام، كالمعصومين المحمديين (عليهم السلام) الذين لم يكونوا يتركون الأولى بجنب اللّه فضلا عن عصيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 43

ذلك، و بوجه آخر ضمنه يلمح بالترتيب الثلاثي خلقا و تصويرا و من ثم حرمة السجدة الملائكية لهذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم، و القصد هنا إلى الصورة الإنسانية الكاملة الواصلة إلى أحسن تقويم كيانا على ضوء شرعة اللّه بعد ما هو أحسن تقويم كونا بفضل خلق اللّه إياه.

فالكيان الإنساني المتكامل على ضوء الفطرة و العقلية السليمة و الوحي، هو الكيان المسجود له بملائكة اللّه، و لا تعني‏ «اسْجُدُوا لِآدَمَ»- كما فصلناه في آيات البقرة- إلّا سجدة الشكر للّه بما خلق آدم معلما لهم و مربيا، و ليست سجدة الحرمة لآدم نفسه، فضلا عن سجدة العبودية، حيث التسوية باللّه محرمة في شرعة اللّه: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98).

و قد يتأيد كون المسجود له احتراما هو الإنسانية دون شخص خاص هو الأول، أن إبليس يهددهم أجمع بعد ما دحر بتخلفه عن السجود لآدم:

«لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62) «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (15: 39) و هنا «فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ..»، و لولا أن السجود كان لهم أجمعين بصورة إنسانية كاملة، لما هددهم بما هددهم أجمعين.

و كما أن خلق آدم كان خلقا لنا أجمعين، كذلك السجود له هو سجود لنا أجمعين، اللّهم من رد إلى أسفل سافلين، فانما هو سجود الاحترام بساحة الإنسانية الكبرى، و لا سيما أهل بيت الرسالة المحمدية كما

يقول الإمام علي (عليه السّلام): «و أودعنا في صلبه و أمر الملائكة بالسجود له لكوننا في صلبه» «1».

و لقد جاءت قصة آدم و إبليس بحذافيرها جملة أو تفصيلا في سبعة مواطن: هنا و في البقرة و الحجر و بني إسرائيل و الكهف و طه و ص، و القول الفصل حولها آت و قد مضى في البقرة فلا نعيد هنا، اللّهم إلّا ميّزات تختص بها هذه الآيات:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات إحقاق الحق 5: 92.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 44

قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12).

«ما منعك» تلمح بأن طبيعة الحال و قضية المجال كانت السجدة دونما فتور، حيث الآمر هو اللّه المولى و المأمورون هم ذلك الحشد العظيم بمن فيهم إبليس، المولّى عليهم ربهم.

فلا بد- إذا- من مانع هو أقوى من دافع، كما هو قضية الحال في كل عصيان.

«قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» فكيف يسجد «خير منه» لمن هو أدنى؟ إذ «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»! و النار خير من الطين في كافة الفاعليات مهما كان الطين- علّه- خيرا منها في قابليات، و لكنها أيضا على ضوء فاعليات النار حيث تفعل آثارها فيه فتنبت منه نباتا و حيوانا و إنسانا.

ذلك و لكنه أخطأ في بعدين بعيدين، ثانيهما أنه رد على اللّه بذلك البرهان! و كأنه غافل عما خلق أو جاهل به، أم هو ظالم في تقديم المفضول على الفاضل، و كل ذلك إلحاد بل هو أنحس من الإلحاد في اللّه و الإشراك باللّه، و لذلك استحق الدحر أبد الآبدين، كما و أنه أخطأ في أصل البرهان‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و تقريرا لقياس إبليس يقال: إن النار مشرق علوي لطيف خفيف حار يابس مجاور لجواهر السماوات ملاصق لها، و الطين مظلم سفلي كثيف ثقيل بارد يابس بعيد عن مجاورة السماوات- و النار قوية التأثير و الفعل، و الأرض ليس لها إلّا القبول و الانفعال و الفعل أشرف من الانفعال- و النار مناسبة للحرارة الغريزية و هي مادة الحياة، و أما الأرضية و البرد و اليبس فهي تناسب الموت و الحياة أشرف من الموت- و نضج الثمار متعلق بالحرارة و سن النمو من النبات لما كان وقت كمال الحرارة كان غاية كمال الحيوان حاصلا في هذين الوقتين، و أما وقت الشيخوخة فهو وقت البرد و اليبس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 45

حيث نظر إلى فعليته النارية و لم ينظر إلى نورانية ذلك التراب فعلية و قابلية. «و لو قاس نورية آدم بنورية النار عرف فصل ما بين النورين و صفا أحدهما على الآخر» «1»، و حتى لو كان هو خيرا منه، فخير منهما و من كل خير هو إتباع أمر اللّه، و كما أمرنا بالسجود نحو الكعبة و لا ريب أن من الساجدين من هم أفضل من الكعبة المباركة.

فقد خلقنا بما خلق آدم من تراب هيكلا ترابيا إنسانيا، ثم صوّرنا بما صور آدم بالصورة الإنسانية جسمانيا، ثم بما صوره بالصورة نفسيا.

فلنا خلق و تصوير إجماليان هما في خلق آدم و تصويره، ثم خلق و تصوير تفصيليان هما في خلقنا أنسالا متتابعة، و القصد هنا من‏ «خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ» هو الأولان، لمكان‏ «ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ..» إذ لم يأت ذلك الأمر إلّا بعد خلق آدم و قبل خلقنا تفصيليا، و قد يعنيهما «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..» (23: 67).

فطليق التسليم لرب العالمين لا يعرف حكمة و برهنة حاضرة معروفة، حيث الفرض تخطئة كافة الحكم و العلل المناحرة لأمر اللّه و نهيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المناسب للأرضية، لا جرم كان هذا الوقت أردأ أوقات عمر الإنسان.

هذه أركان قياس إبليس المرتكنة كلها على الظاهر الحاضر، و لكنه غفل عن واقع هذا الكائن الطيني انه أشرف من الملائكة فضلا عن الجن.

(1).

نور الثقلين 2: 6 في العلل‏ دخل أبو حنيفة على أبي عبد اللّه (عليه السّلام) فقال له يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس؟ قال: نعم أنا أقيس، قال: لا تقس فإن أول من قاس إبليس حين قال: «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فقاس ما بين النار و الطين ...،

و

فيه أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: إن إبليس قاس نفسه بآدم فقال‏ «خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فلو قاس الجوهر الذي خلق منه آدم بالنار كان ذلك أكثر نورا و ضياء من النار.

و

في الدر المنثور 3: 72- أخرج أبو نعيم في الحلية و الديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده (عليهم السّلام) أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: أوّل من قاس أمر الدين برأيه إبليس .. قال جعفر فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه اللّه تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه أتبعه بالقياس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 46

إذ نجهل كثيرا و هو يعلمه، و خير برهان للحق هو أمر اللّه و نهيه.

و شر عصبية هي التي لا تعني أصلا مهما كان باطلا يعرف له هذا السبب:

انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمه نواجم الفخر، و قدع طوالع الكبر، و لقد نظرت فاوجدت أحدا من العالمين يتعصب لشي‏ء من الأشياء إلّا عن علّة تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب و لا علة، أما إبليس فتعصب على آدم لأصله، و طعن عليه في خلقته فقال: أنا ناري و أنت طيني- و أما الأغنياء من مترفه الأمم، فتعصبوا لآثار مواقع النعم فقالوا:

«نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» فإن كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، و محامد الأفعال، و محاسن الأمور التي تفاضلت فها المجداء و النجداء، من بيوتات العرب، و يعاسيب القبائل، بالأخلاق الرغيبة، و الأحلام العظيمة، و الأخطار الجلية، و الآثار المحمودة، فتعصبوا لخلال الحمد .. (الخطبة: 190).

هنا «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ» و في «ص»: «ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ» (75) و لم يكن التنديد إلّا بواحدة منهما فكيف التوفيق؟ إضافة إلى أنه لم يمنعه شي‏ء عن عدم السجود حيث المنع عن عدمه واقع لمكان واقعه و هو تاركه!.

«ما منعك» تعني مانع السجود، ف «أن تسجد» هو الممنوع هنا:

عن أن تسجد، و «ألا تسجد» هي نتيجة المنع عنه دون «عن» فان «أن» هنا مفسّرة و هناك مصدرية، فهما- إذا- عبارتان عن معنى واحد إيا كانت العبارة عنه.

ف «ما منعك» هنا يعني عن السجود، ثم «ألا تسجد» بيان لنتيجة المنع عن السجود ف «ما منعك عن السجود ألا تسجد».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 47

و من الضوابط المستفادة هنا أن الأمر يفيد الوجوب فورا، فلولا الوجوب هنا لما صح تنديد، و لولا الفور فلما ذا فور التنديد، فهذه طبيعة حال أمر المولى أنه يفيد فور الوجوب، اللّهم إلّا أن تدل قرينة قاطعة على خلافه.

ثم و في نظرة واقعية إلى طبيعة الأمر و النهي- بعد الدلالة القرآنية- نجد الإيجاب الطليق و المنع الطليق، اللّهم إلّا بقرينة قاطعة تقطع طبيعة الدلالة إلى سواها.

ثم «إذ أمرتك» تصريحة قاطعة أنه كان تحت الأمر بصورة خاصة مع عموم الملائكة، فلا يرد أنه‏ «كانَ مِنَ الْجِنِّ» فلا يشمله أمر الملائكة، أو أنه أمر مرتين ثانيتهما في جمع الملائكة اعتبارا بانه كان محسوبا منهم لمشاركته إياهم في مظاهر الأعمال الصالحة في الملإ الأعلى.

فلقد ورطه الاستكبار إلى سحيق العذاب و محيق المآب، فهذا إبليس‏

«اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، و تعصب عليه لأصله، فعدو الله إمام المتعصبين، و سلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية، و نازع الله رداء الجبرية، و ادرع لباس التعزر، و خلع قناع التذلل، ألا ترون كيف صغره الله بتكبره، و وضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحورا، و أعد له في الآخرة سعيرا» «1».

و

إن أول معصية ظهرت الأنانية من إبليس اللعين حين أمر اللّه تعالى ذكره ملائكته بالسجود لآدم و أبى اللعين أن يسجد، فقال اللّه عزّ و جلّ: «ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فطرده اللّه عزّ و جلّ عن جوار رحمته و لعنه و سماه رجيما و أقسم بعزته لا يقيس أحد في دينه إلا قرنه مع عدوه إبليس في أسفل درك من النار «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 190/ 1/ 356، و في نور الثقلين 2: 6 في علل الشرائع عن جعفر بن محمد (عليهما السلام).

(2) نور الثقلين 2: 6 في علل الشرائع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 48

ذلك، و من الإبلاس التأويلات القليلة لأحكام اللّه حسب الأهواء، كهؤلاء الذين يؤولون أوامر أو نواهي لا يرون تأكيداتها إلى أخلاقيات، و كأنها كلها من راجحات دون واجبات، فمن واجبات أخلاقية تحقيق الواجبات و من محرماتها اقتراف محرمات، و حتى لو انحصرت الأخلاقيات في غير الملزمات سلبية أو إيجابية، لم يبرر حمل أوامر و نواهي- دون برهان- على هذه الراجحات!.

ذلك فلما هبط إبليس بما عصى و استكبر أهبطه اللّه من دار كرامته إلى دار البلية ف:

قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13).

«فَاهْبِطْ مِنْها» بما هبطت فأحبطت ما قدّمت‏ «فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها»: الجنة، و هي دار الكرامة للمكرمين الصالحين «فاخرج» مع الأبد «إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» المخرجين الهابطين الخابطين الذي يستكبرون عليّ إلى يوم الدين. و «الصاغر» هو الدني‏ء الرذيل.

ك «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ» (9: 29) و العالون يقابلونهم: «أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ» فقد استكبر صاغرا و لم يكن من العالين المكرمين، أم و من العالين على آدم و لم يكن.

«فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل و جهده الجهيد، و كان قد عبد الله ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته، كلا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إن حكمه في أهل السماء و أهل الأرض لواحد، و ما بين الله و بين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 190/ 1/ 358، أقول «ملكا» فيها لإبليس ليس باعتبار جنسه و أصله، إنما هو باعتبار محتده الملائكي في عباده و كما أدخله اللّه فيهم فيما أمر إذ قلنا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 49

و ترى «فيها» تختص حرمة الاستكبار على اللّه بالجنة؟ فلا تحرم في غيرها! إنها تحرمه إلى المكانة مكانا في الجنة، أن المحرم ليس ليؤتى به في ذلك المكان مهما كان محظورا ككل، فإن للمكان دخلا في غلظ التحريم.

ثم ترى ذلك الهبوط هو من جزاء ذلك العصيان؟ فكيف أهبط معه آدم و زوجه و قد تابا! إنه من جزاء العصيان مهما كان آكد جزاء لمن لم يتب، أم إنه طبيعة الحال لمن عصى تاب أم لم يتب، قضية مكانة خاصة لهذه الجنة، و التائبون داخلون جنتي البرزخية و الأخرى قضية الامتحان هنا، و النجاح فيه هناك.

قالَ أَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15).

لقد تطلّب إنظاره‏ «إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» لمواصلة إضلاله، فأنظره اللّه، لا إكراما له و إجابة لدعائه، و إنما إملاء له بمتين كيده، و إملاء لعباده في دار الإختيار الاختبار.

و تراه أنظر إلى ما نظر و استنظر؟ قد تلمح لعنته إلى يوم الدين إلى تحقق ما نظر، و هو المعني- إذا- من يوم الوقت المعلوم: «قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى‏ يَوْمِ الدِّينِ. قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» (15: 38) فلعنته إلى يوم الدين قبل استنظاره إليه دليل إنظاره قبله، فإن مديد اللعنة هو قضية مديد الإنظار على سواء، و حديث إنظاره إلى يوم المهدي (ع)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- للملائكة و لكنه‏ «كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ».

و

فيه‏ «و لو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضيائه، و يبهر العقول روائه و طيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل، و لو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، و لخفت البلوى فيه على الملائكة، و لكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزا بالاختبار لهم، و نفيا للاستكبار عنهم، و إبعادا للخيلاء منهم- فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل و جهده الجهيد، و كان قد عبد الله ستة آلاف سنة ..» (الخطبة 190// 356).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 50

مأوّل بختام ثورته و فورته، قضية حق الدولة و دولة الحق التي لا تفسح له مجالا كما كان، حيث يضعف ساعده و يقل مساعده.

لكن هنا «يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» لا يعني‏ «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» استثناء له عن الموت في قيامة الإماتة، إنما هو إنظار إلى هذه القيامة الأولى حيث يموت مع كل من يموت، ثم يبعث مع سائر المبعوثين، فلم ترد إجابته في إنظاره إلى‏ «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» إنما هو «إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» و هو قيامة التدمير قبل قيامة التعمير «1» كما و لعنته إلى يوم الدين تعني حتى قيامة الإماتة، أم مع قيامة الإحياء حتى الأبد، اللهم إلا في حالة الصقعة حيث لا يشعر فيها لعنة.

ثم في تبديل‏ «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» ب «يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» و أنه ليس ممن شاء اللّه من المعنيين ب «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ». (39: 68) تلميحة أخرى باهرة أنه لم ينظر إلى يوم الدين الإحياء، بل هو إلى آخر زمن التكليف، و لأن الإنظار إلى يوم الإحياء احترام كما لمن شاء اللّه حيث يبعث حيا، و هو إلى يوم قيامة الإماتة بلاء و اخترام، ثم الغاية من ذلك الإنظار هو تداوم الإضلال و لا مورد له بين الصقعتين، فإن من دون المعصومين الأكارم مصقعون، و هؤلاء المخلصون ليس له عليهم من سلطان، فما هي الجدوى لإنظاره- إذا- إلى يوم الدين؟ إلا حياء.

ثم «المنظرين» قد تعم- إلى الإنظار المتصل للشيطان حيث يستمر حيا- الإنظار المتسلل في حلقات متتالية لسائر شياطين الجن و الإنس، كلما مات منهم شيطان أو شياطين ناب عنه شيطان أو شياطين، أم هو إنظار جماعي لكل شياطين الجن أو بعضهم و هم حملة مشاكل الشيطنة، حيث الإنظار المتسلل ينعم شياطين الإنس، و القصد من «انظرني» و «مِنَ الْمُنْظَرِينَ» هو الإنظار المتسلسل، دون المتسلل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لواسع الاطلاع على ذلك الإنظار راجع تفسير آية الحجر ج 14 ص 180 من الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 51

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (17).

لقد نلد اللعين حينما نفد جوار الرحمة، و دخل بوار الزحمة، فنسب غوايته إلى اللّه، أم قد يعني من هذه النسبة أنه تعالى ابتلاه بما أغواه و أهواه، و هو معترض على اللّه بما ابتلاه!.

«قالَ‏ ... لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» كحارس على مدخل الصراط، حارص على الإغواء عن الصراط، حارث للغواة إلى حزبه، و هذه الحراسة لعنة و رحمة، لعنة كما يعنيه إبليس و يحققه من إضلال المتطرقين للصراط المستقيم، و رحمة لا يعنيها و هي إخلاص الوافدين إلى اللّه، أن يغدوا إليه بمطاردة اللعين، و كافة الأهواء الحاجبة بينهم و بين اللّه، إذا

«فأعطاه النظرة استحقاقا للسخطة، و استتماما للبلية، و إنجازا للعدة فقال: فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلى‏ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» «1».

و قد تلمح «لهم» لما لم يقصده من الرحمة، و لما قصده من الزحمة إظهارا لها بمظهر الرحمة، حيث يزيّن لهم موقفه من «الصراط المستقيم» فإنه يزين لهم الباطل حتى يروه حقا، و كما وعد: «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» (15: 29) و كأن اللّعين يعني بمكره هذا و إغواءه عذرا جزاء إغواءه من اللّه، رغم أن إغواءه عدل و إغواء الشيطان ظلم.

و على أية حال فقد كان قعوده على الصراط المستقيم لهم في ظاهر التصميم قصدا حيث يتظاهر به، ثم هو في الصميم دون قصد، و هو يخفي عنهم أنه قاعد الصراط المستقيم عليهم، فلذلك قال «لهم» دون «عليهم».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة من الخطبة القاصعة للإمام أمير المؤمنين علي (عليه السّلام) و قد أوردناها بتفسيرها في ج 14 ص 172 من الفرقان فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 52

و من أخطر ما يقعد لنا الصراط المستقيم ما يخيل إلينا في الصلاة من وجدان ما نفقده حالتها، حيث يزين لنا التفكر فيها لما هو خارج عنها حتى نحصل على بغية لنا عزيزة فنحظو به زاعمين أن الصلاة هي مجالة صالحة للحصول على ضالاتنا المنشودة، و كيف نعمل حتى نحصل على هذه الضالات؟ إنه يخليّ بيننا و بينها فترة مترقبة، فيزول حجابه من هذا البين، فيتبين لنا ما خفي عنا بحجابه هو، فإننا نطّلع على كثير من الحقائق لو لا الحجب بيننا و بينها، و من أهمها حجاب الشيطان نفسه، فبزواله و مزاولة التفكير نحصل على البعض من الحقائق المحجوبة، فيخيّل إلينا أنّ الصلاة هي من أفضل المسارح للحصول على ضالاتنا المنشودة التي لا نحصل عليها في غيرها.

ثم و «أغويتني» ليست لتعني الإغواء البدائي دونما استحقاق، بل هو إغواء المكر الربّاني عدلا بمكره هو، أنه أمره على علمه أنه لا يأتمر فيهبط، و أمره لكي يظهر كفره، فلذلك هو يمكر عباده كما يمكرون‏ «وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ».

ذلك!

«فاحذروا عباد الله عدو الله أن يعديكم بدائه، و أن يستفزكم بندائه، و أن يجلب عليهم بخيله و رجله، فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، و أعرق إليكم بالنزع الشديد، و رماكم من مكان قريب فقال: رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض و لأغوينهم أجمعين، قذفا بغيب بعيد، و رجما بظن غير مصيب، صدقه به أبناء الحمية، و إخوان العصبية، و فرسان الكبر و الجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، و استحكمت الطاعية من فيكم، فنجمت الحال من السير الخفي إلى الأمر الجلي، استفحل. سلطانه عليكم، و دلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، و أحلوكم ورطات القتل، و أوطؤوكم إثخان الجراحة، طعنا في عيونكم، و حزا في حلوقكم، و دقا لمناخركم، و قصدا لمقاتلكم، و سوقا بخزائم القهر إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم حرجا، و أورى في دنياكم قدحا، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، و عليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدكم، و له جدكم، فلعمر الله لقد فخر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 53

على أصلكم، و وقع في حسبكم، و دفع في نسبكم، و أجلب بخيله عليكم، و قصد برجله سبيلكم، يقتنصونكم بكل مكان، و يضربون منكم كل بنان، لا تمتنعون بحيلة، و لا تدفعون بعزيمة، في حومة ذل، و حلقة ضيق، و عرصة موت، و جولة بلاء، فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، و أحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان و نخواته، و نزعاته و نفثاته، و اعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، و إلقاء التعزز تحت أقدامكم، و خلع التكبر من أعناقكم، و اتخذوا التواضع مسلحة بينكم و بين عدوكم إبليس و جنوده، فإن له من كل أمة جنودا و أعوانا، و رجلاء فرسانا، ..» «1».

هنا «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» قد تعني الصراط المحيط بالإنسان حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نهج البلاغة الخطبة (190) و فيه‏ تحذيرا عن الكبر «ألا و قد أمعنتم في البغي، و أفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، و مبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فالله الله في كبر الحمية و فخر الجاهلية، فانه ملاقح الشنآن، و منافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية، و القرون الخالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالته، و مهاوي ضلالته، ذللا عن سياقه، سلسا في قياده، أمرا تشابهت القلوب فيه، و تتابعت القرون عليه، و كبرا تضايقت الصدور به» (190).

«ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم و كبرائكم، الذين تكبروا عن حسبهم، و ترفعوا فوق نسبهم، و القوا الهجينة على ربهم، و جاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، و مغالبة لآلائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، و دعائم أركان الفتنة، و سيوف اعتزاء الجاهلية .. و لا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، و خلطتم بصحتكم مرضهم، و أدخلتم في حقكم باطلهم، و هم أساس الفسوق، و احلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، و جندا بهم يصول على الناس، و تراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، و دخولا في عيونكم، و نفثا في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، و موطئ قدمه، و مأخذ يده ..» (الخطبة 190).

و أستأدي اللّه سبحانه الملائكة وديعته لديهم و عهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له و الخشوع لتكرمته فقال سبحانه‏ «اسْجُدُوا لِآدَمَ» فسجدوا إلا إبليس اعترته الحمية و غلبت عليه الشقوة و تعزز بخلقه النار و استهون خلق الصلصال فأعطاه اللّه النظرة استحقاقا للسخطة و استتماما للبلية و إنجازا للعدة .. (الخطبة 1).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 54

يبتلعه أو يبتلعه السالك، دون صراط الرب المخصوص به‏ «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (11: 56) فانما هو صراطه الذي قدره للسالكين إلى مرضاته.

إذا فإتيان السالك لصده عن سلوكه بحاجة إلى حصر مربعة الجهات، و هي بطبيعة حال الصراط روحيا، و أن الإضلال ليس يتوجه إلا إلى الأرواح، ثم الجهات المحيطة بالجسم ست و ليست أربعا، فهي الجهات الروحية: صراط العلم و المعرفة به، و صراط الإيمان، و التصديق له، و صراط العبودية الخالصة، و بتعبير آخر صراطي المعرفة و العبودية فإنهما واحد حيث يشكلان الهدي إليه و الزلفى دونما تفلّت أو تلفت عنه.

«مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» بكل ما يستقبله السالك و يستقبل السالك من الآخرة و الأولى و ما بينهما، من أعمال و آمال و سائر الآماد المستقبلة، استخداما لها كلها لتضليله، صدا عن حاضره و مستقبله من صراط اللّه، و لكيلا يستقبل خيرا.

«وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» مما يستدبره السالك من دنياه بأعماله المسلوكة سلك الصراط، هدما له و حبطا إياه، تزيينا لقبحه و تقبيحا لصالحه.

«وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ» و هي أيمان الدين حيث يأتي بنقاب القدسية الشرعية و يصد عنها، إلى أيمان الفطر و العقول و الأفكار و الصدور و القلوب، فتشل الأيمان التي هي ذرائع إلى الصراط المستقيم.

«وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» و هي شهواتهم حيث يزينها لهم فيحسبون أنهم يحسنون صنعا «1» و إلى أنفسهم الأمارة بالسوء و أعمالهم السيئة، فالعقلية الإيمانية و الشهوة الشيطانية هما من المداخل الأنفسية للشيطان، ثم الآخرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن مجمع البيان روي عن أبي جعفر (عليه السّلام) «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» معناه أهوّن عليهم أمر الآخرة «وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» آمرهم بجمع الأموال و البخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم‏ «وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ» أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة و تحسين الشبهة «وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» بتحبيب اللذات إليهم و تغليب الشهوات على قلوبهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 55

و الأولى هما من المداخل الآفاقية إلى إضلال الإنسان، و حينئذ تنسد عليه كل منافذ الصراط المستقيم.

فقد يقعد لهم الشيطان‏ «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» قعدة شيطانية تحلّق على هذه الجهات الأربع، حصرا في الشهوات و حسرا عن العقليات، و النتيجة الحاسمة: «وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» حيث يتلفتون إلى الشيطان و يتفلّتون عن الرحمن، ثم يبقى أقلهم و هم المخلصون: «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (38: 82).

أجل، و لأن‏ «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» ليس طريقا حسيا، فالجهات الأربع في قعدة الصراط- الإبلسية- كذلك ليست هي الجهات الحسية الجغرافية- و هي ستة- بل هي الجهات المعنوية التي تعني الحياة الإنسانية، الناحية منحى الصراط المستقيم من تعمير مثلث زمان التكليف بإحكام العقلية الإنسانية و أحكامها على ضوء الفطرة و الوحي، و حصر الأهواء الطائشة و أسرها عما لا يحل.

ذلك، و في نظرة أوسع نرى‏ «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» تحلقان على كافة الآيات الآفاقية، ثم‏ «عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» تشملان كل الآيات الأنفسية، ثم‏ «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» تعم كافة الآمال و الأحوال المستقبلة، مقبولة لديك أو محتملة، واقعة أو متخيلة، فمنها الحياة البرزخية و الحياة الأخرى حيث يأتينا منهما نكرانا لهما أم تزييفا لموقفهما حتى لا تؤثرا في صالح الأعمال.

و «من خلفهم» تشمل كل خلف للكون، و منها هل له من خالق؟

حيث يتفلسف ماديا لاثبات أزلية المادة، أم في تفلسف آخر يقرر أصول الفلسفة المنحرفة كالأزلية الزمانية للعالم، و وحدة حقيقة الوجود بين الخالق و المخلوق، و مسانختهما لأن فاقد الشي‏ء لا يعطيه، و غل يدي الخالق حيث الواحد لا يصدر منه إلا واحد، و ما أشبه من خلاف العقل و النص كتابا و سنة.

أم القول بالتعدد اللاهوتي ثنويا أو ثالوثيا و ما أشبه من الخرافات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 56

المحلقة على فكرة «اللّه».

ثم‏ «عَنْ أَيْمانِهِمْ» تعم العقل بجنوده‏ «وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ» تشمل الجهل و جنوده، إظهارا للعقل بجنوده جهلا، و للجهل بجنوده عقلا، و خلطا بين كل حق و باطل للبسطاء الذين لا يعقلون، بل و الخلط على العلماء، اللهم إلا المخلصون و المخلصون.

و كما أن‏ «مِنْ خَلْفِهِمْ» تشمل كل خلف قريب أو بعيد، كذلك‏ «بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» بل و هي أشمل منها حيث تشمل الحاضر إلى المستقبل.

فقد يحلق الشيطان في إغوائه على كل الآيات الآفاقية و الأنفسية «1».

و بصيغة أخرى الصراط هو الدين، ف «صراطك» هو دين اللّه، جعله اللّه طريقا للنجاة و المفاز، و إنما قال: «صراطك» حيث الدين هو الطريق المؤدية إلى مرضاته، إلى قربه و زلفاه و مثوبته، فكان إبليس لعنه اللّه إنما يوعد بالقعود على طريق الدين- الشاملة على الجهات الأربع- ليضل عنه كل قاصد، و يرد عنه كل وارد بمكره و خدائعه و تلبيساته،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هنا إجابة عن شطحات إبليسية سبع كلمة واحدة «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ» بالمعترفون باللّه مشركين أو موحدين ليس لهم سؤال الاعتراض على اللّه حيث المسؤول إنما هو الظالم- الجاهل- القاصر أو المقصر، و لأننا لا نحيط علما و هو بكل شي‏ء محيط فلا سؤال إذا اللّهم ألا تفهما.

و الأمور أمامنا ثلاثة: منها ما نعرف حكمة لها، و أخرى لا نعرف، و ثالثة يخيل إلينا أنها خلاف الحكمة، فلأن اللّه تعالى حكيم عليم لا يخطأ و نحن نخطأ فقضية العقل أن نتهم عقولنا المحدودة دون الحكمة الربانية الحكيمة العليمة.

فمهما جاز لنا أن نخطئ من هو أعلم منا بما علمناه خلافه، لا يجوز لنا أن نخطئ ربنا إذ لا يمكن منه الخطأ، فحتى إذا وصلنا بعقولنا أم علومنا أم حواسنا إلى خطأ في خلق.

فما لا ريب فيه جواز الخطأ لنا دون اللّه فلنخطئ آراءنا دون اللّه.

ثم الملحدون في اللّه الناكرون إياه لا مورد لهم لسؤال، اللهم إلا قولهم: إن كان اللّه هو الذي خلق ما خلق فلما ذا ..؟ و الجواب انه لأنه اللّه الخالق المحيط بكل شي‏ء، الغني عن كل شي‏ء. فقد يجب عليكم أن تخطئوا حلومكم و علومكم أمام علمه المحيط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 57

كالقاعد على مدرجة بعض السبل ليخوف السالكين منها، و يعدل بالقاصدين عنها، فهو

«يأتي المرء من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله ليقتحم غفلته و يستنب غرته» «1».

و لماذا «من» في الأولين و «عن» في الآخرين، علّه لأن «بين أيديهم و خلفهم» هما جهات منفصلة عنا فهو يأتينا منهما إلينا حتى يضلنا عنهما، و لكن «أيمانهم و شمائلهم» هما فينا، فليأتنا تجاوزا عنهما، فالأيمان هي الفطر و العقول و الأديان. و الشمائل هي الأنفس الأمارة بالسوء و الشهوات.

ثم و ذلك الإتيان المربعة الجهات هو بوعده و تمنيّه: «يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً» (4: 120) و تخويفه عن سلوك الصراط: «إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ» (3: 175) كما «الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» (2: 268).

و على الجملة كلّ خطواته المحلّقة على مربعة الجهات: «وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ» (2: 168) و ذلك هو احتناكه لهم كما وعد: «قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62).

و قد تعني «شاكرين» ما يعم المخلصين إلى المخلصين، و يؤيده:

«إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15:) 42) و المخلصون- كما المخلصون- ليسوا من الغاوين مهما اختلفت الدرجات، فإتيان الشيطان عن اليمين: الدين، يعم الدينين و غير الدينين، فالأولون يؤتون بتشكيكات حول الدين، أو تأويلات بتسويلات،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 10 في نهج البلاغة من كتاب له (عليه السّلام) إلى زياد بن أبيه- و قد بلغه أن معاوية قد كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه- و قد عرفت أن معاوية كتب إليك يستنزل لبك و يستفلّ غربك فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 58

و تسهيلات في الدين تلائم كافة التخلفات و التحذلقات كالصوفية العارمة التي لا تبقي للدين إلّا صورة خيالية لا واقع لها في واقع الحياة.

و الآخرون يؤتون بما يبعّدهم عن التحرّي عن الدين، مهما كان صورة له بلا سيرة. و هكذا «شمائلهم» و «بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» و «خلفهم» فإن له خطوات للتضليل حسب القابليات، من ضيّقة إلى واسعة و إلى أوسع حتى يورد السالكين موارد الهالكين فضلا عمن سواهم، و كما

قال أبو جعفر عليهما السّلام: «يا زرارة إنما عمد لك و لأصحابك فأما الآخرون فقد فرغ منهم» «1».

فقد يأتينا الشيطان بخيله و رجله من كافة المداخل الآفاقية و الأنفسية، صدا عنهما خلاف ما أراده اللّه منا «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» تعم الحاضر إلى المستقبل و هما النشآت الثلاث بما فيها. و «ما خلفهم» تعم في الغابر كلما حصل منه و ممن سواه و من اللّه، و هما مشركان في الانفصالية الآفاقية.

ثم «عن أيمانهم» تعم أيمان الفطر و العقول و العقيدة في مثلث الزمان، و «عن شمائلهم» تعم شمائل النفس الأمارة بالسوء و مخلفاتها، و هما العقل و الجهل بجنودها، و يشتركان في الاتصالية الأنفسية، و هذا هو الفارق بين المعبر فيها ب «من» و أخرى ب «عن» حيث يختلف مجيئه «من» آفاقيا، عن مجيئه «عن» أنفسيا، هنا تجاوزا عنها إلى الأنفس، و هناك صدورا من آفاقها إليها.

و هؤلاء الذين يحيط بهم الشيطان من هذه الجهات الأربع فيضلهم هم الذين:

اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا، و اتخذهم له أشراكا، فباض و فرخ في صدورهم، و دبّ و درج في حجورهم، فنظر بأعينهم، و نطق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 10 في روضة الكافي ابن محبوب عن حنان و علي بن رئاب عن زرارة قال: قلت له قوله عزّ و جلّ «لأقعدن ..» فقال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 59

بألسنتهم، فركب بهم الزلل، و زيّن لهم الخطل، فعل من شركه الشيطان في سلطانه، و نطق بالباطل على لسانه‏ (الخطبة 7).

ذلك، و في توسع ل «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» و هو شرعة اللّه، قد يعني إلى محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الدال على أعلى الصراط، آل محمد عليهم السّلام الدالون إلى الصراط المحمدي المستقيم. و ذلك تأويل جميل بأصدق مصاديق‏ «صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» «1».

قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18).

«مذؤما» من الذام: العيب، أخرج معيوبا بأنحسه، استكبارا على ربك، «مدحورا» مطرودا عن ساحة قربه و جنته‏ «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» لحد يحسب بحسابك، و يدخل في حزبك‏ «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ» تابعين و متبوعين «أجمعين».

و هنا «أخرج» تعني أمرا تشريعيا فلإبليس ألا يأتمره و كما لم يخرج و قد تخلف عنه (1، 21).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ملحقات احقاق الحق 14: 642 روى الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل 1: 61 بسند عن علي عن سعد عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: آل محمد الصراط الذي دل اللّه عليه، و رواه عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) مثله.

و

فيه 4: 170 و 14: 378- 379 قوله (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السّلام): أنت الطريق الواضح و الصراط المستقيم و الصراط المستقيم ولاية أمير المؤمنين (عليه السّلام) (14: 487)

و

«نحن الطريق الواضح و الصراط المستقيم» (13:

83- 84)

و

«نحن أبواب الله و نحن الصراط المستقيم و نحن عيبة علم الله» (13:

82)

و

«من اقتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم» (4: 59)

و

يا علي أنت صراط الحمية (4: 103 و 7: 125)

و

«حب آل محمد جواز على الصراط» (9: 494- 496 و 18: 496- 497)

و

«يا علي الصراط صراطك» (7: 124)

و

«علي يقعد على الصراط» (6: 212)

و

«لا يجوز أحد الصراط إلا بولاء علي (عليه السلام)» (7: 115- 121 و 17: 158- 162 و 21: 517- 521).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 60

و لكن ذلك الخروج بالأمرين كان بعد فترة الابتلاء لآدم و زوجه و كما فصلناه في آية البقرة:

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (19).

و هذا السكون و السكن المسموح بصيغة الأمر هو دوامته ما قاما بشرطها أن: لا تقربا هذه الشجرة فتكونا- إذا- من الظالمين شرعة اللّه، و الظالمين أنفسكما، و قد مضى القول الفصل في البقرة أنه نهي باتّ تشريعي كان اقترافه ظلما و عصيانا و غواية و شقوة و ضلالة و زلة و ما أشبه، المسرودة بطيات آياتها.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (20).

«فَوَسْوَسَ‏ ... لِيُبْدِيَ» كغاية من غاياته الشيطانية المحلّقة على كل شيطناته المعنيّة من تلك الوسوسة، و «لهما» هنا كما «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ» تعني ظاهرة النفع في وسوسته و كما قال: «ما نهاكما ..».

و ترى ما هي «سوآتهما» الموارى عنهما قبل الوسوسة البادية؟ إنها عوراتهما المواراة بلباس هذه الجنة- منذ خلقا- حيث هما بعد ظهورها بنزع لباس الجنة «طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» (24) أم و سوآت أرواحهما إضافة إلى هذه السوآت و هي أحرى بهذا الكيد اللعين حيث عرفا أنهما عاصيان ربهما بعد ما خيّل إليهما العصمة بما أسجد اللّه له ملائكته و كرمه عليهم، و لكن ورق الجنة لا يخصف سوآت الروح، اللهم إلّا أن بوسع ورق الجنة بمطلق سترها عن عورات!.

و ليست من هذه السوآت عدم معرفة الحسن و القبيح لمكان المناهي المؤكدة المشددة عن هذه الشجرة، و لا موقع لها إلّا للعارف الحسن و القبيح، فتفسير السوآت بهذه المعرفة أمّا يشملها هي من سوآت التفسير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 61

في حقل المعرفة.

و ليس من البعيد خفاء عورات الجسم عمن هو في بداية خلقه و لمّا يفتش عن جسمه و هو موارى بلباس الجنة الذي لا داعي لأهلها أن ينزعه ليكشف ما تحته المجهول لديه، أم و المجهول أن تحته عورات، حيث انشغلا بنعيم الجنة و جوار الرب و الرحمة عما سواه، حتى شغلهما الشيطان بما وسوس لهما و قاسمهما «لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما».

و ووري مجهول وارى، فقد فاعلت رحمة اللّه و اتجاههما إلى نعيم الجنة في ستر عوراتهما فلم يفتشا عنها.

«و قال» في وسوسته لهما «ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ» لأن فيها مضرة بكما، أو معرّة عليكما «إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» بذوقها تحولا بها عن الحالة البشرية إلى حالة الملكية «أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» فيها.

و ترى هذا «أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» مادّة هي مادة لهما تمدّهما إلى ذلك الغرور من الغرور؟ فكيف مدهما إليه‏ «إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» و آدم هو فوق الملائكة إذ أسجدهم اللّه له، و عرفه كما عرفهم بتلك الفضيلة الكبرى و قمة المنزلة؟.

علّهما لم ينغرّا إلّا بالغرور الثاني، أم- فقط- بغرور المقاسمة بين ثالوثه كما تلمح له‏ «فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ» بعد «و قاسمهما» أم- لو انغرا بغرور «أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» فذلك لأن الملك خالد في الجنة مهما كان له تردد إليها في ذلك الخلود، فمادة الغرور الأول هي «الخلود» سواء أ كان ب «أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» أو بأن‏ «تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» غير ملكين.

و بوجه آخر إن «ملكين» هنا مضمّنة معنى الملك إلى الملكية، و قد يدل عليه‏ «قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى‏ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى‏» (20:) 120).

«شَجَرَةِ الْخُلْدِ» عبارة أخرى عن‏ «أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» «مُلْكٍ لا يَبْلى‏» عبارة عن‏ «أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» فلم يكن القصد- إذا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 62

مجرد الملكية، بل و السلطة الملكية، أن تكونا قادة في الجنة.

ثم و للملكية ميّزة عدم زحام النفس مع العقل إضافة إلى الخلود فقد يعني ب «أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ» زيادة هاتين الميّزتين إلى ميزة الإنسانية.

و مهما يكن من شي‏ء فظاهر الغرور الذي مدهما إلى عصيان هو ثالث ثلاثة، فإن ساحة آدم (عليه السّلام) بريئة عن تصديق الشيطان في تكذيب الرحمن، فإن في تصديقه الأوّل و الثاني تكذيبا للّه حيث نهى و هدّد، بخلاف الخلود عصيانا فغواية و زلة و ضلالة و شقاء و عناء، فلذلك:

وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21).

و لو كان لهذين الغرورين تأثير لما كان بحاجة إلى المقاسمة، إذ لا مجال لها إلّا عند فقدان البرهان، فلم يكن- إذا- في هذين برهان يقنعهما بغروره إياهما، مهما كان لهما تأثير ما لذلك المد المديد المنتهي دوره فيها بما قاسمهما.

هنا «قاسمهما» مفاعلة، دون «أقسم لهما» فعلا، دليل تعاطي الإقسام بينه و بينهما، بادئا منه كما هي قضية المفاعلة.

فقد بدء بالإقسام باللّه لهما «إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ» فطلبا منه مؤكّد الإقسام، فخيّل إليهما- بعد تمام المقاسمة بشروطها المرضية- كأن اللّه نسخ ما نهى إذ لم يكونا يظنان أن أحدا من خلق اللّه يقسم باللّه كاذبا، و لكن كان عليهما ألّا يصدقا الشيطان الذي استكبر على اللّه في تركه السجود له، و كما اللّه عرّفه إيّاه مرارا و تكرارا «إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏» و كيف يعتمد على قيلة النسخ بغيلة الشيطان و هو عدوّ للّه و عدو له، و بالمآل‏ «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏» (20: 123).

و قد يبقى هنا أن نتساءل جدنا الأوّل، هب إنك ما غرّك‏ «إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ» فكيف غرك بعد «إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ»؟ فهل اعتبرت عصيان ربك نصيحة من الشيطان فاللّه نهاك- إذا- بخلاف النصح؟ و ذلك كفر قاطع!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 63

علّه في تلك المقاسمة المكيدة حاول ليثبت أن ذلك النهي منسوخ حيث فلّ حرّاس الشجرة عما حولها بعد ما احتفوا بها- كما في الخبر- فقاسمهما أنني ناصح لكما بما نصح اللّه حيث نسخ النهي، و دليلا عليه تفرق الحرّاس! و لكن كيف يعتمد آدم على ذلك التفرق و لا ينسخ قاطع النص إلّا بقاطع النص و ليس فليس، فالقادر المعلوم في هذا المسرح أن آدم انغر بغرور الغرور حيث لم يكن يحسب أن أحدا من خلق اللّه يقسم كاذبا باللّه، إضافة إلى انجذابه إلى الشجرة إذ قد تخلده في دار الكرامة، فعلّ ربه نهاه عنها سلبا عنه هذه الكرامة إذ لا يليق لها، فقد اقترف عصيانا، لا كفرا كما يغل، و لا ترك الأولى كما قيل فيما غيل دون أي دليل.

إذا فاحتمال أن آدم إنما انغر بغرور الغرور، قضية المقاسمة و احتمال أن نهيه عن الشجرة يعني نفيه عن الخلود في دار القرب و الكرامة، فرجح القرب رغم النهي عن البعد إذا انتهى، فهي معصية غير كبيرة إذ لم تضمن تكبرا على اللّه، و لا تعمدا في اقتراف نهي اللّه، و إلّا لكان مصيره مصير الشيطان، إنما هو عصيان- فقط- للتخلف عن النهي، و يصغره أنه كان بين مقاسمة و أمل للبقاء في دار القرب و الكرامة.

ذلك الاحتمال وارد لا مردّ له، كما لا مردّ لأصل عصيانه تخلفا عن النهي الصارم الحارم إياه عن هذه الشجرة.

فلا إفراط- إذا- بحقه أنه أتى بعصيان كبير يقارب عصيان الشيطان، و لا تفريط أنه ترك الأولى، بل هو عوان بينهما لا حول عنه إلى أحدهما.

فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (22).

فيا ويلاه من ذلك الأوان ببداية العصيان من أبوينا الأولين، حيث‏

«أسكن سبحانه آدم دارا أرغد فيها عيشه، و آمن فيها محلته، و حذره‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 64

إبليس و عدواته، فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام، و مرافقة الأبرار، فباع اليقين بشكه، و العزيمة بوهنه، و استبدل بالجذل وجلا، و بالاغترار ندما، ثم بسط الله سبحانه له في توبته و لقاه كلمة رحمته، و وعده المرد إلى جنته، و أهبطه إلى دار البلية، و تناسل الذرية» «1».

«فدلاهما» أنفسهما الغرور بدلائه الثلاثة «بغرور» فأصبحا دلوين دلاهما بحبل الغرور كالأرشية في هذه الطوى البعيدة! بما وعدهما و قاسمهما «فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ» المنهية «بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما- الخفية- وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» حيث نزع عنهما لباسهما بما غرهما «وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ..».

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (23).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نهج البلاغة (الخطبة 1/ 28) و فيه‏ «فلما مهد أرضه و أنفذ أمره اختار آدم (عليه السلام) خيرة من خلقه و جعله أول جبلته، و اسكنه جنته، و أرغد فيها أكله، و أوعز إليه فيما نهاه عنه، و أعلمه أن في الإقدام عليه التعرض لمعصيته، و المخاطرة بمنزلته، فأقدم على ما نهاه عنه- موافاة لسابق علمه- فأهبطه بعد التوبة ليعمر أرضه بنسله، و ليقيم الحجة به على عباده» (الخطبة 89/ 3/ 174).

و

في نور الثقلين 2: 11 عن عيون أخبار الرضا (عليه السّلام) من حديثه حول عصيان آدم و زوجه‏ و لم يكن آدم و حواء شاهدا قبل ذلك من يحلف باللّه كاذبا «فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ» «فأكلا منها ثقة بيمينه بالله، و كان ذلك من آدم قبل النبوة و لم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول النار، و إنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلما اجتباه الله تعالى و جعله نبيا كان معصوما لا يذنب صغيرة و لا كبيرة»

قال اللّه تعالى: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» و قال عزّ و جلّ‏ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ».

و

فيه عن تفسير القمي روي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: لما أخرج اللّه آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل (عليه السّلام) فقال: يا آدم أليس اللّه خلقك بيده و نفخ فيك من روحه و اسجد لك ملائكته و زوجك أمته حواء و أسكنك الجنة و أباحها لك و نهاك مشافهة أن لا تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها و عصيت اللّه؟ فقال آدم: يا جبرئيل ان إبليس حلف لي باللّه انه لي ناصح فما ظننت أن أحدا من خلق اللّه يحلف باللّه كاذبا.

أقول: لمزيد الاطلاع على تفاصيل القصة راجع تفسير الآيات في البقرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 65

اعتراف بالظلم العصيان، و تطلّب للغفران، و إلا فورد الخسران، و قد غفر لهما و اجتبى آدم بعد ما تاب عليه و هدى: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 121) و لكنه لم يرجعهما إلى جنته بتوبته:

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ (24).

هبوط جمعي يضم إبليس إليهما و يضمهما إلى إبليس، فله هبوط حابط خابط، و لهما هبوط عن الجنة إلى دار المحنة و البلية: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2:) 38).

و هنا «لَكُمْ فِي الْأَرْضِ» دليل أن الهبوط كان من عل فوق الأرض، فهو هبوط في المكان كما المكانة، و أما «اهْبِطُوا مِصْراً» في أخرى، فهو هبوط عن مكانة الدعة و الراحة، و لا يدل هذا الهبوط بقرينته القاطعة على أنه من أرض إلى أرض، على أن «اهبطوا» أيضا هكذا و قرينته مضادة لتلك!.

و القدر المعلوم من العداوة في‏ «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» هو المعلوم بين الشيطان و الإنسان، عداوة لا تزول فانها لا تزال بينهما قائمة طول زمن التكليف، فلا تعني العداء بين الناس أنفسهم، فانها مرفوضة و أحيانية، و تلك العداء مفروضة و في كل الأحيان، اللّهم إلا عداء ضمن عداء، بما هو قضية ذلك العداء، حيث «قل لعبادي يقول التي هي أحسن إن الشيطان ينزع بينهم» (17: 53).

و أما «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» (20: 23) فقد يعني هبوط قبيلي الشيطان و الإنسان، أم قبيل الإنسان، و المحصور إذا فيهما قضية دار البلية و الامتحان، و «إن الشيطان ينزع بينهم» (17: 53).

و على أية حال‏ «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 38) و هي بعد «قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (1).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 66

فالهبوط الجمعي بعد ذكر الشيطان و آدم و زوجه، إنه نصّ في هبوطهم جميعا دون ريب.

و هنا «مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» يعني حين الموت و حين قيامة الإماتة، و هذه لمحة أخرى إلى مديد إنظار الشيطان أنه كان إلى هذه القيامة، دون‏ «يَوْمِ يُبْعَثُونَ» خلافا لما تطلّبه ألا يموت مع الموتى.

قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ (25).

فأرض التكليف البلية، و الاختبار الإختيار، هي المحيى و الممات و المخرج إلى القيامة الكبرى، سفرة مثلثة الجهات فيها.

و إلى هنا انتهت التجربة الأولى في حق الإنسان الأوّل بحقل الجنة، و تكشفت خصائص الإنسان الكبرى، و استعد- إذا- لخصائصه الكامنة لمزاولة خلافته الأرضية عن الغابرين، و للدخول في معركته المصيرية مع عدوه المعلن في بداية القضية، فالعداوة مستمرة بينه و بين الشيطان، ثم و بين بني الإنسان أنفسهم بنوازع شيطانية.

فلقد هبطوا إلى الأرض، أرض الصراع الدائم و النزاع القائم، بين محض الشر، و مزدوج الاستعداد لكلا الخير و الشر، فانتهت الجولة الأولى تتبعها جولات و جولات على مدى هذه الحياة.

و إليكم على ضوء هذه الآيات الناصعة القاصعة الخطبة القاصعة لعلي أمير المؤمنين (عليه السّلام) حيث يعرض فيها مداخل الشيطان و مخارجه من الإنسان:

«الحمد للّه الذي لبس العز و الكبرياء، و اختارها لنفسه دون خلقه، و جعلها حمى و حرما على غيره، و اصطفاهما لجلاله، و جعل اللعنة على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 67

من نازعه فيهما من عباده، ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه و هو العالم بمضمرات القلوب و محجوبات الغيوب: «إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ» اعترضته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، و تعصب عليه لأصله، فعدو اللّه إمام المتعصبين، و سلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية، و نازع اللّه رداء الجبرية، و أدرع لباس التعزز، و خلع قناع التذلل.

ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبره، و وضعه اللّه بترفّعه، فجعله في الدنيا مدحورا، و أعدّ له في الآخرة سعيرا، و لو أراد اللّه أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياءه، و يبهر العقول رواءه، و طيب يأخذ الأنفاس عرفه لفعل، و لو فعل لظّلت له الأعناق خاضعة، و لخفّت البلوى فيه على الملائكة، و لكن اللّه سبحانه ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تمييزا بالاختبار لهم، و نفيا للاستكبار عنهم، و إبعادا للخيلاء منهم- فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل و جهده الجهيد، و قد كان عبد اللّه ستة آلاف سنة لا يدرى أمن سنيّ الدنيا أم من سنيّ الآخرة عن كبر ساعة- فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته؟ كلّا! ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إن حكمه في أهل السماء و أهل الأرض لواحد، و ما بين اللّه و بين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرّمه على العالمين.

فاحذروا عباد اللّه عدو اللّه أن يعديكم بدائه، و أن يستفزكم بندائه، و أن يجلب عليكم بخيله و رجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، و أغرق لكم بالنزع الشديد، و رماكم من مكان قريب و قال: «رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» قذفا بغيب بعيد، و رجما بظن غير مصيب، صدّقه به أبناء الحمية، و إخوان العصبية، و فرسان الكبر و الجاهلية، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، و استحكمت الطاعية منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفي إلى الأمر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 68

الجلي، استفحل سلطانه عليكم، و دلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، و أحلّوكم ورطات القتل، و أوطأوكم إثخان الجراحة، طعنا في عيونكم، و حزّا في حلوقكم، و دقّا لمناخركم، و قصدا لمقاتلكم، و سوقا بخرائم القهر إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم جرحا، و أورى في دنياكم قدحا، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، و عليهم متألبين، فاجعلوا عليه حدّكم، و له جدكم، فلعمر اللّه لقد فخر على أصلكم، و وقع في حسبكم، و دفع في نسبكم، و أجلب بخيله عليكم، و قصد برجله سبيلكم، يقتنصونكم بكل مكان، و يضربون منكم كل بنان، لا تمتنعون بحيلة، و لا تدفعون بعزيمة في حومة ذل، و حلقة ضيق، و عرصة موت، و جولة بلاء، فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، و أحقاد الجاهلية، فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان و نخواته و نزعاته و نفثاته، و اعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، و إبقاء التعزز تحت أقدامكم، و خلع التكبر من أعناقكم، و اتخذوا التواضع مسلحة بينكم و بين عدوكم إبليس و جنوده، فإن له من كل أمة جنودا و أعوانا و رجلا و فرسانا، و لا تكونوا كالمتكبر على ابن امه من غير ما فضل جعله اللّه فيه، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، و قدحت الحمية في قلبه من نار الغضب، و نفخ الشيطان في أنفه من ربح الكبر الذي أعقبه اللّه به الندامة، و ألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة .. (الخطبة 234).

ذلك، و قد يعني «ملكا» تعبيرا عن إبليس عبادته الملائكية و كونه فيهم آلافا من السنين لحد شمله أمر الملائكة: «إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ» فلا ينافي- إذا- «كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (18: 15).

[سورة الأعراف (7): الآيات 27 الى 34]

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27) وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقاً هَدى‏ وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30) يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 70

خطابات ل «بني آدم» ككل، دون اختصاص بالأمة الأخيرة، حيث المسرح مسرح حياة الإنسان ككلّ منذ البداية حتى النهاية، فالتعلق بمثل‏ «إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ..» بمواصلة الرسالة بعد محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلى يوم الدين، تعلّق قاحل و تعلّل جاهل من غرقى الأهواء الطائشة، فلا تعني‏ «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ» هنا إلّا ما عنته فيما خوطب به الأبوان الأولان: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 38) خطابات أربع كأركان أربعة لهندسة البنيان الإنساني بسلبيات و إيجابيات تختصر و تحتصر في كلمة التوحيد: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

ففتنة الشيطان بمختلف مظاهرها تنفيها «لا إله» في كل حقول الفتن، ثم‏ «يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ» كأصل، و «لِباسُ التَّقْوى‏» و «القسط» و «أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» و ما أشبه، يثبتها «إلا اللّه» فقد رفع صرح الإنسانية أصولا و فروعا ب «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

هذه الآيات هي معرض لوقفة طائلة هائلة بين بني الإنسان و الشيطان، التي بانت طلائعها بينه و بين أبوينا الأولين، وقفة تحذير من أساليب الشيطان و مداخله و مخارجه. و كشف خطط له و خطوات يخطو بها إلى دركات الإلحاد و الإشراك.

و هنا عرض لواقع من الجاهلية الجهلاء أنهم كانوا ينسبون فاحشتهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 71

إلى اللّه، كطوافهم بالبيت مكاء و تصدية، و بنساء عاريات كأن عراهن من شعار الطواف الذي أمر به اللّه و ما أشبه من شعارات جاهلية خالية عن شعورات و آداب إنسانية فضلا عن إيمانية:

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26).

هنا ذكر نعمة جسدانية هو ذكرى لأخرى روحانية هي التقوى، حيث تستر كل عصيان و طغوى عن كيان الإنسان ككلّ، تحذيرا حذيرا نذيرا عما تورط فيه أبوانا الأولان من التعري من لباسي الجسم و الروح حيث الشيطان بإغوائه إياهما «يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما ..».

و ترى‏ «إِنَّا أَنْزَلْنا ..» تعني نازل السماء؟ و ليس‏ «لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً» من نازل السماء! و لا أنه تعالى كائن السماء حتى تصبح عطيته نازلة السماء!.

إنه إنزال من سماء الرحمة الربانية مكانة، لا مكانا، و إن كان بالإمكان- أيضا- قصد المكان حيث اللباس و الريش هما من نابتات الأرض بما ينبتها ماء السماء، كما «أنزل لكم ثمانية أزواج» (31: 6) «وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» (57: 25) و ما أشبه، و لكن عدم ذكر السماء فيها و في أضرابها قد يختص معناه بسماء الرحمة، و إن ضمن هذه السماء، فكل الرحمات نازلة من خزائنه كما يريد من أرضيات أم سماويات: «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» (15: 21) فقد أنزل‏ «لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً» بسائر ما أنزل من غيبه العالي إلى الدنو الداني، و هذا هو معنى الإنزال.

ثم‏ «لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ» هو الملابس مواضع السوآت، الملاصق لها، و أمّا «ريشا» فلباس فوق ذلك اللباس هو زينة لنا.

و لأن الروح هو أفضل جزئي الإنسان كونا و كيانا، فلباس الروح خير من لباس الجسم: «وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ» كما و هو أشمل من لباس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 72

الجسم حيث يشمله إلى الروح، فمظاهر التقوى في ملابس و سواها، كبواطنها- كلها- يشملها «لِباسُ التَّقْوى‏».

و «التقوى» الطليقة هي الاتقاء عن كلما يدنس الإنسان جسما أو روحا، فلباسها يشملهما دون إبقاء كما تشمل القوى كل كيان الإنسان.

لذلك ف «ذلك خير» إشارة إلى بعد المحتد و علوّه في‏ «لِباسُ التَّقْوى‏» فأين- إذا- لباس من لباس؟.

«ذلك» اللباس و الريش‏ «مِنْ آياتِ اللَّهِ» الدالات على واجب الستر عن السوءة «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» واجب ستر عن السوآت الروحية، و من الفارق بين سوآت الجسم و الروح أن لباس الجسم و ريشه يستران واقع سوآته عن الأنظار دون إزالة، و لباس التقوى يزيل كل سوآت الروح و رذائله العلمية و العقيدية و الخلقية و العملية أماهيه، كما و أن اللباس الساتر لعورات الجسم هو أيضا من لباس التقوى، و قد أبدى سوآت أبوينا الأولين ترك التقوى، فعن شعور التقوى للّه و الحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد و الحياء منه، و من لا يستحي من اللّه و لا يتقيه و لا يهمه أن يتعرى أو أن يدعو إلى العرى، و اللّه يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس الساتر صيانة لإنسانيتهم من التدهور إلى عرف البهائم العارية العورات‏ «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» أنهم خارجون عن حياة الحيوان إلى حياة سامقة عالية إنسانية.

و عبارة أخرى عن لباس التقوى‏

«العفاف، إن العفيف لا تبدو له عورة و إن كان عاريا من الثياب، و الفاجر بادي العورة و إن كان كاسيا من الثياب» «1».

و إنما سمى لباس الزينة ريشا تشبيها بريش الطائر حيث يستر جملته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 15 في تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السّلام) في الآية «فأما اللباس فالثياب التي تلبسون و اما الرياش فالمتاع و المال، و اما لباس التقوى ..».

أقول: هنا بدل «الريش» و هو لباس الزينة «الرياش» و هو المتاع و لعله سهو من الراوي-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 73

و يزيّنه، و لأن الإنسان هو أيضا طائر في حياة التكليف بلباس التقوى و ريشها، عارجا معارج الكمال، و

قد «كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا لبس ثوبا جديدا قال الحمد لله الذي كساني من الرياش ما أواري به عورتي و أتجمل به في الناس» «1».

و قد تلمح «و ريشا» في مقام الامتنان لاستحباب ملابس الزينة، اللّهم إلّا ما استثني من تزين الرجال بالذهب و الحرير أو تزين النساء لغير المحارم، و بأحرى ريش التقوى و هو التقوى عن المرجوحات، فالتقوى المفروضة للروح كاللباس المفروض للبدن، ثم التقوى المحبورة للروح هي كريش البدن.

ذلك، و يعاكسه الجاهلية المتحضرة! عفاف الستر إلى تبرج العرى، و هي من الحضارات الحيوانية التي تعرض في معرض هذه الجاهلية باسم الزينة و الحضارة و المودة، حملة فاجرة داعرة إلى العرى البدني كما النفسي يصبح الإنسان مكشوف العورتين، بادي السوأتين، تدعو إليه أقلام سامّة و سائر أجهزة الإعلام العاملة أو العملية لشياطين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- أو مضروب عرض الحائط لمخالفة الآية لفظا و معنى، و ما

روي عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قرء «رياشا» موقفة كموقفه‏

كما

في الدر المنثور 3: 76 عن عثمان سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقرء «و رياشا» و لم يقل «و ريشا»

أقول:

و لا يناسب رياشا اللباس.

(1). الدر المنثور 3: 76- أخرج أحمد و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن علي قال كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ... و

فيه أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما من عبد عمل خيرا أو شرا إلا كسي رداء عمله حتى يعرفوه و تصديق ذلك في كتاب اللّه‏ «وَ لِباسُ التَّقْوى‏ ذلِكَ خَيْرٌ».

و

فيه أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن الحسن قال‏ رأيت عثمان على المنبر قال: يا أيها الناس اتقوا اللّه في هذه السرائر فإني سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: و الذي نفسي محمد بيده ما عمل أحد عملا قط سرا إلا ألبسه اللّه رداءه علانية إن خيرا فخير و ان شرا فشر ثم تلا هذه الآية «و رياشا» و لم يقل «و ريشا»

أقول: هذا كسابقه في موقفه من «رياشا»، و حين يعني الرياش جمع الريش فذلك تفسير بجمع المعنى و ليس نقلا للفظ الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 74

الصهيون! ف:

يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27).

ذلك، فمن فتن الشيطان في بني الإنسان نزع اللباس الساتر لعورات الجسم و الروح، إسقاطا لمحتدهم الإنساني إلى هوّات ساحقة ماحقة لكيلا يبقي على أثر من حالتهم الإنسانية و هالتها المتميزة في أرواحهم و أجسامهم كما البهائم و أضل سبيلا.

و هنا «لا يفتننكم» نهي باتّ مؤكد من تلك الفتنة الهاجمة على بني آدم، الناجمة منه على آدم، كتجربة مرة مرّت لمرة سابقة، يجب أن تكون درسا لانسيال آدم إلى يوم الدين.

ذلك و إن هذه الفتنة لبني آدم أبلى منها لآدم‏ «إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ» و لكنه كان يراه بشخصه حيث عرفه اللّه إياه: «فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى‏» (20:) 117) فو اللّه إن عدوا يراك من حيث لا تراه لشديد المؤنة إلّا من عصم اللّه، فلو أن الصيد يرى الصائد لما كان يصاد كما يصاد، فبنوا آدم هم كلهم مصائد الشيطان الخفي بمكائده من حيث لا يرونه رأي العين البصر، و إن كانوا يرونه رأى البصيرة فطرة و عقلية و مواصفة على ضوء الوحي.

ذلك، و في «لا يفتننكم» تحريض على معرفة الشيطان بأحواله و أحباله، بأفكاره و أفعاله، لكي نعرفه ببصائرنا جبرا لما نجهله بأبصارنا، فالذين يؤمنون هم يعرفونه فلا يفتنون: «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ».

و كما أن كلمة التوحيد تفرض في سبلها: «لا إله» معرفة كل إله باطل لنرفضه، ثم معرفة اللّه لنفرضه، كذلك في دار الاختبار الإختيار علينا أن نعرف الشيطان بشيطناته حتى لا نوقع في فخاخه، و من ثم الطاعة الخالصة غير الكالسة و لا الفالسة للّه وحده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 75

أجل‏ «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» حيث‏

«اجتالتهم الشياطين عن معرفته، و اقتطعتم عن عبادته» (الخطبة 1)

فقد

«أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، و وردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، و قام لواءه»

و

«اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا، و اتخذهم له أشراكا، فباض و فرخ في صدورهم، و دب و درج في حجورهم، فنظر بأعينهم، و نطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، و زين لهم الخطل، فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه، و نطق بالباطل على لسانه».

فالبصيرة الحاصلة على ضوء الفطرة و العقلية السليمة و الوحي هي التي تطرد الشيطان،

«ألا و إن الشيطان قد جمع حزبه، و استجلب خيله و رجله، و إن معي لبصيرتي ما لبست على نفسي و لا لبس علي» (10).

فلقد

«حذركم- الله- عدوا نفذ في الصدور خفيا، و نفث في الآذان نجيا، فأضل و أردى، و وعد فمنى، و زين سيئات الجرائم، و هون موبقات العظائم، حتى إذا استدرج قرينته- النفس الأمارة- و استغلق رهينته، أنكر ما زين، و استعظم ما هون، و حذر ما أمن» (81)

«إن الشيطان يسني لكم طرقه، و يريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، و يعطيكم بالجماعة الفرقة، و بالفرقة الفتنة، فاصدفوا عن نزعاته و نفثاته» (119).

ذلك و

«إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (16: 99).

و ليس الإنسان أيا كان- و معه أي كائن كان- ليعيش دون أية ولاية، فهو بين ولاية الشيطان، و ولاية الرحمن، فالخالط بينهما مشرك، و ولي الشيطان- فقط- ملحد، و ولي الرحمن موحد.

ذلك، و كيف بإمكان الشيطان أن‏ «يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما» و قد ألبسهما اللّه إياه؟ إنه بما ولّاهما بغرور فاغترابه، بذلك قد سبب تلك العقوبة من اللّه لهما أن نزع عنهما لباسهما و أخرجهما من الجنة، فنزع اللباس و الخروج من الجنة بين زوايا ثلاث، من الشيطان حيث أزلهما، و منهما حيث زلا، و من اللّه إذ عاقبهما بما زلّا و ضلّا فلم يحل بينه و بينهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 76

فيما زلّا، و ترى إن رؤية الشياطين و سائر الجن مستحيلة لقبيل الإنسان؟

و قد يرون منهم من نفذت بصيرته، أم كان منهم في مسالكهم!.

هنا «مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ» لا تنفي أصل الرؤية، فإنما تنفي حيث الضلالة ككل، حيث يأتيكم شياطين الجن و الإنس من حيث النصح و كما قال: «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ» مهما عرفوا حيث شخصه مهما قلت.

فالأكثرية المطلقة ممن يستنزله و يستضله الشياطين هم الأغفال الذين يستغفلون، فيؤتون من حيث «لا يرونهم» قصورا عن تقصير،

«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجالا فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة و لو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على أولياءه و نجى الله سبقت لهم من الله الحسنى» «1».

إذا ف «الشياطين» هنا يعم شياطين الإنس إلى شياطين الجن، مهما كان عدم الرؤية في الآخرين يعم حيث الضلالة إلى رؤية أشخاصهم و هذا أضل و أشجى، و ترى‏ «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ ..» يجعله تعالى سببا للإضلال؟ كلّا، فإنه جعل تكويني و ترك للحاجز بينهم و بين الذين لا يؤمنون، دون دفع أو تحريض، و هكذا «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83) «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ» (41: 25) و اختيار المكلفين في دار البلية و الاختبار من قضاياه هدى النجدين، و فسح المجال لهما أمام العالمين: «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ» بفارق أن اللّه هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم: «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً» (47: 17).

و أما الذين ضلوا فيذرهم في طغيانهم يعمهون، و يخلي بينهم و بين الشياطين يفعلون بهم ما يشاءون: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السّلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 77

ذلك، و من ولاية الشياطين للذين لا يؤمنون معاكسة الحقائق، إراءة للفاحشة الطائشة أنها بأمر اللّه، و للطاعة الربانية أنها بأمر الشيطان:

وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (28).

هنا تبرير أول لافتعال الفاحشة: «وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا» و سنة الآباء القدامى حجة على الأولاد، و تبرير ثان زعم أنه يؤكّد صالح ذلك التقليد الأعمى: «وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها» و ذلك كمثل طوافهم- و لا سيما النساء «1» عراة، و صلاتهم عند البيت مكاء و تصدية و ما أشبه، حيث كانوا يعتبرونها من العبادات المأمور بها!.

و كيف؟ «لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا» (6: 148)- «لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ» (16: 35).

تأويل عليل لمشيئة اللّه خلطا لتكوينيتها بتشريعيتها، أن عقائدنا و أعمالنا الشركية ليست لتتخلف عن مشيئة اللّه، فإن اللّه غالب على أمره؟

رغم أنه يشاء تكوينا ما لا يشاءه تشريعا قضية الابتلاء بالاختيار، و لو أنه يشاء كلما يحصل من عباده تشريعا، كما يشاءه تكوينا، لتناقضت المشيئتان التشريعيتان! بحق الصالحين و الطالحين.

«قل» لهؤلاء الأوغاد المناكيد: «إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ» في شرعته، مهما لا يمنع عنها تكوينا في محنته، «أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» سواء بصبغة علمية فلسفية في صيغة الجبر، أم جاهلية فوضى جزاف دون أي سناد مهما كان بصيغة علمية مرفوضة كهذه.

و قد يتعلق أمثال هؤلاء المجاهيل- كافرين أو مسلمين- بأمثال‏ «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً» (17: 16) بتخيّل أن‏ «فَفَسَقُوا فِيها» هو فسق تحت الأمر، غفلة أو تغافلا عن أن الفسق عن الأمر هو التخلف عنه، إذا «أَمَرْنا مُتْرَفِيها» بما نأمر «فَفَسَقُوا فِيها» عن أمرنا تخلفا عنه، كما و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد كن ينشدن قولهن في طوافهن: اليوم يبدو بعضه أو كله و ما بدا منه فما أحله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 78

«إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ».

و تراهم كانوا ينسبون كل فاحشة يفعلونها إلى اللّه؟ نعم، في تأويلهم العليل للمشيئة الربانية، و لا، في غير ذلك التأويل‏ «1»، و «فاحشة» دون «فواحش» أم «كل فاحشة» علّها لشمول الأمرين.

و تراهم يعتبرون ما يفعلونه من «فاحشة» فاحشة، ثم يبرّرون موقفهم منها بذلك نعم، في التأويل الأول، أم لأنها بأمر اللّه فليست- إذا- فاحشة، و لا، في التأويل الثاني اللّهم إلّا من أرذلهم.

ثم هؤلاء الناكرون للوحي كيف يقولون‏ «وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها»؟ إنه في التأويل الأول قولة فلسفية خيّلت إلى أهليها، و في الثاني فرية جاهلة على اللّه يجمعها القول على اللّه بغير علم: «أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ».

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29).

«القسط» هنا هو العدل إلى الفضل، فإن منه فضلا و منه ظلما، إعطاء لقسط فاضل أم أخذا لقسط، فالقسط العدل مأمور به فرضا و القسط الفضل ندبا، و من المجموع‏ «أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» و هو السجدة بزمانها و مكانها و اتجاهها «2»، و إقامة الوجوه هي للّه عند كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 17 في أصول الكافي عن محمد بن منصور قال‏ سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً ..» قال فقال: هل رأيت أحدا زعم أن اللّه أمرنا بالزنا و شرب الخمر و شي‏ء من هذه المحارم؟ فقلت: لا، قال: ما هذه الفاحشة التي يدعون أن اللّه أمرهم بها؟ قلت: اللّه اعلم و وليه، فقال: فإن هذا في أئمة الجور ادعوا ان اللّه أمرهم بالايتمام بقوم لم يأمرهم اللّه بالايتمام بهم فرد اللّه ذلك عليهم فأخبر انهم قد قالوا عليهم الكذب و سمى ذلك منهم فاحشة،

أقول: هذا من باب بيان مصداق مختلف فيه حينذاك بين مصاديق الوجه الثاني من‏ «وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها».

(2)

المصدر في تهذيب الأحكام من أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال‏ سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» قال: هذه القبلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 79

مسجد بكل الوجوه، ظاهرة و باطنة، ثم «و ادعوه»: اللّه- عند كل مسجد «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»: الطاعة و العبادة، دون إشراك به في وجه من الوجوه و منها الرئاء، فإنه تعالى‏ «كَما بَدَأَكُمْ» لا سواه «تعودون» إليه لا سواه، و يا لها من لقطة واحدة عجيبة، قفزة تجمع بين نقطة البدء في الرحلة الكبرى، و نقطة الانطلاق و النهاية.

ثم لأن «كل مسجد» تشمل مربع: السجدة، بزمانها، و مكانها و اتجاهها، فالأمر- إذا- يحلق عليها كلها، مما يلمح صارحة برجاحة أم فرض الصلاة في المساجد، و مكية الآية- زعم أن الكعبة في العهد المكي لم يكن قبله بعد، و لم تكن في مكة مساجد آنذاك- لا تمنع عن الأمر لأداء الصلاة في المساجد، حيث الكعبة المباركة كانت هي القبلة في العهد المكي كما المدني إلّا شطرا قليلا في ثاني العهدين‏ «1» ثم كلّ مكان متخذ للصلاة مسجد لمتخذه و إن لم يكن مسجدا عاما، و كما أمرنا أن نخصص أمكنة خاصة في بيوتنا للصلاة، و ذلك عند إعواز المساجد الرسمية أم عسر الوصول إليها، ثم الآية المكية ليست لتحصر حكمها بالعهد المكي، كما المدنية لا تخص المدنيين، فالقرآن ككلّ شرعة عالمية تتخطى حواجز الزمان و المكان، مهما كان المخاطبون الأولون المكيين و المدنيين: «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ».

و في رجعة تفصيلية إلى ذلك المقطع اللّامع من لوامع الآية نتساءل:

هل المشابهة هنا بين البدء و العود واقع؟ و البدء ولادة من الأرحام ابتداء «بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ» و العود لا يعرف صلبا و لا رحما و لا أية ولادة!.

إنه في وجه المشابهة تشابه بين بدء الإنسان الأول حيث بدأنا به، و بين العود ككلّ، فكما خلقنا اللّه أول مرة من تراب، كذلك يعيدنا من تراب‏ «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» مرة أخرى.

و بوجه ثان «كما بدأكم» إنشاء من تراب كالإنسان الأوّل، أم انتشاء الأنسال كسائر الإنسان، و لم يعي بذلك الخلق الأول، كذلك «تعودون»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لمعرفة التفصيل راجع البقرة على ضوء آيات القبلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 80

بنفس القدرة، و «هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ». و قد يعني التشبيه كلا الأمرين، تشبيها في القدرة بأولوية، و تشبيها في المنشأ بين البدء و العود، «هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ» (21: 104)، «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» (10:) 34) «أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» (29: 19)؟.

فالقادر على البدء- و هو واقع لا مرد له- هو قادر- بأحرى- على الإعادة، كما هي الموعودة المتوقعة، و هما متماثلان في جذور الخلق الإنشاء، مهما اختلفا فيما يختص بكلّ واحد قضية نشأته.

إذا فلكلّ منا ترابه المخصوص به دون الزائد الملحق المدسوس من أجزاء آخرين، أم أجزاء غير أصيلة في تكوّنه، فكما أن كلّا منا خلق من خاصة نطفته أول مرة، فهو العائد بها مرة أخرى مهما التحق بها ما يعيش كلّ معها طول عمره دون فصال، و لكن الأجزاء الأخرى العائشة معنا ردحا و مع الآخرين ردحا آخر أم على طول الخط، إنها ليست هي عائدة مع كلّ، بل هي عائدة لأشخاصها، أم بأشخاصها عن أصول الأبدان العائشة دوما معها.

و بوجه ثالث كما

قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): يحشر الناس حفاة عراة غرلا «1»

و

قال علي (عليه السّلام): فجاءوها حفاة عراة قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة، و الدار الباقية كما قال سبحانه: «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ» (الخطبة 110).

ذلك، و قد تعني- فيما عنت- أن الآخرة هي مثال الدنيا، فكما بدأكم فريقين بما عملتم مهتدين و ضالين، كذلك تعودون مهتدين و ضالين دونما خلط و لا فوضى جزاف، و يؤيده:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نقلا عن: بخ- ك 81 ب 45، مس- ك 51 ح 56- 58 قا، تر- ك 35 ب 3، ل 44 سورة 17 ح 7 و سورة 21 ح 4 و سورة 80 ح 2، نس- ك 21 ب 117 و 118، مج- ك 37 ب 33، مى- ك 20 ب 82، حم- أول ص 220 و 223 و 229 و 235 و 253 و 398 قا، ثالث ص 495، سادس ص 53 و 89، ط- ح 2638.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 81

فَرِيقاً هَدى‏ وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30).

«فَرِيقاً هَدى‏» بما اهتدوا: «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17) «وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ» بما حققوها: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» (16: 5) «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» متورطين في اللجج بعد بهور الحجج، ثم‏ «وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ»- «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104).

أجل، فكما بدأوا الرحلة فريقين: آدم و زوجه، و الشيطان و قبيله، كذلك يعودون كل مع إمامه الذي كان يأتم به، الصالحون مع أهل اللّه، و الطالحون مع الشياطين.

ذلك، و ترى كيف نقيم وجوهنا عند كل مسجد؟ عراة كما خلقنا اللّه أم لابسين كما اختلقناه من ملابسنا؟:

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31).

.. لما أمر بالقسط فرضا و راجحا، فإليكم منها مصاديق: أخذ الزينة عند كل مسجد، و القسط في الأكل و الشرب دون إسراف، فالتبذير فيها محرم بأحرى، و الإسراف فيها محرم دونه، و الشبع دون إسراف غير محبور و لا محظور، و دون الشبع محبور.

ثم من «زينتكم» هي الرياش: ملابس التجمل فوق ملابس الستر «1»، فكما من سوء الأدب أن نصلي عراة، كذلك أن نصلي- فقط- مستوري العورات و مهما صحت الصلاة بذلك الستر القليل العليل في الفقه الأصغر، فهي ليست لتصح في الفقه الأكبر، و حين يجب أخذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 3: 79- أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لا يصلين أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شي‏ء و فيه نهى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به و نهى أن يصلي الرجل في سراويل و ليس عليه رداء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 82

لباس الزينة عند كل مسجد فبأحرى لباس يوارى سوآتكم، فالصلاة عاريا محرمة باطلة، و هي دون لباس الزينة- إن كانت صحيحة- عاطلة، و لأن «خذوا» أمر يدل على فرض، فأخذ الزينة عند كل مسجد فرض على فرض، إلا أن يدل قاطع الدليل كتابا أو سنة على عدم الفرض بعضا مّا فتتقيد «خذوا» به.

ذلك، و من «زينتكم» أموالكم و أولادكم و أهليكم، «الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا» (18: 46) كما منها التمشط «1» و التطيب.

و لأن «زينتكم» لم تلحق بشي‏ء من «معكم» حتى تختص بمعيتها كيفما كانت، و لا «عنكم» حتى تختص بتركها كذلك، فهي بين آمرة باستصحاب زينة كالملابس الواجبة و المسموحة زينة، و كذلك الأموال لإنفاقها على المحاويج، و الأولاد لمشاركتهم في الصلاة، و بأحرى الأئمة العدول فإنهم زينة المساجد «2»، و سائر الزينة الإيمانية حيث تناسب الصلاة و المصلين معك، فلتكن معك الزينة الباطنة إلى الظاهرة ما يناسب كل مسجد و هو محبور، دون ما لا يناسبه و هو محظور، و ناهية عن استصحاب زينة كالتي يحرم استصحابها للرجال مثل الذهب و الحرير، في صلاة و سواها، أو الملابس المغتصبة أماهيه من محظورة، و ملابس الزينة للنساء، المحظورة أمام الجماهير.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 19 في من لا يحضره الفقيه‏ سئل أبو الحسن (عليه السّلام) عن قول اللّه عزّ و جلّ‏ «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» قال: من ذلك التمشط عند كل صلاة.

و

فيه عن الخصال عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في الآية قال: تمشطوا فإن التمشط يجلب الرزق و يحسن الشعر و ينجز الحاجة و يزيد في ماء الصلب و يقطع البلغم.

و

فيه في تفسير العياشي عن الرضا (عليه السّلام) قال: و هي الثياب، و فيه كان الحسن بن علي (عليه السّلام) إذا قام إلى الصلاة يلبس أجود ثيابه فقيل له يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن اللّه جميل يحب الجمال فأتجمل لربي و هو يقول: خذوا زينتكم عند كل مسجد. فأحب أن ألبس أجود ثيابي.

(2)

نور الثقلين 2: 19 عن تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في الآية يعني الأئمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 83

ف «زينتكم» التي تزينكم إنسانيا و إيمانيا، خذوها معكم‏ «عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» حيث المحضر ربانيا و بشريا يتطلب أدب الزينة.

ثم «زينتكم» الملهية المحظورة خذوها عنكم‏ «عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» ف «خذوا» تعم المحظور إلى المحبور، خذوا معكم محبورا و خذوا عنكم محظورا، فلا يظن ظان أن مساجد اللّه التي هي محاضرة، أنها محاظر عن أخذ «زينتكم» ملابس و أموالا و أولادا، و لا أنها معارض لرعونات الزين الملهية.

و ترى النعلين- و هما زينة الرجلين- هل هما من زينة الصلاة المعنية ضمن ما عنته «زينتكم»؟ إنهما زينة في غير الصلاة، و لكن أدب العبودية في الصلاة يقتضي تركهما حالها إما لكونهما خلاف زينة الصلاة، أم زينة محظورة فيها فخذوا عنكم- إذا- نعليكم و اخلعوهما و كما قال اللّه لموسى: «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً» (20: 11)

فالمروي عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه كان يلبسهما فيها و يأمر به‏

، مفترى عليه فمضروب عرض الحائط.

و كما أن أخذ الزينة عند كل مسجد محبور، كذلك في سائر الحالات و لا سيما في زيارة المؤمنين‏ «1» أم و رقابة أعين الفاسقين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 3: 79، أخرج أبو داود عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) في ثوب درن فقال: أ لك مال؟ قال: نعم، قال: من أي المال؟ قال: قد آتاني الله من الإبل و الغنم و الخيل و الرقيق، قال: فإذا آتاك الله فلير أثر نعمة الله عليك و كرامته» و فيه أخرج أحمد و مسلم عن عبد اللّه بن مسعود قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا يدخل النار من كان في قلبه ذرة مثقال من إيمان و لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر، قال رجل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إنه يعجبني أن يكون ثوبي غسيلا و رأسي دهينا و شراك نعلي جديدا- و ذكر أشياء حتى ذكر علاقة سوطه- فمن الكبر ذاك يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: لا، ذاك الجمال إن اللّه عزّ و جلّ جميل يحب الجمال و لكن الكبر من سفه الحق و ازدرى الناس، و فيه أخرج ابن سعد عن جندب بن مكيث قال: كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه و أمر علية أصحابه بذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 84

«وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا» مما يحل لكم، و لكن ليس فوضى جزاف أن تبذروا أو تسروا لأنها من أموالكم، بل «و لا تسرفوا» أكلا و لا شربا زائدا عن الحاجة المتعودة، إسرافا في كمهما و كيفهما: و إسرافا في أصلهما كأن يكونا محرّمين، فالأكل و الشرب المحرمان هما من الإسراف مهما كانا قليلين، و منه المأكول و المشروب اللذان يضران بصحة الإنسان، فإن فيهما إسرافا، فلا يختص الإسراف المحظور بحقل خاص في الأكل و الشرب، بل هو فيهما بكل الأبعاد مادة و كما و كيفا و صحيا و أي حظر آخر، و قد يفسره بهذه السعة: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى‏ طَعامِهِ» (80: 24).

«إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» بل يبغضهم، فضلا عن المبذرين، «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ» (17: 27).

إن التبذير و الإسراف إضافة إلى محظورهما الجماعي حيث فيهم جياع معدمون، فيه أيضا محظور صحي روحيا و بدنيا، لا فحسب الإسراف، بل و الشبع فإن «من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات:

يلقى الغطاء على قلبه، و النعاس في عينه، و الكسل على بدنه» «1»، و «كثرة الطعام تميت القلب كما تميت كثرة الماء الزرع» «2»، ف «لا تطلب الحياة لتأكل بل أطلب الأكل لتحيا» «3»، و «لا تجلس على الطعام إلا و أنت جائع، و لا تقم عنه إلا و أنت تشتهيه، و جود المضغ، و أعرض نفسك على الخلاء فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب» «4».

ذلك، و

«إن من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت» «5»

و هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). شرح النهج لابن أبي الحديد 674.

(2، 3) المصدر 824.

(4) مستدرك النهج 162.

(5) الدر المنثور 3: 80- أخرج ابن ماجة و ابن مردويه و البيهقي عن أنس قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... و

فيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان أكثر الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة.

و

فيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه و ثلث لشرابه و ثلث لنفسه.

و

فيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: المعدة حوض البدن و العروق إليها واردة فإذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 85

إسراف في الكيف مهما لم يكن إسرافا في الكم، و «لا تسرفوا» يعم الكيف إلى الكم، و في الناس من لا يجد كما و لا كيفا من الطعام.

و كما أن الأكل و الشرب المسرف محرم على الآكل و الشارب، كذلك الإيكال و الإشراب المسرف‏ «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» أكلا و إيكالا أم و تصرفات أخرى.

فلقد جمع الطب كله بحق الأكل و الشرب في نصف آية «1» و علّه يعم إسراف السلب و الإيجاب‏ «2»، و لكن الإيجاب أضر أن تأكل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

صحت المعدة صدرت العروق بالصحة و إذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم.

و

في تفسير البرهان 2: 10 عن الكافي عن إسحاق بن عبد العزيز من بعض أصحابه عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: نكون بطريق مكة و نريد الإحرام فنطلي و لا يكون معنا نخالة فنتدلك بها من النورة فنتدلك بالدقيق و قد دخلني من ذلك ما شاء اللّه أعلم به؟

فقال: مخافة الإسراف؟ قلت: نعم، فقال: ليس فيما أصلح البدن إسراف إني ربما أمرت بالنقي فيلت بالزيت فأتدلّك به إنما الإسراف فيما أفسد المال و أضر البدن، قلت:

و ما الإقتار؟ قال: أكل الخبز و الملح و أنت تقدر على غيره، قلت: فما القصد؟ قال:

الخبز و اللحم و اللبن و الخل و السمن مرة هذا و مرة هذا.

و

فيه عن العياشي عن ابان بن تغلب قال قال أبو عبد اللّه (عليه السّلام): أ ترى اللّه أعطى من أعطى من كرامته عليه و منع من منع من هوان به عليه؟ لا- و لكن المال مال اللّه يضعه عند الرجل ودائع و جوز لهم أن يأكلوا قصدا و يشربوا قصدا و يلبسوا قصدا و ينكحوا قصدا و يركبوا قصدا و يعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين و يلموا به شعثهم فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالا و يشرب حلالا و يركب حلالا و ينكح حلالا و من عدا ذلك كان عليه حراما ثم قال: «وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» أ ترى أئتمن رجلا على ماله خول له أن يشتري فرسا بعشرة آلاف درهم و يجزيه فرس بعشرين درهما و يشتري به جارية بألف دينار و يجزيه جارية بعشرين دينار و قال‏ «وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ».

(1).

روي‏ أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد:

ليس في كتابكم من علم الطب شي‏ء و العلم علمان علم الأديان و علم الأبدان فقال له علي (عليه السّلام) قد جمع اللّه الطب كله في نصف آية و هو قوله‏ «كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا» و جمع نبينا الطب في قوله: المعدة بيت الداء و الحمية رأس كل دواء و أعط كل بدن ما عودته، فقال الطبيب: ما ترك كتابكم و لا نبيكم لجالينوس طبا.

(2) تفسير البرهان 2: 10 عن العياشي عن هارون بن خارجة قال قال أبو عبد اللّه (عليه السّلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 86

مسرفا، و أما ألا تأكل مسرفا فضره أقل إلا إذا كان مضرا كما الأكل، فكلا الأكل و الشرب و تركهما إسرافا أو تبذيرا محرم فإنهما محرمان كضابطة عامة في كافة الحقول.

إذا «وَ لا تُسْرِفُوا» تعم كل تجاوز كمي أو كيفي في الأكل و الشرب و ما أشبه من مصروفات هي إسرافات، أم و أنحس منها تبذيرات.

فالمواد الدخانية كلها داخلة في حقل الإسراف، أو التبذير، فالجيگارة و ما أشبه تنطبق عليها عناوين تالية:

1 الإسراف 2 أو التبذير 3 «إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما» تنطبق عليها لو كان لها نفع بضمن الضرر الأكثر، و قد تعرف علم الطب إلى أضرار الدخان، مما يوحش الإنسان من عواقب السوء للمتعود به‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منذ سنين عدة و قد تزايد السرطان في المجتمع البشري، أخذ العلماء الأوروبيين و الأمريكيين يحققون بحثا عن عوامل تزايد السرطان.

ففي سنة 1952 جماعة من أطباء الأمريكيين فحصوا بصور موسعة عن السرطان، فابتدءوا بمعتادي الدخان، و كانت من نتائج تحقيقاتهم ما فجر العالم من نبأه، إنهم حققوا في ولايات تسعة أمريكية، و فحصوا عن أمزجة أناس بين خمسين و سبعين و حصلوا بعد سنة من فحصهم أن أكثرية المبتلين بالسرطان هم المعتادين بالدخان، و قد يقدر ب 40/ 100 أكثر من غيرهم، حيث يموتون إثر الحملة القلبية و السرطان الرثوي، و على إعلان هذه المزرئة ترك 5/ 1 مليونا الدخان عن بكرته. ثم أخذت هذه الغوغائية من أخطار الجيگارة السرطانية انجلترا، و هنا مقالة لجريدة انجليزية طبّية باسم «لانست»:

ليست اليوم من أيام المقالات الحدسية، إنه يوم الجد الواقع، فقد ابتلي بالسرطان واحد من (11) شخصا كانوا يشربون الجيگارة يوميا 25- 50.

هذه الجريدة و سائر الجرائد الأنجليزية كان تستند إلى تحقيقات الدكتور هانري كوهن، فقد أثبت هذا الطبيب أنه يموت في انجلترا سنويا/ 000، 20 شخصا على أثر السرطان الرئوي، و الشخص المتعود على الجيگارة بعدد (25) يوميا يبتلى بالسرطان الرئوي أكثر من غيره 5/ 100- 6/ 100 الى 30/ 100.

و الجريدة الطبية الانجلترية طلبت من جميع الأطباء أن يحرموا التتن و التنباك، و أخيرا قدم اقتراح إلى المجلس النيابي البريطاني في أن يمنع بيع الجيگارة للشباب الأقل عمرا من (18) سنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 87

فلأن الإسراف في كل حقوله محرم‏

«من سأل الناس شيئا و عنده ما يقوته يومه فهو من المسرفين» «1».

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32).

«زينة اللّه» هي التي خلقها اللّه لعباده لكي ينتفعوا بها وفق شرعة اللّه، و الضابطة العامة- إذا- فيها هي الحلّ، إلّا ما أخرجه قاطع النص، «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (2: 29)، كضابطة الحل العامة، و هنا «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ» استنكار شديد على من حرم زينة اللّه كأصل تقشفا و رهبانية جاهلة قاحلة كما حصل من جمع من المسلمين، فنزلت الآية تنديدا بهم‏ «2»، و على حد

تعبير الرسول (صلى اللّه عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و مثل هذه التحقيقات أخذت دورها الفعال في فرنسا و سائر البلاد الأوروبية و في اليابان مثل ذلك، فقد حقق طبيب ياباني باسم «الدكتور بنجويم ووج» أن في تتن الجيگارة مادة سامة باسم (دايبنزن) إن زرقت جرذ أبتلي بالسرطان، و يضيف الدكتور (ووج) أن هذه المادة هي حصيلة احتراق التتن.

و قد جرّب ذلك الزرق في/ 4000 جرذا و بعد 42 يوما ابتليت كلها بالسرطان. و على أثر هذه التجربات الغوغائية ترك جمع كثير من الناس المعتادين بالدخان في كل أنحاء العالم و لا سيما في أمريكا و انجلترا، تركوا الجيگارة لحد سبب خسارة على سوق الجيگارة، لحد بعث أصحاب معامل الجيگارة مبعوثا باسم (الكساندر ماكسويل) إلى المقامات المعنية دفاعا عن منافعهم.

(1). راجع إلى ص 85 حاشية (2)

(2)

في تفسير الفخر الرازي 14: 63 روى عن عثمان بن مظعون‏ انه أتى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و قال: غلبني حديث النفس، عزمت على أن أختصي فقال: مهلا يا عثمان إن خصاء أمتي الصيام، قال: فإن نفسي تحدثني بالترهب، قال: إن ترهب أمتي القعود في المساجد لانتظار الصلاة، فقال: تحدثني نفسي بالسياحة، فقال:

سياحة أمتي الغزو و الحج و العمرة، فقال: إن نفسي تحدثني أن أخرج مما أملك، فقال: الأولى أن تكفي نفسك و عيالك و أن ترحم اليتيم و المسكين فتعطيه أفضل من ذلك، فقال: إن نفسي تحدثني أن أطلق خولة، فقال: إن الهجرة في أمتي هجرة ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 88

و سلم) توبيخا لهم: «لكني أصوم و أفطر و أصلي و أرقد و أتزوج النساء» «1».

ذلك، و الأصل في‏ «زِينَةَ اللَّهِ‏ ... وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ» أنها «هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» مهما كانت خليطة غير خليصة في الحياة الدنيا، «هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» في الحياة الدنيا كأصل مرضي حالكونها «خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» «2».

فالحياة الدنيا برمتها الزينة «إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (18: 7) إنها كما

يروى عن إمام المتقين علي (عليه السّلام): «من أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته»

فالتذرع بزينة الحياة الدنيا لزينة الحياة الأخرى محبور، و الإقبال عليها و الإخلاد إليها محظور.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حرم اللّه، قال: فان نفسي تحدثني أن لا أغشاها، قال: إن المسلم إذ أغشى أهله أو ما ملكت يمينه فان لم يصب من وقعته تلك ولدا كان له و صيف في الجنة و إذا كان له ولد و مات قبله أو بعده كان له قرة عين و فرح يوم القيامة و ان مات قبل أن يبلغ الخنث كان له شفيعا و رحمة يوم القيامة، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا آكل اللحم، قال: مهلا إني آكل اللحم إذا وجدته و لو سألت اللّه أن يطعمنيه كل يوم فعله، قال: فإن نفسي تحدثني أن لا أمس الطيب، قال: مهلا فإن جبرئيل أمرني بالطيب غبا و قال: لا تتركه يوم الجمعة، ثم قال: يا عثمان! لا ترغب عن سنتي فان من رغب عن سنتي و مات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي.

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 67 ب 1 و 89، ك 78 ب 84، مس- ك 16 ح 5- 8 تر- ك 9 ب 2، نس- ك 26 ب 4 مج- ك 9 ب 2، مى- ك 11 ب 3 عد- ج 1 ق 2 ص 95 ج 3 ق 1 ص 287 ج 4 ق 2 ص 8 حم- أول ص 175 و 176 و 183 ثان ص 158 و 187 3 و 194 و 195 و 197 و 198 و 199 و 200 3 و 216 و 245 و 289، ثالث ص 158 و 241 و 285 خامس ص 17 و 28 و 40 و 48 2 و 52 و 409 سادس ص 91 و 97 و 106 2 و 112 و 125 و 157 و 226 و 252 و 268 2 و ط- ح 32 و 219.

(2) فهنا «فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» كما هي ظرف ل «لِلَّذِينَ آمَنُوا» كذلك خبر ل «هي».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 89

ذلك و لقد و بخ مجاهيل من المتقشفين البعض من أئمة الدين على جميل الثياب فانعكس عليهم الأمر بتوبيخ اللّه في هذه الآية «1» مما يدل على أن الانتفاع من زينة اللّه في غير محظور محبور، مأكلا و مشربا و ملبسا و مسكنا و منكحا.

ف «اعلموا يا عباد الله أن المتقين جازوا عاجل الخير و آجله، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم و لم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، أباحهم الله في الدنيا ما كفاهم به و أغناهم ... سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، و أكلوها بأفضل ما أكلت، شاركوا أهل الدنيا في دنياهم فأكلوا معهم طيبات ما يأكلون و شربوا من طيبات ما يشربون، و لبسوا أفضل ما يلبسون، و سكنوا من أفضل ما يسكنون، و تزجوا من أفضل ما يتزوجون، و ركبوا من أفضل ما يركبون، و أصابوا اللذة مع أهل الدنيا و هم غدا جيران الله، يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون، لا ترد لهم دعوة، و لا ينقص لهم نصيب من اللذة، فإلى هذا يا عباد الله يشتاق إليه من كان له عقل» «2».

ذلك، و لما

يسئل الإمام علي (عليه السّلام): فعلى ما اقتصرت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 21 عن الكافي علي بن محمد بن بندار عن أحمد بن أبي عبد اللّه عن محمد بن علي رفعه قال: مر سفيان الثوري في المسجد الحرام فرأى أبا عبد اللّه (عليه السّلام) و عليه ثياب كثيرة القيمة حسان، فقال: و اللّه لآتينه و لأوبخنّه فدنا منه فقال: يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما لبس رسول اللّه مثل هذا اللباس و لا علي (عليه السّلام) و لا أحد من آبائك، فقال له أبو عبد اللّه (عليه السّلام) كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في زمان قتر مقتر و كان يأخذ لقتره و قتاره و ان الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها فأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ» فنحن أحق من أخذ منها ما أعطاه اللّه، غير أني يا ثوري على ما ترى عليّ من ثياب إنما لبسته للناس، ثم اجتذب يد سفيان فجرها ثم رفع الثوب الأعلى و أخرج ثوبا تحت ذلك على جلده غليظا فقال: هذا لبسته لنفسي غليظا و ما أريته للناس، ثم اجتذب ثوبا على سفيان أعلاه غليظ خشن و داخل الثوب لين فقال: لبست هذا الأعلى للناس و لبست هذا لنفسك تسترها.

(2) نور الثقلين 2: 23 في آمالي الشيخ الطوسي باسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السّلام) حديث طويل يقول فيه: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 90

في مطمعك على الجشوبة، و في ملبسك على الخشونة؟ يقول: ويحك إن اللّه عزّ و جلّ فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره .. «1».

و

يقول عن نفسه: ألا و إن لكل مأموم إماما يقتدي به، و يستضي‏ء بنور علمه، ألا و إن إمامكم قد اكتفى من دنياكم بطهريه- ثوبيه الباليين- و من طعمه بقرصيه، ألا و إنكم لا تقدرون على ذلك و لكن أعينوني بورع و اجتهاد، و عفة و سداد، فو اللّه ما كنزت من دنياكم تبرا، و لا ادّخرت من غنائمها وفرا، و لا أعددت لبالي ثوبي طهرا، و لا حزت من أرضها شبرا، و لا أخذت منه إلّا كقوت أتان دبرة، و لهي في عيني أوهى و أهون من عفصة مقرة ... و لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، و لباب هذا القمح، و نسائج هذا القزّ، و لكن هيهات أن يغلبني هواي، و يقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، و لعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، و لا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطانا و حولي بطون غرثى، و أكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

و حسبك داء أن تبيت ببطنة\* و حولك أكباد تحنّ إلى القدّ أ أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين و لا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر 24 عن الكافي في احتجاج أمير المؤمنين (عليه السّلام) على عاصم بن زياد حين لبس العبا و ترك الملا و شكاه أخوه الربيع بن زياد إلى أمير المؤمنين (عليه السّلام) انه قد غم أهله و أحزن ولده بذلك، فقال أمير المؤمنين (عليه السّلام) عليّ بعاصم بن زياد فجي‏ء به فلما رآه عبس في وجهه فقال له: أما استحييت من أهلك، أما رحمت ولدك، أ ترى اللّه أحل لك الطيبات و هو يكره أخذك منها؟ أنت أهون على اللّه من ذلك، أو ليس اللّه يقول: «وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ. فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ» أو ليس يقول: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ» إلى قوله: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ» فباللّه لابتذال نعم اللّه بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال و قد قال عزّ و جلّ:

«وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» فقال عاصم: ... و في نهج البلاغة مثله بزيادة: يا عديّ نفسه لقد استهان بك الخبيث ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 91

الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، و تلهو عما يراد بها، أو أترك سدى و أهمل عابثا، أو أجرّ حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة .. (284)-

ذلك، و فيما

يروى عن رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر»

حيث شبه الدنيا بالسجن للمؤمن إذ قصر فيها خطوة عن اللذات المرسلة، و كبح لجامه عن الشهوات المقبلة، و حصر نفسه عن التسرع إلى ما تدعو إليه الدواعي، و الأهواء المردية، و كان زمام نفسه و خطامها و هاويها و إمامها خائفا خوف الجاني المرعوب، و الطريد المطلوب، في عصبته عملوا للمعاد، و قطفوا للزاد، تحسبهم من طول سجودهم أمواتا، و من طول قيامهم نباتا.

و شبهها (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالجنة للكافر من حيث استوعب فيها شهواته، و استفرغ لذاته، و قضى فيها الأوطار، و تعجّل المسارّ، و استهواه عاجل حطامها، و ريق جماعها، فنسي العاقبة، و استهان بالمغبة، فكان ميّت الأحياء، كما كان المؤمن حي الأموات‏ «1».

و إليكم من‏

زهادة المرسلين (عليهم السّلام) برواية علي أمير المؤمنين (عليه السّلام): «و إن شئت ثنيت بموسى كليم الله (صلى الله عليه و آله و سلم) حيث يقول: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير» و اللّه ما سأله إلّا خبزا يأكله لأنه كان يأكل بقلة الأرض، و لقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه لهزاله و تشدّب لحمه‏ (الخطبة 158)-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول السيد الشريف الرضي في المجازات النبوية (36) بعد هذا التفسير للحديث: من أحسن ما سمعته في هذا المعنى أن بعض الزهاد المنقطعين طلب القوت من بعض الراغبين المفتونين، فقيل له في ذلك، فقال: أنا مسجون و هو مطلق، و هل يأكل المسجون إلّا من يد المطلق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 92

«و لقد دخل موسى بن عمران- و معه أخوه هارون (عليهما السلام) على فرعون و عليما مدارع الصوف و بأيديهما العصي، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه و دوام عزه فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز و بقاء الملك و هما بما ترون من حال الفقر و الذل؟ فهلا ألقي عليهما أساور من ذهب، إعظاما للذهب و جمعه و احتقارا للصوف و لبسه» (190)- «و إن شئت ثلثت بداود- صلى الله عليه و سلم- صاحب المزامير و قارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفاسف الخصو بيده و يقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها؟ و يأكل قرص الشعير من ثمنها» (158)- «و إن شئت قلت في عيسى بن مريم (عليهما السلام)، فلقد كان يتوسد الحجر، و يلبس الخشن و يأكل الجشب، و كان إدامه الجوع، و سراجه بالليل القمر، و ظلاله في الشتاء مشارق الأرض و مغاربها، و فاكهته و ريحانته ما تنبت الأرض للبهائم، و لم تكن له زوجة تفتنه، و لا ولد يحزنه، و لا مال يلفته، و لا طمع يذله، دابته رجلاه، و خادمه يداه» (158)- و من ثم نبينا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ف «قد حقر الدنيا و صغرها، و أهون بها و هونها، و علم أن الله زواها عنه اختيارا، و بسطها لغيره احتقارا، فأعرض عن الدنيا بقلبه، و أمات ذكرها عن نفسه، و أحب أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتخذ منها رياشا، أدير جوفيها مقاما بلغ عن ربه معذرا، و نصح لأمته منذرا، و دعا إلى الجنة مبشرا، و خوف من النار محذرا» (107)- «.. خرج من الدنيا خميصا، و ورد الآخرة سليما، لم يضع حجرا على حجر حتى مضى لسبيله و أجاب داعي ربه ..» (158)-

«و لقد كان في رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) كاف لك في الأسوة، و دليل لك على ذم الدنيا و عيبها، و كثرة مخازيها و مساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، و وطئت لغيره أكنافها، و فطم عن رضاعها، و زوي عن زخارفها» (158)-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 93

«قضم الدنيا قضما، و لم يعيرها طرفا، أهضم أهل الدنيا كشحا، و أخمصهم من الدنيا بطنا، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، و علم أن الله سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، و حقر شيئا فحقره، و صغر شيئا فصغره .. و لقد كان (صلى الله عليه و آله و سلم) يأكل على الأرض، و يجلس جلسة العبد، و يخصف بيده نعله، و يرفع بيده ثوبه، و يركب الحمار العاري و يردف خلفه، و يكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة- لإحدى أزواجه- غيبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا و زخارفها، فأعرض عن الدنيا بقلبه، و أمات ذكرها من نفسه، و أحب أن تغيب زينتها عن عينه ..» (88 ح)- ذلك، و هذه سنة الأنبياء مصلحية صالح الدعوة المستقيمة «و لو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، و معادن العيقان، و مغارس الجنان، و أن يحشر معهم طيور السماء و وحوش الأرض لفعل، و لو فعل لسقط البلاء، و بطل الجزاء، و اضمحلت الأنباء، و لما وجب للقابلين أجور المبتلين، و لا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، و لا لزمت الأسماء معانيها- و لكن الله سبحانه جعل رسله أولى قوة في عزائمهم، و ضعفا فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب و العيون غنى، و خصاصة تملأ الأبصار و الأسماع أذى- و لو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام، و عزة لا تضام، و ملك تمتد نحوه أعناق الرجال، و تشد إليه عقد الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الإعتبار، و أبعد لهم من الاستكبار، و لأمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة، و الحسنات مقتسمة، و لكن الله سبحانه أراد أن يكون الإتباع لرسله، و التصديق بكتبه، و الخشوع لوجهه، و الاستطانة لأمره، و الاستسلام لطاعته، أمورا له خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة، و كلما كانت البلوى و الاختبار أعظم، كانت المثوبة و الجزاء أجزل» (الخطبة القاصعة 234).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 94

ذلك! و جمعا بين الأمرين، انتفاعا من زينة اللّه، و إنفاقا منها على عباد اللّه‏

«كان علي بن الحسين عليهما السلام يلبس الثوب بخمسمائة دينار و المطرف بخمسين دينارا يشتو فيه فإذا ذهب الشتاء باعه و تصدق بثمنه» «1».

إذا فلا محظور في أصل الزينة ما لم يكن هناك محظور آخر، بل هي محبورة مشكورة اللّهم إلّا لطوارى و ملابسات محظورة و كما هي الضابطة في كافة النعم الربانية، بل هي لهم بأحرى ممن لا يؤمن باللّه، فهم أولاء مغتصبون و هؤلاء الأكارم هم مغتصبون و «كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

ذلك، و إخراج زينة اللّه يعم الزينة المحاولة بما يسعى لها الإنسان إلى سواها، حيث الإنسان هو نفسه مخرج من الأرض بمشيئة اللّه و منبت منها، و كذلك كل طاقاته هي كمثله مخرجة اللّه.

فتلك حضارة إسلامية سامية أن يشجع القرآن على كل زينة محبورة تزين حياة الإنسان و عيشته فرديا و جماعيا، و على‏ «الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 23 في تفسير العياشي عن أحمد بن محمد عن أبي الحسن (عليه السّلام) قال: ..

و

فيه عن يوسف بن إبراهيم قال: دخلت على أبي عبد اللّه (عليه السّلام) و عليّ جبة خز و طليسان خز، ما تقول فيه؟ قال: و لا بأس بالخز، قلت: و سداه إبريسم فقال:

لا بأس به فقد أصيب الحسين بن علي (عليهما السّلام) و عليه جبة خز.

و

فيه عن الوشا عن الرضا (عليه السّلام) قال: كان علي بن الحسين (عليهما السّلام) يلبس الجبة و المطرف من الخز و القلنسوة و يبيع المطرف و يتصدق بثمنه و يقول: قل من حرم زينة اللّه ..

و

فيه عن الكافي عن ابن القداح قال: كان أبو عبد اللّه (عليه السّلام) متكيا علي- أو قال: على أبي- فلقيه عباد بن كثير و عليه ثياب مرويّة حسان فقال: يا أبا عبد اللّه إنك من أهل بيت نبوة و كان أبوك و كان؟ فما هذه الثياب المزينة عليك فلو لبست دون هذه الثياب؟ فقال أبو عبد اللّه (عليه السّلام): ويلك يا عباد من حرم زينة اللّه التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق و ان اللّه عزّ و جلّ إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يراها عليه، ليس به بأس ويلك يا عباد إنما أنا بضعة من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فلا تؤذني و كان عباد يلبس ثوبين قطنين.

و

فيه عن العياشي عن الحكم بن عيينة قال: رأيت أبا جعفر (عليه السّلام) و عليه إزار أحمر، قال: فأحددت النظر إليه فقال:

يا أبا محمد ان هذا ليست به بأس ثم تلا «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 95

إنسانيا و إيمانيا، حياة زيّنة طيبة تطيّب الإنسان و تزينه في كافة الحقول الحيوية، دون رهبنة و تقشف مبتدعين.

لا فحسب أن تلك الحضارة مسموحة ممنوحة للذين آمنوا، بل و «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» فهم أولاء أصول لهذه الحضارة الراقية المباركة، و على هامشهم سائر الناس، خلاف ما يزعم أن هذه الحضارة خاصة بالذين كفروا و صالحوا العباد عنه بعاد!.

و هنا «خالصة» قد تعني مع الخلوص لهم عن شركاء، خلوصا عن الأوشاب و الغصص التي تشوب كل زينة و طيبة من الرزق، فلا خليط لهم هناك من سواهم و لا من ملابسات النعم التي هي من قضايا الحياة الدنيا.

ترى في أغوار التاريخ الإنساني جاهليات مسخت الفطر و الفكر و العقول، بل و الحواس الإنسانية من الجاهلية العربية و الإغريقية و الرومانية و الفارسية، و على طول خطوط الجاهليات و خيوطها في كل زمان و مكان حتى الآن.

فهذه الجاهلية المتحضرة التي يعيشها الحضاريون! قد أعارتهم جماعا من الجاهليات عبر التاريخ، فأعرتهم من ملابسهم كما أعرتهم من كل تقوى، و أدخلتهم في جموع الطغوى، و هي تعيّر الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات بأنهن «رجعيات»- «تقليديات»- «ريفيات».

فالمسخ هو المسخ، و الانتكاسة هي نفس الانتكاسة، مهما عربدت و أرعدت و أبرقت ببريقات تبرز العورات أكثر ماهية شناعة و فضاحة.

و ترى ما هو الفارق بين البهائم العارية بطبيعة الحال، و هؤلاء البهم في صورة الإنسان بسيرة الحيوان بل هم أضل سبيلا.

إن بيوتات الأزياء الضياع و مصمميها، و أساتذة التجمل و دكّاتها، إنها هي التي تكمن وراء هذا الخبل العاهر الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية المتحضرة و لا رجالها المتأنثون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 96

من ذا الذي يقبع وراء هذه الأزياء القاحلة، و وراء سعار التعري و التكشف، و وراء الأفلام و الصور و ما أشبه، التي تقود هذه الحملة المسعورة المسعرّة.

لقد مسخت الجاهلية المتحضرة التصورات و الأذواق و الفطر و العقول و القيم و الأخلاق الإنسانية، إذ جعلت العرى الحيواني تقدما و رقيا، و الستر الإنساني تأخرا و رجعية!.

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (33).

ترى «إنما حرم» هنا تحصر المحرمات كلها بهذه الخمس؟ و هناك محرمات كثيرة خارجة عنها! أم هي المحرمات الوقتية في ردح من العهد المكي، ثم تتلوها محرمات أخرى بعدها مكية و مدنية؟.

«إنما» و لا سيما نظرا إلى «ربي» يؤكدان حصر المحرمات في هذه الخمس، لا سيما و أن محرمات غيرها كانت مبيّنة الحرمة قبل هذه الآية، ثم و كافة المحرمات في شرعة التوراة المفصلة فيها هي محرمة في شرعة القرآن و لم ينسخ منها حتى الآن و لا واحدة، فتظل هي محرمة في شرعتنا، إذا ف «إنما» لا تختص بعديد من محرمات بآيات مكية فحسب.

إنها تشمل بوجه عام كافة المحرمات حالا و قالا و أعمالا، متجاوزة و سواها، ف «الفواحش» هي المعاصي المتجاوزة حدها في الحرمة، و المتجاوزة إلى غير الفاعل، أو المتجاوزة فيهما، ثالوث من التجاوزات الشاملة لأمهات المحرمات‏ «ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ» ظهورا كأصل أم لغير الفاعل‏ «1»، فمما ظهر، أن تخير غيرك بمعصية ارتكبتها خفية، فإنه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 80- أخرج عبد الرحمن عن يحيى بن كثير أن رجلا قال يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إني أصبت حدا فأقمه علي فجلده ثم صعد المنبر و الغضب يعرق في وجهه فقال: أيها الناس إن اللّه حرم عليكم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن فمن أصاب منها شيئا فليستتر بستر اللّه فإنه من يرفع إلينا من ذلك شيئا نعمة عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 97

معصية على معصية تجعلهما فاحشة، و بطونا كأصل أم عن غير الفاعل، فهي تشمل الفواحش العقيدية و العملية أماهيه.

و هل الفاحشة تعم النية إلى العقيدة و العلمية الخاطئة إلى العملية؟

النية ما لم تصل إلى تحقيق المنوي ليست معصية فضلا عن فاحشة، و إذا وصلت إليه فهي من الإثم حيث الفاحشة هي المعصية المجاوزة الحد في نفسها أم إلى غير العاصي، و ليست نية الشر معصية حتى تصبح فاحشة، و إذا وصلت نية الشر إلى الشر فهي- إذا- من الإثم.

فالفاحشة تعم الفاحشة حدّها في نفسها، أم المتعدية إلى غير فاعلها، أو الواصل خبرها إلى غيره و هي خفية.

ثم «الإثم» هو «المبطئ عن الثواب» إبطاء عن وقته أم كمه أو كيفه، أم إبطاء عن أصله، و «الثواب» هنا هو الواجب تحصيله لمكان «حرم» و يعم الثواب المفروض فعلا لمحبور و تركا لمحظور، فكل مقدمات ترك الواجب أو فعل الحرام أم نقص في الواجب وقتا أو كما أو كيفا، هي من الإثم، و كما أن ترك الواجبات أو فعل المحرمات التي تستعقب شؤم الحياة أم محظورات أخرى هي كلها من الإثم، و من كبير الإثم «الخمر و الميسر» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 25 في الكافي عن علي بن يقطين قال‏ سأل المهدي أبا الحسن (عليه السّلام) عن الخمر هل هي محرمة في كتاب اللّه عزّ و جلّ فان الناس إنما يعرفون النهي عنها و لا يعرفون التحريم لها؟ فقال له أبو الحسن (عليه السّلام) بل هي محرمة في كتاب اللّه جلّ اسمه يا أمير المؤمنين فقال له في أي موضع محرمة في كتاب اللّه جلّ اسمه يا أبا الحسن؟ فقال: قول اللّه عزّ و جلّ: «إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» فأما قوله‏ «ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ» يعني الزنا المعلن و نصب الرايات التي كانت ترفعها الفواجر للفواحش في الجاهلية، و أما قوله عزّ و جلّ:

«وَ ما بَطَنَ» يعني ما نكح من الآباء لأن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذا كان للرجل زوجة و مات تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمة فحرم اللّه عزّ و جلّ ذلك، و أما الإثم فانها الخمر بعينها و قد قال اللّه عزّ و جلّ في موضع آخر «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ»، فأما الإثم في كتاب اللّه فهي الخمر و الميسر و إثمهما كبير كما قال اللّه، فقال المهدي يا علي بن يقطين هذه و اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 98

فمن الإثم- إذا- نية المحرم الواصلة إلى تحقيقه كسائر مقدماته قريبة أو بعيدة، آفاقية و أنفسية التي هي مختارة للفاعل، و كذلك نية ترك الواجب الواصلة إلى تركه أو المبطئة عنه، فمقدمات الواجبات كلها واجبة و مقدمات المحرمات الموصلة إليها محرمة، و غير الموصلة غير داخلة في شي‏ء من هذه العناوين الخمس ثم و لا دليل غيرها على حرمتها.

و لأن الإثم يعم القال و الحال و الفعال بالمآل، فمثلث الإثم- إذا- معني منه على أيّة حال، اللّهم إلّا بقرينة معيّنة، فمن الحال: «وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ» (2: 283).

إذا فالإثم يعم عمل الخطيئة- كشرب الخمر «1» و ما أشبه- و مقدماتها و كما قوبلت به: «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ..» (4: 112).

و الإثم المذكور في القرآن كله (48) مرة، تعني معناها الخاص: ما يبطئ عن الواجب، إيجابيا ككل الواجبات، و سلبيا ككل المحرمات لمكان وجوب تركها.

ثم‏ «الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» هو طلب المحظور فطريا أو عقليا أو شرعيا، أم جمعا منها فأبغى، و هنا «بِغَيْرِ الْحَقِّ» قد تعني التأكيد المعني من أمثال‏ «يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» توصيفا بما هو لزام البغي، أم هو تقييد للبغي الشامل طلب الحق و الباطل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

يسأل المهدي الخليفة العباسي موسى بن جعفر (عليهما السّلام) هل الخمر محرمة في كتاب اللّه؟ و الناس إنما يعرفون النهي عنها! قال: محرمة، قال: أين هو؟ قال:

«.. وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ ..» حيث حرم الإثم و الخمر فيها إثم كبير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 99

ذلك، لأن «البغي» غير متمحضة لغويا في المحظور، فالواوي منها متعدية ب «على» تعني التعدي، و هي متعدية بنفسها تعني النظر إلى المتعدى كيف هو؟ و اليائي منها متعدية هي مطلق الطلب محظورا أو محبورا، و هي لازمة تعني العدول عن الحق.

ف «البغي» طليقة عن كل هذه تحتملها كلها، فلذلك قيدت هنا ب «بِغَيْرِ الْحَقِّ» إخراجا للبغي غير المحظور، فهي- إذا- هنا يائية لازمة، أو متعدية بعلى، حيث تعنيان الطلب الباطل.

ثم الباء في‏ «بِغَيْرِ الْحَقِّ» قد تعني كلا السببية و المعية، فالأولى تعني أي طلب بسبب غير الحق مهما كان طلبا للحق، و الثاني تعني طلبا مصاحبا غير الحق، مهما كان طلب الباطل، أم و طلب الحق مصاحبا حالة الباطل، كالأمر بالمعروف للتارك له، و النهي عن المنكر للفاعل إياه، و الدعوة إلى الخير دون معرفة صالحة للخير أو الدعوة إليه، و إلّا لكان بغيا بغير الحق مهما كان دركات حسب دركات غير الحق.

«وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ، ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً» و هي تعم كافة دركات الإشراك باللّه، في ألوهيته و ربوبيته و قضاءه و حاكميته الطليقة الربانية و كلما يختص بساحة قدسه تعالى دون سواه، و هنا «ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً» مما يزيد الإشراك باللّه نحوسة و نكوصة عن الحق المرام.

فلئن كان في الكون سلطان للإشراك، مهما كان قاصرا نحيفا، و لن يكن، لم يكن بذلك البعيد عن العقليات، و لكن الإشراك الذي لم ينزّل به أي سلطان فطري أو عقلي و ما أشبه، بل و كل سلطان أيّا كان يستنكره، فهو- إذا- أنكر المنكرات على الإطلاق!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 100

فهنا «سلطان» المنكر في سياق النفي، المستغرق ب «من» الجنسية، كلّ سلطان، تسلب أي سلطان فطري أو عقلي- أنفسيا- و أي سلطان من وحي و سواه آفاقيا، مهما أفاد احتمالا أو شكا أو ظنا أم علما.

فحتى احتمال حق الإشراك باللّه غير وارد بين أي سلطان، فضلا عن العلم، و ذلك مما يعظم عظم الجريمة العقيدية النكراء، و ليس للإشراك باللّه أي مثيل في النحوسة و النكوسة عن الحق المرام!.

و قد تعني «من سلطان» هنا ما تنزله الآلهة من براهين ألوهيتها و منها أن تأتيهم رسلهم، فلو كان هناك آلهة من دون اللّه لأتتك رسلها، إذا فتخيلة الإشراك المختلق فاقده لأي سلطان من هذه الأربع الآفاقية و الأنفسية من اللّه أن نزلها، أو من شركاءه المزعومة أن تنزلها، ثم وكل سلطان قاطع دليل لا مرد له على بطلان الإشراك!.

إذا فالإشراك باللّه هو قمة المحرمات على الإطلاق إذ لا يملك أي سلطان يحتمله أو يشكك فيه أو يرجحه فضلا عما يثبته علما أو يقينا، ثم وكل سلطان آفاقي و أنفسي و في أنفس الشركاء مكرسة معسكرة لسلبية الإشراك على الإطلاق‏ «أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ» (30: 35).

لذلك نسمع اللّه يكرر القول‏ «وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً» كما هنا و في غيرها من آيات تعني معناها!.

«وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» حيث تحصر القول- كما الفعل و الحال- بما يعلم أنه من اللّه حصرا لكل الأقوال و الأحوال و الأعمال فيما قال اللّه، و حسرا عما لا يعلم أنه من اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 101

فقد شملت هذه الخمس المحرمات بأسرها دون إبقاء، مهما لم تسم كل واحدة باسمها، إذ سميت برسمها، ما يحلّق على كل المحرمات في شرعة اللّه.

لا فحسب أنها تعم كل المحرمات الرسمية، بل و ترك الواجبات فإنه أيضا من المحرمات، فلم يبق حكم إلزامي فعلا أو تركا إلّا و هو مشمول لهذه الخمس.

فالآيات المبينات لتفاصيل المحرمات- كما الروايات- هي شارحة لما أجمل في هذه الخمس، و ما أجمله إجمالا ينبع منه كل تفصيل.

فمن المحرمات ما هي مقدمات لمحرمات و هي كافة المقدمات الموصلة إلى محرمات فهي «الفواحش» و منها ما هي محرمات غير فاحشة، و ثالثة هي فاحشة في نفسها، و رابعة ما هي فاحشة إلى غيرها، سواء أ كانت محرمة أخرى كالخمر التي تفتح أبواب محرمات أخرى، أم أشخاصا آخرين كالقتل و السرقة، و هذه كلها مشمولة للفاحشة، اللّهم إلا الأولى المشمولة للاثم و الثانية المشمولة للبغي، كما المستتبعة لغيرها للإثم مهما كانت- أيضا- من الفواحش، ثم المحرمات العقيدية و القولية مشمولة للأخيرين.

و هنا «أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» تعم الفتاوى غير المسنودة إلى علم أو إثارة من علم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر 26 في الفقيه قال أمير المؤمنين (عليه السّلام) في وصية لابنه محمد بن الحنفية يا بني لا تقل ما لا تعلم بل لا تقل كلما تعلم،

و

في نهج البلاغة قال (عليه السّلام): علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، و ألا يكون في حديثك فضل عن عملك، و ان تتقي اللّه في حديث غيرك،

و

في عيون أخبار الرضا (عليه السّلام) عن علي (عليه السّلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 102

فلا يحق القول على اللّه، أنه قول اللّه، إلا سنادا إلى كتاب اللّه أو سنة رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بحجة بينة، و طريقة قيمة صالحة حاصلة على حق القول و القول الحق بحق اللّه، ثم لا يسند ما وراء ذلك إلى اللّه، و إنما يقال: هكذا أفهم و اللّه أعلم، دون تأكيدة لحجية قوله فضلا عن سناده إلى اللّه.

و هنا «ما لا تَعْلَمُونَ» تشمل العلم أو القطع الحاصل من غير الطرق الصالحة إلى الوحي، و الوحي لا يعلم إلا بنفسه، بعلم هو نفسه، أو أثارة من علم هي نقل رجالات الوحي، و هو السنة القطعية الصادرة عن مصادر الوحي.

ثم ما وراء ذلك يعبّر عنه في القرآن بالظن، «ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (4: 46) تحصر الحجة بها، ثم ما وراء هما ظن و «إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» (28:) 53).

و القول: إن القطع حجة ذاتية فلا يزول إلا بحجة تماثله أم هي أقوى؟ إنه غول من القول: حيث المقطوع كتابا و سنة ألا حجة إلا فيما يقطع به أو يعلم من الكتاب أو السنة.

ثم القاطع بغيرهما- على فرضه- هل يقطع بانحصار الحق فيه، انحسارا له عما سواه؟ طبعا لا، و إلّا كان مكابرا يفضل غير الوحي على الوحي للحصول على أصل الوحي!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و سلم): من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماوات و الأرض،

و

في الخصال قال عبد اللّه (عليه السّلام) أنهاك عن خصلتين فيهما هلك الرجال، ان تدين اللّه بالباطل و تفتي الناس بما لا تعلم،

و

في كتاب التوحيد عن زرارة قال‏ سألت أبا جعفر (عليهما السّلام) ما حجة اللّه على العباد؟ قال: أن يقولوا ما يعلمون و يقفوا عند ما لا يعلمون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 103

ثم و لا يحصل القطع الخالي عن أية ريبة بالطرق غير القطعية كالرؤيا و دليل العقل في الأحكام الفرعية، و الإجماع و الشهرة و حتى الإطباق، اللّهم إلّا لمن هو قطّاع يقطع بأقل لمحة، فهو- إذا- من قطاع طريق الحق، و القرآن يعبر عن كل علم أو قطع و ما دونهما من غير طريق الوحي القاطع، يعبر عن كل ذلك بالظن، إذا فأين الحجية الذاتية للقطع شرعيا، مهما كانت حجة عرفية أماهيه؟.

ثم الذاتي لا يتخلف و لا يختلف عن الواقع أبدا، و نحن نرى تخلفات في قطعيات- حتى الحاصلة من الكتاب و السنة- فضلا عما سواها، و الفارق بين القطعين حجية الحاصل من دليل الوحي بدليل الوحي، و عدم حجية ما سواه.

ذلك، و قد لا نجد آية تعم كافة المحرمات كهذه، حيث شملت الصغائر إلى الكبائر، و المتعديات إلى سواها، في مثلث القال و الحال و الفعال، و ثالوث 1 المقدمات 2 و الأصول، متعدية إلى محرمات أخرى 3 و سواها، فواجب التقوى يشملها كلها مهما اختلفت درجاتها حسب اختلاف دركات المحرمات.

و بتقسيم آخر للمحرمات نقول الجنايات خمس حسب النواميس الخمسة، فمنها الجناية على العقول كشرب الخمر و ما أشبه من مطعوم أم دعايات تزيل العقل أو تخففه، و هي مشمولة ل «الفواحش و الإثم و البغي بغير الحق».

و منها الجناية على النفوس كقتل النفس و هي مشمولة لهذه الثلاثة، أو على الأعراض كالزنا و كذلك الأمر، أو على الأموال و هكذا الأمر، أو على الأديان و هي الإشراك باللّه و القول بغير علم على اللّه.

و لأن النواميس الخمس محرمة الضياع و مفروضة الحفاظ في كافة شرائع اللّه، فهذه الخمس المسرودة هنا و هي عبارة أخرى عن هذه النواميس، هي المحرمات الأصلية التي حرمت في كافة شرائع دون أي نسخ أو تحوير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 104

فقد شملت هذه الآية كافة صنوف المحرمات صغيرة و كبيرة، ما ظهر منها و ما بطن، بنوعياتها و آثارها، بأصولها و مقدماتها و غاياتها، فلم تبق أية محرمة مفصلة في شرعة اللّه و غير مفصلة إلّا و هي داخلة في هذه الآية الضابطة لها كلها!.

ذلك، و جملة القول أن طاعة اللّه الصالحة هي أن يطاع كما يريد، لا كما تريد و هو يريد أن تحصل على علم الطاعة من وحيه فقط، و أما غيره فهو من دخول الدار من غير بابها، فحتى أن حصلت على علم واقع من غير طريق الوحي المقرر له طريقا خاصة، فذلك مرفوض.

و ترى إن أمرك المولى أن تدخل داره من مدخل خاص و حذّرك أن تدخله من سائر المداخل، فهل لك أن تدخلها من سائرها.

و هكذا اللّه أمرنا بما أمرنا، ثم أمرنا أن نحصل على معرفة أوامره من طريق وحيه لا سواه، إذا فلا حجة في هذه السبيل إلّا وحيه لا سواه.

فكما أن من فسر القرآن برأيه أخطأ أو أصاب، و من أفتى بغير علم أخطأ أو أصاب، و من حكم بحكم له هو ليس بأهله أخطأ أو أصاب، كان طريقه إلى النار.

كذلك من حكم بحكم أنه من اللّه و هو ليس من أهله، أم هو من أهله و لكنه يحكم بغير الوحي، فهو أخطأ أو أصاب كان طريقه إلى النار.

فليس فقط على المكلفين أن يطبقوا ما يعلمون من أحكام اللّه، بل و عليهم أن يعلموها مما قرره اللّه، و هو علم أو إثارة من علم، فالعلم هو كتاب الوحي، و أثارة من علم هو السنة القطعية الرسالية على هامشه، ثم لا علم صالحا من غير هذين الطريقين الصالحين.

ذلك، و حين يختص علم النبي بطريق الوحي دون عقليته البارعة أم سواها، فكيف يعم علم من سواه في حقل الشرعة طريق الوحي إلى سواه.

فقد و اللّه قال اللّه ما يحتاجه المكلفون إلى يوم الدين في إذا عتي الكتاب و السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 105

فالضوابط العامة و قسم من الفروع الهامة مذكور- و لا بد- في الإذاعة القرآنية المستمرة مع الأبد، و سائر الأحكام الهامشية تتكفلها السنة القطعية، و لو أن حكما من الأحكام أصلية أو فرعية كان في علم اللّه انه لا يصل صالح الوصول إلى الأمة من طريق السنة لكان يذكره في كتابه لكيلا يفلت بأسره، حفاظا على تمام الدين و كمال النعمة، و لأنها الشريعة الأخيرة التي لا بديل عنها إلى يوم القيامة، فلتكن مبينة بين الكتاب و السنة.

و أما أن يحول اللّه بعض الأحكام إلى اجتهادات المجتهدين فلا يبينها أم يعلم أنها تخفى عن السنة، فذلك نقص في الشرعة و نقض للغاية المشرعة لها الشرعة.

فا العلم و العلم فقط من طريق الوحي هو الحجة الشرعية في الأحكام و ما أشبه من أمور الدين، و لا يحصل القطع من غير طريق الوحي حيث الطرق كلها دون الوحي جائزة الخطأ، فكيف يحصل القطع من طريقة جائزة الخطاء؟.

«ذمتي بما أقول رهينة و أنا به زعيم، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات حجزته التقوى عن تقحم الشبهات .. ألا و أن الخطايا خيل شمس، حمل عليها أهلها و خلعت لجمها فتقحمت بهم في النار، ألا و إن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها و أعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة» «1»

و

«لا يهلك على التقوى سنخ أصل، و لا يظمأ عليها زرع قوم، فاستتروا في بيوتكم و أصلحوا ذات بينكم و التوبة من ورائكم، و لا يحمد حامد إلا ربه، و لا يلم لائم إلا نفسه» (خ 16).

و

«ان في أيدي الناس حقا و باطلا، و صدقا و كذبا، و ناسخا و منسوخا، و عاما و خاصا، و محكما و متشابها، و حفظا و وهما، و لقد كذب على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على عهده حتى قام خطيبا فقال: «من كذب على متعمدا فليتبوء مقعده من النار-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 16/ 55.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 106

و إنما أتاك‏

بالحديث‏ أربعة رجال ليس لهم خامس:

رجل منافق مظهر للإيمان، متصنّع بالإسلام، و لا يتأثّم و لا يتحرّج، يكذب على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) متعمدا، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه و لم يصدقوا قوله، و لكنهم قالوا:

صاحب رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رآه و سمع منه و يقصّ عنه فيأخذون بقوله، و قد أخبرك اللّه عن المنافقين بما أخبرك، و وصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة و الدعاة إلى النار بالزور و البهتان، فولّوهم الأعمال، و جعلوهم حكاما على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، و إنما الناس مع الملوك و الدنيا إلّا من عصم اللّه، فهذا أحد الأربعة- و رجل سمع من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شيئا لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه و لم يتعمد كذبا، فهو في يديه و يرويه و يعمل به و يقول: أنا سمعته من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فلو علم المسلمون أنه و هم فيه لم يقبلوا منه، و لو علم هو انه كذلك لرفضه- و رجل ثالث سمع من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شيئا يأمر به ثم إنه نهى و هو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شي‏ء ثم أمر به و هو لا يعلم، فحفظ المنسوخ و لم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، و لو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه- و آخر رابع لم يكذب على اللّه و على رسوله، مبغض للكذب خوفا من اللّه، و تعظيما لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لم يهم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه، لم يزد فيه و لم ينقص منه، فحفظ الناسخ فعمل به، و حفظ المنسوخ فجنب عنه، و عرف الخاص و العام، فوضع كل شي‏ء موضعه، و عرف المتشابه و محكمه- و قد كان يكون من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الكلام له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 107

و جهان: فكلام خاص و كلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى اللّه سبحانه به، و لا ما عنى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فيحمله السامع و يوجهه على غير معرفة بمعناه، و ما قصد به و ما خرج من أجله، و ليس كل أصحاب رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من كان يسأله و يستفهمه حتى أن كانوا ليحبون أن يجي‏ء الأعرابي و الطارئ فيسأله (عليه السّلام) حتى يسمعوا، و كان لا يمر بي من ذلك شي‏ء إلا سألته عنه و حفظته، فهذه وجوه ما عليه الناس في اختلافهم و عللهم في رواياتهم» (الخطبة 201).

ذلك، فكيف نثق بحديث المعروف بالثقة و علّه 1 منافق أو فاسق، 2 أم إن كان في الحق ثقة علّه تقبّله ممن عرفه بالوثوق و ليس ثقة، 3 أم إنه وارد مورد التقية و هو لا يعرف، 4 أم هو منقول بالمعنى الذي لم يعن منه، 5 أو تقطّع أن سقط عنه ما يدل على صالح معناه، 6 أو منسوخ بحديث آخر أم آية، و ما أشبه من كوارث الحوادث في الحديث.

فما ذا تفيد صحة السند حين يحتمل الحديث مختلف الاحتمالات، و إنما تسد صحة السند ثغر التعمد على الكذب بواقع الثقة.

و إنما الوثوق مرتكن على سلامة المتن من التهافت و التبعثر، و موافقة الكتاب و السنة، أو عدم مخالفتهما، و عدم المعارض الذي يجعله غير معلوم الصدور، و كون أحد السندين أوثق من الآخر لا يجعله معلوم الصدور، فهو داخل في النهي: «لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»!.

إذا فلا دور لصحة السند إلا ضمانا لعدم تعمد الكذب، دون ضمان لصدوره دون تقية و لا نسخ و لا سلامة عن النقل بالمعنى و لا تقطع و ما أشبه.

ذلك، و لأن العلم ثلاثة، علم يحلّق على الواقع كله و هو مختص باللّه سبحانه أو و من علّمه بوحيه ما علّمه، و هذا لا يقبل الخطأ، و علم هو أضيق من الواقع و هو الحاصل من غير الوحي، و هذان قسمان اثنان: علم يحصل من طريق الكتاب و السنة بشروطه، و آخر يحصل من غيرهما أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 108

منهما دون شروطه، فالعلم الأول غير مفروض علينا و لا ميسور، و الثالث مرفوض محظور، و الثاني محبور، فإذا صادف الواقع- و قليلا ما يخطأ لمكان عدم العصمة- ففيه أجران، و إذا لم يصادف الواقع ففيه أجر واحد لمكان القصور الذاتي لغير المعصومين (عليهم السّلام)، و لا حجة في العلم الحاصل بالأحكام الشرعية من غير الطرق المقررة الشرعية، لقصور سائر الطرق ذاتيا إضافة إلى قصورين يعلم بها، و أما الحاصل من الطرق المقررة الشرعية فهو حجة شرعية لمكان عدم التقصير في الحصول عليه و انه لا تكلف نفس إلا وسعها.

و ما دغدغة ذاتية الحجية للقطع إلا خرافة، فإن كان القصد حجيته العقلية بمعنى الانطباق على الواقع مائة بالمائة فهذا زلل من القول و زور، و إن كان بمعنى الانطباق الأحياني الذي جعل الشارع حجة فكذلك الأمر، حيث الحجة المنحصرة في الكتاب و السنة بدليل الكتاب و السنة تسلب أية حجية لأي دليل أو علم!.

و فيما يلي- على ضوء الآيات البينات التي تحصر الإتباع بالعلم في الكتاب و السنة- روايات نموذجية عن الرسول و الأئمة من عترته (عليهم السّلام):

1:

في حديث النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم). حين أتاه عمر فقال: «إنا نسمع أحاديث من اليهود تعجبنا، فترى أن نكتب بعضها؟

فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): أ فتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود و النصارى؟ لقد جئتكم بها نقية، و لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»! «1»

2:

في حديث علي (عليه السّلام): «.. أيها الناس عليكم بالطاعة و المعرفة بمن لا تعذرون بجهالته، فإن العلم الذي هبط به آدم (عليه السلام) و جميع ما فضلت به النبيون إلى محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) خاتم النبيين، في عترة نبيكم محمد (صلى الله عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عوالم العلوم (2- 3): 386.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 109

و سلم)، فأين يتاه بكم؟ بل أين تذهبون؟ يا من نجى من أصلاب أصحاب السفينة فهذه مثلها فيكم فاركبوها، فكما نجا في هاتيك من نجا فكذلك ينجو في هذي من دخلها، أنا رهين بذلك قسما حقا و ما أنا من المتكلفين، الويل لمن تخلف ثم الويل لمن تخلف .. «1».

3:

في حديث الباقر (عليه السلام) لسلمة بن كهيل و الحكم بن عتيبة: شرقا أو غربا لن تجدا علما صحيحا إلا شيئا خرج من عندنا أهل البيت» «2».

4:

في حديث الصادق (عليه السّلام): من دخل في هذا الدين بالرجال أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه، و من دخل فيه بالكتاب و السنة زالت الجبال قبل أن يزول‏ «3».

5:

في حديثه الآخر «لا تحل الفتيا لمن لا يستفتي من الله عز و جل بصفاء سره، و إخلاص عمله و علانيته و برهان من ربه في كل حال، لأن من أفتى فقد حكم، و الحكم لا يصح إلا بإذن من الله عز و جل و برهانه، و من حكم بالخبر بلا معاينة فهو جاهل مأخوذ بجهله، مأثوم بحكمه، قال النبي (صلى الله عليه و آله و سلم): أجرءكم بالفتيا أجرءكم على الله عز و جل، أو لا يعلم المفتي أنه هو الذي يدخل بين الله تعالى و بين عباده و هو الحاجز بين الجنة و النار» «4».

و

قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): اتقوا تكذيب اللّه، قيل:

يا رسول اللّه و كيف ذاك؟ قال: يقول أحدكم: قال اللّه، فيقول اللّه عزّ و جلّ: كذبت لم أقله، و يقول: لم يقل اللّه، فيقول اللّه عزّ و جلّ:

كذبت قد قلته‏ «5»

و

في وصية أمير المؤمنين (عليه السّلام): .. و أن أبتدأك بتعليم كتاب اللّه عزّ و جلّ و تأويله و شرائع الإسلام و أحكامه و حلاله و حرامه، لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر

(2) المصدر 393.

(3) المصدر 400 عن غيبة النعماني.

(4) المصدر 423 عن مصباح الشريعة.

(5) المصدر 427 عن معاني الأخبار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 110

أجاوز ذلك بك إلى غيره‏ «1».

[سورة الأعراف (7): الآيات 35 الى 46]

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى‏ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (36) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (37) قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38) وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) وَ نادى‏ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44)

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45) وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (46)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). العوالم (2- 3): 236 نهج البلاغة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 112

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (34).

هناك آجال شخصية بين محتومة و معلقة، و هنا أجال جماعية، فهل هي كماهيه آجال الأعمار بقسميها؟ و لا نجد أمة بكاملها تنقضي بموت لأجل محتوم أو معلق على أية حال!.

أم هي آجال في كيانها دون كونها كالأمم الرسالية الخمس حيث يقضى على شرعة كل بمجي‏ء الأخرى، ثم الأمة الإسلامية أجلها القيامة الكبرى إذ لا أمة رسالية بعدها، و قد يتأيد أجل الكيان بآيات يونس:

«وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ. وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 27 فيه عدة روايات تشابه ما نقلناه عن الدر المنثور في تفسير الآية أنها تشمل آجال الأعمار،

و

فيه عن كتاب التوحيد بسند متصل عن ابن حيان التميمي عن أبيه: و كان علي (عليه السّلام) يفنى الكتاب يوم صفين و معاوية مستقبله على فرس له يتأكل تحته تأكلا و علي (عليه السّلام) على فرس رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 113

ذلك، بعد ما يتأيد بما احتفت به من آيات تخاطب بني آدم ككل:

«يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ‏ ... وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ‏ ... يا بَنِي آدَمَ» إذا فكل الأمم الرسالية الخمس مؤجلة بأجل محتوم دون تعلّق، حيث ينقضي دورها الرسالي بأمة رسالية أخرى تليها، و مجي‏ء الأجل هنا هو مجي‏ء قضاء، لا نفسه، حتى ينافي لا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون.

و هنالك أجل ثالث هو أجل كل الأمم عن بكرتهم كما في يونس‏ «وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» 61 و «كل أمة» هنا تعني كل الأمم، و لكنه احتمال بعيد عن ساحة الدلالة القرآنية.

ثم و مجي‏ء الأجل في هذه الآجال لا يعني هنا واقعها إذ لا معنى- إذا- لاستقدامها و قد قضيت، بل هو مجي‏ء تقدير الآجال فلا مؤخر لها إذا و لا مقدّم عما عجلت أم أجّلت لها من آجال، أم إنه واقع الأجل بفارق أنه في «يستقدمون» مستحيل ذاتيا، و في يستأخرون وقوعيا، فقد عني- إذا- تلحيق «يستأخرون» ب «يستقدمون» في الإحالة مهما اختلفت فيها ذاتيا و سواها، حيث القصد هنا أصل الاستحالة لا و كيفيتها.

ذلك، و ترى كيف «لا يستأخرون» مهما هم «لا يستقدمون»؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المرتجز و بيده حربة رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و هو متقلد سيفه ذا الفقار، فقال رجل من أصحابه: احترس يا أمير المؤمنين فانا نخشى أن يغتالك هذا فقال علي (عليه السلام): لئن قلت ذلك أنه غير مأمون على دينه و انه لأشقى القاسطين و ألعن الخارجين على الائمة المهتدين، و لكن كفى بالأجل حارسا، ليس أحد من الناس إلا و معه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا حان أجله خلوا بينه و بين ما يصيبه و كذلك إذا حان أجلي انبعت أشقاها فخضب هذه من هذا- و أشار بيده إلى لحيته و رأسه- عهدا معهودا و وعدا غير مكذوب.

أقول: فالمفروض على المكلفين التحرز عن بواعث الموت إلا فيما أمر الله بالجهاد، ثم ليس عليهم الحفاظ على أنفسهم أكثر من ذلك التحرز حيث الأجل ضمان رباني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 114

«لا يَسْتَأْخِرُونَ» حيث يرون عندئذ ألّا مجال لتأخير لأنه أجل محتوم، ثم «لا يستقدمون» قد تعني- مع ما عنت- أن ليس لهم تقدم الأجل المحتوم مهما حاولوا، اللّهم إلّا المعلق و لكنه أيضا غير بعيد عن مشيئة اللّه.

و قد تعني «كل أمة» كل الأمم رسالية و سواها بكياناتها الجماعية قيادية روحية أو زمنية أمّاهيه من كيانات جماعية.

أو تعني‏ «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ»- مع ما عنت- أجل الموت المحتوم قبل القيامة، و الأمة- إذا- هي أمة الموت، فإن لكل آن أمواتا بين كل الأحياء، «لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» الأجل المحتوم لا فرديا و لا جماعيا «1» و ما علينا أن نتحرز عن الآجال المحتومة فإنه غير مستطاع لنا إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 81 عن أبي الدرداء قال‏ تذاكرنا زيادة العمر عند رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقلنا: من وصل رحمه أنسئ في أجله؟ فقال: انه ليس بزائد في عمره قال اللّه: «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» و لكن الرجل يكون له الذرية الصالحة فيدعون اللّه له من بعده فيبلغه ذلك فذلك الذي يلحقه دعاءهم في قبره فذلك زيادة العمر.

أقول: يعني (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من زيادة العمر المنفية بصلة الرحم و ما أشبه، الزيادة على الأجل المحتوم، و ما ألطفه زيادة حكمية و هو في قبره حتى يصله دعاء الصالحين من ذريته، فلا ينافي «ليس بزائد في عمره» دفع الآجال المعلقة بمبرات، فطالما الزيادة الواقعية في العمر مسلوبة فالزيادة الحكمية و كذلك دفع الآجال المعلقة، هما قائمان، فالمبرات مانعة عن النقص في الأعمار دون زيادة عليها و كما قال اللّه: «وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ».

فالمعني من النسأ في العمر هو النسأ عن الأجل المعلق لا المحتوم و كما

في المصدر أخرج أحمد عن ثوبان عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: من سره النسأ في الأجل و الزيادة في الرزق فليصل رحمه.

و

فيه أخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من ولي من أمر أمتي شيئا فحسنت سريرته رزق الهيبة من قلوبهم و إذا بسط يده لهم بالمعروف رزق المحبة منهم و إذا وفر عليهم أموالهم وفر اللّه عليه ماله و إذا أنصف الضعيف من القوي قوى اللّه سلطانه و إذا عدل مد في عمره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 115

نجهلها، فإنما لنا و علينا التحرز عن أسباب الموت- غير المحبورة- حيث الأجل المحتوم مجهول بين الآجال المعلقة.

ففي مسارح القتال المفروضة علينا أو الراجحة لنا ليس التعرض للموت محظورا، بل هو محبور قضية الأمر، و في سائر المسارح هو محظور حيث نجهل محتوم الأجل عن معلّقة «1».

فالمفروض علينا الفرار من الموت، فرارا «من قضاء الله إلى قدر الله عز و جل» «2»، فإنه قاض بالموت إذا تعرضنا لأسبابه المحتومة، و لكنه مقدر للموت المحتوم أضيق من قضاءه فنستسلم لقدره كما أمر، و نفرّ من قضاءه كما أمر، اللّهم إلّا في معترضات الموت المأمور بها كجبهات الحرب، بل و فيها أيضا ليس لنا الإقدام على الموت، بل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع إلى حاشية (1) ص 112

(2)

المصدر عن التوحيد باسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال: ان أمير المؤمنين (عليه السّلام) عدل من عند حائط مايل إلى حائط آخر فقيل يا أمير المؤمنين تفر من قضاء اللّه؟ قال:

أفر من قضاء اللّه إلى قدر اللّه عزّ و جلّ،

و

فيه باسناده إلى عمرو بن جميع عن جعفر بن محمد قال حدثني أبي عن أبيه عن جده (عليهم السّلام) قال: دخل الحسين بن علي (عليه السّلام) على معاوية فقال له: ما حمل أباك على أن قتل أهل البصرة ثم دار عشيا في طرفهم في ثوبين؟ فقال (عليه السّلام): حمله على ذلك علمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه، قال: صدقت.

و

فيه‏ و قيل لأمير المؤمنين (عليه السّلام) لما أراد قتال الخوارج: لو احترزت يا أمير المؤمنين فقال:

أي يومين من الموت أخر\* يوم ما قدر أو يوم قدر يوم لم يقدر لا أخشى الردى\* و إذا قدر لم يغن الحذر

و

في كتاب المناقب لابن شهر آشوب: و كان مكتوبا على درع علي (عليه السّلام):

و كان مكتوبا على علم أمير المؤمنين (عليه السّلام):

الحرب إن باشرتها\* فلا يكن منك الفشل و اصبر على أهوالها\* لا موت إلا بالأجل‏

و

فيه عن الحسن بن علي (عليه السّلام) كلام طويل و فيه: إن عليا (عليه السّلام) في المحيى و الممات و المبعث عاش بقدر و مات بأجل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 116

«خُذُوا حِذْرَكُمْ» ثم إذا حضر الموت على حذركم فلكم الحسنى إذ كان بأمر اللّه.

ذلك، فإذ توافق القضاء و القدر للموت فلا فرار كما قدر للإمام علي (عليه السّلام) قبله حيث قدم إلى مضجعه إلى المحراب، و قدر للإمام الحسن المجتبي و للإمام الرضا و غيرهما من أئمة الدين قدر الموت بقضاء السم.

فإنما جهلنا بتوافق القضاء و القدر أو علمنا باختلافهما يفرض علينا الفرار من القضاء إلى القدر، فأما إذا علمنا التوافق بينهما، أم أمرنا بالتعرض لقضائه كمسرح القتال و ما أشبه فلا.

فقد

«قدر لكم أعمارا سترها عنكم» «1»

«فما ينجو من الموت من خافه، و لا يعطى البقاء من أحبه» (38)

حيث‏

«خلق الآجال فأطالها و قصرها، و قدمها و أخرها» (89)

«و إن الفار لغير مزيد في عمره، و لا محجوز بينه و بين يومه» (122).

«إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا، مع كل جريمة شرق، و في كل أكلة غصص، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى، و لا يعمر معمر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، و لا تجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه» (143)

و

«إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه، فإذا جاء القدر خليا بينه و بينه، و إن الأجل جنة حصينة» (201 ح).

و حصيلة البحث عن آية الأجل، أن الأجل هنا بين محتوم و معلق، و هما بين أجل الموت عن أصل الحياة، أو انتقال إلى شرعة أخرى، أم انتقال كيان حيوي آخر روحيا أم ماديا من أمة إلى آخرين.

ثم «لا يستأخرون و لا يستقدمون» هما بين مجي‏ء وقت الأجل إعلاما، أم واقعا في وقته، أم على أشرافه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 82/ 2/ 141.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 117

«لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» في آجال الأمم الرسالية، هما قضية أنهم مخبرون بأن أجلهم سوف ينقضي بما قضاه اللّه، فليس لهم فيه تطّلبّ لتأخر إلى أمد، أم تقدم على أمد، لأنه مشاقة اللّه في قضاءه المحتوم حسب الحكمة العالية.

فلا يعني مجي‏ء الأجل هنا واقعه إلّا في «لا يستأخرون» حيث لا مجال- إذا- ل «لا يستقدمون» فإن استقدام الزمن الماضي مستحيل.

و هكذا نمشي و نمضي بنور اللّه على ضوء القضية الدلالية للآية فاصحة واضحة، بين محتملات الأجل و الأمة و لا يستأخرون و لا يستقدمون، ما ناسبت الواقع غير المستحيل، و الدلالة الصالحة.

ذلك، و الأجل المقدر عند اللّه مجهول عن كل الخليقة حتى المعصومين و كما

قال علي أمير المؤمنين (عليه السّلام): «أيها الناس كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره، و الأجل مساق النفس، و الهرب منه موافاته، كم اطردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله إلا إخفاءه هيهات! علم مخزون ..» (الخطبة 149)

و

«إن مع كل إنسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه و بينه و ان الأجل جنة حصينة» (الحكمة 190).

أجل، و كما أن أجل القيامة من العلم المخزون المكتوم قضية الابتلاء الشامل، فكذلك أجل الموت فإنه لا يعلمه لوقته و مكانه الخاص إلّا اللّه، و لم يكن ليعلم الإمام أمير المؤمنين إلّا كيف يقتل، و إمامتى و أين فقد كان مجهولا لديه بنفس القضية الحكيمة الشاملة، أم كان يعلم بتوافق أجلي المقدر و المحتوم فأقدم على ما أقدم.

ذلك، و على أن الآجال محددة بإذن اللّه و علمه، و لكنه من ناحية أخرى لا يمنع من التحسر على بلوغ آجال الأجلاء الذين هم هداة الناس دون بديل عنهم.

و هنا من‏

كلام لعلي أمير المؤمنين (عليه السّلام) و هو يلي غسل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 118

رسول اللّه و تجهيزه:

«بأبي أنت و أمي يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة و الأبناء و أخبار السماء، خصصت حتى صرت مسليا عمن سواك، و عممت حتى صار الناس فيك سواء، و لولا أنك أمرت بالصبر و نهيت عن الجزع لأنفذن عليك ماء الشؤن، و لكان الداء مماطلا، و الكمد محالفا و قلا لك، و لكنه ما لا يملك رده، و لا يستطاع دفعه، بأبي أنت و أمي، اذكرنا عند ربك و اجعلنا من بالك» (الكلام 226).

ذلك، و أجال الرسل هي مقدرة مقررة لا تستقدم و لا تستأخر، قضية الحكمة العالية الربانية في الحفاظ على وحيه الرسالي لإتمامه في أيامه، و لا سيما خاتم المرسلين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقد

«كتب آجالكم، و أنزل عليكم الكتاب تبيانا لكل شي‏ء، و عمر فيكم نبيه أزمانا حتى أكمل له و لكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه، و أنهى إليكم على لسانه محابه من الأعمال و مكارهه، و نواهيه و أوامره، فألقى إليكم المعذرة، و اتخذ عليكم الحجة، و قدم إليكم بالوعيد، و أنذركم بين يدي عذاب شديد ...» (الخطبة 85).

يا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى‏ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (35).

ذلك، حيث‏ «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (2: 39)- «قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى‏. وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124) ففي هاتين «هدى» حيث تشملان آدم و هو أول الرسل، و هنا «رسل» إذ ما أتى آدم نفسه رسول، نصوص ثلاثة تتحدث عن مسرح الرسالات الربانية على مدار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 119

الزمن الرسالي للمكلفين، فالتمسك بآية «بني آدم» زعما أنهم- فقط- الأمة الإسلامية، «إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ» بشارة لرسالات بعد الرسالة الإسلامية؟ إنه تمسك هباء و خواء- بعيد عن بني آدم- اللّهم إلّا أن تخرج بقية الأمم الرسالية عن بني آدم و منهم هؤلاء المدعون استمرارية الرسالة لما بعد الرسالة الإسلامية.

كلّا! فإنه خطاب يعم كل بني آدم على مدار الزمن الرسالي دونما استثناء، منذ آدم حتى خاتم النبيين صلوات اللّه عليه و عليهم أجمعين.

«إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ..» تأكيد لإتيان الرسل بصورة الشرطية، تدليلا على أن‏ «فَمَنِ اتَّقى‏ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» بشارة و نذارة عامة تحلق على كل بني آدم المكلفين دونما استثناء.

و هنا «رُسُلٌ مِنْكُمْ» كما «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي ..» (6: 130) حيث تعني «منكم» المجانسة بين الرسل و المرسل إليهم، لا انهم المنتخبون من قبلهم، فهكذا أيضا «أولوا الأمر منكم» دون فارق.

و لأن «ما» تخفف عن تردد «إن» الشرطية، ثم الشرطية غير متمحضة في واقع التردد، بل هي تعلّق أمرا على آخر حاصلا أم سوف يحصل، أم حصل قبل أو لن يحصل، لذلك كله فلا تناحر بين «إن» الشرطية و التأكيد المستفاد من التأكيدية الثقيلة في «يأتين»، و لأن القص هو تتبع الأثر، و هو القص التأريخي بمعنى عرض النخبة اللامعة، إذا «يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي» يعنى تتبع الآثار الربانية فطرية و عقلية و شرعية أماهيه من آفاقية و أنفسية، و قص التاريخ الرسالي لأنه سلسلة موصولة مع الزمن الرسالي.

ذلك و قد

«اصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، و على تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقه، و اتخذوا الأنداد معه، و اجتالتهم الشياطين عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 120

معرفته، و اقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكروهم منسي نعمته، و يحتجوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول، و يروهم الآيات المقدرة، من سقف مرفوع، و مهاد تحتهم موضوع، و معايش تحييهم، و آجال تفنيهم، و أوصاب تهرمهم، و احداث تتابع عليهم، و لم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم، و لا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله- على ذلك نسلت القرون، و مضت الدهور، و سلفت الآباء، و خلفت الأبناء، إلى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لإنجاز عدته، و تمام نبوته، مأخوذا على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريما ميلاده ..» (الخطبة 1).

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (36).

و الخلود- كما مر مرارا و يمر- هو البقاء مدة طائلة، دون غائلة الأبدية اللانهائية التي افتريت على اللّه بتعليلات عليلة، و هل العقوبة اللانهائية هي جزاء وفاق للعصيان المحدود لزمن محدود بأثر محدود؟:- فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (37).

فممن افترى على اللّه كذبا و كذب بآياته هؤلاء الذين يؤبّدون المكذبين بآيات اللّه المستكبرين عنها، أبد اللّانهاية، فهم- إذا- معهم فيما يزعمون، اللّهم إلّا القاصرين منهم التابعين للقائلين به الغائلين.

«أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ» قبل الموت، لمكان‏ «حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ..» فما هو ذلك الكتاب؟ إنه بطبيعة الحال كتاب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 121

الأعمال لسبق ذكر الأجل، مما يؤيد أن‏ «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» تشمل أمم الموت مؤمنين و كافرين، فكما «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» كذلك‏ «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ» و كذلك كتاب الأعمال و ما كتب اللّه عليهم بها من العقاب في كتابه حسب كتاب الأعمال، و قد عبر- مرارا- عن مثبتة الأعمال في سجلاتها بالكتاب: «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29)، «اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 14) فالكتابان- إذا- هما معنيّان بفارق أن نيل نصيب كتاب الأجل يختص بالدنيا بنفسه، ثم نصيب كتاب العمل يشمل النشآت الثلاث و المعني منها هنا نصيب الدنيا بآثار الأعمال السيئة.

صحيح أن هنا عملا دون حساب و هناك حساب دون عمل، و لكن «نصيب من الكتاب» هو خليفة حاضرة لا مرد عنها مما لا بد منها، فان للأعمال آثارا في الحياة الدنيا كمالها في الأخرى مهما كان كمالها في الأخرى.

ثم و من «الكتاب» ما كتبه اللّه من أعمار و أرزاق للعباد، فكما للصالحين نصيب كذلك للطالحين، إذ «كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» (17: 20).

فكما «يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ» رزقا في الحياة الدنيا و أجلا فيها فان‏ «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ» (13: 38) كذلك‏ «يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ» الذي كتبوه بأعمالهم، فهم عائشون بين الكتابين و لا يظلمون فتيلا.

ذلك، و ان لهم انصبة من الكتاب أولاها في الأولى، و أخراها في الأخرى، و أوسطها بينهما حيث‏ «مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، و من الوسطى:

«حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ» و هم الرسل الملائكية الغلاظ الشداد: «وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» (8: 50).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 122

و التوفي هو الأخذ وافيا دون تفلّت لشي‏ء من كيان الإنسان، المفروض حشره للحساب نفسا و بدنا: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 11).

و من مقالهم معهم‏ «قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أنهم آلهة مع اللّه، دلونا عليهم لنراهم ما هم و من هم؟ «قالُوا ضَلُّوا عَنَّا» ضلالا عن كيان الألوهية، لا عن كونها كسائر الكائنات حيث تحشر حاسرة عما تلبّست من كبرياء الألوهية: «وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ. وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» (16:) 88)- «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ. قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً» (25:) 18).

ذلك، و قد تعني «ضلوا عنا» إلى ما عنت، ضلالا عند الموت، ثم «إذا رأى» رؤية عند الحشر، و على أية حال‏ «وَ شَهِدُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ».

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ (38).

هنا «قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ ..» دون فصل عن «يتوفونهم»- بقالتهم المؤنبة إياهم- دليل أن «النار» هنا هي البرزخية، ثم‏ «إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً» قد تلمح أنها نار الآخرة، حيث الجمع لأهل النار في النار ليس إلا فيها، و أما النار البرزخية فهم يدخلونها تباعا حتى قيامة الإماتة الصعقة، فقد لا يكون للأحياء عندها برزخ؟!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 123

و لكن الجمع في البرزخ كائن في آخر الأمر، فالأموات قبل القيامة الأولى أخذوا مواقعهم فيه، ثم الذين يلونهم في القيامة الأولى يدخلون فيما هم داخلون و هنا «ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً».

و أما الصعقة الشاملة «إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» في القيامة الأولى، فلا تنافي حياة برزخية بعدها فيها يثابون أو يعذبون.

و قد تعم «أدخلوا» إلى مدخل البرزخ مدخل القيامة الكبرى‏ «حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً ..» ف «ادخلوا» للبرزخ أمر حاضر دون فصل، و للأخرى أمر حاذر للمستقبل ببرزخ الفصل.

ثم «الجن» الداخلون مع «الإنس» في النار هم شياطين من الجن و فسقة يستحقون النار البرزخية، مما يدل على أن الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم لا يشمل كل شياطين الجن، فقد يشمل مع الشيطان الأوّل الشياطين الأول من صناديدهم كما هو قضية «إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ» فهنا شياطين منظرون مع الشيطان الأول، و هم- بطبيعة الحال- أضرابه من رؤساء الشيطنة، أم يشمل كل شياطين الجن لمكان‏ «وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً» فدون الصالحين منهم هم قدد الشيطنة، المنظرون مع هذا الشيطان.

و على أية حال فهناك منظرون من الشياطين هم كلهم أم بعضهم دون فسقه الجن، فإنهم كما الإنس غير منظرين.

و ترى كيف‏ «كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها» و أمم النار أصدقاء مرافقون موافقون في أسباب النار و استحقاقاتها؟.

إن الملاعنة هناك هي قضية ظهور الملكوت، «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (43: 67) ثم الموادة بينهم كانت قشرية على الأهواء الطائشة، و قد مضت و أدبرت، ثم ظهرت فاسدة كاسدة فقضت بما قضت، فكل تعاون بين هؤلاء الأخلاء في الفسوق تكون هناك مادة العداء الظاهرة، و قد كانت مستورة أم متغافلا عنها: «لَقَدْ كُنْتَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 124

فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22)- «يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ» (21: 97).

أجل و «إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» (38: 64) ثالوث من التخاصم بسالوس الإضلال و الضلال و الإدغال، فقد يخاصم المضلّلون مضلّليهم و عكسا، كما يخاصم كلّ منهم قرينه في الضلال و التضليل، و اللعنة الأممية هي ضابطة اللعنة الثابتة «أمة» بمن فيها من المضلّلين و المضلّلين و القرناء في كل منهما، فكل لاحقة تلعن أختها السابقة عليها، و لأنها لحقتها في ضلالها، إذ كانت تقلدها و تتبع آثارها، و لعنت أختها اللاحقة بها، سواء أ كانت أختها مضلّلة لها أم مضلّلة بها، حيث الأخوة فى الكفر لا تعرف دركة دون أخرى و لا زمنا دون آخر.

ثم «أمة» هنا هي أمة الموت، و قد تعنيها «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ» و لكنها أمة الضلالة، و تقابل أمة الهدى.

و لماذا «ادَّارَكُوا فِيها» دون «دخلوا- أو حضروا»؟ حيث القصد إلى تداركهم فيها بحساب و استحقاق، و إدراكهم بعضهم بعضا ظاهرا و باطنا، و عندئذ:

«قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا» حيث اللاحقة هي تابعة السابقة، أم- كأوضح- أخراهم في الضلالة التابعة لأولاهم فيها و هم أئمة الجور «1»، فالفريقان- إذا- هما المتعايشان إن في زمن واحد أم عديد، فهما على أية حال المضلّلون باتّباعهم للمضللين، سواء أ كان في تعايش زمني، أم في تقليد أخراهم لأولاهم دون تعايش حيث يضلّلون بآثارهم.

و بصيغة أخرى قد تعني «أخراهم» و جاه «أولاهم» كل أخرى لكل أولى، في سلسلة متواصلة بحقول الإضلال و الضلال، أم «أخراهم» هم المضلّلون و «أولاهم» المضلّلون فإنهم الأولى في حقل الضلال و أولئك هم الأخرى، مع كون كلّ من الأخرى هي أيضا أولى لمن يضللّه.

إذا فالقصد من‏ «قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ» هو قيلة كل أمة مضلّلة لكل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 2: 14- الطبرسي قال الصادق (عليه السّلام) في الآية يعني أئمة الجور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 125

أمة مضلّلة، و الأمة هنا كما بينا هي أمة الموت في الكفار الذين هم أهل النار.

ذلك، و لأن الضلال منه حاضر في تعايش الضلّال و المضلّلين، و منه غير حاضر بمضلّليه لمكان ضلالهم الغابر، العابر مر الزمن، فقد يشمل الإضلال كلهما، فان‏

«من سن سنة سيئة كان عليه وزر من عمل بها إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أوزارهم»

مهما كان الإضلال الحي أقوى و أغوى من الإضلال الميت.

إذا «قالَتْ أُخْراهُمْ» تشمل كل مضلّل و «لأولاهم» تشمل كلّ مضلّل حيا و ميتا ما دام في ضلاله تأثير الإضلال بأي أثر باق باغ في حقل الضلال، إذا فليست «أخراهم» هي المتأخرة موتا إذ قد يكون هي المتقدمة إضلالا.

«رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ» لضلالهم أنفسهم و إضلالهم إيانا «قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ» فانكم كما هم ضللتم و أضللتم، فان في الدخول إلى ربع الضلالة إضلالا للبسطاء، ثم «لا تعلمون» ضعفكم عن ضعفهم، فان لكلّ عذابا قدر سعيه في الضلال و الإضلال.

ذلك، فلا تعني «لكلّ ضعف» تماثل الضعفين عدة و عدّة، بل هو التماثل لبعدي الضلالة مهما اختلفت العدة و العدة، فقد يقوّى ضعف الأولين و يضعّف ضعف الآخرين، حسب القوة و الضعف في الضلالة و الإضلال، و كما أن كلا من الفريقين دركات في كلا الضلال و الإضلال، ثم و الضعف في العدد كما العدد لا ينحصر في اثنين حيث قد يتجاوزهما إلى أضعاف حسب أضعاف الاستحقاقات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قال الأزهري «الضعف» في كلام العرب المثل إلى ما زاد و ليس بمقصور على المثلين و جائز في كلام العرب أن تقول: هذا ضعفه أي مثلاه و ثلاثة أمثاله، لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة كما «فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا» إذ ليست تعني-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 126

وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39).

و ترى الفضل المنفي في بعد العذاب هو الفضل في عدّة العذاب و عدّته، أن الفريقين يتساويان فيهما؟ و هذا غير وارد في كل فريق بين أفراده فضلا عن الفريقين مع بعضهما البعض! فقد يعني فضل الضعف في العدد، لا و العدد.

و على أية حال‏ «فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» فعلى قدر مكاسب السوء نجازى و تجازون.

و قد يعني‏ «وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ» مدى الضّعف مضلّلين و مضلّلين، فلذلك ليس‏ «فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ» إلا جهلا بمدى «لكل ضعف» و هذا الجهل عذاب فوق العذاب.

ثم و قد تكون «فذوقوا ..» من كلام اللّه دون كلام أولاهم، كضابطة عامة تعم أولاهم و أخراهم أن ذوق العذاب على أية حال ليس إلا بمكاسب السوء قدرها، من مضلّل كان أم مضلّل، على قدر ضلاله و إضلاله أم تقبله للضلال‏ «وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ».

إذا فهي نقد على‏ «فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ» أم هو كلامهم و كذلك الأمر حيث أجابوا أنفسهم بأنفسهم. و حصيلة الضعف هنا و هناك أن لكلّ كثرة العذاب عددا و عددا حسب عديد العصيان و عدده، و ليس يعني‏ «فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ» إلا فضلا من اللّه يختص بالمضلّلين لأنهم أتباع، فهو العدل المحكّم بين الفريقين، و قد يربوا المضلّل على المضلّل في ضعف العذاب قدر ضعف العصيان، و إنما الفضل يختص بكتلة الإيمان، أن يزدادوا ثوابا عمّا يستحقون، و أما الكفار فلا زيادة في عذابهم و لا نقصان عن المستحق بقسطاس مستقيم.

و لأن «الضعف» لا يختص بالمثلين كما «فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ» (34: 37) و أقل الضعف هو عشرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- ضعف المستحق، بل هو كثرة الثواب حسب كثرة الطاعات و أقل الضعف لهم عشرة أضعاف‏ «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 127

لمكان‏ مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها و هذا لأدنى المؤمنين، و هنا جَزاءُ الضِّعْفِ‏ لأفاضلهم.

إذا فمطالبة ضعف العذاب للمضلّلين- فقط- لأنهم أضلوا، خاوية عن العدل المرام يوم الحساب، و الجواب كلمة واحدة لِكُلٍّ ضِعْفٌ‏ من العذاب و هو كثرته قدر المستحق، فقد يكون ضعف المضلّل أضعف من ضعف المضلّل، و آخر يعاكسه، و ضعف كلّ ليس إلا بميزان العدل، ثم لا ضعف كما يشتهون‏ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ‏ أن لكلّ ضعفا كما لا تَعْلَمُونَ‏ قدر الضعف لكلّ حيث الأعمال معروفة عند اللّه، مجهولة عند من سواه.

فهنا لِكُلٍّ ضِعْفٌ‏ تعني عذابا لضلاله و عذابا لإضلاله، و كل ضعف إنما هو قدر المستحق عددا و عددا و لا يظلمون فتيلا.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40).

هنا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ قد تعني أبواب سماء الرحمة الرحيمية دنيوية و أخروية و بينهما و من الأولى ألّا تفتح لهم أبوابا لتصعد أعمالهم و أدعيتهم إليها، حيث‏ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (35: 10) كما لا تفتح عليهم بركاتها: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ (7: 96)، و من الأخرى عدم صعودهم إلى الجنة المأوى عند سدرة المنتهى، كما أن مما بينهما عدم صعود أرواحهم لدى الموت إلى سماء الرحمة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 83- أخرج أحمد و النسائي و ابن ماجة و ابن جرير و ابن حبان و الحاكم و صححه و البيهقي في البعث عن أبي هريرة أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحا قال: أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي حميدة و أبشري بروح و ريحان و ربّ راض غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة فإذا كان الرجل السوء قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 128

ذلك، و أما أقفال السماوات فالشرك باللّه، و مفاتيحها قول «لا إله إلا اللّه»، إذا فأبواب سماء الرحمة مادية و معنوية لا تفتح لهم في أية نشأة من النشآت الثلاث.

إذا فللسماء أبواب: فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ (6: 35)، وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (15: 14) فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ (22: 15).

و حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ‏ تمثيل بما يستحيل حيث يحيل دخولهم الجنة، فهل هو الجمل الإبل؟ فضلا عن جمل أصحاب الجمل‏ «1» و لا صلة لذلك الجمل بسم الخياط، و لا أن أصحاب الجمل من‏ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا لا سيما و هم بمثل طلحة و الزبير كانوا من أصحاب رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الصالحين عند نزول الآية، فكيف تنزل آية كفرهم الذي يحيل دخولهم الجنة؟!.

و هنا «بآياتنا» جمعا محلى باللام تحلق على كافة الآيات الأنفسية و الآفاقية: رسولية و رسالية، و هو الكفر المطلق المطبق، البعيد عنه الذين يكذّبون ببعض و يصدّقون ببعض، فلهم بعض الإيمان، فقد يأتي يوم هم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث أخرجي ذميمة و أبشري بحميم و غساق و آخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فانها لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر.

و

في تفسير العياشي عن أبي جعفر (عليه السّلام) في حديث قبض روح الكافر: فإذا أوتي بروحه إلى السماء الدنيا أغلقت منه أبواب السماء و ذلك قوله: لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ يقول اللّه: رددها عليه فمنها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى.

(1).

نور الثقلين 2: 30 تفسير العياشي عن منصور بن يونس عن رجل عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في الآية نزلت في طلحة و الزبير و الجمل جملهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 129

يخرجون فيه من النار إلى الجنة قضية إيمان، بعد ما ذاقوا وبال أمرهم في تكذيب.

فهذه الآية تبين مصير المؤبدين في النار الذين ينخمدون- بعد ما ذاقوا و بال أمرهم- مع انخماد النار، فلا نار- إذا- و لا أهل نار.

ثم «الجمل» أمام «سم الخياط» تناسب القلس الغليظ الذي يجريه الجمل، و لأنه حبال جمعت و جملت فأصبحت حبلا واحدا يصلح لجر الجمل، و أين جمل من جمل؟.

فهنا «لا تفتّح» تعم كلّ تفتّح لبركات السماء معنويا و ماديا في النشآت الثلاث، كما تعم التفتح لصعود أعمالهم إليها يوم الدنيا، و صعود أرواحهم فيها بعد الموت، و صعود أنفسهم يوم القيامة الكبرى، حيث تفتح أبواب جنة الخلد عند سدرة المنتهى لأهليها، و كذلك نزول بركات من السماء مادية و معنوية عليهم في هذه النشآت، فهذه الأبواب كلها مغلقة على هؤلاء الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها كما أغلقوا على أنفسهم أبواب الهدى، جزاء وفاقا.

أجل تفتح لهؤلاء الأنكاد أبواب الزحمة بديلة عن أبواب الرحمة، حيث السماء تشملهما ماديا و معنويا، و لا تعني‏ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ لأهل الرحمة في المادية منها ما تصل إلى غير الصالحين من رحماتها، فانها تبدل عندهم بزحمات حيث يبدلون نعمة اللّه نعمة و نقمة، إضافة إلى رحمات خاصة أخرى مادية لهؤلاء دون أولاء.

ذلك، و أبواب السماء في صعود الأعمال و الأدعية و نزول الفرقان و الرحمة على أهليها، هذه هي أبواب سماء الرحمة الروحية، المتحللة عن العلو المادي، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ‏ لا تعني إلى مكان عال إلا جنة المأوى، أم إلى رضوان من اللّه الذي لا مكان له، كما و نزول الرحمة المعنوية يعني فيما يعنيه نزولا روحيا دون مكان عال.

و الأجمل هنا في «الجمل» الجمع بين جمل الجمل و الجمل الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 130

يجر به الجمل، فلو أمكن و لوج الجمل ابتداء بحبله الجمل في سم الحياط لأمكن دخول هؤلاء الجنة، و مما يناسب ذلك الجمع أن الخيط الغليظ الذي يصعب و لوجه في سم الخياط يربط برقيق سهل الولوج فيلج به صعبه، و في ولوج الجمل الإبل بجمله الفتل الغيظ استحالتان اثنتان، مما يجعل الممثل به تضاعف الاستحالة، و علّ من الوجه في صيغة «الجمل» هنا دون الإبل، جمعها لجملي: الجمل و حبل الجمل، دون الإبل جمعا بين الاستحالتين، فدونك قف أمام ذلك المشهد الرائع الشهيد، مشهد الجمل بحبله تجاه سم الخياط، فلو انفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير بجمله القطير، فقد تنفتح الجنة لأولئك المكذبين بآيات اللّه المستكبرين، و لكن:

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41).

هناك لهم «مهاد» مهدوها في الحياة الدنيا، حيث الآخرة بحذافيرها هي مثال الدنيا المخلّفة- بما وعد اللّه- هي عنها، لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ‏ من تحتهم فراشا «مهاد» أمهدة مفترشة ممهدة لهم بكل ألوان العذاب التحتية، ثم‏ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ‏ جمع الغاشية فهي أغشية مشتملة، و هي العذابات الساترة لهم، المحيطة بهم من جوانبهم كلها، فيكون استظلالهم بحرها كاستقرارهم على جمرها، هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ. عامِلَةٌ ناصِبَةٌ. تَصْلى‏ ناراً حامِيَةً. تُسْقى‏ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ. لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (88: 1- 8).

فالغاشية هي التي تغشاهم مهادا من تحتهم و سائر الغاشية من فوقهم: يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29: 55)، و على حد

المروي عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): عند تلاوته هذه الآية: «هي طبقات من فوقه و طبقات من تحته لا يدرى ما فوقه أكثر أو ما تحته غير انه ترفعه الطبقات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 131

السفلى و تضعه الطبقات العليا و يضيّق فيما بينهما حتى يكون بمنزلة الزج في القدح»

فقد جعل لهم من النار أمهدة مفترشة تحتهم و أغشية مشتملة عليهم، فيكون استظلالهم بحرها كاستقرارهم عل جمرها أعاذنا اللّه منها، فتلك هي ضفّة التكذيب و الاستكبار، ثم إلى ضفّة التصديق و الإقرار:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (42) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43).

هنا لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها تحدد واجب الإيمان و عمل الصالحات دون إحراج و لا إعسار فيها، ف «أولئك» على درجاتهم بمساعيهم‏ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏ عطاء غير مجذوذ، دون واجب الاستغراق الظاهر من‏ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ‏ إزالة لليأس عن هؤلاء الذين لم يطبقوا كل الصالحات، فما لم يكن في الوسع من فعل المفروض أو ترك المرفوض فلا يطالب به المكلف، ثم و ما قصر فيه و هو يسعه أن يطبقه فبوسعه أن يجبره فهو مطالب بجبره، اللّهم إلّا السيئات المكفرة بترك الكبائر، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها تبشير بواسع رحمة اللّه كضابطة ثم هناك مزيد فيما قصر من تكفير و توبة و شفاعة أماهيه.

ذلك، و متصوّرات التكليف المستحيل و الممكن و الواجب كالتالية:

1 التكليف بالمستحيل ذاتيا 2 أو حاليا، 3 و التكليف المحرج نوعيا أم 4 شخصيا 5 و التكليف الشاق المعسر نوعيا أو 6 شخصيا، 7 و التكليف الموسع شخصيا 8 أو نوعيا.

فالأولان مستحيلان في محكمة العقل و العدل فضلا عن التكليف الفضل، ثم المحرج بشقيه غير وارد في الشرع لمكان نفي الحرج بآياته ك ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ‏ و كذلك الشاق الذي يكلف كافة قوات المكلف بنوعيه، إلا قليلا لمكان نفي العسر بآياته ك يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 132

الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ فيبقى الثامن و هو واسع التكليف الذي لا يكلف المكلف إلا واسعا في طاقته.

و كما أن واسع التكليف شرط في أصله لكافة المكلفين، كذلك هو في كلّ منهم، فإذا كانت الموانع لفعل المفروض أو الجواذب لفعل المرفوض، كانت أقوى من طاقة المكلف أم يساويها، أم هي أقل منها بقليل لا يعبأ به، إذا فهذا التكليف خارج عن وسع المكلف فلا يكلف به، اللّهم إلّا إذا عدم الوسع بسوء اختيار، و إذا فليس التكليف الخارج عن وسعه إلا بوسعه قضية سوء اختياره في ترك الوسع.

هذا، فقد يقدر التكليف بالطاقة الموسعة امام المكلف به و إلا فلا تكليف إلا فيما استثني.

فالمفروض تركه أو فعله الذي هو بحاجة إلى عصمة ربانية خارج عن الفرض لمن دون المعصومين، كما حصل ليوسف (عليه السّلام) في قصة امرأة العزيز، لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ‏ (12: 24)- فلو لم يدركه (عليه السّلام) برهان ربه و هو العصمة الربانية لهم بها على عصمته البشرية التي هي فوق العدالة العادية و دون العصمة الربانية، فإن وقع غير المعصوم في نفس المأزق الذي وقع فيه يوسف (عليه السّلام) لكان في همه بها أم و فعله فيها معذورا إذ لم يكن تركها في ذلك الظرف الحاسم العارم في وسع الطاقة غير المعصومة.

و هكذا الأمر في كل طاقة قاصرة عن مكافئة أو مكافحة العصيان، إلا إذا كانت قاصرة عن تقصير، كالذي يسافر إلى بلدة يعلم اضطراره فيها إلى اقتراف محرم أو ترك واجب، حيث اضطراره المقصر- إذا- غير عاذر، فليس الاضطرار أو الإكراه أو سلب الطاقة عاذرا للمضطرين و المكرهين و مسلوبي الطاقة إلا إذا كانت هذه الحالات دون فعلهم القاصد و إرادتهم.

لذلك نجد آيات الاضطرار تعبر عنه بصيغة المجهول ك فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ لا «فمن اضطر» فالاضطرار المباغت هو الموضوع للعذر، دون أي اضطرار و ان كان باختيار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 133

ذلك، و «نفسا» هنا هي عبارة أخرى عن «روحا» فلأن اللّه هو الذي خلق الأرواح بوسعها، فهو الذي يعرف وسعها، خلاف ما ظن قوم من الملحدين الغفلة الجهال أن اللّه لا يعرف النفوس، فقد يكلفها فوق وسعها، و كما تقولوه في‏ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي‏ (17: 85) أن الجواب لم يحصل عما سئل، امتناعا منه لفقد العلم به، ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا تبكيت و تقريع لم يقعا موقعهما، بل هو على سبيل المحاجزة و المدافعة عن الجواب، و لقد فصلنا البحث حول آية الروح، و أن فيها الإجابة عن كافة الأسئولة حول الأرواح كلها، فراجع.

وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ‏ إذ ما كانوا يستطيعون نزعه عنها و هو المستمر فيها نكال في الجنة، فقد «نزعناه» نزعا لما كان يحدد الإيمان و عمل الصالحات، و هو في الجنة يكدر طيبة العيشة و العشرة مع الإخوان.

أجل‏ وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى‏ سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ‏ (15: 47) و كما كانوا يتطلبونه هنا وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (59: 10).

فقد يكون غلّ الصدور بما يخيّل إلى ذوات الصدور من تقصير لإخوان و هو قصور أم تقصير منا قاصر بحقهم فنطلب أن يزيل ذلك الغل و ألّا يجعله في صدورنا، أو يكون غلا بحق اعتداء بمثل حيث ظلمك أخ لك في الدين، فقد يرجح زوال ذلك الغل عن الصدور سماحا عما حصل، ثم إذا لم يزل الغل في صدورنا فاللّه هو الذي يزيله عنها في الجنة تحقيقا رفيقا للتعايش السلمي في دار الكرامة و الرحمة حتى لا تحول- كما في الأولى- زحمة.

أم إنه غلّ بحق لا يحق زواله لأنه بغض في اللّه، فاللّه قد يزيله في الآخرة حيث يزيل سببه بعقاب أم غفران بحق، فلأن غل المؤمن في صدر المؤمن عذاب، لذلك فلينزع تخفيفا خفيفا عن صدور المؤمنين، و لكن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 134

بحق لا يزداده غلا بعد غله.

و قد تعني «نزعنا» إلى نزع في الأخرى نزعا في الأولى كما في بعض الصالحين، و إذا لم ينزعه هنا فقد ينزعه هناك رحمة من الرحيم الرحمان‏ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

و فالغل هو العداء و الضغن، لا يخلو عن لمم منه إلا المخلصون، و نزع الغل هو بطبيعة الحال قبل دخولهم الجنة و كما

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا و يدخلون الجنة و ليس في قلوب بعضهم على بعض غلّ» «1».

ترى و إذا كان غل بحق فكيف يكون نزعه أيضا حقا و هو ضغط على صاحب الحق؟.

ذلك، لأن اللّه لا ينزع الغل المستحق إلا بجزاء وفاق على المستحق عليه قبل الجنة أم بمعاملة تهاترية بين الأخوة المتغلغل بينهم الغل، ثم ينزع ذلك الغل نزعا بعدل و رحمة، فحين يجازى المستحق عليه في غلّ أم تجبر مادة الغل بسبب آخر فبقاءه- إذا- غل آخر دون مبرر، فنزعه- إذا- رحمة بعد زحمة، ثم الغل الخاطئ الذي لم يكن له أصل، إنه ينزع هناك رحمة للجانبين، إكراما لهما قضية إيمانهما، الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (43: 67).

فقد نزع اللّه ما في صدورهم من الغل- أيا كان من حق أو باطل-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 101- أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بلغني أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ...

و

أخرجه مثله ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن قتادة قال حدثنا أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة و النار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا و نقوا اذن لهم في دخول الجنة فو الذي نفسي بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة من منزله كان في الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 135

بإنسائهم إياه، و إحداث أبدال له تشغل أماكنه من قلوبهم، و تشفع مواقعه من صدورهم، فلا يحقد بعضهم بعضا و لا يحسد على علو المنزلة فيها و البلوغ إلى مشارف رتبها، و الغل هو كل ضيق من حسد أو غبطة أو عداوة أماهيه مما يغل و يغلق مفاتح القلوب إلى أهل الجنة.

أجل، و لأنهم- على أية حال- بشر، يعيشون بشرا، و قد يثور بينهم في العشرة الحيوية غيظ يكظمونه، أو يغور غل يغالبونه فيغلبونه و لكن تبقى في صدورهم منه آثار و آصار، أم يبقى دون كظم كضيم أم غلب هضيم، ثم اللّه إكراما لهم و اراحة إياهم في ساحة الجنة ينزعه عنهم و كما

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه اللّه من قلوب المؤمنين» «1»

، وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا الحق المبين و الشرع المتين، و هدانا لنزع هذا الغل من صدورنا، ثم لهذه الجنة وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ‏ إلى ما اهتدينا لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ‏ و قد هدانا حيث‏ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ‏ جاء مجيئا «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القرطبي في تفسيره أحكام القرآن، و في الدر المنثور 3: 85- أخرج ابن جرير عن أبي نضرة قال: يحبس أهل الجنة دون الجنة حتى يقتص لبعضهم من بعض حتى يدخلوا الجنة يدخلونها و لا يطلب أحد أحدا بقلامة ظفر ظلمها إياه، و يحبس أهل النار دون النار حتى يقتص لبعضهم من بعض فيدخلون النار حين يدخلونها و لا يطلب أحد أحدا بقلامة ظفر إياه.

(2)

مجمع البيان عن عاصم بن حمزة عن علي (عليه السّلام) انه ذكر أهل الجنة فقال:

يحيون و يدخلون فإذا أساس بيوتهم من جندل اللؤلؤ و سرر مرفوعة و أكواب موضوعة ...

و لولا أن اللّه تعالى قدرها لهم لا لتمعت أبصارهم لما يرون و يعانقون الأزواج و يقعدون على السرر و يقولون: الحمد للّه الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.

و

نور الثقلين 2: 31 في أصول الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في الآية قال: إذا كان يوم القيامة دعي بالنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و بأمير المؤمنين و بالأئمة من ولده (عليهم السّلام) فينصبون للناس فإذا رأتهم شيعتهم قالوا: الحمد للّه الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه. يعني هدانا اللّه في ولاية أمير المؤمنين و الأئمة من ولده (عليهم السّلام)،

و

فيه عن الإحتجاج للطبرسي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في خطبة الغدير: معاشر الناس سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين و قولوا: الحمد للّه الذي هدانا لهذا، و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 136

بالحق، و جاءت بسبب الحق و مصاحبة الحق و غاية الحق‏ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ إرثا عن أهل النار حيث تركوا أمكنتهم لنا، وارثا تركه لنا بما قدمناه من صالحات.

فهناك توارث بين أهل الجنة و النار

«كل أهل النار يرى منزله في الجنة يقول لو هدانا اللّه فيكون حسرة عليهم، و كل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: لولا أن هدانا اللّه» «1».

أجل و

«نودوا أن صحوا فلا تسقموا، و أنعموا فلا تبأسوا، و شبوا فلا تهرموا، و اخلدوا فلا تموتوا» «2».

ذلك، و في رجعة أخرى إلى «من غل» نقول: إن الغل في صدور المؤمنين بعضهم على بعض ليس ليكون عداء لذوات المؤمنين، إنما هو غل- فيما هو حق- لأعمالهم الكليلة العليلة بالنسبة لبعضهم البعض، فحين تغل صدور لذوات الآخرين فحق أن ينزع ذلك الغل عن الصدور المغلّلة.

ثم الغل الصالح الذي يعني بغض مؤمن يستحق الغل لعمله، ذلك لا يفيد إلا كمرتبة من مراتب النهي عن المنكر و هو ليس لينزع يوم الدنيا، و لكنه مع سائر الغل ينزع يوم الأخرى، تخليصا لصاحب الغل عن غلّه، و تقليصا لمورد الغل عن ذلك الغل بعذاب أم تكفير أمّا هو؟ من نزع لسبب الغل، و لكي يكونوا في الجنة إخوانا على سرر متقابلين.

هذا «و قالوا» هؤلاء الأكارم بعد ما دخلوا الجنة الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 3: 85- أخرج النسائي و ابن أبي الدنيا و ابن جرير في ذكر الموت و ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): .. و

في المجمع عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: ما من أحد إلا و له منزل في الجنة و منزل في النار، فأما الكافر فيرث المؤمن منزله في النار، و المؤمن يرث الكافر منزله من الجنة فذلك قوله: أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏.

(2)

المصدر 3: 85- أخرج جماعة عن أبي هريرة و أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: نودوا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 137

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا: الدخول و الخلود في الجنة، و لهذا النزع للغل من صدورنا، و لهذا الجري من تحتنا الأنهار، و الجمع بينها لهذا المصير بذلك المسير حيث «هدانا» تعم هدى الأولى إلى الأخرى، فإن هدى الأولى هي التي تهدي إلى هدى الأخرى الميراث العظيم‏ «لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ» بسبب الحق و مصاحبين الحق و حاملين الحق‏ «وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

و ذلك الميراث يعني انهم سكنوا مساكنهم فيها و زيادة هي مساكن الآخرين الذين حرموا الجنة، فان اللّه خلق لكل واحد من المكلفين مكانا في الجنة و مكانا في النار، فكل من فقد مكانه من الجنة إلى النار يرثه أهل الجنة مكانه إلى مكانه نفسه.

ذلك‏ «وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ» تنظر إلى قلة الطاقة البشرية في سبيل الهدى امام النزعات الشيطانية التي تتغلب عليها لولا أن هدانا اللّه.

مسرح عظيم من حوار الجنة و النار في مناداة، و بينهما رجال الأعراف، فلنعرف من هم أولاء الأكارم و ما هو ذلك الحوار المستقبل و كأنه حاضر في المشهد بكل مصارحه و ملامحه؟

وَ نادى‏ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (45).

هنا مناداة بين فريقي الجنة و النار و بعد ما وجد كلّ ما وعدهم اللّه بما يعدون، فقد ينعم فريق الجنة بما وجده من الوعد، جدنا حقا ما وعدنا ربنا حقا، حيث إن «حقا» ذو تعلقين اثنين، ثم يستجوبون فريق النار فلا مفلت لهم عن «نعم» «1»، ثم «أذن‏ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ» من مذياع الحق بالحق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن ابن عمر أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) وقف على قليب بدر من المشركين فقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا، فقال له الناس: أ ليسوا أمواتا؟ فقال: إنهم يسمعون كما تسمعون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 138

و قد أصفق الفريقان انه علي أمير المؤمنين (عليه السّلام) «1» «أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» المستحقين النار، لا المعفو عنهم المستحقون الجنة، و الظالمون هنا هم‏ «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

فعبارة «الظالمين» هنا قاصدة للعموم الموصوف بالثلاث الآتية مهما كانوا من المسلمين.

و ترى كيف المؤذن هناك علي (عليه السّلام) و النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فوقه محتدا و صلوحا؟ علّه لأن له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) المقام الأوّل و هو فوق الأذان، فلثانية بأذنه عن إذن اللّه أن يكون هو المؤذن، و كما كان مؤذن هذه الرسالة القدسية على هامشه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و كما

في خطبة له (عليه السّلام): أنا المؤذن في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في ملحقات أحقاق الحق 3: 392- 394- أورده من حفاظ القوم و نقلة آثارهم عدة و نحن نشير إلى من وقفنا عليه، فمنهم‏

ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (95) روى عن أبي جعفر (عليه السّلام) في‏ «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ» قال: هو علي (عليه السّلام) و مثله الترمذي في مناقب مرتضوي (60) عنه، و الآلوسي في روح المعاني 8: 107 عن ابن عباس مثله و الشيخ سليمان القندوزي في ينابيع المودة (101)

روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بسنده عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي (عليه السّلام) قال: أنا ذلك المؤذن، و روى الحاكم بسنده عن أبي صالح عن ابن عباس انه قال علي (عليه السّلام): في كتاب اللّه اسماء لا يعرفها الناس، منها «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ» يقول:

«أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» الذين كذبوا بولايتي و استخفوا بحقي.

و

روى في المناقب عن جابر الجعفي عن الباقر (عليه السّلام) قال: خطب أمير المؤمنين (عليه السّلام) بالكوفة عند انصرافه من النهروان و بلغه أن معاوية بن أبي سفيان يسبه و يقتل أصحابه فقام خطيبا- إلى أن قال-: و أنا المؤذن في الدنيا و الآخرة قال اللّه عزّ و جلّ: فأذن مؤذن بينهم- يقول- إلا لعنة اللّه على القوم الظالمين- أنا ذلك المؤذن، و قال عزّ و جلّ: «وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» و أنا ذلك الآذان.

و

روى عن محمد بن الفضيل عن أحمد بن عمر الحلال عن أبي الحسن موسى (عليه السّلام) قال: المؤذن أمير المؤمنين علي (عليه السّلام) يؤذن أذانا يسمع الخلائق و الدليل على ذلك‏ «وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» قال أمير المؤمنين (عليه السّلام): أنا ذلك الأذان.

و فيه (14: 335- 336) مستدركا عما ذكر، و منهم الحسكاني في شواهد التنزيل (1:

202) و ابن حسنويه في درر بحر المناقب (85).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 139

الدنيا و الآخرة

فكما أنه المؤذن يوم الدنيا أذانا رساليا بعد الأذان الرسولي، كذلك هو المؤذن في الأخرى بإذن منه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

و لو كان المؤذن هناك هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بنفسه لجي‏ء باسمه المبارك، دون مجرد الوصف «مؤذن» غير المعلوم صاحبه إلّا بسناد لمحات من القرآن كآيات الولاية و لا سيما آية شاهد منه: «أ فمن كان علي بينة من ربه و يتلوه شاهد منه و من قبله كتاب موسى اماما و رحمة ..» (46: 12) فانها شاهدة لكون الإمام (عليه السّلام) هو الشخصية الثانية بعد الأولى الرسولية، فليكن مؤذنا هناك كما هو المؤذن عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هنا.

و «الَّذِينَ يَصُدُّونَ» استمرارية في ذلك الصد طول حياتهم الجهنمية بما يملكون أو يملّكون من قدرات و إمكانيات، «وَ يَبْغُونَها عِوَجاً» بغيا عليها، ابتغاء أنها عوج فلا تسلك، و ابتغاء أنفسهم إياها مسلكا عوجا، فسبيل اللّه هو شرعته و نهجه و هم يبتغون عنها المتحاول و يطلبون منها الفسح و المخارج و يوهمون بالشبهات أنها معوجة غير قويمة، و مضطربة غير مستقيمة!.

و لأن القرآن هو أفضل سبل اللّه فبغيه عوجا هو أعضل صد عن سبيل اللّه، فكما أن من بغيه عوجا الخوض في آياته لنفضها، كذلك القول:

إنه لا يفهم و ليس بمتناول الأفهام، فانه عوج في كتاب الدعوة أن يكون قاصرة الدلالة على مرادات اللّه تعالى.

كما منه تفسيره بالآراء أن تحمل عليه الآراء السادرة عن الصادرة عن مصادر الوحي و التنزيل.

فكل مواجهة للقرآن خلاف ما يرام منه في حقل الدعوة المستقيمة الخالدة هو بغيه عوجا.

و هنا «الظالمين» في حقل تلك اللعنة التي يدخلون بها النار، هم الذين يحملون هذه الأوصاف الثلاثة أم بعضها، ابتداء من «يصدون» و انتهاء إلى‏ «هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ» و كل من هذه دركات يستحق أصحاب دركات من العذاب حسبها و لا يظلمون نقيرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 140

«وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ» فهم- إذا- في ثالوث منحوس من عمل مركوس مدسوس: صدا عن سبيل اللّه- و بغيا و ابتغاء لها عوجا- و كفرا بالآخرة.

و ما أظلمه في ثالوثه حيث يجمع كل دركات الظلم و التضليل، فهم- إذا- حملة مشاعل الضلالة، و رؤوس زوايا المتاهة و الغواية.

[سورة الأعراف (7): الآيات 47 الى 53]

وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَ نادى‏ أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى‏ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَ نادى‏ أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (51)

وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى‏ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 141

وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (46).

آيات أربع تبين موقف الأعراف و رجاله، فلنتعرف إلى رجال الإعراف و موقفهم المتميز على ضوء آيات الأعراف، تقريرا لمسيرهم، و لمصير مختلف الروايات في مثلثة التخالفات.

هنا نتلمح صراحا من مقاطع في هذه الآيات أن رجال الأعراف هم أعرف العرفاء باللّه و أعبد العابدين للّه، حيث يمثلّون أمر اللّه في فاصل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 142

الأعراف بين أصحاب الجنة و أصحاب النار، تقريرا لمصير كلّ بمسيره، إذاعة من قبل اللّه في ذلك الموقف المجيد.

ف 1 «عَلَى الْأَعْرافِ» تعريف أول بأصحاب الأعراف، فإنها أعراف متعالية بين أصحاب الجنة و أصحاب النار، لا يحق أن يكون عليها إلّا الحاكمون عليهما المتكلمون بفصل القضاء فيهما من قبل اللّه، فكيف يكونون هم الأدنون المرجون لأمر اللّه.

2 ثم «رجال» لا تعني رجولة الجنس- فقط- بل هي مجمع كافة الرجولات في كافة حقول الفضائل و الفواضل، و لو كانوا هم الأدنون المرجون لأمر اللّه، فالأكثرية المطلقة منهم نساء بطبيعة الحال الأنوثة، فكيف يعبر عن هذه المجموعة التي أكثرها نساء ب «رجال» دون «ناس» أما أشبه؟!.

3 ثم‏ «يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ» تحلق معرفتهم بكل أهل الحشر، جماعيا كأصحاب الجنة و أصحاب النار، و شخصيا هو معرفة كل فرد فرد من الفريقين بدرجاتهم أم دركاتهم، و ليست هذه المعرفة القمة الفائقة إلا لأعرف العارفين باللّه و أقرب المقربين إلى اللّه.

ففي حين أن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه ما كان ليعرف المنافقين بسيماهم: «وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» (47: 30) كما و «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ» (9: 43)! و هذه قضية الابتلاء في حياة التكليف! إذا فكيف يمتاز رجال الأعراف- إن كانوا هم الأدنين- بهذه المعرفة التي تزيد على معرفة الرسول يوم الدنيا؟ إلّا أن يكون هو منهم كأفضلهم و الباقون هم على هامشه.

أجل، و هذه المعرفة المتميزة عن نشأة التكليف أولا، و عمن هم في المحشر من أصحاب الجنة و أصحاب النار، تبين بوضوح أن رجال الأعراف هم أعرف العارفين باللّه، حتى اختصهم اللّه في ذلك الموقف الحاسم القاصم أن يكونوا مثله و آيته و إذاعته بين أهل الحشر كلهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 143

و القول إن‏ «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22) تحدد كل الأبصار في ذلك اليوم، مردود بأنه حديد في إبصار أعمال كلّ حيث‏ «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22)، كما القول إن‏ «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» (55:) 41) تعمم تلك المعرفة لأهل الحشر؟ فان‏ «فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» تقرر فاعل المعرفة هذه «بسيماهم» أنه الأخذ الرباني بالنواصي و الأقدام.

فليس هناك مجال لهذه المعرفة الشاملة كل أهل الجمع إلّا لأقرب المقربين إلى اللّه.

4 ثم‏ «وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ» برهان قاطع لا مرد له على أنهم هم الأعلون في المحشر المعشر، حيث يحملون- هم- سلام اللّه إلى أهل اللّه، لمكان‏ «سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» و لا يحمل سلام الرب الرحيم إلى عباده الصالحين إلا أصلح الصالحين الذين يمثلون أمره و يحملون القمة العليا من رسالته الربانية، و لو أنهم من المرجوين لأمر اللّه إذ خلطوا عملا صالحا و آخر شيئا، كانت حالهم تشغلهم عمن سواهم!.

و أما «لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» فليست لتعني رجال الأعراف، حيث كونهم على الأعراف يعرفنا أنهم لمّا يدخلوها، فلا مبرر- إذا- لذلك التكرار، مع أن أقرب المرجعين المحتملين لضمير الجمع هم‏ «أَصْحابَ الْجَنَّةِ» كما «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» الآتية صارحة صارخة انهم‏ «لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ».

كما و أن‏ «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» لا تدل على أنهم من الأذنين، فانها دعاء لأصلح الصالحين إلى من دونهم من سائر الصالحين.

و قد تعني «مع» هنا معية المكان، ألا توقفنا ربّنا في هذا الموقف صرفا لأبصارنا تلقاء أصحاب النار إلا قدر واجب الحوار و تقرير المصير، و معية الشفاعة منا لمن لا يستحقونها، و نحن غير مأذونين فيها، و أخيرا معيتهم في دخول النار تخذلا و تذللا لأنفسهم أمام اللّه كأنهم لا يستحقون الجنة فإنها قضية فضل اللّه و رحمته و ليست قضية عدله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 144

5 ثم‏ «نادى‏ أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا ..» في ذلك التأنيب العجيب، ليست في ذلك الموقف الرهيب إلا من ممثلين لأمر اللّه، المرسلين من قبل اللّه، في ذلك الحوار الحاسم و في تقرير المصير.

6 و أخيرا «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» و لا نجد أمرا لأصحاب الجنة بدخول الجنة في القرآن كله إلا من قبل اللّه إذ «يا عِبادِ ... ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» (43: 70) حيث يعني طليق الدخول في الجنة برزخا و في الآخرة.

ثم ليس إلا من ملائكة الرحمة خطابا للصالحين إذ يتوفونهم:

«سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (16: 32) و هو خاص بجنة البرزخ، و من ثم ليس إلّا «وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ» (39: 73) و قد تعني «خزنتها» ملائكة خصوصا، أم هم رجال الأعراف، أم و هما معا، فمن ثم خطاب وسيط بين المرحلتين هو ثاني الخطابين في المحتد، حيث يعني جنة الآخرة كما هنا:

«ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» فمهما كان‏ «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» الأخروية مشتركة بعد اللّه بين فريقي الخزنة، «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» ميزة لرجال الأعراف بين كل أهل الجنة.

إذا فرجال الأعراف هم أعلى موقفا و محتدا من ملائكة اللّه، و من كل أهل الحشر دونما استثناء.

هذه تعريفات بهم في مواقفهم على الأعراف، ثم لا نجد و لا لمحة أنهم بحاجة إلى شفاعة أماهيه من مكفّرات، إنما هم: «عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ ...» بهذه المواصفات الست، المنقطعة النظير عن كل بشير و نذير، اللّهم إلا لأعرف العارفين باللّه، و اعبد العابدين للّه، و أقرب المقربين إلى اللّه، فهم الممثلون أمر اللّه في حوارهم هناك و في تقرير المصير، و السّلام على أصحاب الجنة و أمرهم بدخولها، فهل هم- بعد- الذين استوت حسناتهم و سيئاتهم؟ كلّا ثم كلّا.

ذلك، و لكن جوابا عن سؤال: فأين- إذا- موقف‏ «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 145

إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» (5: 1) و «آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ..» (9: 12)؟.

نقول: لأنهم- إذا- ليسوا- بعد- لا من أصحاب النار و لا من أصحاب الجنة، فليكونوا في موقع من الأعراف دان، إذا فأصحاب الأعراف اثنان هما رجال الأعراف و أصحابهم، فالأولون يذكرون في هذه الآيات أصلاء لأنهم يحملون أمر اللّه بحوار و سائر الأمر بين فريقي الجنة و النار، و الآخرون هم على هامش أصحاب الجنة ينتظرون حيث هم مرجون لأمر اللّه فهم- إذا- راجون، و الشافعون لهم بعد كل المكفرات هم رجال الأعراف.

فالأحاديث المفسرة لأصحاب الأعراف بأنهم الرفيق الأعلى‏ «1» تعني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 32 في تفسير القمي قال الصادق (عليه السّلام) كل أمة يحاسبها إمام زمانها و يعرف الأئمة أوليائهم و أعداءهم بسيماهم و هو قوله‏ «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ» فيعطوا أولياءهم كتابهم بيمينهم فيمروا إلى الجنة بلا حساب و يعطوا أعداءهم كتابهم بشمالهم فيمروا إلى النار بلا حساب‏

، و

فيه عن معاني الأخبار خطبة لعلي (عليه السّلام) و فيها يقول (عليه السّلام): و نحن أصحاب الأعراف أنا و عمي و أخي و ابن عمي و اللّه فالق الحب و النوى لا يلج النار لنا محب و لا يدخل النار لنا مبغض لقول اللّه عزّ و جلّ‏ «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ ..»

و

فيه عن الكافي عن صفوان قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السّلام) يقول: جاء ابن الكوا إلى أمير المؤمنين (عليه السّلام) فقال: يا أمير المؤمنين‏ «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ» فقال: نحن على الأعراف، نعرف أنصارنا بسيماهم و نحن الأعراف الذين لا يعرف اللّه عزّ و جلّ إلا بسبيل معرفتنا و نحن الأعراف يعرفنا اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة على الصراط فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا و عرفناه و لا يدخل النار إلا من أنكرنا و أنكرناه،

و

فيه عن كشف الغمة عن أمير المؤمنين (عليه السّلام) حديث طويل فيه: فالأوصياء قوّام عليكم بين الجنة و النار، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم و عرفوه و لا يدخل النار إلا من أنكرهم و أنكروه لأنهم عرفاء العباد عرفهم اللّه إياهم عند أخذ المواثيق عليهم بالطاعة لهم فوصفهم في كتابه فقال عزّ و جلّ:

«وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ ..» و هم الشهداء على الناس و النبيون شهدائهم بأخذهم لهم مواثيق العباد بالطاعة،

و

في تفسير العياشي عن علي (عليه السّلام) قال: أنا يعسوب-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 146

الأولين، و المفسرة لهم بأنهم الفريق الأدنى‏ «1» تعني الآخرين، و المفسرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المؤمنين و أنا أوّل السابقين و خليفة رسول رب العالمين و انا قسيم الجنة و النار و أنا صاحب الأعراف،

و

فيه عن هشام عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: سألته عن قول اللّه عزّ و جلّ‏ «وَ عَلَى الْأَعْرافِ ..» ما يعني بقوله؟ قال: ألستم تعرفون عليكم عرفا على قبائلكم لتعرفوا من فيها من صالح أو صالح؟ قلت: بلى، قال: فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلا بسيماهم‏

و

فيه عن زادان عن سلمان قال: سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول لعلي (عليه السّلام) أكثر من عشر مرات: يا علي إنك و الأوصياء من بعدك أعراف بين الجنة و النار، و لا يدخل الجنة إلا من عرفكم و عرفتموه و لا يدخل النار إلا من أنكركم و أنكرتموه،

و

فيه مثله عن سعد بن طريف عن أبي جعفر (عليه السّلام) و عن الثمالي عنه (عليه السّلام) و في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السّلام): و لأهل التواضع سيماء يعرفه أهل السماء من الملائكة و أهل الأرض من العارفين قال اللّه تعالى: «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ».

و

في احقاق الحق (3: 543) حول الآية ممن نقل نزولها في علي (عليه السّلام) الهيثمي في الصواعق المحرقة (167) و القندوزي في ينابيع المودة (102) و في (14:

396- 398) و منهم الثعلبي في الكشف و البيان (353) و ابن طلحة في مطالب السؤول في مناقب آل الرسول (17) و الذهبي في ميزان الاعتدال (2: 3) و الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 198) و البدخشي في مفتاح النجا (38) و الشافعي في المناقب (156) و الحضرمي في وسيلة المآل (122) و الأمر تسري في أرجح المطالب (84) و البدخشي في مفتاح النجا (مخطوط) عن علي كرم اللّه وجهه في الآية قال: نحن أصحاب الأعراف من عرفناه بسيماه أدخلناه الجنة.

(1).

في الدر المنثور 3: 87- أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن عساكر عن جابر بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) توضع الميزان يوم القيامة فتوزن الحسنات و السيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة و من رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار قيل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فمن استوت حسناته و سيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها و هم يطمعون،

أقول: أقل ما فيه أن حصر أصحاب الأعراف فيهم لا يناسب مواضع من هذه الآيات، ثم وزن السيئات ينافي‏ «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» اللهم إلا أن يختص بمن ليست له حسنات، و كذلك الحديث «السيئات خفة الميزان و الحسنات ثقل الميزان» و

فيه أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن أبي زرعة عمرو بن جرير قال‏ سئل رسول اللّه (صلى اللّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 147

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آله و سلم) عن أصحاب الأعراف فقال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار و لم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم»

و

فيه أخرج البيهقي في البعث عن حذيفة أراه قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة و يؤمر بأهل النار إلى النار ثم يقال لأصحاب الأعراف ما تنتظرون؟ قالوا:

ننتظر أمرك، فيقال لهم: «إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها و حالت بينكم و بين الجنة خطاياكم فادخلوا الجنة بمغفرتي و رحمتي»

و

فيه عن عبد الرحمن المزني قال‏ سئل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن أصحاب الأعراف فقال: «هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آباءهم فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله و منعهم من الجنة معصية آبائهم»

أقول: معصية الآباء في القتل في سبيل اللّه هي من المكفّرات و كما قال اللّه: «.. وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ ..» (3: 195)، و هذا إذا لم يكن القتال واجبا معينا فإن فيه لا عصيان، و في غير المعين يجبر العصيان بالشهادة. و

فيه أخرج الطبراني و ابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري قال: سئل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن أصحاب الأعراف فقال: هم رجال قتلوا في سبيل اللّه و هم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار و منعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة و هم على سور بين الجنة و النار حتى تذبل لحومهم و شحومهم حتى يفرغ اللّه من حساب الخلائق فإذا فرغ من حساب خلقه فلم يبق غيرهم تغمدهم منه برحمة فأدخلهم الجنة برحمته، و رواه مثله معنويا أبو هريرة و عبد اللّه بن مالك الهلالي عن أبيه و ابن عباس و حمد بن المنكدر عن رجل من مزينة عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)،

و

فيه أخرج البيهقي في البعث عن أنس بن مالك عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن مؤمني الجن لهم ثواب و عليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم فقال: «على الأعراف و ليسوا في الجنة و ليسوا مع أمة محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) فسألناه و ما الأعراف؟ قال:

حائط الجنة تجري فيه الأنهار و تنبت فيه الأشجار و الثمار» أقول: هذا خلاف الضرورة القرآنية في عدم التفرقة بين الجنة و الناس و سائر المكلفين في الجزاء الوفاق، و على أية حال فهذه الأحاديث لا توافق القرآن في مواضيع عدة.

و

من طريق أصحابنا في نور الثقلين 2: 34 عن أصول الكافي بسند متصل عن حمزة بن الطيار قال لي أبو عبد اللّه (عليه السّلام): الناس على ستة أقسام، قال قلت: تأذن لي أن أكتبها؟ قال: نعم قلت: ما أكتب، قال: اكتب: أصحاب الأعراف، قال قلت:

و ما أصحاب الأعراف؟ قال: «قوم استوت حسناتهم و سيئاتهم فإن أدخلهم النار فبذنوبهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 148

لهم بأنهم الفريقان‏ «1» تعنيهما تفسيرا للأولين و تأويلا للآخرين، فقد تصدق هذه الثلاث إلا ما فيها من شطرات لا تلائم القرآن.

ذلك، و إلى تفصيل لكل مقاطع الآيات الأربع بشأن رجال الأعراف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ان أدخلهم الجنة فبرحمته».

أقول: قضية ذلك الإستواء تكفير الذنوب و ان بدخول النار ردحا من الزمن ثم دخول الجنة بحسناتهم، اللهم إلا أن تعني مكوث الأعراف غفر سيئاتهم دون عذاب. و

فيه عن القمي عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: أقبل علي فقال لي: ما تقول في أصحاب الأعراف؟ فقلت: ما هم إلا مؤمنين أو كافرين، إن دخلوا الجنة فهم مؤمنون و ان دخلوا النار فهم كافرون، فقال: و اللّه ما هم بمؤمنين و لا كافرين، و لو كانوا مؤمنين لدخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون و لو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون و لكنهم قد استوت حسناتهم و سيئاتهم فقصرت بهم الآمال و انهم لكما قال اللّه عزّ و جلّ، فقلت: أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار؟ فقال: أتركهم حيث تركهم اللّه، قلت: أ فنرجئهم؟ قال: نعم أرجئهم كما أرجأهم اللّه، إن شاء أدخلهم الجنة برحمته و ان شاء ساقهم إلى النار بذنوبهم و لم يظلمهم، فقلت: هل يدخل الجنة كافر؟ قال: لا، قلت: فهل يدخل النار إلا كافر؟ قال: فقال: لا إلا أن يشاء اللّه، يا زرارة إنني أقول ما شاء اللّه، و أنت لا تقول ما شاء اللّه، أما إنك ان كبرت رجعت و تحللت عنك عقدك.

(1).

في المجمع قال أبو عبد اللّه (عليه السّلام): الأعراف كثبان بين الجنة و النار يوقف عليها كل نبي و كل خليفة مع المذنبين من أهل زمانه كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده و قد سبق المحسنون إلى الجنة فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا فيسلم عليهم المذنبون و ذلك قوله: و نادى أصحاب الأعراف .. ثم أخبر سبحانه انهم لم يدخلوها و هم يطمعون، يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة و هم يطمعون أن يدخلهم اللّه بشفاعة النبي و الإمام و ينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين- ثم ينادي أصحاب الأعراف و هم الأنبياء و الخلفاء رجالا من أهل النار مقرعين لهم‏ «ما أَغْنى‏ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ‏- يعني أ هؤلاء المستضعفين كنتم تستضعفونهم و تحتقرونهم بفقرهم و تستطيلون بدنياكم عليهم ثم يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله بذلك لهم: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ»

و روى القمي في تفسيره عنه (عليه السّلام) ما يقرب منه عنه (عليه السّلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 149

و أصحاب الجنة و النار:

«و بينهما» بين الجنة و النار، أو بين أصحاب الجنة و النار و هو الأظهر قضية ذكرهم من ذي قبل أم هما معنيان معا.

«وَ بَيْنَهُما حِجابٌ» عله سور له باب: «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ. يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى‏ وَ لكِنَّكُمْ ...» (57: 14).

ف «الأعراف» هي أعراف الحجاب بينهما، و الحجاب هو السور المضروب بينهما، و هو بطبيعة الحال باطنه- و هو جانب أصحاب الجنة- فيه الرحمة، و ظاهره- و هو جانب أصحاب النار- من قبله العذاب.

و هنا بجانبي السور الحجاب حوار بين أهل الجنة و النار، و حوار لرجال الأعراف مع الفريقين بتقرير المصير بعد بيان المسير.

«و نادوا» رجال الأعراف‏ «أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ» سلاما قبل دخول الجنة إذ «لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ»: أن يدخلوها.

و ترى كيف‏ «هُمْ يَطْمَعُونَ» دون «يوقنون» و هم‏ «أَصْحابَ الْجَنَّةِ» حسب النص؟

إنهم‏ «أَصْحابَ الْجَنَّةِ» حيث هم مسيرهم الجنة بعد عفو اللّه و غفره و بمنه و حنانه، «أَصْحابَ الْجَنَّةِ» بشارة لهم من رب العزة و لمّا يدخلوها، أم و لمّا يعلموا أنهم من أصحابها، فلأنهم درجات حسب درجات إيمانهم و عمل الصالحات، فالحالة الهالة العامة لهم هي‏ «وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» رجاء تكفير سيئاتهم دون عذاب، و حتى إذا بشروا بالجنة و هم يعلمون، فهم- بعد- بين الخوف و الرجاء، خوف من قصورات لهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 150

و تقصيرات، و أنهم مهما كانوا صالحين دون تقصير فلا يستحقون الجنة بأعمالهم، اللهم إلا برجاء الرحمة الربانية، إذا «وَ هُمْ يَطْمَعُونَ».

ذلك و قد تأتي «يطمعون» في مورد العلم تذللا و تطامنا أمام رب العزة و كما قال إبراهيم:

«وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» (26: 82) و كذلك الذين اتبعوه من النصارى المؤمنين بهذه الرسالة السامية: «وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى‏ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ» (5: 84).

و كذلك السحرة المؤمنون أفضل إيمان من أعضل كفر و أرذله: «إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ» (26: 51) و في هذه الآية المرحومة: «تَتَجافى‏ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً» (32: 16).

فالطمع الصالح لدخول الجنة هو للصالحين مهما كانوا من المعصومين كإبراهيم، فضلا عن كل أصحاب الجنة حيث هم‏ «لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» قبل صدور الأمر الذي يحمله رجال الأعراف ب «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ».

وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47).

هنا «صرفت» دون «صرفوا» تلمح بانصرافهم تلقاء أصحاب النار دون صرف منهم باختيار، فانما هو صرف رباني و أمر من ساحة العزة أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 151

يصرفوا أبصارهم تلقاء أصحاب النار لواجب تقرير المصير بواجب الحوار.

و هنا حيث يفاجئون برؤية هؤلاء الظالمين ابتدروا بدعاء: «قالُوا رَبَّنا» الذي ربانا بهذه التربية القمة العالية المرموقة: «لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» لا في الجنة و لا في النار، فالظالمون الذين لا يستحقون الجنة، لا تجعلهم فيها معنا، و لا تجعلنا معهم أولاء في النار، و لا تجعلنا مع المحكومين بالنار في شفاعة لهم، و لا تجعلنا معهم قبل دخول الجنة و النار، أكثر من قدر الحوار و تقرير المصير.

فالمعية بين رجال الأعراف و أصحاب النار في أية مرحلة- إلا الحاسمة القاسمة بينهم- هي معية بعيدة عن الرحمة، مهما لم تكن فيها زحمة العذاب، فلو دخلنا النار بعذاب لهم و لنا دون عذاب، فحق لك يا رب إذ لا نستحق نحن الثواب مهما لا نستحق العقاب، فإلى المفاصلة التامة الطامة بيننا و بين الظالمين الذين لا يستحقون الجنة، و حتى إذا دخلوا الجنة باستحقاق بعد ذوق عذاب مستحق، متخلصين عن أعباء الظلامات، فقضية مختلف الدرجات ألا تجعلهم معنا في مقامنا في الجنة، مهما «نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ»!.

و لكن فلنكن في مقامنا كما نستحق، و هم كما يستحقون في أماكن و مكانات، في الأصل و بمعرفة أصحاب الجنة.

فقد تطلبوا في‏ «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» سد هذه الأبواب السبع من المعيات المعنيات من‏ «مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

ذلك، و قد يلمح ضمير الجمع- الجائز الرجوع هنا إلى أصحاب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 152

الجنة لأنهم الأقربون مرجعا، و الرجوع إلى أصحاب الأعراف لأنهم الأقربون موقعا، فإنهم محور الكلام هنا- يلمح بعناية أصحاب الجنة مع أصحاب النار، فلئن كان القصد إلى خصوص أصحاب الأعراف لذكروا كما يذكرون في التالي: و نادى أصحاب الأعراف، و ذلك في تفسير الظاهر، ثم في التأويل يعنى معهم الأدنون في الأعراف، فهذا الدعاء هو طبيعة الحال في الفرق الثلاث، مهما كان للآخرين رجاء باحتمال النجاة، و للأوسطين أرجى، و لأصحاب الأعراف فوق الرجاء، و لكلّ في هذا الدعاء موقع يناسبه، في نفسه و باختلاف دركات المعيات المعنية من‏ «مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ألا تجعلنا معهم، سواء فيما يجوز عدلا أما لا يجوز.

فجعلهم كلهم مع القوم الظالمين في عذاب النار أم في مقامات الجنة بعد ما ذاقوا عذاب النار فاستحقوا دخول الجنة كبعضهم، ذلك خلاف العدل، فالدعاء بالنسبة لمعيتهم يصبح ك «رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ» فانه صرف الالتجاء في الدعاء، و كما يلحّق هنا «وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى‏ ما تَصِفُونَ» (21: 112).

و أما جعلهم معهم في المحشر أكثر من تكملة الحساب و الحوار، أم بقاء الترائي بعد الدخول في الجنة و النار، أم دخولهم مع أصحاب النار في النار دون أن يشاركوهم في عذابهم، أم دخول هؤلاء معهم في الجنة دون أن يشاركوهم في ثوابهم أماذا من خلاف الفضل، فليس من خلاف العدل.

و الدعاء على أية حال لا يعني جواز عدم تحقق المدعو به لولا الدعاء كالحق في‏ «رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ» بل هو تعلق باللّه و تذلل أمام اللّه، و ان حكمه حق على أية حال و إن كان في ظاهر الأمر غير حق حيث لا يلائمنا.

و ذلك أدب الدعاء في كافة الأحوال، و حتى إذا كان الداعي في حال وقوع المدعو به فضلا عما قبله.

وَ نادى‏ أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 153

عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49).

هذه الرسالة الغالية أن يكونوا مذيعين لفصل الحكم من رب العالمين، إنها منقبة لا تسامى بسواها و لا تساوى، ثم‏ «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» هي رسالتهم الأخيرة حيث أمروا بأمر اللّه أن يخاطبوا أصحاب الجنة بدخولها.

إذا فمناداة أصحاب الجنة و النار هي قبل الدخول فيهما، و هي مواقف العالين من رجال الأعراف حسم الموقف، ثم هم يدخلون الجنة و معهم قسم من الأدنيين الذين هم معهم‏ «عَلَى الْأَعْرافِ».

ذلك و مما يؤيد أصالة القصد الى أعالي رجال الأعراف دون الأداني، أن الآخرين غير محصورين في الرجال، بل و نساءهم أكثر من رجالهم، و أما الأولون فهم بطبيعة الحال رجال كالمعصومين المحمديين (عليهم السّلام)، و أما فاطمة الصديقة فقد تكون منهم كما في‏ «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ..» أم هي غير مشاركة معهم لمكان أنوثتها، و على أية حال فخصوص القصد من رجال الأعراف الأدنين مرفوض.

كما و لا تعني «رجال» الملائكة إذ لا نساء فيهم، و هم يقابلون نساء من جنسهم، مهما عنت رجالا من الجن على هامش رجال من الإنس كرسل منهم عالين، حاكمين على قبيلهم، أم لهم بين فريقي أصحاب الجنة و أصحاب النار من الجن.

ثم مكانهم المتميز «الأعراف» و معرفتهم المتميزة أصحاب الجنة و أصحاب النار لحد يعرفون المستكبرين من أهل النار بينهم، لا فقط معرفة إجمالية بسيماهم المعروف لدى الكل حيث هنا «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ. وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ. تَرْهَقُها قَتَرَةٌ» (80: 41)، و هناك‏ «يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ» أي كل واحد من آحاد الفريقين، لا- فقط- كلا من الفريقين، تثبت لهم معرفة قمة متميزة بسيما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 154

كل واحد منهم، حيطة معرفية بما عرفهم اللّه ليحكموا هناك بما يحكم اللّه.

هذا التميز و ذلك هما مما يميّزهم عن كل أصحاب الجنة، فهم محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و المحمديون من عترته (عليهم السّلام)، المتميّزون على كافة السابقين و المقربين و أصحاب اليمين.

فرجال الأعراف حيث يكلمون كلا الفريقين بما يكلمون هم الشهداء المخصوصون بالكرامة في مسرح‏ «لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (78: 38) فهم مأذونون بإذن خاص بكل إخلاص حتى يكلموا أهل الحشر أجمع بما يشاء اللّه و يرضى، أفهم بعد من الأدنين و ليس للعوان بينهم و بين العالمين ذلك النصب المتميز يوم الدين.

كل ذلك، إضافة إلى أنا لا نتلمح أية فزعة و هول لهم في أعرافهم، في أقوالهم و أفعالهم و أحوالهم، و الهول شامل ذلك اليوم كل أهل الحشر «فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 128)- «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ. لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ. لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» (21: 103)!.

إذا فقد لا تشمل رجال الأعراف في ظاهر التفسير إلّا أقرب المقربين و أسبق السابقين، دون الذين استوت حسناتهم و سيئاتهم فلا هم- بالفعل- من أهل الجنة و لا أهل النار،- اللهم إلا تأويلا أنهم على هوامشهم- ثم و لا صراحة هنا و لا لمحة أن رجال الأعراف يتطلبون إلى اللّه السماح، فإنما هو الحكمية بين الفريقين و الحكم بدخول أهل الجنة الجنة و دخول أهل النار النار.

إذا فعساكر البراهين القرآنية في آيات الأعراف و سواها تقرر موقفا حاسما لرجالها لا يناسب كل المعصومين فضلا عن الأدنين من المؤمنين، فلا يصغى إلى أحاديث الأدنين تفسيرا، إلا تأويلا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 155

«وَ نادى‏ أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ» معرفة متميزة عن كل أصحاب الجنة فضلا عن أصحاب النار، و «رجالا» هنا هم رجال متميزون بسيماهم من أصحاب النار ف «قالوا» لهم‏ «ما أَغْنى‏ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ» أموالا و أولادا و سائر الجموع المحتشدة حصولا على العزة و القوة، «و» لا «ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» بجمعكم على اللّه و على عباد اللّه و رسله.

«أ هؤلاء» الأكارم من أصحاب الجنة «الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ» كأنكم أنتم أصحاب الرحمة دونهم، أم هم و إياكم سواء في العذاب؟! كلّا، بل: «ادخلوا» أنتم الصلحاء «الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ».

أجل هؤلاء رجال الأعراف، فمكانهم في المحشر «الأعراف» أعراف الحجاب و السور المضروب بين أصحاب الجنة و أصحاب النار، و مكانتهم أنهم رسل من اللّه في ذلك الموقف الحاسم. رسل شهود في معرفة كلّ بسيماهم، يشاهدون كل نفس خيرة و شريرة في مقامها الخاص من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، و رسل قضات في تعيين المقامات هناك، ثم هم خارجون عن القبيلين إذ لا محاسبة لهم لدخول الجنة، و هم المؤمّرون أن يأمروا أصحاب الجنة لدخول الجنة كما أن مؤذنهم يؤمر بذلك الأذان، رسالة ربانية عالية 7 مما تدل على أنهم هم الأعلون في تلك العرصات.

ذلك‏

«و إنما الأئمة قوام الله على خلقه و عرفاء على عباده و لا يدخل الجنة إلا من عرفهم و عرفوه و لا يدخل النار إلا من أنكرهم و أنكروه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 142/ 256 عن أمير المؤمنين (عليه السّلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 156

وَ نادى‏ أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (51).

حوار بين أهل الجنة و النار في دار القرار، يوم التناد، يخيل فيها إلى أهل النار أن لأهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم اللّه كما كانت هناك إفاضة في دار الفرار، فإذا هم مفاجئون ب «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ» تحريما بحريم الاضطرار دون اختيار، إذ مضى يوم التكليف الإختيار، و لات حين فرار، و هم‏ «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً»:

اتخذوا طاعتهم الحقة و هي الدين الحق «لهوا» يلتهون به حيث يلهيهم عما يعنى لهم «و لعبا» به يلعبون حيث كانوا به يستهزءون، فاتخذوا دينهم: الطاعة، مخلدا إلى أرض الشهوات، فلا يطيعون- إذا- إلا لهوا و لعبا «وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» بما انغروا بها حيث أبصروا إليها فأعمتهم و لم يبصروا بها لتبصّرهم‏ «فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ» نعاملهم معاملة الناسي إياهم على علمنا بهم، تحريما عليهم ما يقدم للضيفان من النعم‏ «كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا» عامدين لاهين لاعبين، و ك «ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ» فنحن نجحدهم كما جحدوا، و ننساهم كما نسوا جزاء وفاقا.

ذلك كيف لا يشغلهم ما هم فيه من النار عن الماء و سائر رزق اللّه؟

حيث الماء يخفف عن حر النار و سائر رزق اللّه يسد عن الجوع، و العطش و الجوع هما مما لا ينسيان في أية ملابسات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 36 في كتاب الإحتجاج عن عبد الرحمان بن عبد اللّه الزهري قال: حج هشام بن عبد الملك فدخل المسجد الحرام متكيا على يد سالم مولاه و حمد بن علي بن الحسين صلوات اللّه عليهم جالس في المسجد فقال له سالم: يا أمير المؤمنين هذا محمد بن علي بن الحسين، فقال هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم، قال:

اذهب إليه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكل الناس و يشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فقال أبو جعفر (عليه السّلام): يحشر الناس على مثل قرصة النقي فيها أنهار منفجرة يأكلون و يشربون حتى يفرغ الناس من الحساب، قال: فرأى هشام انه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 157

و في تقدم «الماء» على‏ «مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» ذكرا تقدم له على سائر رزق اللّه واقعا حيويا فللماء دور دائر في الحياة ليس لسائر رزق اللّه، و قد قال اللّه تعالى: «وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» (21: 30) و

قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «أفضل الصدقة سقي الماء» «1».

ذلك، و لأن الغرور هو إظهار النصح و استبطان الغش و هما من فعل المختار، فتراه كيف ينسب إلى الحياة الدنيا و ليست هي مختارة؟

و الجواب أن الحياة الدنيا هي حياة الإنسان فيها دون نفسها، فالغرور- إذا- هو من فعل الإنسان حيث ينظر إلى الدنيا فينغر بها، و لا ينظر بها فيبصّر، فالحياة الدنيا هي بطبيعها حياة الغرور: «وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ» (57: 20).

ثم النسيان من اللّه هو تناسي العارف و كما هم تناسوا عارفين، فلقد تناسوا لقاء يومهم هذا عارفين، فاللّه يتناساهم عن رحمته عارفا فلا يفيض عليهم منها إلّا عذابا مهينا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قد ظفر به فقال: اللّه أكبر اذهب إليه فقل له: ما أشغلهم عن الأكل و الشرب يومئذ؟

فقال أبو جعفر (عليه السّلام): هم في النار أشغل و لم يشتغلوا عن أن قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللّه، فسكت هشام لا يرجع كلاما.

و

فيه في تفسير العياشي عن أحدهما (عليهما السلام) قال: «إن أهل النار يموتون عطاشا و يدخلون قبورهم عطاشا و يدخلون جهنم عطاشا فترفع لهم قراباتهم من الجنة فيقولون:

أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ».

(1).

الدر المنثور 3: 890 عن ابن عباس‏ انه سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): .. ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 158

و «دينهم» كما لمّحنا تعم الدين الحق فطريا و عقليا و شرعيا حيث اتخذوه لهوا يعرضون عنه، و لعبا يلعبون به و يستهزءون، و الدين الباطل و هو الشهوة المطاعة، توغلا في اللهو و اللعب: «وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ» (6: 70).

و هكذا «حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ» (34: 54) فمهما كانت المشتهيات مشتركة بين قبيلي الإيمان و الكفر يوم الدنيا فهي خاصة بالمؤمنين يوم الدين: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ، الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (7:) 32).

و حقا أقول:

«ما الدنيا غرتك، و لكن بها اغتررت، و لقد كاشفتك العضات، و آذنتك على سواء، و لهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك، و النقص في قوتك، أصدق و أوفى من أن تكذبك أو تغرك، و لرب ناصح لها عندك متهم، و صادق من خبرها مكذب، و لئن تعرفتها في الديار الخاوية، و الربوع الخالية، لتجدنها من حسن تذكيرك، و بلاغ موعظتك بمحلة الشفيق عليك، و الشحيح بك، و لنعم دار من لم يرض بها دارا، و محل من لم يوطنها محلا، و إن السعداء بالدنيا غدا هم الهاربون منها اليوم» (الخطبة 214).

يا أيها الإنسان ما جرّأك على ذنبك، و ما غرّك بربك، و ما آنسك بهلكة نفسك، أما من داءك بلول، أم ليس من نومك يقظة، أما ترحم من نفسك ما ترحم به غيرك، فلربّما ترى الضاحي من حر الشمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يمضّ جسده فتبكي رحمة له، فما صبّرك على داءك، و جلّدك بمصابك، و عزّاك عن البكاء على نفسك و هي أعز الأنفس عليك، و كيف لا يوقظك خوف بيات نقمة و قد تورطت بمعاصيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 159

مدارج سطواته، فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة، و من كبرى الغفلة في ناظرك بيقظة، و كن للّه مطيعا، و بذكره آنسا، و تمثل في حال توليّك عنه إقباله عليك يدعوك إلى عفوه، و يتغمدك بفضله، و أنت متولّ عنه إلى غيره- فتعالى من قوي ما أكرمه، و تواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته، و أنت في كنف ستره مقيم، و في سعة فضله متقلب، فلم يمنعك فضله، و لم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مطرف عين في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته، و أيم اللّه لو أن هذه الصفة كانت في متفقين في القوة، متوازنين في القدرة، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق و مساوئ الأعمال- إذا فكونوا عن الدنيا نزّاها، و إلى الآخرة ولّاها، و لا تضعوا من رفعته التقوى، و لا ترفعوا من رفعته الدنيا، و لا تشيموا بارقها، و لا تسمعوا ناطقها، و لا تجيبوا ناعقها، و لا تستضيئوا بإشراقها، و لا تفتنوا بإعلاقها، فان برقها خالب، و نطقها كاذب، و أموالها محروبة، و أعلاقها مسلوبة، ألا و هي المتصدية العنون، و الجامحة الحرون، و المائنة الخؤن، و الجحود الكنود، و العنود الصدود، و الحيود المنود، حالها انتقال، و وطأتها زلزال، و عزها ذل، وجدها هزل، و علوها سفل، دار حرب و سلب، و نهب و عطب، أهلها على ساق و سياق، و لحاق و فراق، قد تحرت مذاهبها، و أعجزت مهاربها، و خابت مطالبها، فأسلمتهم المعاقل، و لفظتهم المنازل، و أعيتهم المحاول، فمن ناج معقور، و لحم مجزور، و شلو مذبوح، و دم مسفوح، و غاضّ على يديه، و صافق بكفيه، و مرتفق بخديه، و زار على رأيه، و راجع عن عزمه، و قد أدبرت الحيلة، و أقبلت الغيلة، و لات حين مناص، هيهات هيهات قد فات ما فات، و ذهب ما ذهب، و مضيت الدنيا لحال بالها «فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ» (الخطبة 233).

وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى‏ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 160

يُؤْمِنُونَ (52).

لقد تمت الحجة عليهم يوم الدنيا إذ «جئناهم» بجمعية صفات الهدى «بكتاب»: قرآن «فصلناه» تفصيلا لكل شي‏ء «على علم» منّا رباني يحلق على كل شي‏ء، حالكون الكتاب‏ «هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» و هم أولئك الذين حالتهم حالة الإيمان بالحق المرام و ان كانوا لمّا يؤمنوا حيث لم تصلهم دلائل الإيمان، فهم مؤمنون فطريا و عقليا، و هم ناظرون دلائل كامل الإيمان شرعيا، «فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ».

ذلك، و هنا «لقد جئناهم» إضافة إلى ما فيها من مثلث التأكيدات بحر في التأكيد و جمعية الصفات، نجد في مفعولية «هم» ل «جئنا» تقديرا للجار، كأنه سبحانه جاء إليهم «بكتاب» و الباء قد تعني كلا المعية و السببية: جئنا إليهم بسبب الكتاب، و مصاحبين الكتاب، و مثلها:

«وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً» (25: 33)- و «لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ» (43: 78).

فلقد كان في نزول القرآن مجيئا لرب العالمين إلى كافة المكلفين حيث يدل بنفسه على اللّه بتوحيده و صفاته و أفعاله، و كأنه جاءهم بنفسه.

فلو أنه أراهم نفسه لم يزدهم معرفة على ما عرفهم إياه بكتابه، و لذلك أصبح شاهدا لنفسه ربا، و لرسوله رسالة، و لكل ما أراده منهم دلالة باهرة جاهرة: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ..» (29: 52) «لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4: 166). «وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» (13: 43) «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً» (17: 96).

ذلك، فقد يزيل القرآن كل حجاب بيننا و بين ربنا معرفيا إلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 161

المستحيل زواله و هو حجاب الذات و حقيقة الأفعال و الصفات، فلم يبق في الدور إلّا ذلك المثلث الذي ليس ليزول على أية حال!.

ذلك، ثم‏ «فَصَّلْناهُ عَلى‏ عِلْمٍ» تفصيلا يزيل كافة الغشاوات عن وجه الحق المرام، فلا خفاء لما فصله، حيث فصله «على علم» بتفصيله، و علم بالمكلفين، و علم بتصاريف الكلام، و علم بالحق المرام و ما يحتاجه الأنام‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»!.

فهل يفترى بعد على اللّه أنه أغمض في كتابه، و أعضل فيه لحد لا يفهم إلّا بالحديث، «فَصَّلْناهُ عَلى‏ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

ف «قوم يؤمنون» هم الذين يعرفون تفصيله، استنباطا لمرادات اللّه، من منشور ولاية اللّه كما أمر اللّه، فانه السبب الوحيد الوطيد، الوتيد على أعماق الفطر و العقول و القلوب، و ذلك لمن ألقى السمع و هو شهيد.

فكما أن معادن كتاب التكوين مختلفة الوصول إليها و الحصول عليها حسب اختلاف المساعي، كذلك كتاب التدوين، فإن لكلّ من حقائقه المخزونة قدر سعيه و وعيه، دونما بخل و عضل في دلالة الكتاب نفسه على ما يرام.

فالبخيل- إذا- هو الذي جعله مهجورا فمحجوزا، يتكلم ضده أنه ليس ليفهم إلا بوسائل هي مغيّبة في زمن التكليف إلّا قليلا!.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (53).

«هل ينظرون» هؤلاء الكفار و ينتظرون بعد كتاب مفصل على علم هدى و رحمة لقوم يؤمنون، ينتظرون حجة أخرى بعده و هو الحجة البالغة الربانية بنوره و هداه و رحمته، و فيه الكفاءة لمن يتحرى عن الهدى، فاتحا منافذ إدراكه لتلقى الحق المرام.

«هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ» إذ لم يبق انتظار بعد كامل حجته و شاملها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 162

إلّا تأويله، و ليس العلم بتأويل القرآن شرطا لبالغ حجته، فإن فيه الكفاءة التامة الطامة: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (30: 52).

ذلك، و التأويل في الأصل هو الإرجاع إلى مبدء أو منتهى خارجين عن نص المأوّل و ظاهره، و للقرآن تأويلان اثنان، تأويل المبدء و تأويل المعاد، و هو بين المبدء و المعاد حجة بظاهره و باطنه في إشارات و لطائف و حقائق يمكن الحصول عليها بحجته الظاهرة الباهرة، فتأويل المبدء هو المأخذ في أصل القرآن و فصله أحكاما و إنباءات أخرى، و تأويل المعاد هو واقع الأنباء المسرودة فيه، و التأويل المنتظر هنا هو الآتي في البرزخ برزخا و في المعاد واقعا مفصلا دون إبقاء، أم و تأويل علمي مبدء حيث يظهر بعد الموت ما يمكن أن يظهر، و كذلك تأويل الأعمال ظهورا بحقائقها، ثم تأوّلا إلى جزاءها الوفاق.

و في رجعة أخرى إلى الآيتين «هل ينظرون» تجتث كافة الانتظارات من كافة المنتظرات في حقل الحجج الربانية بعد نزول الحجة البالغة القرآنية، اللّهم إلا انتظار المستحيل بحقهم و هو «تأويله» حيث ينقسم إلى مستحيل بحق الكلّ كالتأويل الخاص باللّه، و المستحيل بحق غير الراسخين في العلم كمبادئ الأحكام، فإن العلم بها يخصهم، و هم المستنبطون منها السنة على هامش الكتاب.

ذلك، فكما من المنتظرات المستحيلة الذاتية «أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ» (2: 210)- و المستحيلة بحقهم‏ «أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ» (6: 158) قبل أجلهم.

كذلك‏ «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ» حيث المنتظر لهم بين مستحيل ذاتي كالتأويل الخاص باللّه حيث يحرم عن علمه الأقربون فضلا عنهم، و مستحيل نسبي وقتي كالتأويل الخاص بأقرب المقربين في دور التكليف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 163

فانتظار معرفة التأويل مبدء و معادا كواقع الحجة الطليقة، بعد حجة القرآن البالغة، هو انتظار قاحل جاهل، فواقع التأويل للقرآن و علمه قبل الموت، ليس واقعا لهم أولاء إذ تمت الحجة البالغة الدامغة بالقرآن‏ «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ..»؟.

و لم يأت التأويل في القرآن إلا بمعنى الأول الرجوع لمتوسط الحق قرآنا و سواه، إلى مبدءه و منتهاه، و كيف ينظرون تأويله و هم- بعد- لم يبلغوا إلى متوسط من تفهم ذلك الوسيط بين تأويليه؟!.

ثم للتأويل إجمال و تفصيل، فإجماله معروف من ظاهره الحاضر لمن ألقي السمع و هو شهيد، فقد يعرف من القرآن نفسه مبدءه و هو اللّه، و معاده و هو يوم اللّه، و كما يعرف منه كافة الحقائق المقصودة في نشأة التكليف.

و تفصيله غير معروف إلّا لمن يحيط به علما و معرفة يقينية بعين اليقين و حقه، اللهم إلا ما اختص به اللّه من معرفة ذات اللّه و صفاته و أفعاله و سائر العلم المخصوص بساحته القدسية المتعالية، و حجته البالغة الكافية هي وراء تأويله علميا و عينيا، فإن دورهما آت بعد الموت، اللهم إلا للمعصومين قدر ما قدره اللّه.

و قد يكفي للتصديق بأمر، علم به، دون حيطة شاملة كما نعرف اللّه و لا نحيط به علما «بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ» (10: 39).

«هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ» تنديد بهم شديد أنهم ناظرون واقع نباء القرآن حتى يؤمنوا به و هو نبأ عظيم يدل على صدقه نفسه بكل بيناته الصادقة للذين يؤمنون.

و «هل ينظرون» هنا لمن ينتظر التأويل هو نظرة الانتظار، ثم لمن لا ينتظر بشأنه أي شي‏ء لا حاضرا و لا تأويلا هو واقع الانتظار، حيث ينتظرهم تأويله مهما كانوا هم غير ناظريه، و ذلك كالذي كان لآل فرعون‏ «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً» (28: 8) فنظر الانتظار لهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 164

«قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى‏ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» و واقعه الذي ينتظرهم و هو غير ناظرين له‏ «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً».

ذلك، و تنديد آخر بتهديد «يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ» نسيان التناسي لأصله المفصل و تأويله المجمل حيث تعني «نسوه» كليهما، أم هو يوم التأويل لكافة المكلفين، و يوم القرآن بتأويله لأهله الخصوص، و من الشاهد على طليق التأويل‏ «قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ» فقد نسوا من ذي قبل لقاء يومهم هذا، سواء أ كانوا في زمن الشرعة القرآنية أم سواه من زمن الرسالات.

إذا «نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ» تعني نسيان يومهم هذا المدلول عليه بكافة البراهين الآفاقية و الأنفسية، تكوينية و تشريعية، و لا سيما المدلول عليه بالقرآن العظيم الذي هو مهيمن على كتابات الوحي و رسالاته كلها.

يقولون هذه القولة الخاسرة الحاسرة ثم يتساءلون عما قد ينجيهم من عذاب يومئذ: «فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا» كما كنا نظن من ذي قبل أن «هؤلاء شفعاءنا عند الله- ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏».

«أو نرد» إلى حياة التكليف‏ «فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» عمل العقيدة الصالحة و العمل الصالح، فإن طليق العمل يشمل كل عمل بجانحة أم جارحة، و الأولى أولى بكونها عملا لأنها منشأ سائر العمل، ثم و لا يفيدهم عمل دون إيمان فكيف يترجونه في رجوعهم المستدعى؟!.

أجل‏ «فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» تعني غيارا كاملا فيها، كافلا للفلاح يوم التأويل: «وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37) «حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (23: 99)، «رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ» (32: 12).

و لكنهم‏ «قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» بما نسوا لقاء يومهم هذا «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 165

ما كانُوا يَفْتَرُونَ» على اللّه من شركاء و شفعاء و ما أشبه من فرية على اللّه أو على رسل اللّه و رسالاته.

ذلك، و قد تدل هذه الآية بعشرات من أمثالها على واقع الإختيار للمكلفين، و إلّا فلما ذا يتطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا، و إلى عدم التكليف يوم الدين، و إلّا لكانوا يجبرون ما فاتهم فيعملون غير الذي كانوا يعملون في الأخرى، دون تكلّف للارتجاع إلى الحياة الأولى.

ذلك، و من تأويل المبدء: «ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» (18: 78) و من المرجع: «قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما» (12: 37) ثم لم يأت التأويل لذلك المعنى الشهير العليل، أنه تفسير لنص أو ظاهر مستقر بخلافه نقيضا أو ضدا، لا في القرآن و لا في اللغة حيث هو من الأول الرجوع، و لا يرجع أي كائن في مثلث الزمان إلّا إلى مبدءه أو منتهاه حتى يتبين أصله و فصله دون خفاء.

ذلك هو التأويل، و أما التفصيل في «فصلناه» و هو «عَلى‏ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» فإنما هو التفصيل البيان التبيان دون أي خفاء ذاتي دلالي للقرآن في أبعاد العبارة و الإشارة و اللطائف، و لكلّ نصيب مما كسبوا في ميادين المعرفة القرآنية «وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

أجل إنه تفصيل فيه تحصيل لكل المحاصيل المعنية بالقرآن دون أي خفاء مهما كان فيه من العناء، دون عزل و لا عضل لطائر الفكر الإنساني، الجائل في مجالات الذكر الحكيم.

ذلك، فليس فيه شك و لا ريب و لا عضال و صدود «وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» (10:) 37)- «وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (12: 111) «وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا ..»

(6: 114).

فكما أن سائر الآيات المعجزات هي مفصلات غير مبهمات ك «الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ» (7:) 133).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 166

كذلك و بأحرى القرآن هو آيات مفصلات، مهما بانت مفصلات عن مفصلات بين الأرض و السماء، حيث المفصلات القرآنية خالدات تعيش مع الزمن دونما فتور أو قصور، و سائر الآيات فاترات عمن يعيشون بعدها، قاصرات الوصول إليهم، مستحيلات الوصول إليها بعد تقضّيها.

ذلك! و «يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ» و هو نسيان القرآن، دراسة و مراسة و حراسة، ثم نسيان تأويل القرآن إيمانا أن له تأويلا ككل، ثم نسيان تأويله الخاص بيوم القيامة، و الكل معني بعناية الإطلاق.

و ترى «نسوه» لا تشمل هؤلاء الذين‏ «اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً» فهل نسيت «نسوه» قسما ممن نسوه لأنهم مسلمون؟ و محور التنديد ليس إلّا «نسوه»!.

فكما يندّد بالذين نسوا اللّه قدر ما نسوه، كذلك التنديد بالذين نسوا القرآن قدر ما نسوه، بل التنديد بهم أشد، و الاستنكار عليهم آكد! حيث لا يرجى ممن آمن بالقرآن ذلك النسيان!.

فالناسون القرآن ككل، هم‏ «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ» (58:) 19)- «وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً» (25:) 18).

[سورة الأعراف (7): الآيات 54 الى 58]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى‏ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 168

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (54).

هنا تعريف بتأويل المبدء للقرآن و إلى معاده و كما القرآن كله تعريف عريف بالمبدء و المعاد و ما بين المبدء و المعاد و اللّه على كل شي‏ء شهيد «1».

و «إن ربكم» تعريف به تعالى بكامل ربوبيته، رغم الزعم أنها مختصة بأصل الخلق دون التدبير، و لقد فصلنا القول حول خلق السماوات و الأرض في ستة أيام بطيات آياتها و لا سيما في «فصلت و النازعات و البقرة» و هنا الإستواء على العرش هو الإحاطة على عرش القدرة و التدبير بعد خلقهما، و إن كان اللّه على كل شي‏ء قديرا و لكن فعلة فعلته القدرة و التدبير ليست إلّا بعد فعلية المقدور و المدبّر، و حاقة البحث عن العرش تجدها في عرش الحاقة و ما أشبه كآية الكرسي و سواها.

و هنا «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ» يعني إغشاء الليل النهار قصدا إلى الظلمة الطارئة على الجو، يطلبه حثيثا في هذه الدورة الدائبة الدائرة، فدور الليل تطلب النهار في هذا الفلك الدوار.

فالنهار هنا هو الجو- المظلم بطبيعة الحال- الذي طرءه الضوء،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 90- أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء و الخطيب في تاريخه عن الحسن بن علي (عليه السّلام) قال: انا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية أن يعصمه اللّه من كل سلطان ظالم و من كل شيطان مريد و من كل سبع ضار و من كل لص عاد، آية الكرسي و ثلاث آيات من الأعراف‏ «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ...» و عشرا من أول الصافات و ثلاث آيات من الرحمن: «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» .. و خاتمة سورة الحشر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 169

فإغشاء الليل النهار هو طريان الظلمة على جو النور، و مما تشبهها «وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ» فإن سلخ النهار من الليل هو سلخ الضوء من أفقه الخاص الذي هو مظلم لولا الضوء، فالليل و النهار هما عارضان على الجو، و لولا الجو فلا ليل و لا نهار، كما لولا الوجود فلا أزلية و لا حدوث، ثم الليل الظلمة مخلوق مع الجو ذاتيا و النهار النور مخلوق بعد الجو عرضيا، فسلخ النهار من الليل لمحة إلى عرضية النهار على الجو المظلم بطبيعة الحال، و إغشاء الليل النهار إشارة إلى زوال النهار بزوال الشمس، «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ» هو رجوع الجو إلى حالته الأصلية الطبيعية.

ثم و «يَطْلُبُهُ حَثِيثاً» لمحة صارحة لاختلاف الآفاق الأرضية، فهي- إذا- مدوّرة غير مسطحة، و إلّا لم يكن معنى و لا واقع ل «يَطْلُبُهُ حَثِيثاً» أن يطلب الليل النهار حثيثا تدريجيا سريعا مجدا- حيث الحث هو الطلب بجد و سرعة- بل ليكن الأرض كلها ليلا أم كلها نهارا لو كانت مسطحة أو شبه مسطحة، و هذا الطلب ليس إلّا من حصائل حركة الأرض و كرويتها، أم و حركة الشمس.

ذلك، فلولا أن الظلمة أصل للجو المظلم، مخلوق معه دون غيار لم يكن لسلخ النهار منه معنى صالح، حيث السلخ ليس إلا لقشر عارض، و أما «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ» فإنه اغشاء، لذلك الجلد العارض بغشاء الظلمة الذاتية.

ثم‏ «يَطْلُبُهُ حَثِيثاً» لا يصدق إلّا باختلاف الآفاق، و إلا لم يكن يطلبه لا حثيثا و لا غير حثيث لمكان المفارقة البائنة بينهما، إذا فلتكن الأرض منحنية السطح كروية أو بيضوية أماهيه حتى يصدق‏ «يَطْلُبُهُ حَثِيثاً»:

سريعا.

ذلك، فهذه الآية المغشية الليل النهار، و معها آية التكوير: «يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ» (39: 5) و هكذا آيات الإيلاج بينهما ك «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 170

اللَّيْلِ» (22: 61) و آية السلخ‏ «وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ» (36: 37).

هذه كلها إشارات متقنة لكروية الأرض و دورانها، و لم تكن الظروف النازلة فيها القرآن تسمح للتصريح بذلك إذ كان يواجه بالتكذيب سنادا إلى الحس، و العلم حينذاك.

فهذه و أضرابها من الإشارات اللطيفة القرآنية المعبر عنها بالبطون، كانت لا بد منها في ذلك الكتاب المحلق على كافة المكلفين منذ نزوله إلى يوم الدين.

فقد يعبر عن حركات الأرض ب «الراجفة» و «الكفات» و «الذلول» تدليلا واضحا على أن الأرض محكومة بحركات متداخلة فهي «راجفة» و انها مسرعة في الطيران متقبضة على سطحها و فضاءها الكائنين فيها: أحياء و أمواتا «كفاتا» و أنها على حركاتها معدّلة لحد لا تحس‏ «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا» و ما أشبه.

و هنا

يقول الإمام علي (عليه السّلام): «و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الصم .. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها».

ذلك، و أمامنا اليوم صورة رائعة للأرض بواسطة الأقمار الصناعية تبين لنا كيف يدخل الليل في النهار تدريجيا و يتكور عليه، و كلها أدلة علمية فلكية قرآنية على كروية الأرض و دورانها حول نفسها و حول الشمس.

ثم و خلق‏ «الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ» حالكونها مسخرات ككل «بأمره» حيث سخرها للخلق انتفاعا لهم منها، دون تدبير رباني لها بأصولها: «وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ» (14: 33) و ذلك يختلف اختلافا ما عما سبقها في الآية نفسها:

«وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ» فان لنا تأثيرات في الفلك و الأنهار دون الشمس و القمر و الليل و النهار.

هذا، و كما أن‏ «الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ» في ظاهر التكوين، كذلك- و بأحرى- شمس الرسالة القدسية و قمرها و نجومها في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 171

باطن التشريع، إذ يحمله حملته من اللّه و كما

يروى عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «النجوم أمان لأهل السماء، و أهل بيتي أمان لأمتي» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في ينابيع المودة (20) من طريق الحاكم، و ابن بطريق في العمدة من طريق مسند أحمد عن علي (عليه السّلام) و أحمد بن حنبل في فضائله: 189 ح 267 عنه (عليه السّلام) و الحاكم في المستدرك 3: 149 عن ابن عباس و ج 2: 448 باسناده عن جابر و ج 3: 457 باسناده عن محمد بن المنكدر عن أبيه، و كذا الذهبي في تلخيص المستدرك، و رواه الطبراني في المعجم الكبير 5: 25 باسناده عن إياس بن سلمة عن أبيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و السيوطي في إحياء الميت من طريق الحاكم عن ابن عباس و من طريق ابن أبي شيبة و مسدد في مسنديهما، و الترمذي في نوادر الأصول، و أبو يعلى و الطبراني جميعا عن سلمة، و رواه في الجامع الصغير 587 عن سلمة بن الأكوع و في ص 7 من طريق الحفاظ: أبو بكر عبد اللّه بن محمد بن أبي شيبة النخعي و المسدد في مسنديهما، و الترمذي في نوادر الأصول، و أبو يعلى في مسنده و الطبراني في الكبير، و ابن عساكر باسنادهم جميعا عن إياس بن سلمة و عن جابر، و أخرجه من طريق الحاكم عن ابن عباس الحزاوي في مشارق الأنوار 90 و النقشبندي في راموز الأحاديث 238 و الصنعاني في مشارق الأنوار 109 و الحضرمي في رشفة الصادي 17 و 37 و 78 من طريق الحاكم عن ابن عباس و أحمد في المناقب عن علي (عليه السّلام)، و في وسيلة المآل 59 عنه (عليه السّلام) و السهمودي في الإشراف على فضل الإشراق 40 و الأمر تسري في أرجح المطالب 329، و النبهاني في الشرف المؤبد 29 عنه (عليه السّلام) و في جواهر البحار في فضائل النبي المختار 1/ 361، و النبهاني في الفتح الكبير 3: 267 سلمة، و الحمويني في فرائد السمطين 2: 241 و 2 و 521 و الطبري في ذخائر القبي 17 و الزرندي في نظم درر السمطين 234 و القدوس الحنفي في سنن الهدى و الهيثمي في مجمع الزوائد 9: 174 و الكافي في السيف اليماني المسلول 64 و الكازروني في شرف النبي 283 و الخوارزمي في مقتل الحسين (عليه السّلام) 1:

108 عن علي (عليه السّلام) و ابن عباس و الأنسى اللبناني في الدرر و اللآل 203 و ضيف اللّه في فيض الغدير 2: 62 و سفيان الفسوي في ترجمة ابن عباس من كتابه: المعرفة و التاريخ 1: 538 و الصبّان في إسعاف الراغبين 144 و الهيثمي في الصواعق 185 و القندوزي في الينابيع 20، و المتقي الهندي في كنز العمال 13: 88. (عنهم ملحقات احقاق الحق 9: 294- 380 و 18: 323- 330 و غاية المرام 274 الباب 66 و 67).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 172

و هكذا يخاطب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حقل الأمر «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» (3: 128) و كما هنا «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ».

فلست- أنت أيها الرسول النبي الألمعي- لست تملك شيئا من أمر التكوين و التشريع و الثواب و العقاب و العفو، أو الاستئصال و الاستصلاح، أو تدبير المصالح في أوقاتها، أو تقديم الآجال عن مقراتها أو تأخيرها و ما أشبه من الأمور الربانية في حقل التكوين و التشريع، و «إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ» و «إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» (88: 22).

«أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» له الخلق و له أمر الخلق استمرارا و تدبيرا و ما أشبه من شؤون الخلق لصالحه غاية و بداية و على أية حال في كل تكوين و تشريع و ما أشبه.

ذلك، فلا مجال هنا لبعض التفلسفات الفالسة الكالسة أن «الأمر» يعنى إيجاد المجردات، و الخلق هو إيجاد الماديات، فقد ذكر هنا خلق السماوات و الأرض و الإستواء على عرش تسخيرهما بسائر النجوم و تدبيرها كلها و هو الأمر بعد الخلق‏ «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» حيث جمع لنفسه الخلق و الأمر دون أن يتخذ لنفسه شريكا أو يكون له يد في الأمر كما لا شريك له في الخلق، و المشركون معترفون بان اللّه تعالى هو الخالق لا سواه، و لكنهم يعطون أمر الخلق لغيره كلا أو بعضا.

ثم الأمر هنا ليس ليختص بأمره تعالى بعد خلق الكون، بل و له الأمر قبله و قبل أمره، كما و له الخلق قبل الخلق و الأمر و بعدهما، فهو «خالق إذ لا مخلوق و عالم إذ لا معلوم ..» «1»

من زعم أن اللّه جعل للعباد من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 40 في الخرائج و الجرايح قال أبو همام‏ سئل محمد بن صالح أبا محمد (عليه السّلام) عن قوله تعالى: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» فقال: له الأمر من قبل أن يأمر به و له الأمر من بعد أن يأمر به مما يشاء فقلت في نفسي هذا قول اللّه: «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» فأقبل علي و قال: هو كما أسررت في نفسك: «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 173

الأمر شيئا فقد كفر بما أنزل اللّه على أنبياءه لقوله: «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ» «1».

و قد يعني الأمر هنا الهدى الشاملة لكل خلق تكوينيا و تشريعيا:

«رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50) هداية تناسب غايته المخلوق لها.

فهنا «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» حصر لهما بساحة الربوبية، و عبارته الأخرى هو الرب لا سواه، لا يشاركه أحد في خلق أو هدى، في تكوين أو تشريع، و لا تعني الرسالة الإلهية التي هي القمة العالية في مناصب لمن سوى اللّه إلا رسالة الأحكام التي يشرعها اللّه سبحانه.

ذلك، و صيغة الخلق في القرآن تعني- دونما استثناء- كل الخليقة، مادية بطاقاتها و منها الأرواح، فقد «خَلَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (6: 101)- «أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ‏ءٍ» (7: 185) «وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» (25: 2) «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (51: 49) «خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ» (22: 5) «إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ» (37: 11).

فهذه الآيات و نظائرها تدل على تحليق الخلق على كلّ شي‏ء، سواء أ كان خلقا متدرجا في تكونه كما السماوات و الأرض برمتهما، أم دون تدرج كما الخلق الأوّل لمكان خلقه لا من شي‏ء، فالمخلوق من شي‏ء يجوز فيه التدرج، و لكن الذي يخلق لا من شي‏ء فلا مجال فيه لتدرج، فغير الخلق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 92- أخرج ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه و كانت له صحبة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من لم يحمد اللّه على ما عمل من عمل صالح و حمد نفسه فقد كفر و حبط ما عمل و من زعم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 174

الأول بين متدرج التكون و سواه، و الخلق الأول محصور في سواه.

و كما أن‏ «الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ» (3: 154) كذلك التدريج و سواه كله للّه، و الأمر المذكور في القرآن (72) مرة، لم يأت و إن مرة يتيمة بمعني إنشاء المجردات غير المتدرجة في الانتشاء، إنما هو بين أمر التكوين و التشريع أمرا فيهما و مطلق الشي‏ء و الفعل، دونما اختصاص بمجرد و ما أشبه، فالأمر الدستور يجمع بالأوامر، و الأمر الفعل أو الشي‏ء بالأمور.

ثم الأمر بعد استواءه على العرش هو كل أمر في حقل الخلق: «ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» (10: 3).

و طليق الأمر تدريجيا و سواه لا ينافي في ذكره في سواه ك «وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» (16: 77) رغم أن أمر الساعة- و هو مجموع أمري قيامة الإماتة و الإحياء- ليس- فقط- في إيجاد مجردات، إنما هو تدبير الكون بلمحة، ثم تعميره بلمحة أخرى: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68) فلا يدل‏ «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» (17: 85) انه من عالم المجردات لمكان الأمر، و انما القصد إلى أنه أيا كان ليس إلّا من اللّه، سواء أ كان روح العصمة الرسالية أم روح القرآن أم سائر الأرواح، إذ ليس للخلق مدخل فيها أبدا، و إنما كله من اللّه و ان كل خلق هو من اللّه.

و لو أن الأمر غير متدرج، فكيف- إذا- «يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ..»

(65: 12).

و أما «إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (2: 117) ألّا تدرج في أمره، فهذا لا يقتضي سلب أي تدرج و ان كان بأمر اللّه، فمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 175

نفاذ أمره تعالى دون حاجة إلى تدرج و تمهل انه لا يريد شيئا إلا و هو كائن، فقد أراد تكوين المادة الأولية فكانت دون تدرج، ثم خلق منها السماوات و الأرض بتدرج، دون أن يكون ذلك التدرج المقصود فيما فيه التدرج نقصا في قدرته، بل هو لحكمة عالية ربانية تقتضيه، فقد يقول لأي من مراحل التكوين التدريجي «كن» فيكون كما يريد دون تمهل ضعفا في القدرة، و هنا يتجلى معنى: «وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» (54: 50) و «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (36: 82).

ذلك، و باختصار نجد القول بمجرد سوى اللّه يخالفه العقل و الكتاب و السنة، فالعقل إنما يحكم بحدوث المادة و الطاقات المادية، و ليس المجرد عن المادة بحاجة إلى خالق لتجرده عن الحاجة المحوجة إلى الخالق.

و الكتاب مصرح بأن الروح منشأ من البدن: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» (23: 14) و انه منفوخ في البدن‏ «وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» (32: 9).

و السنة كلمة واحدة مصرحة بمعنى: أن الروح جسم خفيف قد ألبس قالبا كثيفا، أو أنه كالريح لخفته.

و بعد كل ذلك نتساءل القائلين بتجرد الروح، أليس هو داخلا في البدن، فمحدودا بحدود البدن، و لا حد و لا أبعاد و لا مكان للمجرد عن المادة، اللّهم إلّا الطاقة المادية، و ليس النزاع في كيان الروح إلّا في أصل تجرده أو ماديته، و أما كونه طاقة مادية- إن صدقه القائلون بتجرده- فموضع وفاق بين الطرفين، و ليس النزاع لفظيا حيث الفلسفة و البحوث الفلسفية ناحية منحى الواقع دون الألفاظ إلا نظرا إلى مدلولاتها الواقعية.

حول العرش:

لقد تحدثنا حول العرش على ضوء آيات تحمله و لا سيما آية حمله:

«وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» و «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» (11: 7) و آية الكرسي في قياس بينه و بين العرش، و ما أشبه، أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 176

العرش المنسوب إلى اللّه، المستوى عليه اللّه، هو بطبيعة حال هذه النسبة ليس من العروش المادية التي يتكئ عليها أصحابها السلاطين، إنما هو إشارة إلى فعلية السلطة الربانية خلقا و تقديرا و تدبيرا، فقد كان عرشه هذا على الماء قبل خلق الأرض و السماء: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» (7: 11) فلأن «الماء» هنا هو أوّل ما خلق اللّه- كما يأتي فيه قول فصل على ضوء آيته- ثم بعد خلق السماوات و الأرض استوى على عرشهما، و من ثم بعد خرابهما يستوي على عرش القيامة الكبرى، فهو- إذا- ذو العرش في هذه المراحل الثلاث واقعيا، و قد كان ذا العرش قبل أن يخلق خلقا، بمعنى حيطته العلمية و القيومية غير الفعلية، على ما سوف يخلقه، فإنه عالم إذ لا معلوم و خالق إذ لا مخلوق، و قادر إذ لا مقدور، بمعنى انه تعالى لا تحدث له سلطة بعد ما لم تكن، و إنما تظهر سلطته على ما يحدث بعد كأمنها في علمه و حياته و قدرته، حيث الصفات الفعلية كلها منشآت من الصفات الذاتية.

و لأن الخلق و التقدير هما مخلوقان، فالحيطة العلمية و القيومية عليهما أيضا مخلوقتان، إذا فالعرش كسائر الخلق خلق من خلق اللّه في كيانه الفعلي، كما أنه من صفاته الذاتية في كيانه الشأني‏ «1»، فقد يصح القول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في التوحيد باسناده عن سلمان الفارسي فيما أجاب به علي (عليه السّلام) الجاثليق فقال علي (عليه السّلام): إن الملائكة تحمل العرش و ليس العرش كما تظن كهيئة السرير و لكنه شي‏ء محدود مخلوق مدبر و ربك حامله لا أنه عليه ككون الشي‏ء على الشي‏ء ..»

أقول: لأن الخلق و التدبير محدودان فالعرش الذي فيه أزمته أمور الخلق محدود بنفس الحدود، و لكن صفات اللّه الذاتية كذاته غير محدودة.

و

في الكافي عن البرقي رفعه قال: سأل الجاثليق عليا (عليه السّلام) فقال: أخبرني عن اللّه عزّ و جلّ يحمل العرش أو العرش يحمله؟ فقال (عليه السّلام): اللّه عزّ و جلّ حامل العرش و السماوات و الأرض و ما فيهما و ما بينهما و ذلك قول اللّه عزّ و جلّ: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً»- قال: فأخبرني عن قوله: و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، فكيف ذاك و قلت: انه-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 177

انه لم يكن للّه عرش و لا كرسي قبل أن يخلق خلقا، إذ «كان الله و لم يكن معه شي‏ء» سواء أ كان عرش السلطة التدبيرية و التقديرية الفعلية منه تعالى أو السلطة الملائكية المأذونة لهؤلاء المؤامرين، حيث يحملون بما يحمّلون كأداة أمور التكوين و التشريع.

فأصل العرش و هو السلطة الربانية ليس إلا للّه، ثم فصله لعباد له خصوص يحملون أوامره إلى الكائنات، فهم عمال رب العالمين فيما هم به يؤمرون.

فلأن عرش اللّه هو أمره السلطوي الربوبي، فحملة عرشه هم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يحمل العرش و السماوات و الأرض؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السّلام): إن العرش خلقه اللّه تبارك و تعالى من أنوار أربعة: نور أحمر منه احمرت الحمرة و نور أخضر اخضرت منه الخضرة و نور أصفر اصفرت منه الصفرة و نور أبيض ابيض منه البياض، و هو العلم الذي حمّله اللّه الحملة و ذلك نور من نور عظمته فبعظمته و نوره أبصر قلوب المؤمنين و بعظمته و نوره عاداه الجاهلون، و بعظمته و نوره ابتغى من في السماوات و الأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلقة و الأديان المتشتتة، فكل شي‏ء محمول يحمله اللّه بنوره و عظمته و قدرته لا يستطيع لنفسه ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا، فكل شي‏ء محمول، و اللّه تبارك و تعالى الممسك لهما أن تزولا و المحيط بهما من شي‏ء و هو حياة كل شي‏ء و نور كل شي‏ء سبحانه و تعالى عما يقولون علوا كبيرا- قال: فأخبرني عن اللّه أين هو؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السّلام): هو هاهنا و هاهنا و فوق و تحت و محيط بنا و معنا و هو قوله: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى‏ ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى‏ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا، فالكرسي محيط بالسماوات و الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى و ان تجهر بالقول فانه يعلم السر و أخفى و ذلك قوله: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حمّلهم اللّه علمه و ليس يخرج من هذه الأربعة شي‏ء خلقه اللّه في ملكوته و هو الملكوت الذي أراه اللّه أصفياءه و أراه خليله فقال:

«وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» و كيف يحمل حملة العرش اللّه و بحياته حييت قلوبهم و بنوره اهتدوا إلى معرفته ...

أقول: للاطلاع على مضامين الحديث الغامضة راجع تفسير آية الكرسي. و هنا أحاديث أخرى سردناها عندها و أهمها حديث حنان بن سدير فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 178

المحملون أوامره، و عمّاله الذين يعملون بأمره، من ملائكة الوحي و سواهم، و سائر رسل الوحي و سواهم من حملة أوامر اللّه إلى خلقه.

و مهما كان لعرش الرب حملة يوم القيامة و الأولى، لم تكن له حملة يوم خلق الماء، قبل أن يخلق الأرض و السماء، فانما خلق كل الحملة من الماء، و هو مادة الكائنات بأسرها، فلم يحمل عرشه بعدئذ حملة لحاجته إليهم، بل لحاجتهم إلى ذلك الحمل كما المحمل إليهم محتاجون، تطبيقا لأمر اللّه لمزيد العناية الربانية إليهم، كما تزيد لمن حمل إليهم تشاريع اللّه.

هذا، فذلك إيقاع بالغ لهم صارم بعبودية الكون كله للّه الواحد القهار «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» فهنا، و قد ارتعش الضمير الإنساني منساقا للاستجابة في موكب الكون المستجيب لأمر ربه، من هنا يخاطب بقية العبودية الفطرية أن يدعو المعبود:

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55).

«أدعوا» قد تعم دعوة العبودية بمعرفة توحيدية، و دعوة الدعاء فيما تكل الطاقات المخولة إلينا، في قال و حال و فعال، و كما أن يصبح العبد بكل كيانه دعاء الرب.

و كما الدعاء العبودية و العبادة واجبه الركين أن يكون بتضرع و تذلّل، كذلك و بأحرى دعاء الاستدعاء، و لئن تبتلى سائر العبادات بإفلاس في غير إخلاص كما في أكثريتها المطلقة، فعبادة الدعاء هي بطبيعة الحال مخلصة غير مفلسة، لأنها قضية الحاجة التي لا تزول إلّا برحمة من اللّه، و لكن العبادة- ما كانت صالحة في شروط لها في الفقه الأصغر- تسقط التكليف و إن لم تقع موقع القبول و لم ترفع بصاحبها إلى حضرة الربوبية.

إذا «ادْعُوا رَبَّكُمْ» بمثلث الدعوة التوحيدية و العبودية و الاستدعاء، في مثلث القال و الحال و الفعال، فالدعوة و الدعاء قلبيا هي الأصل، ثم القال و الفعال إذاعتان لها مهما كان في الفعال عضال دون القال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 179

ذلك، فقضية العبودية الذليلة المفتاقة الهزيلة، أمام الربوبية الشاملة الكاملة العزيزة، أن تختص الدعوة بضراعة و خفية بساحته القدسية دون اعتداء عنها بترك الدعاء أو الدعاء بكبرياء أو صياح و تصدية، فالتضرع الخفي أنسب بجلال اللّه و جبروته و بقرب الصلة بينه و بين مواليه و عبيده.

«ادْعُوا رَبَّكُمْ» الذي رباكم و يربيكم ما دمتم فدامت حاجاتكم:

«قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً» (25:) 77) فترك الدعاء- إذا- اعتداء على ساحة الربوبية عن صالح العبودية.

إذا فادعوه «تضرعا» لكل قصور أو تقصير، اعترافا ضريعا بالذل، فاغترافا من رحمته الغزيرة البارعة، و الضراعة هي الضعف و الذلة، فالتضرع هو إبراز هما ببكاء و غير بكاء.

ثم «و خفية» لأنك فيها أبعد من الرئاء و لأنه سميع الدعاء:

«أما إنكم لا تدعون أصم و لا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا، إنه معكم» «1»

فالاعتداء من «خفية» إلى جهار زعم أنه لا يسمع الخفية، كما الاعتداء من الضراعة إلى سواها من حالات الاستكبار، أم دون تذلل و تضرع، إلى الاعتداء في أصل الدعاء ألا تدعوا ربكم، فضلا عن أن تدعوا غيره أم تشركوا في دعاءه سواه، أم تدعوه بما لا يليق بساحته، أو ما هو الخارج عن محور الدعاء اللائق بربوبيته الحكيمة، هذا المسدس و ما أشبه محسوب بحساب‏ «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» أي يبغضهم.

ثم التضرع هو حالة الضراعة و إن لم تدمع، و خفية هي من أدب الدعاء «إنه سميع الدعاء» فإن جاهرت بالدعاء تعليما لمن سواك أم خطوة زائدة لسمعك إلى لسانك برنين البكاء و الدعاء و حنينه، اتجاها إلى حنانه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 40 في المجمع روي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه كان في غزاة فأشرف على واد فجعل الناس يهللون و يكبرون و يرفعون أصواتهم فقال: أيها الناس أربعوا على أنفسكم أما إنكم ...

و

في تفسير الفخر الرازي 14: 131 عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية، و عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): خير الذكر الخفي و خير الرزق ما يكفي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 180

تعالى، فذلك غير محظور.

فما دام الداعون‏ «تَتَجافى‏ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً» (32: 16)- و «يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً» (21: 90) حاصلين على سائر شروطات الدعاء المسرودة في القرآن و السنة، فما عليهم إن لم يخفوه عناية إلى مزيد الذل و الحظوة في موقف الدعاء، مهما كان الأصل فيه هو الخفاء.

ذلك، و قد تعني «و خفية» ما يقابل «تضرعا» حيث التضرع ظاهر لا يخفى، فإنه بطبيعة الحال جاهر، فليس إذا من عطف الجمع، بل هو عطف التخيير، و لكنه دون الجهر: «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ» (7: 205) «سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ» (13: 10) «وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» (20: 7).

إذا فقضية الدعاء كأصل أن يكون تضرعا و خفية بخفاء دون الجهر من القول، و رغبا و رهبا، فباطن الدعاء هو الرغب و الرهب على ضراعة، و ظاهره أن يكون خفية و دون الجهر من القول، اللهم إلا إذا لزم أو رجح الجهر تعليما، كما كان يفعله المعصومون (عليهم السّلام) أحيان كانوا يعلمون أصحابهم، أم مزيدا للحظوة الروحية برنة الدعاء و ضراعته الظاهرة الجاهرة ما بعد عن الرئاء.

و أما ألا يدعى الرب، أو يدعى بكبرياء أم دون تضرع، أم يدعى تضرعا دون رغبة و رهبة، أم يدعى تضرعا برغبة و رهبة بصراخ زعم أنه غير سميع الدعاء، أم بغير صراخ و هو يؤكد استجابته بتا أمّاذا من سوء الأدب في حقل الدعاء، فكل ذلك تشمله‏ «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» مهما كانت دركات.

و لأن صالح الدعاء مما يصلح الأرض إضافة إلى سائر الإصلاح منا، ف:

وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 181

رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56).

إن في ترك دعاء الرب كما يصلح إفسادا في الأرض بعد إصلاحها، حيث الإيمان الصالح بعمله يصلح الأرض، و خلافه يفسدها، و هنا «بَعْدَ إِصْلاحِها» تعم إصلاحها من اللّه، إلى مصلحين بأمر اللّه، و إليك أنت المفسد في الأرض بعد ما أصلحت فيها، فمثلث الإصلاح هو هندسته الصالحة، بما أن رأس الزاوية القاعدة هو اللّه، و قد أصلح اللّه فطرنا و عقولنا و الأرض التي نعيش عليها، بما أصلحها الحياة سليمة صالحة في نبيها و بما بعث إلينا رسله و سائر الدعاة إليه، و أصلح الرسل بما يحملون من رسالات اللّه، و أصلح سائر الدعاة إلى اللّه، و قد تجمع كافة الإصلاحات في المصلح الأخير رسوليا و رساليا و هما مجموعان في القرآن، ففي تقرير القرآن في كافة الأوساط بكل تقريراته الربانية إصلاح للأرض كافل، كما في تركه إفساد فيها قاحل ماحل.

«وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها» تعم زواياه كلّها، و لكي نتزود باستمرارية هذه السلبية المصلحة «وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً» خوفا من قصوراتنا و تقصيراتنا، و أن يكون دعاءنا غير صالح أو لغير صالح، و طمعا في رحمة اللّه، و هذا من الإحسان في الدعاء أن يكون بين الخوف و الرجاء:

رغبا و رهبا، خوفا و طمعا، «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» فدونهم أولاء الأكارم من المسيئين.

ذلك و أصلح المصلحين في الأرض برسالة اللّه هو الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

«إن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله عز و جل بنبيه» «1»

فهو أفضل مصلح رسولي فيها، ثم سائر المصلحين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 41 في روضة الكافي باسناده إلى ميسر عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال‏ قلت: قول اللّه عزّ و جلّ‏ «وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها» قال فقال يا ميسر: إن الأرض ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 182

الرسوليين، و من ثم و على ضوء رسل اللّه يأتي دور المصلحين الرساليين.

و لأن الإصلاح الرسالي الإسلامي بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان لأكثر تقدير محورا كقاعدة- هو الإصلاح بالقرآن، إذ ما كان الرسول ليصلح أرض التكليف إلّا بالقرآن- بهامشه السنة- إذا فعزل القرآن و عضله عن الوسط الإسلامي إفساد هام للأرض بعد إصلاحها، فكل الآيات الناهية عن الإفساد في الأرض، و الآمرة بإصلاحها، تنحو- كأصل و أثافي و قاعدة- منحى القرآن.

أجل، لقد أصلح الرسول كافة المكلفين بالقرآن، و يتلوه كل الدعاة إلى القرآن بكل ما يحويه، فالمفسدون بعده هم الذين‏ «يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» (6: 26).

فلو أنهم شعروا أنهم يهلكون أنفسهم بالنهي و النأي عن القرآن لكان يرجى أن ينتبهوا عن غفوتهم، و لكنهم لا يشعرون بما قصّروا، إذ سلب اللّه عنهم شعروهم بالمسؤولية أمام القرآن بما تهاونوا فيه. فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون.

افتكر يا أخ إن كنا زمن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حلقات دراسية بمسجده، فهل كان يحنّ إلى حلقات القرآن، أم إلى سائر الدراسات التي شغلت حوزاتنا، التي لا تبقي مجالا لدراسة قرآنية إلّا هامشية مرضوضة مرفوضة؟! فقد يصح التعبير عن حوزاتنا انها مفسدة لأرض التكليف إذ فقدت أصلها القرآني الفائض، إلى غيره الفاضي عن حجة القرآن.

و لقد سبق منه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مرارا أن رأى جموعا في مسجده يتحدثون مختلقين أحاديث مروية، و نظرات حولها مدوية، فهاج هياجه عليهم، و رفع صراخه فيهم بما يعني: هل تتنازعون في قيلات و قالات و كتاب اللّه بين ظهرانيكم؟!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 183

و هنا عرض لفرق الإفساد الكثرة، و فرقة الإصلاح القلة

للإمام علي أمير المؤمنين (عليه السّلام): «أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنود، و زمن كنود، يعد فيه المحسن مسيئا، و يزداد الظالم فيه عتوا، لا ننتفع بما علمنا، و لا نسأل عما جهلنا، و لا نتخوف قارعة حتى تحل بنا- فالناس على أربعة أصناف، منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه و كلالة حده، و نضيض وفره، و منهم المصلت لسيفه و المعلن بشره، و المجلب بخيله و رجله، قد أشرط نفسه، و أوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرعه، و لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، و ممالك عند الله عوضا- و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، و لا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، و قارب من خطوه، و شمر من ثوبه، و زخرف من نفسه للأمانة، و اتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية- و منهم من أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه، و انقطاع سببه، فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، و تزين بلباس أهل الزهادة، و ليس في ذلك من مراح و لا مفدى- و بقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، و أراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد ناد، و خائف مقموع، و ساكت مكعوم، وداع مخلص، و ثكلان موجع، قد أخملتهم التقية، و شملتهم الذلة، فهم في بحر أجاج، أحوالهم ضامرة، و قلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا، و قهروا حتى ذلوا، و قتلوا حتى قلوا، فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ، و قراضة الجلم، و اتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم، و ارفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم» (الخطبة 32).

ذلك، و ترى كيف «قريب» تأتي خيرا عن‏ «رَحْمَةِ اللَّهِ» دون تحمل لأنوثتها؟ علّه لأنها مؤنث مجازي فلا يجب تحمل أنوثته لما يتحملها، أم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 184

و لأن «قريب» مشتركة بين الذكورة و الأنوثة، و من المستفاد من هذه الآية واجب الإصلاح في الأرض و محرم الإفساد فيها و لا سيما بعد إصلاحها، و ترى إذا كانت رحمة اللّه قريبا من المحسنين، فهي إذا بعيدة عن المسيئين و هم يعيشون رحمة اللّه طول حياتهم، بل و قد تربو لهم على المحسنين؟.

هنا «رَحْمَةِ اللَّهِ» هي الرحيمية الخاصة بالمؤمنين، و ليست الرحمات الدنيوية الزائدة البائدة للمسيئين، هي من الرحيمية، بل هي من الرحمانية التي تتبدل عندهم زحمة و نقمة قضية الابتلاء بها فالسقوط في هوّات الحبوط و الهبوط.

فالمصلحون في الأرض، الداعون ربهم خوفا و طمعا، هم من المحسنين الذين تكون رحمة اللّه لهم قريبا، فهي من غيرهم بعيد قد تصلهم لتصلحهم، و إلّا فهي لهم مفسدة أكثر مما فسدوا.

وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى‏ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57).

صيغة «إن ربكم ..» حملت بيانا لربوبية المبدء، و هذه تحمل من ربوبية المعاد، فبينهما ربوبية التشريع بين المبدء و المعاد، و «هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ» الحاملة لرحمة من اللّه‏ «بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» الغزيرة الهاطلة الودق‏ «حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ»: حملت «سحابا»: تسحب من أبخرة المياه الأرضية «سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ» و اللّام هنا تعني الإختصاص الامتصاص، حيث «إلى» لا تفيد ذلك الإختصاص‏ «فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ» المطر بقدر «فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ» التي يحتاجها الإنسان من معدن و نبات و حيوان، بل و الإنسان هو أيضا من هذه الثمرات: «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (1: 71)، كافلة لحاجاته، حاملة لحاجياته «كذلك» الإخراج لموتى البلاد بميتات المياه و ميتات البذور: «نُخْرِجُ الْمَوْتى‏» في البلاد و هو أهون عليه، إذ يدخل الأرواح الحية الأبدان الميتة بعد ما تنشى أمثالها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 185

«لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» أنكم سوف تخرجون، حيث يتواتر إخراج الموتى على منظركم و مرءاكم طول خط الحياة الدنيا «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» الحياة الأخرى، بهذه المذكرات المتواترة من إخراج الحياة من الميتات، و هو سند دائب للأولوية القطعية لإخراج الموتى من أجداثهم، إدخالا لأرواحهم في أجسادهم.

ذلك، و كما أن هذه الرياح هي بشرى بين يدي رحمته في هذه الدنيا، كذلك و بأحرى رياح الأخرى هي بشرى بين يدي رحمته العليا حيث يرسلها لتقلّ سحابا يسوقه لكل الأموات، إحياء لهم و إخراجا لكل الثمرات التي هي حصائل الأعمال صالحات و طالحات.

أجل و «كذلك» المتواتر المتكاثر الذي ترونه هنا «نُخْرِجُ الْمَوْتى‏» و بأحرى، إخراجا للثمرات المستحقة بالأعمال، كما تخرج الثمرات هنا للعمّال و أين ثمرات من ثمرات؟.

ذلك، و الماء هو الماء و لكن البلاد تختلف طيبا و خبثا، و الثمرات المخرجة هي المتناسبة مع طيب البلاد و خبثها هنا و في الأخرى:

وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58).

و هكذا نجد مثال القلب الطاهر و الخبيث بالبلد الطيب و الخبيث حيث يسقيان بماء واحد و الثمر مختلف حسب اختلاف القلب كما البلد.

و

قد يروى عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها بقية قبلت الماء فأنبتت الكلاء و العشب الكثير و كانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا و سقوا و زرعوا و أصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء و لا تنبت كلاء فذلك مثل من فقه في دين الله و تفقه ما بعثني الله به فعلم و عمل و مثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 94- أخرج أحمد و البخاري و مسلم و النسائي عن أبي موسى قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 186

أجل، فكما الصحراء و الجدباء تختلفان على أثر إنزال الماء، كذلك القلوب الطيبة و الخبيثة.

هنا، و بأحرى في الأخرى حيث تخرج ثمراتها وفقا لحالاتها و فعالاتها و لا يظلمون نقيرا، فالهدى و بينات الآيات و العظات تنزل على القلوب كما ينزل الماء على التربة، فالقلب الطيب كالبلد الطيب‏ «يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ» حيث يفتح و يستقبل و يزكو و يفيض بالخير، و القلب الخبيث كالبلد الخبيث يستفلق و يقسو و يجسو و يفيض بالشر و النّكر و يخرج نكد الشوك و الأذى، «كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ» بغيارها المتواتر «لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» الآيات بتصريفها، فأما الذين يكفرون و لا يشكرون فلا يزيد لهم تصريفها إلا ثفورا و كفورا: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» (17: 82).

صحيح أن الهدف من تصريف الآيات هو التذكر بها لكافة المكلفين، و لكن الذي ينتفع بها بالفعل هو الشاكر للّه في آياته و بينانه، دون الكافر الناكر، اللاهي عنها، و المستهزء بها.

فكما القرآن كأصل دلالي‏ «هُدىً لِلنَّاسِ» و لكنه كواقع‏ «هُدىً لِلْمُتَّقِينَ» كذلك الآيات المعرّفة هي كأصل تذكرة للناس، و هي كواقع في آثارها الصالحة «لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ».

و هنا بالتالي سرد لرسالات ربانية بمعاكسات لآثارها في قلوب قاسية جاسية ب:

[سورة الأعراف (7): الآيات 59 الى 65]

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (60) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (62) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى‏ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63)

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (64) وَ إِلى‏ عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (65)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 187

سرد خاصر غير حاصر لأولى الرسالات الهامة العامة لأول ولي من أولي العزم الرسولي «نوح» (عليه السّلام) و قد جاء ذكره في الذكر الحكيم بمختلف المناسبات في مختلف الذكريات (43) مرة، في (31) سورة منها سورته نفسه: «سورة نوح» مما يلمح بهامة هذه الرسالة البادئة، و قد ابتليت بهامة الابتلاءات الفادحة القادحة لها و هي الكادحة طوال ألف سنة إلّا خمسين عاما!.

و ترى ألم تكن قبل نوح شرعة من الدين؟ و قد نبئ قبله آدم و إدريس و قد كان نبيا: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا» (19: 56) كما و آدم قبله: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ» (3: 33) «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (122: 20) و هكذا من بينهما من النبيين بمختلف درجاتهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 188

فمن المقطوع المحتوم أن الرسالة الربانية لم تكن مبتدأة من نوح (عليه السّلام) و لم تكن الفترة- ما كانت- إلّا رسولية، لا رسالية، و أهمها ما كانت بين المسيح و محمد (عليهما السّلام)، و علّ من قبلهما ما كانت بين آدم و إدريس، و بينه و بين نوح (عليهم السّلام)، و كلها فترات رسالية فحسب‏ «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (165:) 4).

و حين تفسر ولاية العزم لرسل- فيما تفسر- بأنهم جاءوا بشرائع مستقلة غير تابعة لما قبلها، فلتكن شرعة آدم (عليه السّلام)- لأقل تقدير- شرعة مستقلة، إذ ما كان قبلها من شرعة لهذا النوع الأخير، و لأن إدريس النبي كان أفضل من آدم (عليه السّلام) فقد يكون حاملا لشرعة مستقلة بعد آدم، و إن في توسع لأحكام، مهما لم ينسخ حكما من شرعة آدم (عليه السّلام).

فمن الجواب لذلك السؤال العضال ما أوردناه في سورة نوح (عليه السّلام) أن الرسل قبله جاءوا بشرعة لا تزيد على تصليح الأحكام العقلية و الفطرية، فهي- إذا- تحمل سلبية إزالة الحجب عن الفطر و العقول و إيجابية تنويرات لهما عن أخطاء فيهما، إلّا أن الأحكام الفرعية لا مدخل فيها للفطريات و العقليات، اللّهم إلّا الفرعيات الثابتة في النواميس الخمسة التي لا حول عنها، دون كيفيات خاصة لطقوس عبادية لا بد منها، موقوفة على بيان اللّه.

و منه أن هذه الشرائع قبل نوح ما كانت واسعة شاسعة الأطراف، فإنما كانت تقضي حاجات بسيطة في البسيطة لساكنيها القلة القليلة، فما كانت- إذا- تحسب أمام الشرائع الخمس في حساب شرعة، كما و أن الرسل قبل نوح (عليه السّلام) ما كانوا أولي عزم كما كان أولوا العزم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 189

الرسل، فان من ميزاتهم هي: سبقهم إلى الإقرار باللّه، و عموم شرعتهم إلى عباد اللّه، و عزمهم في التصبر في اللّه، مهما كان منها- أيضا- استقلالهم في شرعتهم عما قبلها من شرائع اللّه، أماهيه من ميزاتهم المسرودة على ضوء آية الأحقاف.

فالحامل لمجموعة الميّزات الرسولية و الرسالية هو من أولي العزم و هم الخمسة المعاريف كتابا و سنة، و لم تكن الرسل قبل نوح (عليه السّلام) لهم، و لا لإدريس النبي الذي هو أفضلهم، ولاية عزم رسولي و لا رسالي كما هي لأولي العزم.

فمهما كانت شرعة آدم عالمية، لم يكن يعدو عالمه بنيه، ثم‏ «وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً»!، و مهما كانت شرعة إدريس عالمية- و لا برهان له- فلم يكن من السابقين في الإقرار باللّه، فانما تتبنى ولاية العزم عزمات دون أزمات فيهم أنفسهم و في شرائعهم، التي تشكل الإمامة في الرسالة الربانية، فهم- إذا- مجامع عزمات رسولية و رسالية قمة لحد أصبحوا لسائر الرسل- كما للمرسل إليهم- أئمة.

ذلك، و لأن الرسالة الربانية تحمل مثلثا من الوحي: إزالة لغشاوات على الفطر و العقول، ثم تنويرات لهما قدر المعني لهما، و من ثم أحكاما فرعية لا سبيل لغير الوحي إليها، لأنها قضية العلم الطليق على كافة الصالح و المفاسد، كما و منها قضية صالح الابتلاء كقصة ذبح إسماعيل، و لا سبيل إليهما للعلم فطريا و عقليا و مزيدا عليها حيث هما- على أية حال- محدودان.

فقد حملت شرعة آدم (عليه السّلام) خاصرا غير حاصر من هذه الثلاثة، و من ثم تفصيل في شرعة إدريس، ثم تفصيل كأولى مرحلة جامعة لشرعه من الدين، و إلى تفصيل القرآن العظيم.

إذا فحمل شرعة قبل نوح (عليه السّلام) لا يحمل ولاية العزم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 190

لحاملها مهما كان له عزم في بعض الواجهات رسولية و رسالية، ثم لا شرعة مستقلة بين نوح و محمد (عليهما السّلام) إلا لهؤلاء الخمسة، قضية إمامتهم على كل الرسل في هذا البين، و عموم شرائعهم للعالمين و منهم سائر أصحاب الرسالات و النبوات.

و ترى كيف كان نوح بعيثا على كل المكلفين، و لم يجل بنفسه التجوال الرسولي بينهم؟ إنه تجوال رسالي بمن يحملونها عن أولي العزم من الرسل مهما أجمل عن ذكرهم في الذكر الحكيم.

و هنا سرد لدعوته بإجمالها و ما عارضه قومه إلى غرقهم أجمعين إلّا من آمن به كإجمال قاصد إلى ملابسة عابرة ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى، بل هو تصوير معالم رئيسية لهذه الرسالة و كما في هود و صالح، و لوط (عليهم السّلام).

و قد يعني «قومه» كافة المكلفين حيث الأقوام تختلف مصاديقها المعنية بمغازيها، فالأقوام الرسالية تعني الرساليين كما أرسل اللّه، و لأن رسالة نوح كانت عالمية ف «قومه» إذا كل العالمين المكلفين، و كما دعى على كفار الأرض أجمعين: «وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً» (71: 26).

«فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» دعوة مبدئية توحيدية في حقل العبودية الموحّدة تحلّق على كافة الرسالات و هنا «ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ» نفي لجنس الإله كما في‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» استئصالا لأية ألوهة لغير اللّه، لا أصيلة كما قد يزعم، و لا فصيلة خلاف ما يدعون.

ثم‏ «إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» تلحيقة للمبدء بالمعاد، و قد يعني «يوم عظيم» إلى المعاد عذاب البرزخ و بينهما عذاب الطوفان، ف «يوم» هنا هو جنس ليوم العذاب العظيم، مهما اختلف عظيم عن عظيم، و في مثلث العذاب الموعود، لكونه غيبا كله، تطوى دعوى الرسالة، و هي الأصل الثالث من أصول الدين فإنها بين المبدء و المعاد، ثم و الدعوة التوحيدية في جوّ الإشراك المطلق المطبق هي دعوى رسولية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 191

«قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» و هم أشراف القوم و خواصهم الذين يملأون بكثرتهم و قوتهم العيون و القلوب، و تمتلئ منهم صدور المجالس فهم المستكبرون من قومه، و الملأ في الأصل بين ملأ الشر و ملأ الخير و من الخير: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ» (37:) 8) و يقابلهم الملأ الأدنى و هم الشريرون المعارضون للرسالات على طول الخط، و هنا قالوا: «إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» حيث تخالف ما نعيشه من حياة الإشراك و الحرية الشهوانية، و نحن أركان المجتمع و أصوله، فما يعارضنا- و نحن على هدى الحياة الراقية- إلّا من هو في ضلال مبين.

و كيف يواجههم نوح (عليه السّلام) أمام رمية الضلالة و هي شر رمية؟ إنه فقط سلب لها إيجابا لرسالته من رب العالمين: «قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ»، فلو كانت الرسالة الربانية- الثابتة لي بمثبتاتها- ضلالة، فأنا إذا في ضلال مبين، لأن ربي مضل و أنتم على هدى! فهل أنتم مائلون إلى هذه الطنطنة الغوغاء، قائلون غائلون هذه الغائلة النكراء؟ و أنتم ترونه رب الأرباب!.

و ترى كيف يجيب عن‏ «ضَلالٍ مُبِينٍ» ب «لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ» دون‏ «ضَلالٍ مُبِينٍ» نفسه سلبا لما أثبتوه؟ علّه يعني ب «ضلالة» كل أنواعها لا فقط «ضَلالٍ مُبِينٍ» «لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ» من مبين و غير مبين.

«أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي» دونما زيادة أو نقصان، و قد يعني جمع «رسالات» دون «رسالة» الجمعية الرسالية، في جمعية الأصول و الفروع الأحكامية، فان كل زاوية من زوايا الرسالة هي رسالة، مهما كانت مجموعها أيضا رسالة، «وَ أَنْصَحُ لَكُمْ» لصالحكم‏ «وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ» رسالة «ما لا تَعْلَمُونَ» منفصلين عن رسالة اللّه.

فقد اختصرت و احتصرت رسالة نوح (عليه السّلام) في مثلث هو هندسة لصرح الرسالات كلها: 1 «أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي» تبليغا بليغا بالحجج الربانية الكافية الوافية.

2 «وَ أَنْصَحُ لَكُمْ» نضجا لبراهين الرسالة و فرامينها في قلوب بذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 192

النصح الرسولي الغالي، فللنصح دور دائر لكل حائر تبقى حيرته لحدّ ما بعد ساطع البراهين الآفاقية و الأنفسية، و حقيقة النصح هي الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية.

3 «وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» و ذلك لزامه الوحي فإن‏ «ما لا تَعْلَمُونَ» تحلق على كل أسباب العلم و مسبباتها، فالعلوم المنقطعة عن منقطع الوحي حاصلة لي من اللّه بالوحي، انقطاعا إلى الوحي.

فهذه الثلاث و «أ و عجبتم ..» هي قواعد أربع لصرح الرسالة الربانية، إجابة عن شطحات ك «إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» رؤية عوراء حمقاء ترى من يدعو إلى الهدى في ضلال مبين، و الواو العاطفة هنا تعطف إلى محذوف معروف في درج الكلام و هو سائر أسباب العجاب.

و هكذا يبلغ المتعرف في الضلال في تبجحه الوقح المرح في انقلاب الموازين و الضوابط.

و هذا ما يتقوله ضلّال التاريخ منذ بدءه إلى جاهلية القرن العشرين أنهم أنفسهم متقدمون متحضرون على رعناتهم و حيوناتهم اللّامحدودة، ثم المؤمنون متأخرون رجعيون ضالون عن سبيل الحياة الراقية!.

هذه الجاهلية المتحضرة! تقول للفتاة التي لا تكشف عن لحمها و عورتها: إنها رجعية، كما تقول للشباب المؤمن الذي لا يسافد البنات كالحمير: إنه رجعي، و تقول لمن يترفع اهتماماته عن جنون السكر و الأفلام الخلاعية، و جنون الرقص و الحفلات الفارغة، تقول: إنه جامد ميت.

فالجاهلية هي الجاهلية مهما اختلفت شكلياتها و ظروفها و ملابساتها.

و هنا إجابة عن عجابهم الشباب‏ «أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى‏ رَجُلٍ مِنْكُمْ» عطفا على سائر العجاب في مجي‏ء ذكر من ربهم‏ «عَلى‏ رَجُلٍ مِنْكُمْ» في رجولة البشرية، أ عجبتم أن اللّه يهديكم سبيل الرشاد «أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى‏ رَجُلٍ مِنْكُمْ» دون اختلاف عنكم في طبيعتها و قضيتها و جواذبها و نوازعها لكي تتم حجة اللّه عليكم في رسالة من هو «منكم» قطعا لكافة الأعذار، و أنسا بالمماثل‏ «لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 193

وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»: «لينذركم» عن بأس اللّه هنا و في الأخرى «و لتتقوا» عن محارم اللّه في الأولى‏ «وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» هنا و في الأخرى، و لكن لا حياة لمن تنادي.

«فكذبوه» شر تكذيب، و بمختلف ألوانه: قالا و حالا و أعمالا «فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ» في الإيمان مهما كان بعيدا عنه في القرابة «وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا» عامدين عاندين إذ «إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ» في عمى و عمه و هم كانوا مستبصرين إذ: «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» (29: 38).

و تمضي عجلة التاريخ الرسالي و يمضي معها السياق فإذا نحن أمام عاد قوم هود:

[سورة الأعراف (7): الآيات 66 الى 73]

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (66) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (68) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى‏ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70)

قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ (72) وَ إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (73)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 194

و ترى لماذا هنا «أَخاهُمْ هُوداً» و في تالية الآيات‏ «أَخاهُمْ صالِحاً» و «أَخاهُمْ شُعَيْباً» و في (26: 161) «أَخُوهُمْ لُوطٌ» و في نوح هنا «قومه»؟.

إن الرسل هم كلهم إخوان المرسل إليهم و هم كذلك إخوانهم و أقوامهم، «ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ» (14: 4) تحلق القومية على كل المرسل إليهم، ثم‏ «إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ» (26: 106) تحلق الأخوة عليهم، مهما كان التعبير عنهم ب «قوم» أكثر بكثير من «أخ» فقد لا نجد التعبير بالأخ عن أولي العزم إلّا في نوح، و علّه لأن قومه كانوا قلة قليلة مجتمعة في قطر واحد معه، فكان عشيرا لهم في عشرة و سواها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 195

و في صيغة الأخوة عنايات عدة بين نسب و حسب، فأقرب النسب هو الأخوة النسبية، و تليها الأخوة الرضاعية، كما و أقرب الحسب هو الأخوة الإيمانية، و بينهما مراحل أوسعها الأخوة في الإنسانية، ثم في التكليف، و من ثم في الوطن و العشيرة و العشرة و الشغل.

فكل رباط بين أشخاص يعبر عنه بالأخوة، أغربها الأخوة في أصل الإنسانية و أقربها الأخوة في صالح الإيمان، و منها متوسطات.

ثم القوم هم جماعة مرتبطة هي أوسع من خاصة الأخوة، فلا يعبر عن الأخوة في النسب بالقوم، و إنما على العشيرة و المواطنين أنسباء و غيرهم في متعود التعبير، و على الذين تعنيهم رسالة اللّه في شرعة التعبير، فالإخوة- إذا- هي أعم من القوم، و لا يعبر بها عن القوم الرسالي إلا إذا كانوا محصورين في قطر خاص كقوم نوح: «إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ» (26: 106).

و على أية حال فلا تعني الأخوة هنا أخوة في إيمان، مهما كان في شركة التكليف أم سواها من مشتركات‏ «1» و القصد هنا إلى أقربها قرابة و مواطنة أماهيه، دون أغربها.

و

قد يروى عن الإمام الصادق (عليه السّلام) أنه‏ لما حضر نوحا الوفاة دعى الشيعة فقال لهم: اعلموا أنه سيكون بعدي غيبة يظهر فيها الطواغيت، و أن اللّه عزّ و جلّ سيفرج عنكم بالقائم من ولدي اسمه «هود» له سمت و سكينة و وقار، يشبهني في خلقي و خلقي‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 45 عن تفسير العياشي عن يحيى الهمداني عن أبيه‏ جاء رجل من أهل الشام إلى علي بن الحسين (عليه السّلام) فقال: أنت علي بن الحسين؟ قال: نعم، قال: أبوك الذي قتل المؤمنين؟ فبكى علي بن الحسين ثم مسح عينيه فقال: ويلك كيف قطعت على أبي انه قتل المؤمنين؟ قال: قوله إخواننا قد بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم فقال: ويلك أما تقرء القرآن؟ قال: بلى قال فقد قال اللّه: و إلى مدين أخاهم شعيبا و إلى ثمود أخاهم صالحا فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشرتهم، قال له الرجل: لا بل عشيرتهم، قال: فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم و ليسوا إخوانهم في الدين. قال فرجت عني فرج اللّه عنك.

(2) نور الثقلين 2: 42 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى علي بن سالم عن أبيه قال قال الصادق جعفر بن محمد (عليهما السّلام): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 196

ثم «هود» يذكر في أربع مواضع بثلاث سور، و قومه «عاد» في أربع و عشرين موضعا و (18) سورة، و صيغة الدعوة هنا و صبغتها هي نفس الصيغة و الصبغة لنوح و الذين أرسلوا من بعده إلى خاتم المرسلين (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الجواب و الإجابة هو نفس الإجابة و الجواب، فالرسل برسالاتهم هم سلسلة موصولة على مدار الزمن كما المرسل إليهم، و كأنهم في الأكثرية الساحقة تواصوا في تكذيبهم (عليهم السّلام): «كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ» (51: 53) ثم و قليل هؤلاء «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» (90: 17).

هنالك في نوح‏ «قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» و هم كل الملإ، و هنا في هود «قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» فهم قسم من الملأ دون الكل، ثم هناك في نوح: «إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» و هنا في هود «إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ» و الجواب صيغة واحدة تسلب الضلالة و السفاهة عن ساحة الرسالة القدسية دون إرجاعها إلى هؤلاء الضّلّال و السفهاء، حيث الدعوة الصالحة تتطلب تليّنا و جاذبية حتى تجد مسارح لتصديقها و منافذ إلى تسريبها.

ذلك و عل فارق التعبير بين مواجة قوم نوح (عليه السّلام) إياه:

«إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» و قوم هود (عليه السّلام) ب «إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ» علّه لأن كلّ الملأ من قوم نوح عارضوه اجتثاثا لدعوته من أصلها، و انها «فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» جمعا بين السفاهة و الجنة و الكذب، و لكن قوم هود لم يعارضه منهم إلّا «الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» دون كل الملأ، و لذلك خف التعبير هنا عما هناك حيث اكتفي فيه ب «إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ».

و عاد هم قوم سكنوا أرض اليمن بالأحقاف و هي الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة و حضر موت: «وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ» (46: 21) و قد يأتي نباءهم الفصل في «الأحقاف».

و هنا زيادة لهم بذكرى قوم نوح ليذكروا: «وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ» بما غرقوا فجعلكم خلائف من بعدهم تخلفونهم في هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 197

الحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا «و زادكم» عليهم‏ «فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً» في بساط الأرض حيث أبسطتم ببسطة في «الخلق» في أنفسكم و في بساط الأرض إذ رزقكم أكثر منهم و بسطكم أزيد منهم‏ «فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

«قالُوا أَ جِئْتَنا ..» استنكارا لهذه الجيئة الرسالية «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا» من بأس اللّه‏ «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ» هو الكفر و الكفران، كما «فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ» (125: 9) أي كفرا إلى كفرهم، ثم و هو أمر العذاب مهما يستقبل واقعه، حيث الحكم بالعذاب و إن قبل العذاب نفسه، هو رجس على رجس الكفر.

ثم «و غضب» من اللّه‏ «أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ» ليست لها مسميات فهذه تسمية فارغة ألا تكون لها مسمى إلّا بادعاء خواء بواء، فالواقع الثابت ببرهان مفروض و ان لم يسمّ باسم، و المسمى بأي اسم دون واقع مرفوض. مهما توفرت له أسماء، حيث التسمية لا تحتاج بمجردها إلى معونة، إنما هو المسمى حيث يحتاج لإثباته إلى برهان، و ذلك من البراهين القاطعة لنكران أمر مدعى لا يملك من البراهين إلا أسماء تسمى: «أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ» حيث الألوهية الفرعية بالنيابة لا سلطان لها إلّا ما ينزله الإله الأصل، «فانتظروا» الرجس و الغضب من ربكم‏ «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ».

«فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ» في هذه الرسالة «بِرَحْمَةٍ مِنَّا» خاصة بالرساليين.

«وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا» برجس و غضب‏ «وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ» آهلين للإيمان بما عاندوا و أصروا و استكبروا استكبارا، و قطع الدابر هو الاستئصال للأصل و النسل حيث ينسل من الصلب الدابر.

و لقد قطع اللّه دابر عاد بصاعقة تحملها ريح عقيم صرصر عاتية:

«فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ ..» (40: 31)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 198

«وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» (51: 42)- «وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8) «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ. إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ» (89:) 8).

[سورة الأعراف (7): الآيات 74 الى 80]

وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (78)

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79) وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 199

تذكر «ثمود» (21) مرة في (16) سورة و يذكر «صالح» (9) مرة في أربع سور، و عاد و ثمود قوما صالح و هود هما من أنحس الكفرة المكذبة بالرسالات بعد قوم نوح، لم يسبق لهم مثيل في التاريخ الرسالي عن بكرته، و لذلك نرى كرور ذكرهم بذكرياتهم اللعينة في الذكر الحكيم ذكرى لأولي الألباب، و أخرى لآخرين ليذكروا.

و «ثمود» من الثمد: الماء القليل، سموا به لقلة ماءهم حيث كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز و الشام و إلى وادي القرى، و ان أباهم هو: ثمود بن عاد بن أرم بن سام بن نوح (عليه السّلام).

«وَ إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً ..» و هنا أيضا صيغة الدعوة و صبغتها و المواجهة من طرفي الرسول و المرسل إليهم، ذلك المثلث فيها يشبه سائر الدعوات الرسولية، فهذه هندسة الدعوة الربانية على مدار الزمن الرسالي، حلقات متشابهة متشابكة ترسم سلسلة واحدة.

و هنا «هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً» تذكر كنموذج من نماذج الآيات الربانية تدليلا على أنّ الرسل يحملون آيات رسالية بينة إضافة إلى أشخاصهم الخصوص فإنهم بأنفسهم بينات، و كما في مقال رسل المسيح (عليه السّلام) للناكرين: «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (36:) 16) حيث التربية الخاصة الراصة الربانية الباهرة في أقوالهم و أحوالهم و أفعالهم، هي برهان لا مردّ له على رسالاتهم الربانية لمن نظر إليهم بعين عقله دون هواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 200

ثم‏ «ناقَةُ اللَّهِ» هي من إضافة آية من اللّه إليه حيث أخرجها من الجبل، آية لهم مبصرة لعلهم يؤمنون، و من جهة ثانية هي آية في عظم جسمها لأن‏ «لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» و ليس شرب يوم لماء القرية كلّه إلّا لناقة عظيمة ما أعظمها؟.

و من جهة ثالثة هي آية دائبة معهم ما لم يمسوها بسوء، يرونها ما دامت و داموا معها، فهي آية رحمة من هذه الثلاث، ثم هي آية عذاب إن مسوها بسوء.

هذه ناقة اللّه و تلك أرض اللّه و ذلك رزق اللّه‏ «فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ» ضربا أو جرحا أم منعا من شرب أو أكل أم راحة، و أسوء من كل سوء قتلا بعقر.

«وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ» حيث أهلكناهم و أخلفناكم بعدهم لننظر كيف تعملون، «وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ» التي تعيشونها خير بواء و إيواء حال أنكم‏ «تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» و العثى و العيث هما البالغة في الإفساد، بفارق أن العثى أكثر ما تستعمل في الفساد المحسوس، و العيث في غير المحسوس، و «لا تعثوا» هنا تعني جمع الفسادين، و انما عبر عنهما بصيغة الفساد المحسوس في الأكثر لأن أكثر المفسدين يفسدون في المحسوس و الأقل منهم في غير المحسوس، قضية أن الثاني بحاجة إلى علم و عقلية بطرق الإفساد فطريا و عقليا و شرعيا أمّا هو، و الأقلون من المفسدين هم الذين يحملون ذلك الإفساد، فقد جاء التعبير وفقا للأقل و الأكثر، و «مفسدين» إفساد بعد بالغ الفساد في نوعيه، فقد تعني‏ «لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» المبالغة في كلا الفسادين البالغة إلى الإفسادين، و قد جمعوا بينهما، فعقر الناقة هو من عثاهم، و تكذيب الرسالة هو من عيثهم، كما و يذكران بعد النهي عن العثى: «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ..».

و لقد كان من حق هذا الاستخلاف و هذه القوة و البصطة الزائدة أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 201

تستوجب شكر النعمة و الحذر من البطر و اتقاء مصير الغابرين، و لكن لا حياة لمن تنادي!.

و هنا من مكائد المكذبين استجوابهم المؤمنين بصالح، باستكبار و استنكار تهديدا و تخويفا: «أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ» و هم على استضعافهم يجيبونهم بكل هدوء و جرأة إذ سكب الإيمان باللّه قوة في قلوبهم و ثقة في نفوسهم و اطمئنانا في منطقهم فلا يخافون إلا اللّه: «قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ» ثم هم أولاء: «إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» و كأن كفرهم سندا لكذب الرسالة، متّبع بين المستضعفين، و من خلفيّات استكبارهم أمام صالح و المؤمنين تضعيفا لساعد الإيمان و مساعده‏ «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» فعقر الناقة و هو الاستئصال في العمق حيث لا يبقى على أثر إمحاء للناقة عن بكرتها- إنه عقر- بزعمهم- لآية ربانية، فإذا زالت فقد زال كيان الرسالة بواجب إتباعها «عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» استئصالا لرسالته باستئصال وعده بزعمهم فاستأصلوا هم بذلك الاستكبار الاستدبار «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ»: ساقطين على وجوههم و ركبهم بكل الوجوه، خامدين خاملين لا حراك لهم، فإن أصل الجثم هو السكون و الخمود، فقد خمدت نيرانهم و سكنت حركاتهم.

و قد يتبين من‏ «لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ» أن لم يؤمن من مستكبريهم أحد، و انما آمن البعض من مستضعفيهم، و كما هو طبيعة الحال في كافة الرسالات الإلهية أن المؤمنين هم من المستضعفين حيث يرونها تكفل حقوقهم و تظل عليهم ظلالها.

ذلك و لم يعقر الناقة إلّا واحد حيث‏ «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها. إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها. فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها. فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَ لا يَخافُ عُقْباها» (91: 5) و قد نسب عقرها إلى جمع الكافرين حيث شاركوه في البعث و التصميم في الصميم. و قد يجمع في هذه النسبة بين الذين بعثوا أشقاهم، و الذين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 202

رضوا أم لم ينهوه و بين الذي عقرها، و كما في قصة السبت حيث‏ «أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ» (7: 165) فبقي الباقون تحت وطأة العذاب، سواء الذين نهوا الناهين عن السوء أو الذين تزكوا النهي عن السوء، مهما كانت عذاباتهم مختلفة.

و لقد قرر لهم و لها شرب عادل حيث كان ماءهم: «ثمود»: قليلا:

«قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (26: 158).

ذلك‏ «.. فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ» بعد جثومهم‏ «وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ».

و تراه كيف خاطبهم و هم جثوم؟ خاطبهم حيث يسمعون بعد موتهم و ذلك لهم تحسر بالغ، و كما

خاطب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قتلى بدر فقيل تتكلم مع هؤلاء الجيف؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم و لكنهم لا يقدرون على الجواب.

أم و خاطبهم و هم على أشراف جثومهم، و قد تشهد له‏ «وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» و لكن الكافر يموت على خصائله، فكما كان قبل موته لا يحب الناصحين كذلك بعد موته مهما تطلب الرجوع لكي يعمل صالحا غير الذي كان يعمل، فإنه كاذب على أية حال، في كل حل وتر حال.

ذلك، وحب الناصحين دليل على استقامة الفطرة و سلامة السبحية مهما كان صاحبها ضالا و لمّا يجد هاديا يهديه.

لقد «أخذتهم الرجفة» و «الطاغية» و «الصيحة» حسب مثلث التعبير في آيات ثلاث، و الجمع هو أن هذه «الصيحة» كانت «طاغية» لحد خلفت «الرجفة» المدمرة المزمجرة و كما

يروى‏ «فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل (عليه السلام) فصرخ عليهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم و فلقت قلوبهم و صدعت أكبادهم و قد كانوا في تلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 203

الثلاثة الأيام قد تحنطوا و تكفنوا و علموا أن العذاب نازل بهم فماتوا أجمعين في طرفة عين صغيرهم و كبيرهم فلم يبق لهم ثاغية و لا راغية و لا شي‏ء إلا أهلكه الله فأصبحوا في دارهم جاثمين، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين» «1».

[سورة الأعراف (7): الآيات 81 الى 85]

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (83) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84) وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85)

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (83) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 49 في روضة الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) حديث طويل يذكر فيه قوم صالح كما سيأتي تفصيله في تفسير سورة هود، يقول في آخره: فلما كان ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 204

يأتي «لوط» في (37) موضعا في (14) سورة، و هنا إجمال عن دعوته بمحورها السلبي: «أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» مما يدل على أن هذه النكرى لم يسبق لها نظير في زمن أي بشير و نذير أن تصبح عادة متجاهرة متعوّدة كما الزواج، في غابر الجاهليات و الهمجيات، اللّهم إلّا في جاهلية القرن العشرين حيث تمضي كمادة قانون في البارلمان البريطاني!.

ذلك المراس لفاحشة اللواط بكل حراس و اكتراس، المنقطع النظير في تاريخ الإنسان، مما جعل محور التنديد في هذه الرسالة الفرعية استنكارا لها و حوارا متواصلا بشأنها كما نجدهما بطيات آياتها.

و هنا «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» يعني الإسراف الذي ينددهم به لوط في اللواط، تجاوزا حد الفاحشة إلى ما لا حد لها، حيث يريقون الشهوة و يبعثرونها في غير موضع الإخصاب‏ «1»، فهي مجرد شهوة شاذة متخلفة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد فصلنا القول حول حرمة إتيان النساء من أدبارهن على ضوء قوله تعالى: «نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» (2: 223) و هذا هو الذي أمركم اللّه سماحا لأنه بعد حظر حيث وعد قبلها: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» (222) و أوردنا متواتر الأثر

عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان المأتية من دبرها هي اللوطية الصغرى‏

، و مما

ورد في ذلك ما في الدر المنثور 3: 100- أخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي في سننه عن علي (عليه السّلام) انه قال على المنبر: سلوني، فقال ابن الكوا: تؤتى النساء في أعجازهن؟ فقال علي (عليه السّلام): سفلت سفل اللّه بك ألم تسمع إله قوله‏ «أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ». و رواه عنه (عليه السّلام) في تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت،

أقول: فاحشة إتيان الرجال من أدبارهم لا تعني إلا الإفراغ في غير موضع الإخصاب، فهي محرمة في النساء كما في الرجال مهما اختلفت دركات الفحشاء فيها، و هكذا المساحقة لأنها عملية غير مخصبة و كما

أخرجه في الدر المنثور عن أبي حمزة قالت‏ قلت لمحمد بن علي (عليهما السّلام): عذب اللّه نساء قوم لوط بعمل رجالهم؟ قال: اللّه أعدل من ذلك استغنى الرجال بالرجال و النساء بالنساء،

أقول: و هكذا العادة السرية فإنها في غير إخصاب، و لا ينافي في ذلك حل ملاعبة النساء حين تمني لأنها في طريق إتيانهن، كما و أن الإفراغ منهن ما لم يكن لغرض انقطاع النسل مسموح حيث الباب باب الإخصاب و ليس يجب الإخصاب من بابه على الدوام،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 205

غريبة عن الفطرة الإنسانية بل و الحيوانية.

تلك جاهلية في القرون الغابرة، و إذا نحن بجاهلية القرن العشرين في أوروبا و أمريكا حيث ينتشر فيهما و ما أشبه ذلك الانحراف الانحراف الجنسي الشاذ انتشارا ذريعا دون أي مبرر إلا الإباحية الطليقة المطبقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- إنما الممنوع انقطاع النسل كما في عيون الأخبار في باب ما كتب به الرضا (عليه السّلام) إلى محمد بن سنان و علة تحريم الذكران للذكران و الإناث للإناث لما ركب في الإناث و ما طبع عليه الذكران، و لما في إتيان الذكران الذكران و الإناث الإناث من انقطاع النسل و فساد التدبير و خراب الدنيا.

و

في الدر المنثور حول حرمة اللواط عن جابر بن عبد اللّه قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إن من أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط،

و

عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: أربعة يصبحون في غضب اللّه و يمسون في سخط اللّه قيل من هم يا رسول اللّه؟ قال: المتشبهون من الرجال بالنساء و المتشبهات من النساء بالرجال و الذي يأتي البهيمة و الذي يأتي الرجل.

و

فيه عن ابن عباس أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل و المفعول به‏

و

عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لعن اللّه سبعة من خلقه فوق سبع سماوات فردد لعنته على واحدة منها ثلاثا و لعن بعد كل واحدة لعنة لعنة، قال: ملعون ملعون ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من أتى شيئا من البهائم ملعون من جمع بين امرأة و ابنتها ملعون من عق والديه ملعون من ذبح لغير اللّه ملعون من غير حدود اللّه ملعون من تولى غير مواليه،

و

عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من عمل عمل قوم لوط فارجموا الفاعل و المفعول به، و عن عائشة أنها رأت النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حزينا فقالت يا رسول اللّه و ما الذي يحزنك؟ قال: شي‏ء تخوفته على أمتي أن يعملوا بعدي عمل قوم لوط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 206

و من الجاهليات المتحضرة التي تبيح ذلك الشذوذ الجنسي هي دعوى عريضة توجهها الصهيونية العالمية: أن احتجاب المرأة هو الذي ينشره؟ و لكن شهادة الواقع تعكس الأمر أن خلاعة النساء و تعريهن مما يشجع على ذلك الشذوذ، ففي أوروبا و أمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الطليق بين الجنسين، يتسافدون كما تسافد البهائم و ليس هناك أحد يقول لأحد مه مه.

ثم نرى أن فاحشة اللواط يرتفع معدلهما بارتفاع معدل فاحشة الزنا بحرية الجنسين الطليقة، لحد تجاوزت إلى حرية الاكتفاء لكل جنس بجنسه، ذكر مع ذكر و أنثى مع أنثى، بل و مع الحيوان أيضا، و من أراد واسع الاطلاع على تلك الحرية البشعة فليقرأ «السلوك الجنسي عند الرجال» و «السلوك الجنسي عند النساء» في تقرير «كنزي» الأمريكي.

ذلك، و لكن الأجهزة الدعائية المضللة لا تزال تردّد هذه الأكذوبة:

أن العادة السرية و اللواط و ما أشبه مسنودة إلى حجاب المرأة، لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون و وصايا مؤتمرات للمبشرين من دور دائر مائر للبربرية الجنسية دون حدود.

«وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» و هنا يصبح التطهر سببا لإخراج المتطهرين من قريتهم حتى يخلو جوها للملوثين الدنسين، و ذلك منطلق الجاهلية في كل حين، من الجاهلية الغابرة إلى جاهلية القرن العشرين، حيث تطارد المتطهرين كيلا تراهم يخالفونهم في انغماسهم و انطماسهم في خضم الشهوات و المنكرات، ليتم الجو و يطم ما هو يطلبونه من المستنقعات العفنة.

«فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ» من هذه القرية القذرة «إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» القذرين ثم‏ «وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً» من العذاب التباب‏ «فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» الذين أجرموا ثمرات الحياة و قطعوها قبل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 207

إيناعها فأفسدوها عن بكرتها، و هنا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين المجرمين، جزاء لهم وفاقا و تبصرة للمتبصرين، ثم:

[سورة الأعراف (7): الآيات 86 الى 103]

وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89) وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ (93) وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (95)

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (97) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100)

تِلْكَ الْقُرى‏ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101) وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ بِآياتِنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 210

هنا آيات تسع تتحدث عن رسالة شعيب و ما واجهه به قومه و ما نقم اللّه به منهم‏ «فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ».

يذكر شعيب في إحدى عشر آية بست سور، و هنا تفصيل أكثر و بيان أوفر لرسالته ببيعته و ملابساته، و شعيب هذا من الرسل الإبراهيميين و قد زوج إحدى ابنته موسى (عليه السّلام) حيث فر إلى مدين و بقي معه عشر سنين ثم‏ «جِئْتَ عَلى‏ قَدَرٍ يا مُوسى‏».

و الرسالة الشعيبية كانت محصورة في مدين و هي قرية صغيرة

يروى أنها «لا تكمل أربعين بيتا» «1».

و لكنها قد تنافي‏ «وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ» (87) حيث الأربعين ليست كثيرة لأهل قرية، اللهم إلا أن تعني «البيت» القبيلة التي قد تكون من مآت الأفراد.

ثم في أصحاب الأيكة: «كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ. وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى‏ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ. قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ‏ ... قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» (26: 176- 190).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 51 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليهما السّلام) حديث طويل يقول في آخره: و ان الأنبياء بعثوا خاصة و عامة، أما شعيب فإنه أرسل إلى مدين و هي لا تكمل أربعين بيتا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 211

رسالة محصورة في هذين، محسورة عن سائر القوى، إذ لم تكن تحمل ولاية عزم تحلق على كل القرى.

ذلك و لقد بلغ من بالغ دعوته في رسالته أن‏

يقول فيه الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه فيما يرادهم به ..» «1».

و هنا بين القريتين مشاركات في دعوته الرسولية هي: الدعوة إلى عبادة اللّه وحده، و إيفاء الكيل و الميزان، و ترك الإخسار و البخس و الإفساد في الأرض، ثم و مفارقات هي هنا: القعود بكل صراط إيعادا، و الصد عن سبيل اللّه، و هناك الأمر بتقوى اللّه و طاعته، و عدم سؤال أجر على رسالته.

فقد كانت مهمة رسالته هنا و هناك الدعوة إلى توحيد اللّه، و ترك الإفساد اقتصاديا، و ترك الإفساد في الأرض في كل أبعاده، و هنا إضافة النهي عن القعود بكل صراط يوعدون و يصدون عن سبيل اللّه، مما يدل على أن القريتين كانتا مشتركتين في الفساد العقيدي و الاقتصادي، مهما اختلفتا في بنود أخرى من التخلفات عن شرعة اللّه.

وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 103- أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم عن ابن إسحاق قال: ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) كان إذا ذكر شعيبا قال:

ذاك .. فلما كذبوه و توعده بالرجم و النفي من بلاده و عتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة

فبلغني أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن حلهاء لما رآها قال:

يا قوم ان شعيبا مرسل فذروا\* عنكم سميرا و عمران بن شداد إنى أرى عينه يا قوم قد طلعت\* تدعو بصوت على صمانة الواد و انه لا يروى فيه ضحى غد\* إلا الرقيم يمشي بين أنجاد و سمير و عمران كاهناهم و الرقيم كلبهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 212

أَشْياءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85).

«أَخاهُمْ شُعَيْباً» مواطنة أم و قرابة، و هذه الدعوة الرسولية هي كسائر الدعوات بازغة بالتوحيد بنفس الصبغة و الصيغة السائغة، القاعدة التي يعلم أن منها تنبثق كل مناهج الحياة و كل أوضاعها، كما أن منها تنبثق كل قواعد السلوك و الخلق و التعامل، فلا تستقيم الحياة بحذافيرها إلا بقاعدة وحيدة غير وهيدة هي قاعدة التوحيد الحق بحق التوحيد.

و ترى‏ «قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» هي بينة الفطرة و العقلية السليمة على توحيد اللّه؟ و هي ليست بينات كافية لولا أن تتزود بينات رسالية.

ثم‏ «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ ..» تفريعا عليها تؤكد أنها بينة لهذه الرسالة الشعيبية، حيث إن أصل التوحيد و ما أشبه من أصول الدين ليست قضيتها المستقيمة اللازبة تقبّل الفروع!.

فقد يتبين من ملابسات‏ «بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» هذه، أنها بينة خاصة لهذه الرسالة، مهما أجمل عن نوعيتها، كما و لم يتبين من آيات أخرى بشأن شعيب ما هي نوعية بينته الرسولية، و هنا البينة الحاضرة هي الرسالة اللّامحة من شعيب نفسه و كما قال رسل المسيح (عليه السّلام): «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (36: 16) حيث الرسالة الربانية ظاهرة فيهم، باهرة في أقوالهم و أحوالهم و أفعالهم.

و لأنهم كانوا متورطين في إفساد اقتصادي و آخر عقيدي بحذافيره، لذلك فرع الأمر بإيفاء الكيل و المناهي اللاحقة له ب «قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ».

فقد كانوا يطففون في المكيال و الميزان و يبخسون الناس أشياءهم و يفسدون في الأرض بعد إصلاحها، فركز التنديد- بعد الدعوة إلى التوحيد- على ذلك الثالوث السالوس.

و هنا «أشياءهم» المحلقة على كل أشياءهم، دون «أموالهم»-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 213

فقط- تلمح أنهم كانوا يبخسون الناس و ينقصون كل أشياءهم و هي النواميس الخمس نفسا و عقلا و دينا و مالا و عرضا، و كما يفسره النصان التاليان: «وَ لا تَقْعُدُوا ... وَ تَصُدُّونَ ..».

و أما «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» فهل يعني حاضر الإيمان كما تلمح له‏ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»؟ و هم لمّا يؤمنوا كلهم كما هو صراح تالية الآيات! أم يعني من آمن منهم؟ و لا يختص التكليف بخيريته بهم!.

قد يعني الإيمان هنا جعل أنفسهم في أمن من زعزعات تطفيف المكيال و بخس الأشياء و الإفساد في الأرض، فإن حياة الأمن مما يهواه كل الأحياء مؤمنين رسميين أم كافرين، أم و تعني‏ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بأصل الألوهية مهما كان بإشراك، حيث الإيمان باللّه مهما كان بإشراك، من قضاياه إتباعه فيما يرجع إلى أمن الحياة و رغد العيش.

أجل‏ «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ ..» إنما يوفى حقه بحاضر الإيمان الموحّد باللّه و برسالاته، فلأن الخطاب هنا يعم أهل مدين كلهم، و فيهم من آمن رسميا و فيهم من كفر، فقد تعني‏ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لكلّ حسب إيمانه، و هو لأقل تقدير لغوية الإيمان الطليق أن يؤمنوا أنفسهم من زعزعات الحياة فيأمنوا.

وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86).

«كل صراط» هنا تشمل كل جادّة جادّة، ظاهرية و باطنية، فصراط الفطرة و العقلية السليمة و صراط الشرعة الربانية، أم صراط العبور للناس إلى حوائجهم، و كل صراط إلى الحيوية الإنسانية و الإيمانية، كلها معنية من «كل صراط» حيث «توعدون» سالكيها إيعادا، و منه الصراط إلى شعيب بدعوته، و من جراء ذلك الإيعاد الإبعاد «وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً» بغي القصد و بغي الظلم، أن تسلكوها و تسلكوا إياها عوجا، أم تتخذوها عوجا لكم و لمن يسلكونها «و اذكروا» أنتم البغات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 214

الطغاة «إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا» في عدة وعدة تتخطفون «فكثركم» ربكم فأصبحتم تتخطفون، فبدّلتم نعمة اللّه نعمة و كفرا و أحللتم أنفسكم و قومكم دار البوار. جهنم تصلونها و بئس القرار «و انظروا» أنتم و لينظر غيركم‏ «كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» في الأرض، فاعتبروا بالمفسدين قبلكم كقوم نوح و عاد و ثمود: «وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ. وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ. فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (29: 38- 40)- «أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ» (32: 26) «.. فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ» (46: 25) «فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا» (28: 58).

وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (87).

و هنا «طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا» و هم الملأ المستكبرون، قد حسبوا أنفسهم سادة و قادة، فخيّل إلى المؤمنين ما يخرجهم عن الاصطبار أمامهم، فأمروا و إياهم بالصبر، صبرا للذين آمنوا لكي يروا وعد اللّه، و صبرا للذين لم يؤمنوا حتى يروا و عيده‏ «حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ» حكما هنا و آخر في الأخرى، و لكن الطغاة ما صبروا حتى قالوا قولتهم و غالوا غولتهم الهاتكة الفاتكة:

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (88).

لقد دعاهم شعيب إلى أفضل خطة و أعد لها و هي آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة، و هي نقطة الانتظار لعاقبة الكفر و الإيمان هنا قبل الأخرى، تريّثا و تعايشا بغير ما أذى و ترك كلّ لحاله و قاله حتى يأتي مآله،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 215

و لكن الطواغيت لا يرضيهم إلّا استئصال الإيمان و المؤمنين حيث يهددون سلطانهم، و يحددون شهواتهم، إذا فليخرجوا سراعا.

و ترى‏ «لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» تعني أنهم كلّهم كانوا في ملة الإشراك بحذافيره و مخلفاته البئيسة؟ و الأنبياء بريئون من الإشراك أيا كانوا و أيّان!.

«ملتنا» إن عنت ملة الإشراك فذلك تخيّل منهم أنهم كانوا في ملتهم إذ كان شعيب في تقية لا يظهر إيمانه، ثم جاراهم في ذلك التخيّل ب «إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ»، و لكن القرآن البيان يحيد عن تلك المجاراة دون تأشير إلى باطل ظنهم، حيث تخيّل أن شعيبا كان في ملتهم كالذين آمنوا معه!.

أم هو حقيقة و تعني «لتعودن» عود المجموع لا الجميع حيث كان شعيب داخل جمعهم، ف «تعودن» تعني ذلك المجموع و إن ظل شعيب على إيمانه الذي كان حيث اليد الواحدة لا تصفق، و هذا استعمال متعود أن ينسب فعل البعض أو تركهم إلى المجموعة، فضلا عن يكون الفاعل أو التارك كلهم إلّا واحدا منهم، إذا ف «أو لتعودن» صادق تماما في عود الجميع إلّا واحد هو شعيب، إذ ليست هنا صيغة تستغرق الكل دونما استثناء، و إنما صيغة الجمع «أو لتعودن» و يكفيه عود جماعة و دون النصف منهم فضلا عن الكل إلّا واحد منهم.

و لكن يبقى سؤال أن‏ «لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ» نص على دخول شعيب في ملتهم حيث «لتعودن» تعنيه معهم لذلك النص؟

بل و شعيب نفسه هو رأس الزاوية في «لتعودن» لاختصاصه بالذكر قبلهم.

أم تعني الملة السلطة الزمنية إذ هم خرجوا عنها بسلطان التوحيد الجاهر بعد تقاة، و هؤلاء يتطلبون منهم العود في تلك السلطة مهما ظلوا مؤمنين أم رجعوا- إلّا شعيب- كافرين.

و على أية حال فلا نص هنا و لا ظاهر أو لمحة أن شعيبا كان في ملة الإشراك قبل رسالته، و مجرد الاحتمال الصالح حيث تحتمله الآية، كاف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 216

في تنجزه، حيث الاصطفاء و الاجتباء بحق الرسل، المذكوران لهم في القرآن، إنه برهان صارم لا مردّ له، أنهم يصطفون من جموع الموحدين، فسابقة الإشراك لهم تناحر و اصطفاءهم.

إذا ف «لتعودن» لا تعود بمزرأة على شعيب ما دام احتمال عناية السلطة الزمنية من «ملتنا» قائمة، أم و الملة الروحية بعود الذين آمنوا معه فيها دونه (عليه السّلام) أم و عوده فيها مجاراة لتخيل أنه كان فيها، ثم و ليس القرآن ساكتا عن تزييف ذلك التخيل الزائف الهارف الخارف، لمكان عساكر الآيات الدالات على سابقة الرسل السابغة بخالص الإيمان.

فالمرفوض- إذا- بين المحتملات في «لتعودن» أنه (عليه السّلام) كان في ملة الإشراك فيطلب منه العود فيها حتى لا يخرجنّ، و تبقى سائر المحتملات قائمة على سوقها، و كلها صالحة للعناية.

«لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» الزمنية تقية، لا تمس من كرامة إيمانه من ذي قبل.

و كذلك «في ملتنا» زعما منهم أنه كان مشركا كما هم إذ كان في تقية من دينه، و الجو الرسولي في القرآن بيان لمحتد الرسل قبل ابتعاثهم أنهم مصطفون، فهو نقض لهذه التخيلة القاحلة.

و هكذا «في ملتنا» واقعا حيث يستثنى شعيب نفسه عن المخاطبين ب «لتعودن» فانه جمع يتحمل الاستثناء، مهما لم يتحمله‏ «يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ» فإن شعيبا مستثنى بمحتد الرسالة المعنية بالقرآن عن أن يكون قبلها في ملة الإشراك.

ذلك، و ذلك التطلب البعيد القاحل لم يكن ليختص بقوم شعيب، بل: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى‏ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ» (14: 14) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الفرقان آية 41: 45 ج 13- 14

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 217

«قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ» فأنتم تكرهوننا على العود في تلك الملة المشركة زمنيا أم روحيا أم فيهما معا.

و «لو» هنا مجارات تعني حتى على فرض استحالة كراهيتنا للعود في ملتكم رغم زعمكم، فلتفرضوا أننا لا نكرهه فتفرضوا علينا تلك العودة، و لكن ماذا إذا كنا كارهين كراهية بساطع البرهان، فقاطع الإيمان، ف «لو» هنا تنديد بحتمية ذلك العود.

فالحمل على العود في ملة غير مرضية إبطالا لحرّية الانتخاب، الحريّة لكل إنسان، إنه حمل يخالف الفطرة و العقلية و الخيرة الإنسانية.

فلو أنكم حملتمونا على ذلك العود ببرهان يقنع لكنا عائدين، ففي عودنا دون أي برهان، و هناك ساطع البراهين تمنعنا عنه، إن فيه افتراء على اللّه، حيث القضية الرسالية و على هامشها القضية الإيمانية إن ذلك العود إنما هو بأمر اللّه:

قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (89).

فهذه فرية و قحة على اللّه‏ «إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ» على إيماننا، فإن ضفة الإيمان- الصالح غير الكالح- و صفته، تمنعان عن العود إلى اللّاإيمان، فكما أن قالات الإيمان و حالاته و فعالاته هي من قضايا الإيمان، فعودنا إلى ملتكم- إذا- هو أيضا من قضايا الإيمان و ذلك افتراء على اللّه أنه يأمرنا بذلك العود «بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها» فقد نجانا من ملة الإشراك زمنيا و روحيا فكيف نعود- إذا- فيها «وَ ما يَكُونُ لَنا» بصفة الإيمان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 218

«أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا» لكي يكون العود أيضا بصفة الإيمان، على ضوء مشيئة اللّه، فها نحن مستسلمون للّه خروجا أم عودا.

صحيح أن اللّه لا يشاء و لن. أن نعود فيها، و لكن مشيئته الطليقة بعد حاكمة حكيمة، فلو شاء لنا الإشراك لأشركنا بأمره و هو- إذا- من التوحيد، كما شاء لنا التوحيد فوحّدناه بأمره، فنحن على أية حال تحت أمره و إمرته و رهن إشارته و مشيئته قضية كامل الإيمان و شامله.

و ذلك أدب ولي اللّه مع اللّه أنه لا يمشي على هواه و إن كانت في عدم العودة إلى ملة الإشراك، فلذلك يستثني عدم عودته إليها بمشيئة اللّه! فلأن قضية الإيمان الصادق باللّه و مشيئة اللّه هي التوحيد للّه و عدم الانخراط في سلك المشركين باللّه‏ «وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها» اللّهم‏ «إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا» أن نعود فيها، فالعودة- إذا- هي قضية الإيمان باللّه، و هي من توحيد اللّه في طاعته و عبادته، كما الخروج عنها قضية الإيمان، و قضية التسليم السليم للّه أن نأتمر بأمر اللّه خروجا و عودا دونما وقفة لنفكر ما هو المغزى هنا و هناك، فإنه- إذا- عبادة العقلية و المصلحية، دون خالص العبودية للّه.

أجل و ذلك هو رسم العبودية الوحيدة غير الوهيدة ألا يمنع العبد أي مانع منها مهما كان قاطعا لا حول عنه، و من أمثاله الأمثال قصة إبراهيم في ذبح إسماعيل، حيث البراهين كلها معسكرة على حرمته، و لكن أمر اللّه تعالى يغضي كلها، بارزا وحيدا في الميدان.

ففيما تعلم مصلحة في أمر من اللّه أو نهي فالطاعة سهلة، و فيما لا تعلم مصلحة و لا مفسدة، فهي صعبة، و أما فيما تكرس الآيات آفاقية و أنفسية أن فيه مفسدة و لكن اللّه يأمرك به دون ريبة، فالطاعة صعبة ملتوية، و هنا لك البلية العظيمة التي، الساقطون فيها كثير، و الناجحون قليل قليل.

و هنا الجمع بين اسمي اللّه: «اللَّهُ رَبُّنا» للتدليل على أن قضية ربوبيته الشاملة التسليم له كما يشاء، و لو شاء الإشراك أم أيا كان من ملة من الملل، أو نحلة من النحل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 219

فألوهيته تقتضي توحيده، كما هو قضية ربوبيته، فهو الواحد إلها و هو الواحد ربا، فلو شاء أن نشرك به و هو الواحد في ربوبيته، أو أن ندخل في ملة الإشراك زمنيا تقية أماهيه من مبرر، لكنا داخلين قضية التسليم الطليق للّه ربنا.

فنحن المجاهيل و «وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً» فلو يعلم أن في العود في ملتكم خيرا فأمرنا به لعدنا، و لكنه لا يعلم فيه خيرا إذ ليس فيه إلّا شر: «قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» (49:) 16) «وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ» (13: 33)- «قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (10: 18). و عدم علمه بشي‏ء يوازي عدم ذلك الشي‏ء.

و لأن اللّه لا يشاء أن نعود في ملتكم و لن، فنحن إذا صامدون في توحيده و في الابتعاد عن ملتكم روحيا و زمنيا، فلن ندخل- إذا- في ملتكم أبدا.

و حين تهددوننا بإخراجنا من قريتكم- كأنها هي قريتكم دوننا- فليست العقيدة الصالحة تنثلم و تتلعثم أو تتزعزع أمام أي تهديد و وعيد «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا» لا سواه، و إليه انقطعنا لا سواه‏ «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ».

ذلك، و نفس العود في ملة الإشراك هو افتراء على اللّه، كأن لا خير في ملة التوحيد قضية طبيعة الحال في التحيز بين الملتين، فاختيار ملة الإشراك على ملة التوحيد.

فهاتان- إذا- فريتان على اللّه، إحداهما قضية الإيمان، و كأنه يأمرنا بتلك العودة، و أخراهما قضية التحيز المجرد عن الإيمان و الإشراك مهما كان حالة الإيمان.

أجل، و إن تكاليف الخروج عن ملة الطاغوت- مهما عظمت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 220

و شقت- هي أقل و أهون من تكاليف الدخول في ملته.

فالدخول في حكم الطاغوت خروج عن نواميس الإنسانية كلها حيث يذبح أتباعه على مذبح هواه، و يقيم من جماجمهم و أشلاءهم أعلام المجد لذاته و مناه، ثم يكلفهم عقولهم و عقائدهم و أموالهم و أعراضهم- بإعراضهم عن اللّه- لحد لا يملك والد ما ولده، و لا فتاته عن الدعارات و سائر العارات، و كل ما يملك بخطواته عن حركاته الصالحة كلها.

ذلك، و إلى إجابة نكدة من هؤلاء الأنكاد، لا تحمل إلا تهديدا خاويا:

وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (90).

و هذه دعاية مستكبرة لعينة ضد الرسالة الشعيبية تهدد أتباعه بالخسران دون بيان أنه ما هي ماهية هذا الخسران، ليذهب بال المؤمن أي مذهب من ألوان الخسران: دينا و نفسا و مالا و عقلا و عرضا و أرضا أما هو من خسران يبتعد عنه أي إنسان، و لكن الإيمان الصامد كان قد أخذ موضعه من شغاف قلوبهم فلا يقلّبهم عنه أي كان، ثم كان عاقبة هؤلاء الأنكاد:

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (91).

دون حراك حيث خمدت نيرانهم و جمدت ثيرانهم و غيرانهم، ف:

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (92).

لقد أرادوا إخراج شعيب و الذين آمنوا معه بكل إحراج، فأخرجهم اللّه من حياتهم و قريتهم‏ «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا»: فلم يعمروا هذه الدار و لم يطل مقامهم فيها «1»، و كأن لم يكن لهم فيها آثار، حيث أخذتهم الرجفة بعمارهم و آثارهم مع أنفسهم البئيسة التعيسة، فلقد انطوت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). غنى في مكان: إذا طال مكوثه فيه مستغنيا به عن غيره مكتفيا به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 221

صحيفتهم عن صفحة الكون مشيعة بالتبكيت و الإخمال، و المفارقة و الانفصال.

و لعل في كتاب حبقوق النبي (عليه السّلام) الباب الثالث الآية السابعة إشارة إلى رجفة مدين السالفة إضافة إلى المدائن الكسروية بميلاد محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و نصها بالأصل الكلداني كالتالي:

«چادرى دكوشن بركد پردد ارعا دمدين»:

لقد تزعزت الچوادر و الخيم في مدين.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ (93).

«فَتَوَلَّى عَنْهُمْ» و هم في قبضة الرجفة، و لمّا يموتوا، كما «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ» بعد أن ماتوا و قال‏ «لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي» أصلية و فرعية بكل بلاغ بالغ و بيان فائق، ثم‏ «وَ نَصَحْتُ لَكُمْ» بعد البلاغ، جمعا للنصح إلى بلاغ الحجة البالغة، تليينا لما تصلّب منكم، من أدمغة و خراطيم مستكبرة فيكم و هي بعد عليكم، و لم آل جهدا في إنجاءكم‏ «فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ» و لا يعني الأسى عليهم- إذا- إلّا ما عساه نكران لعدل اللّه و حكمته، أم نقصان في بلاغ رسالته!.

ذلك، و هذا الخطاب العتاب باستفهام الإنكار، عذاب لهم فوق العذاب، سواء أ كان عند نزول العذاب و لمّا يموتوا، أم و بعد موتهم، إعلانا ببلاغ الحجة دون قصور فيها أم تقصير، و إعلاما بأن لا مجال للأسى عليهم فإنهم عامدون عاندون في النكران، فمستحقون لعذاب الاستئصال.

أ فبعد إبلاغ الرسالة و النصيحة يؤسى على قوم كافرين، و لا يؤسى على المستحق بالعدل و الحكمة الربانية، حيث الأسى- إذا- عساها استرحام على من جرى بحقه حكم اللّه!.

هنا وقفة للتعقيب على ذلك القصص و أضرابه، كشفا عن خطوات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 222

ربانية من قدر اللّه بالمكذبين بالدين كيف يأخذهم في تقلّبهم و تغلّبهم بزعمهم و هم غافلون يلعبون أو نائمون.

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (4).

«بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ» هما الأفعل من البائسة و الضارة، و صفان لمحذوف أفضله الحالة، أو الحياة، ثم البأساء بأس في النفوس قلقا و اضطرابا، و الضراء ضر في الأبدان و الأموال و الأولاد، فقد شملتا مضرة الروح و الجسم فيما تحلقان على كل كيان الإنسان.

و هذه الأخذة الربانية هي من مخلفات التكذيب بالنبيّين، أخذا بالبأساء البائسة و الضراء الضارة الضارعة في أحوال و أموال و بنين‏ «لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ» إلى اللّه تائبين، فلما عتوا و بغوا و بقوا على تكذيبهم حيث لم تذكرهم البأساء و الضراء: السيئة، جازيناهم بما تزيدهم سيئة العتو و الغفلة الغفوة:

ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (95).

فهنا «مَكانَ السَّيِّئَةِ» بأساء و ضراء المذكّرة «الحسنة» الظاهرة المزمجرة أكثر من السيئة «حتى عفوا» و نموا في متطلبات حياة الحيونة المريحة، فظنوا أنهم في رحمة من اللّه مهما عتوا، ويكأن العتو مرضي للّه حتى‏ «قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ»: ضر و سرور، فهما يمسنا إذ هما فوضى جزاف لا يعنيان كرامة أو مهانة، فلا علينا أن نستمر في الكفر و الكفران، و لأننا قد نكون مكرهين بالحسنة مكان السيئة «فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً» أخذة مزمجرة مدمرة «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» موقفهم، و «لا يشعرون» خطأهم و «لا يشعرون» استحقاقهم و «لا يشعرون» نزول العذاب عليهم إلّا حين نزل إذ كان مباغتا، و على الجملة «لا يشعرون» إلّا فوضى، فلا يعني بلاء السيئة و لا جزاء في حسنته و سيئته، بأساء و ضراء، و الحسنة سراء عبثا أن يأخذ اللّه عبادا له بشدة في أنفسهم و أرزاقهم و أموالهم، و لا لإرواء غلة و لا شفاء اجنة أم يأخذهم بسراء مرحية مرخية تعطفا عليهم بل هما بلاءان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 223

مختلفي الصورة، و إنما لإيقاظ فطرة نائمة و ترقيق قلوب طال عليها الأمد ما كانت فيها بقية: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلَّا ..»

(89: 16).

كما و لا تعني الحسنة مكان السيئة و اليسر مكان العسر و النعمة مكان الشظف، و على الجملة العفو الزيادة مكان النقيصة، إنها لا تعني إلّا جزاء وفاقا إن لم يضّرّعوا بالبأساء و الضراء، فبلية الحسنة أصعب من بلية السيئة، و لذلك ترى أكثر الساقطين في البليات هم من المنعمين حيث يكثرون و ينتشرون، مسهلين العيش، متيسرين الحياة، معذّرين تخلفاتهم أمام اللّه، فقد تعني «حتى عفوا» إلى جانب غورهم في زخرفات الحياة، اعتبارهم أنفسهم معفوين عن المسؤوليات، إباحيين في اللذات و الشهوات، عائشين- إذا- اللّامبالاة الطليقة، فكل ما يصدر منهم عفو بلا أي تحرج أو مبالات، فقد عفوا في أنفسهم و أموالهم و أولادهم نماء، و عفوا عفوا و لأن العفو تأتي بمعاني: الزيادة و الانتقاص لازمة، و بمعنى التجاوز متعدية ب «عن» «1» فطليقة «عفوا» كما هنا قد تعنيها كلّها وفقا لأدب اللفظ و عناية المعنى، فقد «عفوا» بتلك الحسنات بعد السيئات زيادة و نموا في أنفسهم و أموالهم و أولادهم و محاصيلهم، فعفوا انتقاصا على نقصهم في نقضهم عهد اللّه، ثم ازدادوا عفوا حيث عفوا عن سيئاتهم أنفسهم بإباحية طليقة و كأنها مشروعة مرضية للّه‏ «وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ» قصدا إلى أنهما ليستا جزاء وفاقا لسيئات أو حسنات، إذ لم تكن لآبائنا حالتان مختلفتان تستجران الجزائين هذين المتقابلين، و كذلك الأمر فينا نحن، فذلك جريان طبيعي في إقبال الدنيا و إدبارها دونما رباط لهما بحسنات أو سيئات، أم إن ذلك فوضى جزاف من اللّه دون أن تكون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فقد جاء العفو لكلا النمو و الانتقاص فهم انتقصوا في نموهم و نموا في انتقاصهم، يقال:

عفى النبت و الشجر قصد تناول الزيادة و عفت آثارها زالت و عفى عنه أزال ذنبه.

إذا ف «عفوا» دون أي متعلق تعم عفو الزيادة و النقيضة و معهما العفو عن ذنوبهم كان ذنوبهم معفوة بما عفوا في نعمهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 224

الضراء و السراء خلفية ربانية للسيئات و الحسنات.

أم قد بلغ أمرهم في بلية الحسنة بعد السيئة أنهم تحسّنوا كآبائهم مستحقين للحسنة بتركهم شرعة اللّه التي يدعيها الأنبياء! إذ «لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا» فنحن- إذا- ماشون وفق مشيئة اللّه، ماضون بأمر اللّه، اعتبارا للإشراك باللّه و ترك شرعة اللّه، إيمانا باللّه، فتوحيد و تصديق شرعته- إذا- كفر به!.

و احتمال آخر أن‏ «قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ» تخصهما بهم دون هؤلاء الأولاد، حيث بدلت السيئة لهم بالحسنة، فقد عفوا- إذا- عن أنفسهم إصابة السيئة إن كانت هذه الإصابات قاصدة، رعونة لهم كأنهم يستحقون- فقط- الحسنة، «فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً» هي شر أخذة، إذ قد يؤخذ الظالمون بإخبار مسبق كما في قوم لوط «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ».

فلأن هؤلاء الأنكاد عمدوا إلى سدّ كل المنافذ حتى لا يسمعوا الحق و لا يروه و لا يفهموه، مهما مستهم البأساء و الضراء إيقاظا لفطرهم، و هو الخطوة الأخيرة لاهتدائهم دون اختيار لهم، فلم يزدهم إلّا عتوا و نفورا، فلذلك يستحقون مباغتة العذاب‏ «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» جيئته الفجيعة إلّا عند ما أخذهم، كما «لا يشعرون» رغم ما أشعرتهم الضراء و السراء.

و هكذا تكون الدعوة الربانية أنه ما دامت الإمكانية لبلاغ الحجة لا يضنّ بها، فمن خطوة الحجة البالغة إلى العظة، و إلى الإنذار بالعاقبة، و إلى إيقاظ الفطرة بمختلف الأساليب، وحده الأخير هو إيقاظها رغم تعنّت أصحابها، و من ثم استئصالهم حين استأصلت لهم كل الطرق لانتباههم، إذ لا خير فيهم إلا ضر و شر للإنسانية.

فعندئذ، في ساعة الغفلة السادرة، و الغفوة الغادرة، و العفوة البادرة تباغتهم العاقبة المضمونة «فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ».

و هذه سنة جارية ربانية في إصلاح المتخلفين خطوة خطوة، حتى إذا خطوا الخطوة الأخيرة في الأخطاء العامدة، و لم يبق إلى قلوبهم نافذة هدى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 225

و تبصرة، استأصلهم اللّه و أخمد نيرانهم تطهيرا للجو عن هؤلاء الأرجاس الأنحاس.

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (96).

«وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ» (5: 66).

صحيح أن بركات السماء و الأرض و توفّر النعم لا تستلزم أهلية المتنعمين بها، فقد ترجع النعمة عليهم نقمة و نعمة، و لكن الإيمان و التقى لزامهما انفتاح بركات من السماء و الأرض، و اللّاإيمان و الطغى لزامهما انغلاق بركات، و ما يرى من بركات لأهل الدركات فهي في الحق لهم دركات، حيث تعني لهم إملاء و إملالا: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3:) 178).

ذلك، و ان الخلفية الطبيعية الربانية للتخلفات عن شرعة اللّه هي انغلاق بركات من السماء و الأرض ظاهرية و باطنية هما متعاملان في فلاح الإنسان و صلاحه، و لكن هنا خطوة ثانية ابتلائية هي‏ «بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا» و هذه الحسنة هي أسوء من السيئة بكثير!.

و ترى «لو» هنا تحيل إيمان أهل القرى و تقواهم، و قضيتها هي إحالة فتح هذه البركات؟ و هذه الإحالة تنافي و المشيئة التشريعية أن يؤمن أهل القرى و يتقوا!.

إنها إحالة نسبية بسوء الإختيار، دون ذاتية أم واقعية مستغرقة، فهي إخبار عن الواقع المتخلّف لأهل القرى بسوء اختيارهم، باستثناء واقعين اثنين هما قلة قليلة أمام مسيرة التاريخ الرسالي:

1 أهل القرى كلها زمن صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

2 أهل كل قرية قدر المستطاع، تعبيدا لطريق المهدي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 226

(عليه السّلام) و تصليحا لهم أنفسهم، فحين لا يتمكن المؤمنون أن يحصلوا على جو الإيمان الخالص أو الأكثري في كل القرى لأنه أمر صاحب الأمر بما وعد اللّه، فعليهم- إذا- أن يصلحوا مجتمعاتهم المنزلية و فوقها كما يستطيعون، و لكي تنزل عليهم- كجمع- بركات من السماء و الأرض.

ذلك، و لا تنافي المشيئة التشريعية امتناع واقع مشروع باختيار، و إن كان امتناعا مطبقا، فضلا عن المطلق الذي قد يتحقق باختيار.

و هذا الحكم جمعي و ليس شخصيا أن كل من آمن و اتقى تنزل عليه بركات من السماء و الأرض- اللهم إلا بركات معنوية- مهما حكم أحيانا للأشخاص أيضا كما يستحقون.

فالإيمان و التقى أول ما يصلحان هو الحياة الدنيا أن تصبح حياة عليا حيث المؤمن دنياه آخرة.

ذلك، و لأن زمن صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه يحلّق الإيمان و التقى على أهل القرى إلّا من شذ، فقد تنزل عليهم بركات من السماء و الأرض، كما تخرج له الأرض أفاليذ كبدها، و يروى فيما يروى بهذا الشأن-

عن الإمام الحسين (عليه السّلام) في حديثه عن الرجعة: «و لتنزلن البركة من السماء و الأرض حتى أن الشجرة لتضيف بما يريد الله فيها من الثمرة و ليؤكل ثمرة الشتاء في الصيف و ثمرة الصيف في الشتاء»

و ذلك قوله: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ ...» «1».

أجل و هذه ضابطة ثابتة «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» (12: 11) و قد تشمل إلى «ما بقوم» ما بشخص، اللّهم إلا أن تمنع طوارئ و ملابسات حقوق الأشخاص هنا، و لكن حقوق الجماهير محتومة مختومة بما يغيرون إلى خير فخير، أم إلى شر فشر.

و هنا «آمنوا» ناحية منحي إيجابيات الإيمان علمية و عقيدية و عملية ثم «و اتقوا» منحاها السلبيات علمية و عقيدية و عملية، فهما يحلّقان على كافة الواجبات و المحرمات الأصلية و الفرعية، الفردية و الجماعية، و كلها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 52 في الخرائج و الجرائح عن الحسين (عليه السّلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 227

اختصارة و احتصارة في كلمة الإخلاص‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

و هنا «لفتحنا» دون «خلقنا» و ما أشبه، دليل أن هناك بركات في السماء و الأرض هي مغلقة على أهل القرى بما «كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ».

فهنا تعامل بين صالح الأعمال الجماهيرية و طالحها، و بين بركات من السماء و الأرض و دركات في الأولى كما في الأخرى دون أية فوضى جزاف‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

و بما أن صالح الإيمان دليل على حيويّة الفطرة الصالحة غير المنحرفة المنخرفة، و صدق في الإدراك، و تصادق مع حق الواقع و الواقع الحق، فهو قوة دافعة تجمع جوانب الحيوية الإنسانية كلها متجهة إلى جهة واحدة، مستمدة من قوة اللّه الذي لا إله إلا هو، فإنها تحرّرة صالحة بالغة، عن عبودية آلهة الأرض إلى عبودية إله السماوات و الأرض.

ثم و تقوى اللّه يقظة واعية داعية إلى ترك المحظورات و فعل المحبورات، صائنة عن الاندفاع و التهوّر و التشتت و التشطّط و الغرور، و «أوثق العرى كلمة التقوى» «1» عروة يتعلق بها فتنهض من المعاثر، و تنجي من المزالّ و المزالق، فهي الحبل المتين، و المستند النضد الأمين.

لذلك فهما جناحان يطير بهما الإنسان إلى أعلى قمم الكمال الممكن لأيّ كان، حيث يسير بهما الإنسان إلى مصيرات البركات التي وعدها اللّه لأهل اللّه.

و ترى لماذا هنا «بركات» و هناك «حسنة»؟ حيث الحسنة هي ما تلائم المشتهيات خيّرة أم شرّيرة، فهي بين بركات و دركات، بين نعمة هي رحمة و أخرى هي زحمة و نعمة، و لكن «بركات» هي خليصة الخيرات دون تبدل إلى دركات، نتيجة الإيمان و التقوى، فكل حسنة و سيئة ابتلاء، و «بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» هي قضية النجاح في الابتلاء بهما.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجازات النبوية ص 84

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 228

ذلك، فمن الخيرات ما هي بليات لمؤمن أو كافر مهما اختلفا فيه سقوطا و نجاحا، و منها ما هي من خلفيات الإيمان و التقوى، فما هي إذا ابتلاءات، ثم و من الشرور ما هي ابتلاءات بين الخيّرين و الشرّيرين، و منها ما هي عقوبات لأيّ منهما مهما اختلفا في حدودها.

فالبركات النازلة على أهل الإيمان و التقوى هي بركات في النفوس و النفائس، بركات في المشاعر و كل طيبات الحياة بأسرها، إخراجا لها عن كل أسر لها يطارد الحصر في اللّه، بركات تنمي الحياة و ترفعها إلى قممها المعنية منها، فليست مجرد وفرة ظاهرة مع شقوة و ترد و انحلال.

أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (97) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى‏ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (98).

هنا «أَهْلَ الْقُرى‏» هي الظالمة غير المؤمنة و لا التقية، فهي الكافرة الطغية، فلا أمن لهم إذ لا إيمان‏ «أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً» بالليل‏ «وَ هُمْ نائِمُونَ» أو «أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى» و ضح النهار «وَ هُمْ يَلْعَبُونَ» كالطفولة التي لا تعني صالح الحياة الإنسانية الواقعية، فإنما تنظر إلى ظاهر لها حاضر: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

و ذلك هو العذاب المباغت لمن يستحقونه، بعد ما كلّت كل المحاولات لإيقاظهم فلم يزدهم إلا فرارا.

أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (99).

لقد مكروا اللّه و مكروا المؤمنين باللّه بما مكروا فطرهم و عقولهم فما جزاءهم إلّا مكر اللّه كما مكروا جزاء وفاقا، «فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ» الذين خسروا أنفسهم بما صدوا عليها منافذ الفطر و العقول و سائر الفكر، و كأن اللّه لا يسطع على مكرهم كما مكروا، أم هم لا يستحقون مكرا رغم ما مكروا، أم و ليس هناك من إله هو يرصدهم.

أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 229

بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (100).

ألم يهد لهم آيات اللّه آفاقية و أنفسية «أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها» الهالكين، أو لم يهد لهم ذلك القصص الحق من مضاجع الغابرين المعروضة لهم في صحائف التاريخ الجغرافي.

«أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» إصابة شاملة، و لكن الدار هي دار العمل و لا حساب، و غدا حساب و لا عمل، و إنما نصيبهم بالبعض من ذنوبهم الفاحشة التي لا يتحملها المكلفون، فقد «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (30: 41).

أو لم يهد لهم أولاء الوارثين الأرض، بأية وراثة جزئية أم شاملة، سياسية أم اقتصادية أم روحية أمّاهيه‏ «أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» إصابة كاملة كما أصبنا الغابرين.

و ترى‏ «مِنْ بَعْدِ أَهْلِها» تعني بعد انقراضهم عن بكرتهم؟ و لا سابقة لذلك و لا لاحقة! فالأرض لا تعني كل المعمورة، بل هي أرض الحكم سياسيا و ما أشبه، و «مِنْ بَعْدِ أَهْلِها» قد يقصد إلى أهلها الميتين، أهلها الآهلين المغتصبين، و هذا هو الأكثرية المطلقة من وراثة الأرض.

مثلا على ذلك اغتصاب حق الإمام علي (عليه السّلام) المنصوص على خلافته في مآت من الأحاديث، و لئن يشك في غصب خلافته هذه، فغصب فدك دليل باهر لا مرد له على غضب الخلافة فأين فدك المال من خلافة الأمة!.

و هل كانت المطالبة بفدك، غير المطالبة بالخلافة للإمام علي، و هل إن اقتطاع فدك من يد فاطمة هو غير قطع المدد عن المطالبين بالخلافة، و إثبات الأولوية في غصب الخلافة من غصب فدك؟!.

و لقد كانت تعلم فاطمة تمام العلم أن المطالبة بفدك لن تعيد إليها الأرض، و لم تكن لتطلب أرضا فيها نخيل، إنها كانت تطلب بإرث آخر فيه عزة النفس- فيه أصالة الحق- فيه عنفوان الرسالة- فيه امتداد أبيها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 230

الرسول .. هذا هو الإرث الذي جاءت تنادي به في ساحة المسجد من خلال مطالبة فدك.

و سيان أ كانت المطالبة بخطاب مدروس مرتجل، أم- حتى- بخطاب لمحة التنقيح أو الإقحام، كما يطيب القول للادعاء.

فقد يكفي أن تقود فاطمة قدميها إلى باحة المسجد- أن تقف أمام الخليفة بجبة و خمار، أن ترمي إليه نظرة شزراء- أن تحرك يدا بمعصم نخيل- أن تؤمي- أن تقف لحظة ثم تنسحب كما ينسحب الظل ...

لقد شرحت في الخطاب رسالة أبيها- لا فقط لتشرح الرسالة المعروفة في أصلها لدى الحاضرين- بل لتعيّن مركزها و مركز علي من الرسالة، منددة بالخليفة أنه مغتصب ميراثها، فهل يصعب إذا أن يغتصب ميراث الخلافة المنصوصة؟.

أجل‏ «أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها ...» و هم غافلون بزهوة ميراث الأرض و زهرة الأرض عما يعنى منهم!.

و لكن الحاضر الذي لا حول عنه من العذاب: «وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» سمع القلب، فما لم يسمع القلب لا يتقلب الإنسان من الردى إلى الهدى، مهما سمع بأذنه الكثير، فإنه إذا ليس سمع القبول، فسمع الإنسان سمعان، سمع الأذن و سمع القلب، فما لم تسمع القلوب لم تتجاوز العظات الآذان، فهم من الذين‏ «لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها» سمع الإنسان، فإنما هو سمع الحيوان.

فهنا «نطبع» رفعا دون جزم يفصلها عن جزاء الشرط، فهو خلاف جزاءه في قضية «لو» و من الغريب عطفه على جزاء الشرط تلحيقا لحكمه به مع اختلاف الصيغة و الصبغة!.

إذا «نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ» محتوم و «أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» مختوم إلّا ما شاء اللّه، ثم الطبع و الختم و الرين و الكنان و الغشاوة و الصد و المنع هي بمعنى في هذه الدركات السبع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 231

ثم‏ «لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها» تختص بالوارثين المذنبين، و «الأرض» هنا هي مطلق الأرض لا الأرض المطلقة، فقد تعني أي أرض انقرض أهلوها و ورثها آخرون مذنبون.

تِلْكَ الْقُرى‏ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ (101).

«تلك القرى» الرسالية المكلفة برسالات اللّه، على مدار الزمن الرسالي «نقص عليك» قصا تاريخيا بعضا «من أنباءها» أمام الدعوات الرسالية «وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ» رسولية و رسالية، و لكن‏ «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا ...».

فهنا سلسلة موصولة من الرسل و الرسالات بكل البسالات و الحصالات، و تقابلها سلسلة من التكذيبات.

و هناك ثالوث من غائلاتهم إذ «ما كانوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ» و ذلك: 1 تكذيب من قبل، 2 فطبع على قلوبهم ثم 3 «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا» من بعد، لمكان ذلك الطبع بالطبع امتناعا بالاختيار.

فترى أن «من قبل» هنا تعني قبل ولادهم في الذر؟ و لا يعني الذر في آيته عالما قبل الولاد، فيه واقع التساءل بين اللّه و بينهم، إذ لا يذكره أحد حتى من كمّل المؤمنين، فكيف يحتج عليهم ب «بلى» فيه، على‏ «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ ..»! و لا دور للإحتجاج بما هو منسي طليق لن يذكر.

ثم لم يكن في الذر منهم و من كل الناس- أيا كان و كانوا- إلّا «بلى» و هنا «بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ»!.

فحتى و لو كان منهم «لا» فلا يستحقون بمجرده أن يطبع على قلوبهم إلّا إذا أصروا في التكذيب يوم التكليف! فقد يكفر مكلف بشرعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 232

اللّه إذا لما تصله حجتها، أم وصلته و لمّا يفكر فيها، أم فكر و كذب بها عجالة دون إصرار، و لمّا يحن حين الطبع في هذه الثلاث، اللّهم إلّا إذا عاش تكذيبا بعلم و عناد ثم طال الأمد و زالت إمكانية الإيمان، فهنا دور الطبع و كما هو باهر في آياته.

و هنا «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» تنفي كينونة الإيمان منهم بما كذبوا من قبل في هذه المرحلة الأخيرة من علم و عناد، فطبع اللّه على قلوبهم بما كذبوا.

ف «ليؤمنوا» حذفا للناصبة: «أن» تعني «للإيمان» إذا فما كانوا للإيمان بما كذبوا، إذ خرجوا عن إمكانيته بما كذبوا لحد طبع اللّه على قلوبهم.

أم هو «من قبل» ابتعاث الرسل؟ و قد ابتدأت البشرية بابتعاث الرسل، إذ بزغت الرسالات بآدم (عليه السّلام)! ثم لا تكذيب قبل الرسل- لو صح التكليف قبلهم- إذ كانوا ضلالا لا على هدى و لا على ضلال التكذيب بالرسالات و لمّا تأت، لو كانت البعثات الرسالة بعد ردح من خلق المكلفين.

ثم و ليس كل تكذيب بعد بزوغ الرسالات مما يستحق الطبع على قلوب المكذبين!، إنما هو التكذيب العاند العامد المستمر الذي لا مجال فيه للاهتداء.

أم تعني «من قبل» أنهم عاشوا زمنا للرسل أو الرسالات فكانوا مكذبين بها علما و عنادا فطبع اللّه على قلوبهم، ثم استمروا في تكذيبهم بعد هذه العيشة المكذبة النكدة، «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا» لوقت ما بعد «بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» و كل ذلك كان في حضن الرسل، أو الرسالات، سواء أ كانوا في فترة من الرسل و الرسالات قائمة، كالذين عاشوا بين آدم و إدريس، و بين إدريس و نوح، أم و بين المسيح و محمد (عليهما السّلام)- كأطول فترة-: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى‏ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (36: 6) «لِتُنْذِرَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 233

قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» (28: 46) فهم‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (2: 6) فالفترة بين الرسل، و فيها فتور لبلاغ رسالاتهم لمكان التحريف و التجديف، إن لها دورا دائرا مائرا في حصالة العناد اللدود.

أم و في غير الفترة كما بين نوح و إبراهيم و موسى و كما في آيات يونس: «ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى‏ قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ. ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ وَ هارُونَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ» (10: 74- 75).

«وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» (10: 13) و آية الأنعام:

«وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (6: 110). فالفترة بين الرسل هي من الظروف القاسية العاصية بطبيعة الحال، لحقل التكذيب بالرسل و رسالاتهم، فإذا جاء بعدها فقد يواجهون من قبل هؤلاء الالدّاء بتكذيبات و تعذيبات.

كما و ان لتكذيب الرسل في زمنهم دور قاس في ملاحقة التكذيب، علّه أقسى من دور الفترة، فالعائش زمن الرسل برسالاتهم، هو أنحس نكرانا لهم و لها مبدئيا، مهما كان العائش الفترة بين الرسل هو أنحس منه نكرانا بطبيعة الحال، و هما مشتركان في قساوة التكذيب، مهما كان البعض أقسى من الآخر لملابسات أخرى، أم لنفس الدور رسوليا و فترة بين الرسل.

وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (102).

ذلك العهد هو عهد الفطرة كأول عهد، و من ثم عهد العقلية الإنسانية و الشرعة الربانية حيث يتلوانه، و «أكثرهم» هنا لا تعني أكثر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 234

المكذبين حيث التكذيب و لا سيما ذلك الصلب الصلت هو بنفسه ترك لمثلث العهود، فقد تعني «أكثرهم» أكثر المكلفين، و «إن» هنا مخففة عن «إنّ» فقد وجدنا أكثرهم لفاسقين، خروجا عن عهد الفطرة و عهد الشرعة، فالخارج عن عهد الفطرة قبل إتيان الرسل هو خارج عن عهد الشرعة بعد إتيانهم بطبيعة الحال.

ثم و «أكثرهم» قد تعني كافة الناس في مثلث الزمان في وجدان علمي رباني، و عدم وجدانه تعالى لشي‏ء هو عدم وجود ذلك الشي‏ء، و لا تعني سلبية العهد أصله، فإنهم يعيشون مثلث العهد، و إنما هو استمرارية ذلك العهد تطبيقا له.

ثم‏ «إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ» دون «كافرين» لكي يشمل كل تخلفة عن العهد إلحادا أو إشراكا أو كفرا كتابيا، أم فسقا في كل دركاته.

و قد تعني «من عهد» استئصال العهد لأكثرهم عن بكرته، مهما كان عهدا معرفيا، أو عقيديا، فضلا عن العملي.

فقد تعني- إذا- أكثرهم، أكثر المكذبين بآيات اللّه، فالعهد بين حالات ثلاث، 1 مستغرقة إيجابيا كما للرعيل الأعلى من المعصومين (عليهم السّلام)، 2 و مستغرقة سلبيا كما لأسفل سافلين من المكذبين، 3 و عوانا بينهما تطبيقا لعهد و تركا لآخر، فقد يوجد مكذبون لمّا تستأصل عهودهم عن بكرتها فهم قد يؤمنون أم- و لأقل تقدير- يتركون التكذيب، ثم الأكثرية منهم يعيشون ترك عهودهم حتى الموت‏ «وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ».

ففي مثلث العهود بدرجاتها، يسبّع الناس بدرجاتهم، فمن واجد عهد الفطرة دون العقل، أم واجد عهد العقل ناس عهد الفطرة، أم واجد عهد الشرعة دون عهد الفطرة و العقل، أم واجد لها كلها، أم واجد لاثنين منها، فالواجد لها كلها هو القائم بها مهما كان درجات، و الواجد لواحد منها هو أضعف الواجدين، ثم الواجد لاثنين منها هو عوان بينهما، كمن وجد عهد الفطرة و العقل، أو العقل و الشرعة، أو الفطرة و الشرعة، ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 235

التارك لها كلها هو المصداق الصادق ل «ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ».

ذلك، و لا يخلو أحد من عهد الفطرة مهما كان خلوا من العقل، كما لا يخلو أحد من المكلفين من عهد الشرعة مهما كان زمن الفترة.

فالصراط الوحيد إلى اللّه هو مثلث العهد فطريا و عقليا و شرعيا، فإن وسيط العقل بين الفطرة و الشرعة هو صالح العقل و الفطرة و الشرعة.

كما أن الوهيد الوهيد هو ترك ذلك المثلث بأسره ف «لم نجد له عهدا» حيث لا منفذ- إذا- له إلى الهدى.

و من ثم نجد راحلة- مهما كانت مائلة ماحلة- في العوان بينهما، فالواجد لبعض منها التارك لبعض قد ينجو و ينجح بما هو واجده، فالفطرة تدعوا إلى العقلية الصالحة و صالح الشرعة، كما الشرعة تدعوا إلى الفطرة و العقلية الصالحة، و العقل الصالح يدعو إلى الفطرة و الشرعة.

ذلك، و الفسق عن الفطرة يخلّف الفسق عن العقلية، كما الفسق عن العقلية يفسق عن الشرعة، و هكذا الفسق عن الشرعة يفسق عن الآخرين، و كوجه عام و ضابطة، يخلف الفسق عن كلّ من هذه الثلاث فسقا عن الآخرين.

كما و أن صفاوة كلّ و حفاوته تؤثر في الآخرين، فهي تتجاوب- دوما- سلبيا و إيجابيا في تعامل دائب.

لذلك نرى آية الفطرة تتبناها كأصل للدين، و آيات العقل تجعله كوسيط بين الأنفس و الآفاق، و الشرعة الربانية تتبنى الفطرة كأصل و العقل وسيطا بين الأصلين.

ذلك، ف «من عهد» المستأصلة كل عهد، لا تناسب إلّا المكذبين بآيات اللّه طول التاريخ، فإن أكثرهم ليس لهم عهد، و لأقلهم عهد هو لأقل تقدير عهد الفطرة أو العقلية الإنسانية، فقد يرجى اهتداءهم يوما ما إلى الحق.

فلا تعني «أكثرهم» كل المكلفين، و لا المكذبين المطبوع على قلوبهم، حيث الأكثرية من المكلفين قاصرون أم مقصرون دون تكذيب على علم و عهد، أم و مهما كان عن علم و عمد فليس يطبع على قلوب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 236

أكثرهم، بل هم القلة العنيدة العتيدة في التكذيب.

و لا المطبوع على قلوبهم لأنهم كلهم ليس لهم أي عهد، إنما هم مجموعة المكذبين، فإن أكثرهم ليس لهم «من عهد».

فسلبية العهد المستغرقة كل عهد تجعلهم كأن لا عهد لهم من أصله، بل هم أدنى ممن لم يخلق له عهد إذ يعارضون كل أحكام الفطرة و العقل و الشرعة.

ثم‏ «إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ» المختوم على قلوبهم «لفاسقين» متخلفين عن هذه العهود الثلاثة إلى أضدادها، ف «إن وجدنا ..» هي كتفسير ل «ما وجدنا» تثبيتا لأصل العهود الثلاثة لهم، و لكنهم عنها فاسقون متخلفون، و لم يقل «كافرون» لأن كل المكذبين بآيات اللّه كافرون و إنما «لفاسقون» عناية إلى خروجهم عن هذه العهود.

ذلك، و كما أن الشيطنات سبع دركات، كذلك الرحمات سبع درجات، و كما الشيطان الأكبر هو الجامع لثالوث: الشيطان- البقر- النمر، كذلك الإنسان الأكبر هو الذي يجمع بين هذه العهود الثلاثة، تاركا لثالوث الشيطنات.

ذلك، و من الآيات المحلقة على كل العهود: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (36: 60) «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ» (2: 40) «وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» (48: 10).

و من الخاصة بعهد الفطرة آيتا الذر و الفطرة، و من عهد الشرعة الأصيلة: «وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (2: 125) «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (20: 115).

و من عهدنا فرعيا ما نعاهد ربنا أو يعاهد بعضنا بعضا: «وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ» (16: 91) «وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا» (2: 177).

[سورة الأعراف (7): الآيات 104 الى 144]

وَ قالَ مُوسى‏ يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلى‏ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (105) قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (110) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112) وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (113)

قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قالُوا يا مُوسى‏ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118)

فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (119) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسى‏ وَ هارُونَ (122) قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123)

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قالُوا إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125) وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126) وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى‏ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (127) قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)

قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131) وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133)

وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى‏ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (136) وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى‏ عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ (137) وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى‏ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى‏ أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138)

إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (139) قالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (140) وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141) وَ واعَدْنا مُوسى‏ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قالَ مُوسى‏ لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) وَ لَمَّا جاءَ مُوسى‏ لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسى‏ صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

قالَ يا مُوسى‏ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 241

هنا درس فصل عن قصة موسى مع فرعون و ملئه بين مواجهتهم إياه بنكران ربوبية اللّه، و إغراقهم أجمعين إلا من آمن منهم باللّه، و هي قصة واسعة الأطراف لا مثيل لها بين قصص المرسلين اللّهم إلا خاتم النبيين (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فإنهما متماثلان في كثير من الميّزات الرسولية و الرسالية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 242

يذكر «موسى» (136) مرة في (34) سورة و أكثرها ذكرا له و أعرفها «الأعراف» فانه فيها يذكر (21) مرة مما يدل على أن ذكراه فيها أكثر من غيرها.

و يذكر فرعون (74) مرة في (27) سورة، أكثرها ذكرا له «الأعراف و ص» و على الجملة نرى قصة موسى و فرعون أكثر القصص ذكرا و شرحا في الذكر الحكيم، اللهم إلّا رسول القرآن فإنه المحور الأصيل بين الرسل و الرسالات كلها، و هنا بعد ذكرى رسالات منذ نوح حتى شعيب يأتي تفصيل القول حول موسى (عليه السّلام) و حالاته الرسالية و حالاته مع فرعون و ملئه.

ذلك القصص نص باهر في الغرض من سياقه، فالقصة قاطعة إلى مشاهد حية تموج بالحركة و الحوار، زاخرة بالانفعالات و السمات، و تتخللها توجيهات إلى مواضع العبرة الواعظة الباهضة، كاشفة عن طبيعة الحال للمعركة المتناحرة بين الحق و الباطل، منذ تشرّد موسى من بأس الطاغية خائفا يترقب، حتى غرق الطاغية، و إلى مستمر رسالته بواجهات أخرى.

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ بِآياتِنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103).

هنا «بعثنا» متكلما مع الغير يعني جمعية رسالية اجتمعت في شخص موسى الرسول و كأنه بنفسه رسل، و هو حقا رسل إذ جاء برسالة مفصلة منقطعة النظير بين الرسل كلهم إلّا هذا البشير النذير.

ثم «بآياتنا» و هي الآيات الرسولية و الرسالية جمعا مستغرقا للآيات الربانية، قد تعني الجمع بين كافة الآيات المبصرة المبصرة، فهي كلها بصرية مشهودة للأبصار، و لكن الآية الرسولية و الرسالية المحمدية و هي القرآن و هي رسول القرآن، إنها آية مستمرة خالدة مع الزمن، متناسبة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 243

تلكم الآيات العابرة الغابرة، متناسبة خلود الشرعة الأخيرة إلى يوم الدين فانها آية البصيرة على مدار الزمن، لا بديل عنها و لا تبديل لها، بل هي تجري جري الشمس في مشارق الأرض و مغاربها.

أم تعني جمعا من الآيات التي تناسب الرسالة الموسوية لأنها بمفردها جمعية رسالية، فلا تعني طليق الاستغراق.

و الرسالة الموسوية عالمية لا تختص بجمع دون آخرين كما كان نوح و إبراهيم و عيسى و محمد خاتم النبيين صلوات اللّه عليهم أجمعين، و لا تعني‏ «إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ» هنا إلا المحطّ الأول لرسالته السامية سلبا للفرعنة الطاغية، ثم المحط الإيجابي الأول هم بنو إسرائيل كما في آيات، ك «وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ» (17:) 2)، ثم الثاني و الأخير هم كل العالمين كما في أخرى: «قالَ يا مُوسى‏ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي» (7: 144)- «وَ قالَ مُوسى‏ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» (14:) 8)- «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ» (21:) 48) إذا فليس «إلى مصر وحدها»! «1».

ذلك، و لأن أنحس المستكبرين الطغاة في زمنه هم فرعون و ملأه و أتعس المستضعفين هم بنو إسرائيل، لذلك نراهما في مطلع الدعوة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 54 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر (عليه السّلام) في حديث طويل يقول فيه: تم ان اللّه تبارك و تعالى أرسل الأسباط اثنى عشر بعد يوسف ثم موسى و هارون إلى فرعون و ملإه إلى مصر وحدها.

أقول: هذا خلاف أممية الرسالة الموسوية إلّا أن يأوّل إلى المحور الأول لرسالته و منطلقها كما تفسير الآيات القائلة أن محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بعث إلى هؤلاء القوم اللد «وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 244

الموسوية سلبا لأنحس طغيان و إنجاء لأضعف المستضعفين في ذلك الزمان، و من ثم تتخطى هذه السلبية و الإيجابية إلى كافة المستكبرين و المستضعفين في العالمين بالشرعة التوراتية حتى الإنجيل، و منها حتى القرآن العظيم.

ذلك و قد «ظلموا بها» حيث أنكروها و كذبوا بها شر تكذيب‏ «فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» حيث التكذيب بآيات اللّه هو رأس الزاوية في هندسة الإفساد في الأرض.

وَ قالَ مُوسى‏ يا فِرْعَوْنُ. إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (104).

هنا «يا فرعون» دون ألقاب هي إلغاب زور و غرور لكل سلطان غرور ك «يا مولاي» و ما أشبه و إنما باسمه «فرعون» في أدب و اعتزار ليقرر له حقيقة أمره أنه فقط «فرعون» أمام «رب العالمين» و هو منهم خلاف زعمه: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» فهكذا يخاطب الرب الأعلى! ليعرف موقفه في بداية الحوار قائلا: «إني» متأكدا دون أية ريبة «رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» دون «اللّه» أو «الرب» أو «ربي» حتى لا يخيل إليه و إلى ملإه أنه يعنيه فيكذبه و يكذبونه إذ لم يرسله فرعون، ثم و كيف يخبره و إياهم بما أرسله هو؟!.

حَقِيقٌ عَلى‏ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (105).

و لأني رسول رب العالمين، إذا «حَقِيقٌ عَلى‏ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» قضية صادق الرسالة الربانية، و رسالة اللّه هذه و قول الحق على اللّه ليست دعوى فاضية، بل هي فائضة «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ»: آية بينة ربانية لا حول عنها و لا محيد، فاللّه من وراءها شهيد، «فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ»- «وَ لا تُعَذِّبْهُمْ» (20: 47) فقد يعني بذلك الإرسال إرسالهم عن أسرهم بأسرهم في إصرهم و الأغلال التي كانت عليهم، إذ كانوا لهم عبيدا إمعات لا يقدرون على شي‏ء مما كسبوا لأنفسهم إلّا ما يهواه فرعون و ملأه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 245

و لماذا هنا «أَقُولَ عَلَى اللَّهِ» دون «أقول عن الله»؟ «على» هنا تعني العهدة، و قول الرسول رسالة دون أصالة ليس إلّا على عهدة اللّه و بعهد اللّه، كما و «على» في‏ «حَقِيقٌ عَلى‏» هي للحيطة و التحليق ف «على» هو الحقيق دون «عن» حسب متواتر النص على مدار الزمن القرآني السامي.

و «حقيق» هنا حق ثابت لا حول عنه إذ لا يحق لرسول أن يقول على اللّه إلّا الحق‏ «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ. لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» (69: 47).

ذلك و كما في الأصل العبراني من التوراة.

ذلك، و الرسالة الربانية إلى أمثال فرعون و ملإه تعني- أول ما تعني- إبطال كل شرعة مدّعاة لكل طاغوت يحكم محادّا لشرعة اللّه، تبعيدا لهم عن تعبيد الناس إلى عبودية اللّه.

و إعلان الربوبية الوحيدة غير الوهيدة للّه وحده، إنه إعلان تحرير الإنسان عن عبودية أمثاله و كل معبود من دون اللّه.

و لأن هذه الدعوة تحمل قلب نظام الحكم الفرعوني، لذلك يطالب موسى بكل مهانة و إهانة و إحالة أن يأتي بآية إن جاء بها، زاعما أنه كاذب حيث أخذته العزة بالإثم، فلا يستقبل أي دعوى تناحر فرعنته و طغيانه، إلّا بكل فرعنة و رعونة:

قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106).

«قال» فرعون: «إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ» في رسالتك المدّعاة المدعاة «فأت بها» أمامنا «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» و هنا «كنت» قبل «جئت» تعني إحالة هذه الكينونة بعمقها، ثم‏ «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» تهديد عتيد إن لم يأت بها فهو- إذا- من الكاذبين.

فَأَلْقى‏ عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (107) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 246

«فَأَلْقى‏ عَصاهُ» عجالة دون إجالة، عساه يهتدي بإجالة النظر في هذه الآية «فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ» كونه ثعبانا حقيقيا دون أن يسحر أعين الناس فيروا العصا ثعبانا، و من كونه مبينا أنه هدّد فرعون بصرحه لحد لمس العذاب حينه ففلّ منه خائفا ذعرا «1».

و لا تعارض بين قلب العصا هنا ثعبانا مبينا، و قلبها «حَيَّةٌ تَسْعى‏» (20: 20) حيث‏ «رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ» (38:) 31) لاختلاف الموقفين، فالحالة الثانية هي ليلة الطور لما رأى من جانب الطور نارا، و الأولى هي عند فرعون.

ثم و الطنطنة الغوغاء في قولة استحالة المعجزات يحلّها تقدّم العلم أن العناصر متشابهة في الجزئيات و الذرات، و إنما الاختلاف في فواصل و عديد الذرات، فلخالق الذرات أن يبدل فواصلها و عديدها قفزة طرفة عين، و ذلك سر الإعجاز أن ذلك التفاعل الذي يحتاج في تبدل عنصر إلى آخر إلى آلافات من السنين، يحصل بالقدرة غير المحدودة الربانية في طرفة عين.

ثم زود آيته تلك بأخرى، متصلة به بعد الأولى المنفصلة عنه، إتماما للحجة و إنارة للمحجة، كيلا يقال إن ثعبان العصى ليس من إلقاءه، بل هو صدفة عمياء، و أما يده فلا يظل عليها من ظلال ذلك الضلال: «وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى‏ جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى‏» (20: 22)- «اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» (28: 32).

و هنا في ظلال هاتين الآيتين خرس فرعون متخوفا ذاعرا ما يدري من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 54 في تفسير العياشي عن عاصم بن المصري رفعه- و ذكر قصة مواجهة موسى فرعون إلى أن قال:- فألقى عصاه و كان له شفتان فإذا هي حية و قد وقع إحدى الشفتين في الأرض و الشفة الأخرى في أعلى القبة، قال فنظر فرعون في جوفها و هي تلتهب نيرانا قال: و أهوت إليه فأحدث و صاح: يا موسى خذها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 247

أين إلى أين، و لذلك يتكلم ملأه تثبيتا له و تشجيعا إياه و كما تفعله الهوامش الملكية بالملوك:

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (110).

هنا العصب الحساس يبرز بكل كيد و ميد مضلّلا من مضلّلي الملإ، يخاطبون أنفسهم و آخرين، بمن يرأسهم و هو فرعون، ابتداء بتزييف موقف موسى من آيته الكبرى: «إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ» ثم و ما عليه في سحره إذا كان في خدمة فرعون، و لكنه‏ «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» إخراجا من السلطة الفرعونية ملكا و ملكا فيجعلكم لا شي‏ء بعد أن كنتم كل شي‏ء.

فلو كان ما جاء به آية ربانية صادقة ما كان خطرا ذلك الخطر، أم لو كان يريد أن يخرجكم من أرضكم دون آية و لا سحر فكذلك الأمر، و لكنه جامع بين الأمرين الأمرّين، فإنه بسحره يريد قلب النظام و هذا ما لا يقبله أي مواطن فضلا عن الملك و أصحاب السمو الملكي، «فَما ذا تَأْمُرُونَ» نا، نحن الذين نعرف صالح أمر الحكم من طالحه.

هنا- بعد ما حصل فرعون على هذا الرأي- «قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى‏. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ» (20: 58) فقد تشاوروا أولا: «فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى‏ قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى‏» (20: 63) ثم عرضوا عليه حصالة هذا الرأي ثم‏ «قالَ أَ جِئْتَنا ..».

و هكذا أدرك فرعون و ملأه خطوة هذه الدعوة التوحيدية و كما يدركها كافة الطواغيت المحادّين المشاقين اللّه، و كما قيل لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حين أخذ يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه: «هذا أمر تكرهه الملوك»! و «إذن تحاربك العرب و العجم» حيث القائل عرف معنى لغة التوحيد أنها ثورة على الحاكمين بغير شرعة اللّه، الطاغين على عباد اللّه، فإن لتلك الشهادة الحقة جدّيتها و فاعليتها، و طبيعة الحال قاضية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 248

ألّا ملائمة بين‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» و ألوهة غير اللّه من آلهة الأرض و السماء.

فلذلك ينبري الملأ من قوم فرعون، الأخصائيون في تدبير أمور الملك قائلين‏ «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ» إخراجا لكم عن كيانكم و عرضكم، و قد حسم الموقف عجالة أنهم:

قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (112).

.. «وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ» (26:) 37) فالقصد من «ساحر» هنا هو «سحار» و يلمح له «عليم» و هنا يشير عليه ملأه المتأمرون، بإمهالهما حتى حين‏ «وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ» المصرية «حاشرين»: جامعين‏ «يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ» دون مجاهيلهم أو سقاطهم.

و هنا «أرجه» أمهله، دون «أقتل- أو- أسجن» مما يدل على أن الطاغية كان أعدل من هؤلاء الطغاة الذي لا يمهلون مناوئيهم، حكما بالإعدام أو السجن دون امهال لمناورة!.

و يروى أن عديد هؤلاء السحرة بين سبعين شخصا إلى ثمانين ألف و بينهما متوسطات‏ «1»، و لقد كانت أرض مصر تموج بالكهنة الساحرين في شتى المعابد الكهنوتية، يديرون أمورهم، و يدبرون، بكل سحر و مكيدة، إذ ما كانوا يملكون حقائق الأمر الذي به يحكمون.

و هكذا يقترن السحر و الكهانة و سدانة الآلهة في كافة الوثنيات على مدار تاريخها، و فرعون هذا بما يحمل من كل فرعنة و طغيان، لقد كان في إرجاءه موسى و أخاه أقل طغيانا من الطواغيت المتحضرة في القرن العشرين في مواجهة الدعاة إلى رب العالمين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي تسعمائة- اثني عشر ألفا- خمسة عشر ألفا- سبعة عشر ألفا- تسعة عشر ألفا- ثلاثون ألفا- و سبعون ألفا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 249

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (113) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114).

لقد استغلوا فرصة فريصة لهم فريسة، حيث يحتاجهم فرعون في هذه الغائلة المجتاحة لعرشه و ملكه، فتطلبوا إليه أجرا متميزا عن سائر الأجر في الحالات العادية، فوعدهم ذلك الأجر و زيادة «إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» إلى البلاط الملكي أكثر مما كنتم من ذي قبل.

و هم على أية حال عملاء محترفون، يحترفون السحر كما الكهانة على سواء، و الأجر هو هدف الاحتراف سواء في هذا أم في ذلك، و هنا يعدهم الطاغية أجرا أكثر من المأمول المعمول هو القربى منه زيادة في الإغراء، و هم كلهم جاهلون ذلك الموقف أنه موقف الآية الربانية التي لا يعالجها أي أجر و تقريب و إغراء.

و هنا «إِنَّ لَنا لَأَجْراً» إخبارا دون إنشاء الاستدعاء، مما يلمح بموقفهم المستعلي على فرعون لفاقته إليهم، فقد فرضوا عليه في صيغة الإخبار الذي هو آكد من الإنشاء.

إذا فهو إنشاء في صيغة الإخبار و كما الإنشاء في الشعراء: «أئن لنا لأجرا ..» (41)، أم و هو إنشاء حذفت أداته تلميحا لأكيد الإنشاء إذ هو بصيغة الإخبار.

قالُوا يا مُوسى‏ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (115) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116).

هنا يخيّر موسى بين تقدّمه في إلقائه و تأخره كتحد جاهر في ذلك التخيير التحيير، على تأدب ظاهر، و هو يرجح تأخره عنهم لكي يأتوا بكل ما لديهم ثم يجتثه بأسره حيث يثق بنفسه كل الثقة مستهينا بتحديهم، كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 250

هم كانوا واثقين لا يفرقون بين إلقاءهم أولا و إلقاءه، و لو أنه تقدم، ما كان هناك ظرف لما تقدمه أن يلقف ما يأفكون، و هذه تكتيكة لصالح الحوار أن يتطلب صاحب الحق أن يتقدم محاورة بما عنده على البساط حتى يسهل له القضاء عليه، تهديما بكل صرحه، و فصما لكل طرحه، و حسما له عن بكرته، فلذلك استهان بتحدّيهم بكلمة واحدة تبدو فيها قلة مبالاته بهم:

«قالَ أَلْقُوا» ما عندكم من السحر «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ» دون عقولهم و قلوبهم العارفة أنها صورة دون حقيقة و سيرة «وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ» طلبا لرهبتهم و هم لا يرهبون إلّا ظاهريا «وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ» ما أعظمه بين مختلف ألوان السحر لحد «قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ» (26:) 44) فما يصنع ساحر واحد مهما كان عظيما أمام سحر هؤلاء العظماء من سحرة البلاد.؟!

فأهم فاعليات السحر أن يسحر أعين الناس و يسترهبهم في المعاينة دون أي واقع وراء سحر الأعين، و ذلك من الفوارق العظيمة بين السحر و الآية الربانية، و لو استطاع ساحر أن يقلب واقعا إلى آخر بسحرة لكانت السحرة المهرة الفرعونية تقلب التراب ذهبا دون طلب لأجر من فرعون، أم و يقلبوا سلطان فرعون إلى سلطانهم فيتركوا عبوديته إلى حريتهم أنفسهم، و قد أتينا بقول فصل حول الفوارق بين السحر و الآية المعجزة في البقرة فراجع.

وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117).

«ألق عصاك» إلغاء لما ألقوا من حبالهم و عصيهم التي سحرت أعين الناس‏ «فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ»: أكلا سريعا حاذقا خارقا «ما يأفكون» دونما رجع أو رجيع، مما يؤكد أنها آية ربانية رسولية بعيدة عن حقل السحر، حيث السحر يخيّل- فقط- للأبصار، و الآية يحقق الحق للبصائر.

ذلك، و حين تتغلب عصى موسى- و هي أدنى من آية القرآن بكثير- على ذلك السحر العظيم- و هو أعظم من أي سحر على الإطلاق- أ فلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 251

يتغلب القرآن على أي سحر؟

أجل و كما يروى أن قراءة مائة آية من أيّ القرآن شئت تبطل أي سحر كان و أيان!.

و لقد كانت هذه جيئة فجيعة و مفاجئة مذهلة غير منتظرة للسحرة، مما قلبهم ظهر بطن فما ملكوا أنفسهم إلا أن ألقوا ساجدين:

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (19).

أجل، و ان الباطل يتنفس قليلا ثم يتنفش، و يسحر- فقط- العيون، و هو سحر عظيم، يتنفش كالقنفذ و ينطفئ كشعلة الهشيم تذروه الرياح و كان اللّه على كل شي‏ء مقتدرا.

أجل‏ «فَوَقَعَ الْحَقُّ» موقعة الباهر في ذلك المسرح العظيم أمام سحر عظيم‏ «وَ بَطَلَ ما كانُوا» هم أولاء الفرعونيون «يعملون» و يأملون انكماشا بعد الزهو الذي سحر المليّون و بهر أصحاب العيون‏ «فَغُلِبُوا هُنالِكَ» أمام الجماهير المحشورة المحتشدة «وَ انْقَلَبُوا» إلى فرعون و عن حالتهم تلك الطاغية الباغية «صاغرين»: ذليلين، فأصبحوا صفر الكيان أمام هذه الآية الربانية العظيمة، بكل صغار و هزيمة، و قد حسم الموقف هنا:

وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (120) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسى‏ وَ هارُونَ (122).

و تراهم من الذي ألغاهم فألقاهم ساجدين لرب العالمين حيث النص «ألقي» مجهولا دون «ألقوا أنفسهم»؟.

إنه هيبة الموقف الحق الباهر إذ عرفوا أنه ليس مما ألقوه، فألغاه موسى بما ألقاه، فلم يتمالكوا أنفسهم إلّا تساقطا على الأرض سجّدا للّه، حيث الحق قد لمس عواطفهم و مس شغاف قلوبهم، هزة مفاجئة أزالت عنهم كل ركامة عاشوها من ذي قبل، فتحولوا بكل كيانهم إلى «ساجدين» و نطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكرين‏ «قالُوا آمَنَّا بِرَبِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 252

الْعالَمِينَ». و إنها صولة الحق الباهر في أعماق الضمائر و المشاعر، فالسحرة المهرة هم أعلم الناس بواقع فنّهم غير الواقع و مدى ما بالإمكان أن يبلغه من مبلغه، و هم- أيضا- أعرف الناس بالحق الذي جاء به موسى، و العالم في فنه هو أكثر الناس استعداد لتقبل الحق، و كما نرى السحرة منقلبين من التحدي السافر الطليق إلى التسليم الظاهر الطليق الحليق، ما لا يزعزعه أي تهديد بليغ حميق.

و لكي لا يخيل إلى الطاغية أنهم يعنونه بما قال: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» واصفوه ب «رَبِّ مُوسى‏ وَ هارُونَ» و هنا ينبري فرعون الطاغية بتهديد شديد على السحرة الساجدين:

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124).

«قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ» (26: 59).

ويكأن الإيمان أيضا كسائر الأمور بحاجة إلى إذن؟ و هو أمر قلبي! فلأن ذلك البليد الطاغي هو الرب الأعلى بزعمه فلتكن أزمة القلوب طرا بيده كما بيده سائر الأزمة.

هنا «ءامنتم به» تنديدا بنفس الإيمان، و في الشعراء «آمنتم له» تنديدا بشاكلة الإيمان، أنه ليس إلّا له و لصالحه، حسب المدبّر المقرر بينكم من مكر مكرتموه في المدينة.

و هنا يهرف بما يخرف أن ثعبان العصا «لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها» تسمية للآية البينة الربانية سحرا لهدف قلب نظام الحكم، و لا يمكرون هكذا إلّا إذا كان موسى معلمهم في السحر، و متى كان معهم حتى يعلمهم السحر و هم كانوا سحرة قبل ولاده؟ و حتى لو كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 253

معهم فهو متعلم منهم لأكثر تقدير!.

و لأنه لمس منهم أنهم ليسوا ليغيروا مواقفهم بذلك التنديد أخذ في شديد التهديد: «لأقطعن ..» و هو عقوبة كانت تجري بأعصى العصاة البغاة، و لو كان إيمانهم مكرا لكانوا يتركون موسى إلى فرعون تائبين، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية إلّا هذه الآية، فلو كانت سحرا لما كانوا يظلّون معه فيذلون!.

فذلك الصمود رغم ذلك التهديد- و هم مهرة الفن- دليل قاطع لا مردّ له أنهم أثبتوا دون ريبة أن الحق مع موسى الرسول، فلا مرد لإيمانه به و له و لا تحويل، و لكن الطاغية ليس ليدرك كيف يتسرب النور إلى القلب فيقلبه من علواء السوداء إلى علياءه البيضاء، و هو يحسب القلب قالبا يتقلب بتقليبه و يتألب بتأليه، و هو بين أصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء.

فيا ويلاه لفرعون صاحب العرش الروحي! و الزمني، أن ينفلت من سلطة الكهنة السحرة الذين هم سناد الناس في التسليم لفرعنته، فما ذا يصنع إذا بالناس و لا حراس هنا بعد عليهم لصالحه و لا اكتراس لأساس.

ذلك و من دأب الفراعنة الدائب أنهم يواجهون أندادهم بالتنكيل و التعذيب بعد ما كلّ دليلهم و علّ كليلهم فهم مفضوحون، و هنا اليد السماوية تكسر اليد الأرضية حيث تنتصر في المسرح المصرع العقيدة الصالحة على كل زخرفات الحياة، احتقارا للفناء الزائل البواء إلى جوار الخلود المقيم البقاء.

قالُوا إِنَّا إِلى‏ رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (125).

«منقلبون» انقلابا محتوما مختوما عن أي انغلاب، لا يقلّبنا عن ذلك الإيمان أي عامل قاس بأي مراس و اكتراس، حيث إن صاحب الإيمان السليم لا يفزع و لا يتزعزع أو يخضع و يخنع.

وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (126).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 254

فنغمة النقمة ليست لمكر مكرناه، إنما هي‏ «أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا» فلا إيمان إلّا به، و لا ملجأ إلّا إليه‏ «رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً» يشملنا و يغطّي علينا «وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ» صلبا أم سواه.

و هنا يقف الطغيان حائرا ذعرا أمام صامد الإيمان، أمام كامل الوعي و الثقة و الاطمئنان، أمام القلوب التي خيّل إلى الطاغية أنه يملكها كما يملك الأبدان، و أنه موقف حاسم جاسم في تاريخ الإنسان يكرره القرآن بمختلف المجالات المؤاتية، فإنه يكرس انتصار الإنسان على الشيطان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟.

فلقد أفلست المادية العمياء البكماء الصماء أمام الإيمان الصامد من هؤلاء السحرة المهرة الذين كانوا يسألون فرعون أجرا على عمالتهم، حيث انقلبوا إلى مؤمنين مستعلين على الطاغية بكل جرأة و اصطبار، مستهينين بكل تهديد و وعيد، صابرين على كل ألوان التنديد و التبديد!.

و هنا يذهب التهديد هباء، و يتلاشى الوعيد سدى، و يمضي الإيمان الوضاء في طريقه الوضي‏ء دون تفلّت و لا تلفّت حيث لا يحيد و اللّه من وراءهم رقيب عتيد «1».

و ذلك درس لنا صائب أن ليس الكفر الحاضر دليلا على سوء العاقبة كما الإيمان الحاضر لا يدل على حسن العاقبة، فقد عاش سحرة فرعون كفرا «فرجعوا مؤمنين» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفاصيل أكثر حول قصة موسى و فرعون إلى سورتي طه و الشعراء.

(2)

نور الثقلين 2: 56 في الكافي عن عبد اللّه بن القاسم عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) عن أبيه عن جده (عليهما السّلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السّلام): كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو- إلى أن قال-: «و خرجت سحرة فرعون يطلبون العزة بفرعون فرجعوا مؤمنين»

و

فيه عن حفص بن غياث عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: و من ذهب يرى أن له على الآخر فضلا فهو من المستكبرين، فقلت له: إنما يرى أن له عليه فضلا بالعافية إذا رآه مرتكبا للمعاصي، فقال: هيهات هيهات فلعله أن يكون غفر ما أتى و أنت موقوف تحاسب أما تلوت قصة سحرة موسى صلوات اللّه عليه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 255

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى‏ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (127).

علّ «الملأ» هنا هم «الملأ» هناك، فاللّام- إذا- لعهد الذكر، كما اللّام في الأول للتعريف، فهم ملأ معروفون بهذه الاستمارات و الشوراءات العليا بشؤون الملك.

هنا لمّا خسروا صفقتهم تلك في إرجاء موسى لتلك المباراة الهامة، لم يجدوا بدّا من استئصال موسى و الذين معه بدعوته، و تساءلوا فرعون في شأنهم‏ «أَ تَذَرُ مُوسى‏ وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» ضد السلطة الروحية و الزمنية الفرعونية «و يذرك» و أنت الرب الأعلى «و آلهتك» و هم أربابك المنتخبون‏ «قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ» لكي يفنوا عن بكرتهم‏ «وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ» إبقاء لهن أحياء و إزالة لحيائهن، فما ذا يبقى بعد لهم؟ ثم‏ «وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ» برقابة قوية تامة طامة إياهم فلا يستطيعون حراكا و لا عراكا ضد سلطتنا.

و هذه سياسة مدروسة إبليسية لتضعيف ساعد الدين و الدّينين أن يقضى على المساعدين المناصرين للداعية، فتخمد دعوته، و تحمد دعاديته، فلا يقدر على تحريك ساكن أو إسكان متحرك.

و هذه مرحلة ثانية من مراحل القضاء الفرعوني على الدعوة الموسوية، و من ثم تصميم في الصميم، خطوة ثالثة من الخطوات الإبليسية أن يقتل الداعية: «وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى‏ وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ» (40: 26).

و ترى حين يدّعي‏ «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» فما هو موقف «آلهتك»؟ قد تعني «آلهتك» الآلهة الفروع التي ادعى أنه ربهم الأعلى فهم الأدنون، أم ان هذه الدعوى تأخرت عن هذا الموقف إلى موقف ثان و كما يلمح من آيتها: «فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى‏، فَكَذَّبَ وَ عَصى‏. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى‏. فَحَشَرَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 256

فَنادى‏. فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى‏» (79:) 20- 25).

فقول الملإ: «و آلهتك» كان في الموقف الأول بعد خسارهم في المباراة، و قوله: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» كان في حشر ثان تجديدا للبيعة و قبيل ما أخذه اللّه نكال الأولى حيث أغرقه و ملأه.

و هكذا ترفّع الطاغية الذي كان يحسبه في عداد سائر الآلهة أنه الرب الأعلى، ثم خطوة ثالثة هي توحيده في ألوهيته: «وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ..» (28: 38).

و لأنه في دعوى ربوبيته الأعلى ثم توحيده فيها يخاطب قومه، فقد يعني أعلى الربوبيات و توحيدها بين قومه فقط دون العالمين أجمعين، و قد لا ينافي ذلك أن كانت لهم آلهة غيره، حيث هو الأعلى و غيره الأدنى و الأوسط، و انه الوحيد في الربوبية العليا.

و هنا الإفساد في الأرض المدعى على موسى لا يعني إلّا الدعوة إلى توحيد الربوبية الذي يصادم ألوهة فرعون الأعلى و سواها، و ألوهة سائر الإلهة، حيث التوحيد يعني- تلقائيا- بطلان شرعية الحكم الفرعوني و قلب نظامه عن بكرته.

«لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» تناقض تماما «ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي» فليقض على كلمة التوحيد بداعيتها و الذين معه استقلالا للحكم الفرعوني فيبقى دون منازع و لا ندّ.

قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128).

طمأنة بالغة من موسى الرسول لقومه المهدّدين بتكرار العذاب المتواتر عليهم قبل أن يأتيهم، و ذلك على قواعد أربع يبنى عليها صرح الإيمان و الاطمئنان.

1 «اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ» في هذه الورطة الحالكة الهالكة 2 «و اصبروا» في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 257

اللّه على ما يصيبكم في سبيله 3 «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» و ليست لأحد سواه 4 «و العاقبة» و هي الحياة العاقبة الصالحة هنا و في الأخرى «للمتقين» دون الطاغين، و المصداق الأجلى للحياة العاقبة هو الدولة الأخيرة الموعودة لزمن القائم الموعود (ع) للمتقين، كما في آيات و روايات عدة و منها ما

يروى عن الإمام محمد بن علي الجواد (عليه السّلام) إجابة عن توبيخ هشام: أيها الناس أين تذهبون و أين يراد بكم، بنا هدى اللّه أو لكم و بنا يختم آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكا مؤجلا و ليس بعد ملكنا ملك لأنا أهل العاقبة يقول اللّه عزّ و جلّ:

«وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» .. «1».

فالاستعانة باللّه في الهزاهز، و الصبر على المكروه و ترك اللذائذ، هما مما يورثان أصحابها أرض اللّه و حسن العاقبة في الحياة، و لكن قوم موسى لم يكونوا بأقل شراسة و نحوسة من قوم فرعون حيث كانوا يواجهونه بكل تأليب و تأنيب:

قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 57 في أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك و صار ببابه قال لأصحابه و من كان بحضرته من بني أمية: إذا رأيتموني قد وبخت محمد بن علي (عليهما السّلام) ثم رأيتموني قد سكت فليقبل عليه كلّ رجل منكم فليوبخه، ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر (عليه السّلام) قال بيده: السّلام عليكم فعمهم جميعا بالسلام ثم جلس فازداد هشام عليه حنقا بتركه السّلام عليه بالخلافة و جلوسه بغير إذن فأقبل يوبخه و يقول فيما يقول له:

يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصى المسلمين و دعى إلى نفسه و زعم أنه الإمام سفها و قلة علم و وبخه بما أراد أن يوبخه فلما سكت أقبل عليه القول رجل بعد رجل يوبخه حتى انقضى آخرهم فلما سكت القوم نهض (عليه السّلام) قائما ثم قال:

أيها الناس ... فأمر به إلى الحبس ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 258

فجئتك فجيعة كما قبل جيئتك، فهما سواء لنا فما هي عائدتك و فائدتك حتى نطمئن بها و نؤمن لك؟ «قال» لا تستعجلوا ناظرين إلى عجالة الأمر، مع أنها تتبنى إجالتكم حيث تغلبنا على فرعون في المباراة و ذلك حاضرة جيئتي، و أما مستقبلها «عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ» على طوله و حوله و قوته و ضعفكم ثم‏ «وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ» بديله‏ «فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» بعد ما يعلم كيف تعملون.

ذلك‏ «وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ» (3: 140) و «الدهر يومان يوم لك و يوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر و إذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر».

هذا، و لقد بدأوا موسى الرسول (عليه السّلام) بهذه القولة اللّاذعة و هو يطمئنهم و يأمرهم و يرجّيهم برحمة من اللّه، و لكن لا حياة لمن تنادي، فإسرائيل هي إسرائيل صلته صلته وقحة!.

و هنا بعد ما يعدهم موسى باستخلاف الأرض ينبههم أنه ابتلاء من اللّه دون فوضى جزاف، و ادعاء أنهم أبناء اللّه و أحباءه!.

و ترى «تعملون» تختص بعمل الجوارح؟ إنه حين يقرن بقال أو حال، يعني عمل الجوارح، و هو الطليق عما سواه يعم مثلث الأعمال قالا و حالا و أعمالا.

و

قد روي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في الإجابة عن سؤال: أخبرني أي الأعمال أفضل عند اللّه؟ قال: ما لا يقبل اللّه شيئا إلا به؟

قيل: و ما هو؟ قال: الإيمان باللّه الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة، و أشرفها منزلة، و أسناها حظا- قيل: ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو و عمل، أم قول بلا عمل؟

فقال: الإيمان عمل كله، و القول بعض ذلك العمل بفرض من اللّه بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد له به الكتاب و يدعوه إليه- قيل: صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه؟ قال: الإيمان حالات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 259

و درجات و طبقات و منازل، فمنه التام المنتهي تمامه، و منه الناقص البيّن نقصانه، و منه الراجح الزائد رجحانه- قيل: إن الإيمان ليتم و ينقص و يزيد؟ قال: نعم، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأن اللّه تبارك و تعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم و قسمه عليها و فرقه فيها، فليس من جارحه جارحة إلا و قد وكّلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها: فمنها قلبه الذي به يعقل و يفقه و يفهم، و هو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح و لا تصدر إلا عن رأيه و أمره، و منها عيناه اللتان يبصر بهما، و أذناه اللتان يسمع بهما، و يداه اللتان يبطش بهما، و رجلاه اللتان يمشي بهما، و فرجه الذي الباه من قبله، و لسانه الذي ينطق به، و رأسه الذي فيه وجهه- فليس من هذه جارحة إلا و قد وكّلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها، بفرض من اللّه تبارك اسمه، ينطق به الكتاب لها، و يشهد به عليها- ففرض على القلب غير ما فرض على السمع، و فرض على السمع غير ما فرض على العينين، و فرض على العينين غير ما فرض على اللسان، و فرض على اللسان غير ما فرض على اليدين، و فرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين، ... فأما فرض القلب ... «1».

وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130).

هذه الآية و الخمس الآتية هي آيات ست لفرعون و ملإه، ثم و آيات تسع لبني إسرائيل و كما قال اللّه: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى‏ تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ ..»

(17: 101) و الجمع بينها و بين هذه الست بيناه على ضوء الآية في الأسرى‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الكافي 2: 33- 37 و فيه تفاصيل وظائف الجوانج و الجوارح.

(2) ج 15: 361- 363 فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 260

ذلك من مشارف إهلاكهم كما وعد اللّه‏ «عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ» و «السنين» جمع السنة و لكنها هنا سنة الجدب فإنها هي من أخذة العذاب، دون أصل السنة الشامل لكل الكائنات، ثم و هي الجدب المتراوح سنة دون سنة كسنين يوسف، و كما

يروي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف».

و سني الجدب و القحط في أرض مخصبة معطاء كمصر تبدو ظاهرة قاهرة تلفت الإنظار، أنها الإنذار الداعي لليقظة بعد النومة و النبهة بعد الغفلة، فلو أن فرعون هو الرب الأعلى فكيف عجز عن استمرارية الجدب الذي هو قضية طبيعة الأرض المصرية؟.

ثم‏ «وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ» و علّها تجمع إلى ثمرات الزروع و الأشجار و سائر الثمار التجارية و الصناعية، ثمرات الأولاد، عكسية ماثلة بين أيديهم بما قتلوا أبناء بني إسرائيل و استحيوا نساءهم جزاء وفاقا، فأين إذا «مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» (43: 51) و قد كان يعرضها بمعرض الناس دليلا على رجاحته على موسى‏ «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ. وَ لا يَكادُ يُبِينُ» (43: 52).

هنا عجالة يأخذهم بالسنين و نقص من الثمرات دون أن يستأصلهم بأسرهم، إجالة للنظر في سنن اللّه بوعده و وعيده، و لكنهم لغلظ حسهم و انقلاب فطرتهم و عقليتهم لم يكونوا لينتبهوا إلى العلاقة الوطيدة بين كفرهم و طغيانهم و بين أخذهم بالسنين و نقص من الثمرات في مصر التي كانت و لا تزال تفيض بالخصب و العطاء، إلّا ما كان زمن يوسف تذكيرا للسلطة الجبارة، و فسحا لمجال الدعوة الربانية ليوسف.

ذلك، بل هم زادوا غباوة و طغيانا على ضوء السنين و نقص من الثمرات:

فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (131).

فمن «الحسنة» سنة الإخصاب و تمام الثمرة، كما من «السيئة»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 261

سنة الجدب و نقص من الثمرات، فعند مجي‏ء الحسنة «قالُوا لَنا هذِهِ» حسنة مستحقة بكل جدارة و لباقة، ثم عند مجي‏ء السيئة «يَطَّيَّرُوا بِمُوسى‏ وَ مَنْ مَعَهُ» أنه هو سبب السيئة «ألا» أيها النابهون‏ «إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» يجازيهم به سيئة بسيئة، و هكذا كانوا يعلّلون مختلف الأحداث «حسنة و سيئة» تعليلا عليلا كليلا خلوا عن الواقعية عقلية و علمية و عقيدية و طبيعية، فما هي القاعدة التي تحكم بأن الحسنات في الحياة هي مستحقة للجبارين الطالحين، ثم السيئات فيها هي من مخلفات دعوات الصالحين، اللّهم إلا هياما مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة لا تلتقي عند قاعدة و لا تجتمع وفق نظام، فاللّهم إلّا الصدفة العمياء الفوضى الجزاف كما قاله خروشوف صاحب الاشتراكية العلمية عن معاكسات الطبيعة في تعليل نقص الثمرات و الغلات، و معه كل هؤلاء الذين يمضون مع هذه «العلمية» الجاهلية غابرة و في القرن العشرين، المدعاة في تعليل الحوادث بهذه النظرة القاصرة الباسرة: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ»!.

هكذا يتطير المجاهيل في تيارات الحوادث و الكوارث أنها من نكبات حملة الدعوات الربانية، فالحسنة التي تجيئهم هي من حسن حظهم المستحق، و السيئة هي من شؤم من يخالفهم في شهواتهم و حيوناتهم و إباحياتهم الطليقة!.

و هكذا نجد كل طغاة التاريخ على مدار الرسالات الربانية، ففي صالح لمّا «قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ» (27: 47).

و في رسل المسيح (عليه السّلام): «قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (18) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 262

ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» (36: 19).

فالقرآن يبين كلمة واحدة أن طائر كل معه و عند اللّه، معه بما عمل و يستحقه، و عند اللّه بما يحققه علما و جزاء وفاقا هنا و في الأخرى‏ «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 14): «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» و أقلهم يعلمون و لكنهم على علمهم يجحدون، و «لا يعلمون» هنا جهالة عن تقصير يندد بها كما يندد بالعالمين.

فالطائر هو العمل اعتبارا بطيرانه إلى الغير أم إلى الفناء كما يخيّل إلى المجاهيل، و اعتبارا بطيرانه إلى نتائجه هنا و في الأخرى لأنه لا يفنى و لا يطير إلى غير عامله، كما يقول اللّه‏ «1».

فالتطير بالغير هو تخيل أن شؤم الغير بعمله يطير إلى غير عامله، فلما كانوا يتشأمون بدعاة الحق، كانوا يحسبون كل سيئة تصلهم أنها من جرّاء شؤم هؤلاء الأكارم، و كل حسنة هي مستحقة لهم أنفسهم و هكذا «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ».

ذلك، و لم يكتفوا في هذه الخطوة الثانية الخاطئة- بعد رمي موسى بالسحر- إلّا أن غالوا في عتوهم:

وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132).

و هنا يسمون ما يأتي به موسى «آية» هزء و مهانة بها حيث تعقبها «لِتَسْحَرَنا بِها» أم و إيقانا بها حيث‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» (27: 14) فقد صدوا على أنفسهم كل منافذ النور و الإيمان حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). واصل التطير ما كان الجاهليون في وثنيتهم يزاولونه فقد كان منهم من إذا أراد أمرا جاء إلى عش طائر فهيجه عنه فإذا طار عن يمينه- و هو السانح- استبشر بذلك و مضى في الأمر الذي يريده و إذا طار الطائر عن شماله- و هو البارح- تشاءم به و رجع عما عزم عليه فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي و اصل محله التفكير العلمي الصحيح و العمل، و قد شرحنا حول الطائر على ضوء آية الأسرى فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 263

حلقوا ذلك النكران على كل آية دونما استثناء «فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» إعلانا جاهرا بكفر طليق على أية حال، إذا فهنا استحقاق عذاب الاستئصال دون إبقاء لأي مجال، و لكن اللّه يمهلهم- مع الوصف- حتى حين:

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (133).

ففي خضمّ خماسية هذه الآيات المفصلات خماصيتهم استئصالا لعلوائهم أمامها حتى تطلّبوا إلى موسى أن يكشف عنهم الرجز فيؤمنوا و لكنهم ناكثون!.

و «الطوفان» من الطوف، ففعلانه طوف بالغ لا مرد عنه، و هو يشمل طوفان الماء كما كان لقوم نوح، و طوفان الريح الشديدة الحاملة لما تحمل من غبارات و قذارات، فقد طاف بهم الطوفان فاستأصل كل رياحة عن حياتهم، و هكذا سائر الخمسة من الرجز.

و «آياتٍ مُفَصَّلاتٍ» قد تعني إلى فصل بعضها عن بعض دون وصل، تفصيل كون كل واحدة منها آية مستقلة دون أن تكون لزاما من خلفية الأخرى، كما و لا صلة بين هذه الخمس في مظاهر عللها الطبيعية، و مفصلات مبينات في الدلالة على كونها آيات اللّه.

و من كونها مفصلات أن كلّا كانت تأتي بفصل خاص خطوة خطوة، من دان إلى عال إلى أعلى، فقد كان «الدم» أعلاها عذابا و «الطوفان» أدناها، و بينهما متوسطات، كما هي طبيعة الحال في البلوى ليذكروا بها.

و ما أنسبها خماسية العذابات هذه، خماسية اللعنات في هؤلاء الأنكاد، فالطوفان المدمر لأنهم كانوا طوفانا يدمّر الحق و أهله، و الجراد حيث يجرد الثمر، إذ كانوا يجردون الحياة الإنسانية عن ثمرتها السامية، و القمل حيث تمتص الدم و تؤذي صاحبه و هي تسكن مساكن القذارات، و هم يمتصون دماء الحياة و يؤذون ذوي الحياة، و الضفادع إذ ضفدعوا:

متقبضين منكمشين أمام الحق، و الدم إذ كانوا دماء يسيلونها في سبيل الباطل: «آياتٍ مُفَصَّلاتٍ» عن السحر، مبيّنات لإحقاق الحق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 264

«فاستكبروا» عن الخضوع لها «وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ» يجرمون ثمرة الحياة قبل إيناعها، نكرانا للآيات على التماعها.

هناك‏ «أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ» و هنا «أرسلنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ ..»

تختصان هذه العذابات الست بهم دون بني إسرائيل على اختلاطهم بهم، مما يدل على أن هذه لم تكن لهم عذابا و إنما هي لهؤلاء، فقد تصدق الرواية أن القبطي كان يأخذ الماء من النيل دما أحمر له طعمه و لونه، و الإسرائيلي يأخذه منه ماء فراتا له طعمه و لونه، و هكذا الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع إذ لم تكن تؤذي الإسرائيليين!، و كانت تستأصل كل رياحه عن حياتهم أولئك اليومية، حتى اضطروا على فرعنتهم و غرورهم أن يلتجئوا إلى موسى لما وقع عليهم ذلك الرجز العذاب الأليم‏ «1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 58 علي بن إبراهيم باسناده عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (عليهما السّلام)- دخل حديث بعضهم في بعض- قالا: لما آمنت السحرة فرجع فرعون مغلوبا و أبى هو و قومه إلا الإقامة على الكفر قال هامان لفرعون: إن الناس قد آمنوا بموسى فانظر من دخل في دينه فاحبسه فحبس كل من آمن به من بني إسرائيل فتابع اللّه عليهم بالآيات و أخذهم بالسنين و نقص من الثمرات ثم بعث عليهم الطوفان فخرب دورهم و مساكنهم حتى خرجوا إلى البرية و ضربوا الخيام و امتلأت بيوت القبط ماء و لم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة و قام الماء على وجه الأرض لا يقدرون على أن يحرثوا فقالوا لموسى: ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكف عنهم الطوفان فلم يؤمنوا و قال هامان لفرعون: لئن خليت بني إسرائيل غلبك موسى و أزال ملكك و أنبت اللّه لهم في تلك السنة من الكلاء و التمر و الزرع و الثمر ما أعشبت به بلادهم و أخصبت فقالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا و خصبا فأنزل اللّه عليهم في السنة الثانية- أو في الشهر الثاني- الجراد فجردت زروعهم و أشجارهم حتى كانت تجرد شعورهم و لحاهم و تأكل الأبواب و الثياب و الأمتعة و كانت لا تدخل بيوت بني إسرائيل و لا يصيبهم من ذلك شي‏ء فعجوا و ضجوا و جزع فرعون من ذلك جزعا شديدا و قال يا موسى أدع لنا ربك أن يكف عن الجراد حتى أخلي عن بني إسرائيل فدعى موسى ربه فكف عنه الجراد بعد ما أقام عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت، فأنزل اللّه عليهم في السنة الثالثة- أو الشهر الثالث- القمل و هو الجراد الصغار لا أجنحة له و هو شر ما يكون و أخبثه فأتى على زروعهم كلها و أفناها من أصلها فذهبت زروعهم و لحس الأرض-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 265

وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى‏ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (135).

«الرجز» هنا هو الحياة البئيسة التعيسة النكدة النكبة من جرّاء خماسية العذاب‏ «قالُوا يا مُوسَى» و قضية الجمع أن يكون فرعون بملئه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

كلها ... و أخذت أشعارهم و أبشارهم و أشفار عيونهم و حواجبهم و لزمت جلودهم كأنه الجدري عليهم و منعتهم النوم و القرار فصرخوا و صاحوا فقال فرعون لموسى: ادع لنا ربك لئن كشفت عنا القمل لأكفن عن بني إسرائيل فدعا موسى (عليه السّلام) حتى ذهب القمل بعد ما أقام عندهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فنكثوا فأنزل اللّه عليهم في السنة الرابعة- أو الشهر الرابع- الضفادع فكانت يكون في طعامهم و شرابهم و امتلأت منها بيوتهم و آنيتهم فلا يكشف أحد ثوبا و لا إناء و لا طعاما و لا شرابا إلّا وجد فيه الضفادع و كانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم و كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع و يهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه و يفتح فاه لأكله فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه فلقوا منها أذى شديدا فلما رأوا ذلك بكوا و شكوا إلى موسى (عليه السّلام) و قالوا: هذه المرة نتوب و لا نعود فادع اللّه أن يذهب عنا الضفادع فإنا نؤمن بك و نرسل معك بني إسرائيل فأخذ عهودهم و مواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعد ما أقام عليهم سبعا من السبت إلى السبت ثم نقضوا العهد و عادوا لكفرهم فلما كانت السنة الخامسة أرسل عليهم الدم فسال ماء النيل عليهم دما فكان القبطي يراه دما و الإسرائيلي يراه ماء فإذا شربه الإسرائيلي كان ماء و إذا شربه القبطي كان دما و كان القبطي يقول للإسرائيلي: خذ الماء في فيك وصبه في فيّ فكان إذا صبه في فم القبطي تحول دما و ان فرعون اعتراه العطش حتى انه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماءها في فيه دما فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يأكلون إلا الدم و لا يشربون إلا الدم- قال زيد بن اسلم: الدم الذي سلط عليهم كان كالرعاف- فأتوا موسى (عليه السّلام) فقالوا: «أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك و نرسل معك بني إسرائيل فلما دفع الله عنهم الدم لم يؤمنوا و لم يخلوا عن بني إسرائيل»

أقول: و المقبول من هذه الرواية و أمثالها ما لا تخالف القرآن و ان لمحة و إشارة، فقد كثرت الإسرائيليات في أحاديثنا لحد ما نجى أى كتاب حديث و فقه و تفسير عنها فلنتجرد لما يوحيه لنا القرآن، و لنجرده عن التفاسير التي تخالفه أم لا توافقه إذ لا تواتر لنا إسلاميا يعلو القرآن أم يساميه و يوازيه، فليطرح كل حديث يحدثنا بما لا يصدقه القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 266

معهم‏ «ادْعُ لَنا رَبَّكَ» و ذلك سوء أدب معه أنه تعالى فقط ربه لا و ربهم‏ «بِما عَهِدَ عِنْدَكَ» من إجابة الدعاء خارقة للعادة كما عودتنا «لئن كشفت عنا الرجز- بدعاءك- لنؤمنن لك و لنرسلن معك بني إسرائيل» وعدان اثنان هما العصب الحساس ضد ما تعصبوا عليه من الكفر و الاستبعاد «فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ» بدعاء موسى فالكاشف- إذا- هو اللّه دون موسى، و تلك كانت غلطة غليظة، «لَئِنْ كَشَفْتَ» ك «ربك»، «كَشَفْنا ... إِلى‏ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ»، و هو المهلة التي بلغوها و لمّا يؤمنوا «إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ» ما عاهدوا، و هذه المهلة هي بين ما أمهلهم موسى إياها أم هم أمهلوا أنفسهم فيها، و على أية حال كان أجلا هم بالغوه بطبيعة الحال و قبل أن يغرقوا عن آخرهم في تقدير اللّه.

ذلك و قد تحتمل‏ «بِما عَهِدَ عِنْدَكَ» إلى عهد إجابة الدعاء، أصل الرسالة التي هي عهد خاص من اللّه، و الباء بين سببية ف «ادع» بسبب الرسالة التي هي أزلف الزلفى إلى اللّه، و قسم. ف: قسما برسالتك من اللّه إن كنت رسولا، كما و أن «ما» تحتمل الموصوفة إلى الموصولة، فلقد كانوا يناقضون في أقوالهم بمختلف حالاتهم، فتارة ينكرون رسالته و أخرى يتعلقون بها في قضاء حاجاتهم الضرورية!.

فلقد كانوا يلجئون إلى موسى، يتطلبون بإصرار تحت ضغط البلية الفاضحة الفادحة، يعدونه الإيمان له و أن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا أنجاهم منها بدعائه‏ «إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ»!.

ذلك، فلما انتهى أمر الابتلاء إلى ما لا منفذ فيهم بها من الذكرى فلم يبق مجال إلّا استئصالهم، تطهيرا للأرض عن هؤلاء الأنكاد البعاد:

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (136).

ذلك و ليس انتقام اللّه منهم و ممن سواهم عجزا منه و تحسرا و دفاعا عن نفسه، إنما هو إصلاح للأرض بإزالة المفسدين الذين لا يرجى منهم أي خير إذ صدوا على أنفسهم كل منافذ النور و الهدى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 267

فقد «كَذَّبُوا بِآياتِنا» كلها رسولية و رسالية، آفاقية و أنفسية «و» الحال أنهم‏ «كانُوا عَنْها غافِلِينَ» عن عمد و تقصير، فالغفلة العامدة العاندة ليست بالتي يعفى عنها في شرعة العدل و الحكمة، إنما هي الغفلة القاصرة على قدر القصور فيها، فهذه هي ضفة الكفر و النكران، فإلى ضفة الشكر و الإيمان:

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى‏ عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ (137).

إن‏ «كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى‏» شملت بني إسرائيل لإيمانهم و أنهم‏ «الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ» ثم‏ «تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى‏ عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا» فمثلث الإيمان المستضعف الصابر هي هندسة تمام كلمة ربك الحسنى، فلذلك أورثناهم مشارق الأرض المقدسة و مغاربها التي باركنا فيها، و في الطرف المقابل اللّاإيمان الاستكبار و عدم الاصطبار «دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ» من صناعات‏ «وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ» من بنايات و جنات معروشات.

ذلك و بركات الأرض التي باركنا- و هي مصر القدس الكبير، و هو فلسطين الكبير بما فيه سوريا و الأردن و لبنان- هي من ناحيتي القدسية الروحية و المادية، فقد بعث أكثر المرسلين منها و دفنوا فيها، ثم البركات المادية هواء و ماء و كلاء و سائر الإخصاب نجدها فيها أكثر من غيرها.

صحيح أن الأرض المباركة و المقدسة هنا في القرآن هي فلسطين الكبير، و لكن «أورثنا» هنا تشمل مصر حيث كان فيها فرعون و قومه، فقد سيطرهم اللّه على مصر و ما والاها و فلسطين و ما والاها و لا سيما في زمن داود و سليمان.

و قد نحتمل قويا أن يعنى من‏ «مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا» إلى محال وراثتهم محال استضعافهم.

إذا «وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ» في مشارق الأرض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 268

و مغاربها «أورثناهم» مشارق الأرض و مغاربها، فهم أورثوا نفس الأرض التي استضعفوا فيها و هي مصر، و لأن «الأرض» طليقة هنا من حيث الإيراث مهما كانت مختصة بمصر من حيث الاستضعاف، إذا فمحل إيراثهم أوسع من محل استضعافهم، و لكنها ليست كل الأرض لمكان‏ «الَّتِي بارَكْنا فِيها» فهي الأرض المقدسة التي كتب اللّه لهم.

و «كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى‏» هي التي قالها لهم موسى، منها: «عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» و قال من ذي قبل‏ «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ» (28: 6) مهما كانت الأرض هنا لأصحاب المهدي (عج) كل الأرض، و لذلك أطلقت حتى تشملها، فقد تمت هذه الكلمة الحسنى عليهم في إيراثهم بمصر أولا ثم في الأرض المقدسة التي كتب اللّه لهم، و لكن ليست بجدارة طليقة كيفما كان عملهم، و إنما «فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» و كان عملهم الأول كفرا و كفرانا لهذه الحسنى فقابلهم اللّه بمثل ما عملوا:

وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى‏ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى‏ أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138).

«وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ» و هو أليم الذي أغرق فيه آل فرعون إذ ضرب لهم موسى بأمر اللّه طريقا يبسا حيث انفلق فكان كل فرق كالطّود العظيم، و على أية حال «جاوزنا ..».

«فَأَتَوْا عَلى‏ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى‏ أَصْنامٍ لَهُمْ» إذ كانوا من المشركين الرسميين‏ «قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ» و هم موحدون حسب الدعوة الموسوية، و لكنهم منحازون إلى المادة لحد رغبوا في عبادة الأصنام‏ «قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» تفعلون جهالة عريقة عميقة بعد ما رأيتم آيات اللّه البينات لكم على قوم فرعون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 269

فحين‏

يقول بعض اليهود لعلي أمير المؤمنين (عليه السّلام): ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم؟ يقول له: إنما اختلفنا عنه لا فيه، و لكنكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون! «1».

و ذلك أوّل ما نظر اللّه كيف يعملون بعد ما تمت كلمة ربك الحسنى عليهم بما صبروا، و إلى أمثاله المسرودة مفصلا في الذكر الحكيم بطيات آياتها.

لقد تمت مواجهة موسى آل فرعون بما أغرقوا، فلا يواجه بعد اليوم طاغوت فرعون و ملإه، و لكنه تواجهه معركة أخرى مع أقرباءه بعد أغرباءه هي أشد منها و أقسى و أنكى منها و أشجى و أطول أمدا، حيث يواجه بني إسرائيل برواسب الذل الذي أفسد سجيتهم من ناحية، و رواسب الوثنية التي أفسدتها من أخرى، و كذلك الالتواء و القسوة و الضعف و الجبن عن حمل التبعات مع الذعر الدائم و التوقع القائم للبلاء.

ذلك رغم أنهم في الأصل على دين التوحيد، و لكنهم رغم ذلك كانوا قوما ماديين يعيشون أصالة الحس و المادة دون عناية إلى ما وراءها إلّا تشريفيا دون أصالة، كهالة قدسية؟؟؟ تتبدل إلى حالة عقيدية راسخة، و كما هو الظاهر من التوراة المحرفة حيث حرفوا لاهوت الألوهية إلى شاكلة إنسان له ما لسائر الإنسان، و لكنه أقوى، أم و هو أضعف أحيانا من إنسان، كما في قصة فنوئيل حيث تقول صارعه يعقوب فصرعه فاقتضى منه بركة النبوة حتى يخلصه فتقبل فنجي.

و تراهم طلبوا إليه أن يجعل لهم إلها بديل اللّه هو كما اللّه؟ و الإله المجعول لموسى ليس إلّا من خلقه و اختلاقه فكيف يكون إله العالمين!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السّلام) و في تفسير البرهان عن محمد بن شهر آشوب‏ أن رأس الجالوت قال لعلي (عليه السّلام): لم تلبثوا بعد نبيكم إلا ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف؟ فقال علي (عليه السّلام):

و أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 270

القصد هنا هو ألوهية المعبودية تقربا بالآلهة إلى اللّه زلفى كما يقولها سائر المشركين: «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» فأجيبوا ب «إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» المقاييس و الموازين أن تعبدوا غير من خلقكم و فضّلكم على العالمين!.

فعملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى (عليه السّلام) منذ الآن بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر و تجاوزهم البحر، و هذه النفوس البئيسة التعيسة ستواجه الحرية الحقة بكل رواسب الذلة و المسكنة، و تواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية بكل خلفياتها، بل و أنحس منها، فإن سحرة فرعون آمنوا بعد ما رأوا آية ثعبان العصا و اليد البيضاء و هم لم يؤمنوا بعد ما رأوا كل الآيات الموسوية و هي بضع عشرة آية، اللّهم إلا قليل منهم و فى لرعاية الحق.

و ها هم ما أن يجاوزا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم، و إذا هم يطلبون طلبهم، و يغلبون أمام الأصنام غلبهم، حيث يطلبون من موسى رسول التوحيد من رب العالمين أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة .. طبيعة مخلخلة العزيمة، سريعة الهزيمة، ضعيفة الروح، قوية الشكيمة، ما تكاد تهتدي حتى تضل، و ما ظلت ترتفع و تزيد حتى تنحط و تقل، فأين الدعوة التوحيدية الموسوية قرابة عشرين سنة أم تزيد، فقد نسوا آياته الرسولية و الرسالية، و حتى التي أنجتهم في اللحظة الأخيرة إذ جاوز بهم البحر بعد ما أغرق فرعون و ملأه! و لو أنهم اتخذوا لأنفسهم إلها لكان أقل غرابة و عتامة من أن يطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة! و ما كان جوابهم المختصر المحتصر عجالة إلّا «قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» تجهلون كافة المعالم الإنسانية و الإيمانية، ف «تجهلون» من الجهالة ضد المعرفة، و من الحماقة ضد العقل، و من البلاهة ضد الشعور، فما ذلك التقوّل التغوّل إلّا من أحمق الحماقة و أعمق الجهالة و البلاهة إلى غير حدود!.

ذلك و حق يقال إنهم أحمق و أعمق جهالة من آل فرعون المشركين إذ صمدوا على باطلهم و لم يهووا و لا مرة واحدة أن يوحدوا اللّه، و هم أولاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 271

الأنكاد البعاد عشيرة التوحيد و قد عاشرهم رسول التوحيد عشرين و ما زاد، و من قبل كان منهم رسل التوحيد تترى، ثم بلحظة مّا عند ما نجوا، بدلا أن يشكروا اللّه و يوطدوا توحيدهم تطلبوا إلى رسول التوحيد أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة!.

و لقد استحقوا بذلك التطلب الهراء الخواء ثالثوا من‏ «تَجْهَلُونَ- إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ‏ ... أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ» و قد حفل سلبا لألوهة غير اللّه بالأوّلين و إثباتا لألوهة اللّه بالأخير:

إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (139).

جملة معترضة اعترضت بين قالتي موسى لهم، تجمع في تنديدها بني إسرائيل إلى آل فرعون، ف: يا بني إسرائيل «إن هؤلاء» الفرعونيين و سائر الوثنيين «متبرّ» منقطع‏ «ما هُمْ فِيهِ» من عبادة آلهة دون اللّه‏ «وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ».

و ما كل من يسمع إلى هذه القصة «إن هؤلاء» من بني إسرائيل ...

فهم قوم بوار تبار حيث تركوا عبادة اللّه الواحد القهار إلى عبادة خلقه الضعاف النحاف.

قالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (140) وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141).

فيا سبحان اللّه قوم أنجاهم اللّه من عبودية الطاغية، و جاوز بهم البحر و أهلك عدوهم و أراهم الآيات العظام ثم سألوا رسول التوحيد الشرك دون فصل! و لقد جاء من نظراءهم بصورة أخف من هذه الأمة حيث‏

«خرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قبل حنين فمررنا بسدة فقلت يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، و كان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة و يعكفون حولها- و كانت تعبد من دون الله- فقال النبي (صلى الله عليه و آله و سلم): الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 272

إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم» «1».

فيا أغبياء! «أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً» لكم «و هو» الذي‏ «فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ» بمكرمات «و» اذكر منها «إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ‏ ... وَ فِي ذلِكُمْ» السوم من العذاب‏ «بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» حيث ابتلاكم به لردح من الزمن ثم تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل لينظر كيف يعملون.

هنا عرض لقصة المواعدة الموسوية و في طه مثلها باختلاف يسير في التعبير، و بينهما بعض الميزات الخاصة بكلّ فصلنا التي ل «طه» فيها، و هنا قول فصل حول آيته ما يخصها.

وَ واعَدْنا مُوسى‏ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قالَ مُوسى‏ لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142).

هنا عديد المواعدة مذكور دون «طه»: «وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ» (20: 80) و لكنها في البقرة: «وَ إِذْ واعَدْنا مُوسى‏ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ» (2: 51).

ف «أربعين» هناك هي مجموع المواعدتين المتصلتين، و «ثلاثين» هنا هي ظاهرة أولى للمواعدة دون حصر حيث «و أتممناها بعشر فتم ميقات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 114 عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا ..

و

فيه أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الطبراني من طريق كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده قال: غزونا مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) عام الفتح و نحن ألف و نيف ففتح الله له مكة و حنينا حتى إذا كنا بين حنين و الطائف أرض شجرة دنوا عظيمة سدر كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط و كانت تعبد من دون الله فلما رآها رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) صرف عنها في يوم طائف إلى ظل هو أدنى منها فقال له رجل: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): إنها السنن قلتم، و الذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 273

ربه أربعين ليلة» «1» ف «ثلاثين» هي في صيغة التعبير كانت امتحانا لبني إسرائيل دون أن يعلموا «وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ» ابتلاء بهذه المتممة هل هم بعد على انحرافهم الشركي أم أصلحوا أنفسهم فلا يضلون، و لكنهم ضلوا إلّا قليل بفتنتي مزيد العشر على الثلاثين‏ «2» و عجل السامري: «قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» (20: 85).

و ترى لا يستدل بظاهر العدد- إذا- على ألّا يعنى أزيد منه كما لا يعنى الأنقص؟ إن الأنقص هو خلاف النص، و الأزيد قد يكون خلاف النص كما إذا كان العدد في مسرح الحصر فهو- إذا- مصرح الحصر، كأن تسأل ما عندك من الدراهم؟ فتقول: عندي عشرة، فإنها- إذا- نص في العدد ينفي الأزيد كما ينفي الأنقص، و أخرى ليس خلاف النص، بل هو لأكثر تقدير ظاهر يقبل التحويل كأن تقول دون سؤال: عندي عشرة، فليس ينافيها أكثر منها حيث الأقل هو تحت الأكثر، و هكذا يعني قول اللّه: «وَ واعَدْنا مُوسى‏ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ» فقد قال لهم موسى واعدني ربي ثلاثين ليلة، قبل أن تلحقها المواعدة الثانية، و مهما كانت الأولى ظاهرة في حصرها و لكن ليست بحيث يستدل بها على سلب مواعدة ثانية حتى إذا جاءت يقال: إن الأولى كاذبة، فقد تكون الأولى- كما هنا-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2).

نور الثقلين 2: 61 عن أبي جعفر الباقر (عليهما السّلام) أن موسى قال لقومه: إني أتأخر عنكم ثلاثين يوما ليتسهل عليكم ثم زاد عليهم عشرا و ليس في ذلك خلف لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها،

و

فيه عن الفضل بن يسار عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: قلت: لهذا الأمر وقت؟ فقال: كذب الوقاتون كذب الوقاتون كذب الوقاتون أن موسى (عليه السّلام) لما خرج وافدا إلى ربه واعدهم ثلاثين يوما فلما زاده اللّه على الثلاثين عشرا قال قومه: قد أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا: صدق اللّه، و إذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق اللّه تؤجروا مرتين.

و

في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: إن موسى (عليه السّلام) لما خرج وافدا إلى ربه واعدهم ثلاثين يوما فلما زادا له على الثلاثين عشرا قال قومه: أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 274

لمصلحة تقتضيها، فلا يحتج بها على سلب الأخرى، مهما لا يحتج أيضا على إيجابها، فلنسكت عما وراء العدد إيجابا و سلبا، مهما يلمح بالسلب لما وراءه.

و هنا «ثَلاثِينَ لَيْلَةً» دورها دور السكوت عما وراءها، فإذا تأخر موسى الرسول كان ذلك دليلا على وعد آخر يتلوها قبل أن يخبرهم موسى، و لا فرق- إذا- بين‏ «أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ» بعد «ثَلاثِينَ لَيْلَةً» دون فصل بطرح الوحي، و بين ذلك الإتمام المستفاد من واقع التأخير لقوم موسى، و الوحي الثاني بحمله لموسى نفسه.

ذلك، و حتى إذا كان العدد نصا في الحصر ثم لحقته زيادة بنص آخر لا يكذّب هذا الآخر فإن للنسخ مجالا واسعا حين نتأكد من النص الثاني، فضلا عما هنا حيث العدد ليس نصا في الحصر و لا ظاهرا بينا، و إنما له لمحة الظهور.

و كضابطة في الأعداد و سائر القيود هي بين حالات ثلاث: 1 أن تدل قرائن على الحصر 2 أم على سلبه، 3 أم لا دلالة على الحصر إيجابيا و لا سلبيا، و هنا «واعَدْنا مُوسى‏ ثَلاثِينَ لَيْلَةً» من القبيل الثالث، مهما كان ظاهرا طهورا مّا في الحصر، احتمالا راجحا لحصر المواعدة في «ثلاثين» و لكنه ليس حجة على كذب موسى بما «وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ» أم كذب اللّه و عوذا باللّه، حيث الأدلة القاطعة على كمال الصدق و تمامه في قول اللّه و قول رسول اللّه، المبرهن على رسالته بآيات من اللّه، هذه الأدلة تجعل ذلك الاحتمال اختمالا و في بوتقة النسيان، بل و حتى إذا ناقضت المواعدة الثانية الأولى فوجه النسخ موجه لا يدع مجالا لفرية الكذب في الساحة الربانية و الرسالية.

ذلك، فالقول: إن إثبات الشي‏ء لا ينفي ما عداه لا يصح إلّا عند فقد القرائن على سلب أو إيجاب، فليست ضابطة تحلق على كل إثبات انه لا ينفي ما عداه، إنما هو الإثبات غير الحاصر حدّه بعدّه أو مدّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 275

ثم المواعدة الخفية عن قوم موسى هل كانت خفية على موسى نفسه كما هم، ثم أوحيت إليه بعد كمال الثلاثين، أم كان يعرفها عند المواعدة الأولى، دون سماح له أن يخبرهم بها؟ الظاهر أنه ما كان يعلمها كقومه على سواء، و إلا لم تكن مواعدة ثانية، إنما هي مواعدة واحدة هي «أربعون ليلة».

إذا «أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ» بمواعدة ثانية بعد الثلاثين أم ضمنه، دون أن تكون أوحيت إليه مع الأولى، اللّهم إلا بتأويل أن اللّه واعده الأولى أن يخبر بها قومه، ثم بعدها الثانية دون فصل ألا يخبرهم بها ابتلاء لهم بما أثقلوا ببراهين الحق الحقيق بالتصديق، و هم مكذبوه، فهي- إذا- من بلية الشر جزاء وفاقا، و عدلا بما أوتوا من تلكم البراهين.

هذا، و لأن المواعدة كانت تشملهم أجمع حسب الجمع في طه:

«واعدناكم» و «وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى‏ قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى‏ أَثَرِي وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى‏» فقد كانت المواعدة الأصيلة هي ثلاثين ليلة ثم‏ «وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ» إتماما للعدة المعنية بذلك العدد المبارك و عشر ذي الحجة.

ذلك و للأربعين عديدا و معدودا منزلتها في مختلف الحقول تكوينا و تشريعا ف «ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوما إلا زهده الله في الدنيا و بصره داءها و دواءها و أثبت الحكمة في قلبه و انطق بها لسانه ..».

و هي هنا كما يروى ثلاثون ذي القعدة- حيث اتفقت هكذا حين المواعدة- و عشر من ذي الحجة، و ما يروى سنادا إلى ثلاثين هذه أن ذا القعدة هي ثلاثون يوما «1» هي خلاف الواقع المكرور، كما و أن «ثلاثين»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ثلاثون يوما لقول اللّه عزّ و جلّ: «وَ واعَدْنا مُوسى‏ ثَلاثِينَ لَيْلَةً» و مثله في الكافي عنه (عليه السّلام).

أقول: أمثال هذه التطرفات هي تذوقات غير مسنودة إلى دليل تفترى على المعصومين (عليهم السّلام)!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 276

في الآية لا تقرر نفس العدد لذي القعدة على مدار الزمن!.

و إنما اختص ذكر «ليلة» دون «نهارا» أو «أياما» ل «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا» (6: 73) فإن فيه اجتماعا للحواس عن سائر التفرقات الحيوية المعيشية أكثر من النهار.

و يا للأربعين من موقف مشرف تكوينا و تشريعا، فمن التكوين أن كل رحلة من رحلات الجنين أربعون يوما، ثم و في التشريع قد ابتعث النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الأربعين من عمره، و هكذا- كما يروى- سائر النبيين (عليهم السّلام)

«و ليس صاحب هذا الأمر من جاز أربعين»

أي في صورة من له أربعون، و

«من شرب الخمر لم تحتسب صلاته أربعين يوما»

و

«من قرأ الحمد أربعين مرة في الماء ثم يصب على المحموم يشفيه الله»

و

«إن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه و بين أربعين سنة فإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله عز و جل إلى ملكيه اني قد عمرت عبدي عمرا فغلظا و شددا و تحفظا و اكتبا عليه قليل عمله و كثيره و صغيره و كبيره»

و

«إذا بلغ العبد ثلاثا و ثلاثين سنة فقد بلغ أشده و إذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى و أربعين فهو في النقصان و ينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع ..»

«و أبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده»

و

«إذا بلغ الرجل أربعين سنة و لم يتب مسح إبليس وجهه و قال: بأبي وجه لا يفلح»

و

«من حفظ من أمتي أربعين حديثا مما يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيها عالما» «1»

و قد

«بكى آدم أربعين صباحا على الجنة»

و

«أنصب الماء زمن نوح من السماء أربعين صباحا»

«و احتبس الوحي عن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أربعين يوما»

«و اعتزل (صلى الله عليه و آله و سلم) عن خديجة أربعين صباحا لحملها بفاطمة (عليها السلام) و ولادتها إياها»

«و تاه قوم موسى في التيه أربعين سنة»

«و أملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه الله نكال الآخرة و الأولى»

و

إذا مات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أربعين حديثا يعم القرآن و السنة، بل و القرآن أحرى أن يكون حديثا: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 277

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ‏ ثم و لا يعني «حفظ» فقط حفظا عن ظهر القلب، بل هو كامل الحفظ تعلما و تخلقا و تعليما و تطبيقا في الأصول الثلاثة و في الفروع. عشرة في الفروع العشرة، و ثلاثين في الأصول الثلاثة، فطالما الحفاظ كثير و لكنما الرعاة قليل.

و

قد يروى‏ «من بلغ أربعين و لم يتعص فقد عصى»

فقد تعنى مثلث العصى لهندسة كمال الإنسان و هي عصى الفطرة و العقلية و الشرعة، استقامة على هذه العصي ليقوم في دين اللّه سليما صالحا.

ذلك و قد ورد «على أمتي» بديلا عن «من أمتي» كما في البحار 2: 156 ح 8 و

في العيون 2: 37 ح 99 عن الرضا (عليه السّلام) و ابن زهرة في الأربعين 39 بالطريق الأول من السند رقم 40 و رواه الشهيد الأول في مقدمة أربعين بالإسناد رقم 64 و أخرجه كنز العمال 10: 425 ح 29185- أخرجه ابن الجوزي بلفظه عن علي (عليه السّلام) و الدار قطني في العلل عن ابن عباس بلفظ «من حفظ على أمتي أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله فقيها عالما»

، و أخرجه ابن حبان في الضعفاء عنه و ابن عدي و ابن عساكر من طرق عن أبي هريرة و ابن الجوزي أيضا عن أنس و أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة مرفوعا، و ذكر في التخريج عدة من المحدثين المخرجين لهذا الحديث تركناه اختصارا و كما يناسب موسوعتنا التفسيرية.

و مما يشهد على أن الحفظ لا يعني- فقط- حفظا عن ظهر الغيب، بل هو الحفاظ لأربعين على العامة في أمر الدين فرديا و جماعيا، كنماذج من أصول الدين و فروعه، ما

رواه في الخصال بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبيه الحسين بن علي (عليهم السّلام) قال: إن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام) و كان فيما أوصى به أن قال له يا علي!: من حفظ من أمتي أربعين حديثا يطلب بذلك وجه اللّه عزّ و جلّ و الدار الآخرة حشرة اللّه يوم القيامة مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا. فقال علي (عليه السّلام) يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أخبرني ما هذه الأحاديث؟ فقال: أن تؤمن باللّه وحده لا شريك له، و تعبده و لا تعبد غيره، و تقيم الصلاة بوضوء سابغ في مواقيتها، و لا تؤخرها فإن في تأخيرها من غير علة غضب اللّه عزّ و جلّ، و تؤدي الزكاة، و تصوم شهر رمضان، و تحج البيت إذا كان لك مال و كنت مستطيعا و أن لا تعق و الديك، و لا تأكل مال اليتيم ظلما، و لا تأكل الربا، و لا تشرب الخمر و لا شيئا من الأشربة المسكرة، و لا تزني، و لا تلوط، و لا تمشي بالنميمة، و لا تحلف باللّه كاذبا، و لا تسرق، و لا تشهد شهادة الزور لأحد قريبا كان أو بعيدا، و أن تقبل الحق ممن جاء به صغيرا كان أو كبيرا، و أن لا تركن إلى ظالم و إن كان حميما قريبا، و أن لا تعمل بالهوى، و لا تقذف المحضة، و لا ترائي-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 278

المؤمن فحضر جنازته أربعون رجلا من المؤمنين فقالوا: اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيرا و أنت أعلم به منا، قال اللّه تبارك و تعالى: «قد أجزت شهادتكم و غفرت له ما علمت مما لا تعلمون» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فإن أيسر الرياء شرك باللّه عزّ و جلّ، و أن لا تقول لقصير يا قصير، و لا لطويل يا طويل تريد بذلك عيبه، و ان لا تسخر من أحد من خلق اللّه، و أن تصبر على البلاء و المصيبة، و أن تشكر نعم اللّه التي أنعم بها عليك، و أن لا تأمن عقاب اللّه على ذنب تصيبه، و ان لا تقنط من رحمة اللّه، و أن تتوب إلى اللّه عزّ و جلّ من ذنوبك فإن التائب من ذنوبه كمن لا ذنب له، و أن لا تصر على الذنوب مع الاستغفار فتكون كالمستهزئين باللّه و آياته و رسله، و أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك و أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، و أن لا تطلب سخط الخالق برضى المخلوق، و أن لا تؤثر الدنيا على الآخرة، لأن الدنيا فانية و الآخرة باقية، و أن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، و ان تكون سريرتك كعلانيتك، و أن لا تكون علانيتك و سريرتك قبيحة، فان فعلت ذلك كنت من المنافقين، و أن لا تكذب و لا تخالط الكذابين، و أن لا تغضب إذا سمعت حقا، و أن تؤدب نفسك و أهلك و ولدك و جيرانك على حسب الطاقة، و أن تعمل بما علمت، و لا تعاملن أحدا من خلق اللّه عزّ و جلّ إلا بالحق، و أن تكون سهلا للقريب و البعيد، و أن لا تكون جبارا عنيدا، و أن تكثر من التسبيح و التهليل و الدعاء و ذكر الموت و ما بعده من القيامة و الجنة و النار، و أن تكثر من قراءة القرآن، و تعمل بما فيه، و أن تستغنم البر و الكرامة بالمؤمنين و المؤمنات، و أن تنظر إلى كل ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تفعله بأحد من المؤمنين، و أن لا تمل من فعل الخير، و لا تثقل على أحد، و أن لا تمن على أحد إذا أنعمت عليه، و أن تكون الدنيا عندك سجنا حتى يجعل اللّه لك جنة- فهذه أربعون حديثا من استقام و حفظها عني من أمتي دخل الجنة برحمة اللّه، و كان من أفضل الناس و أحبهم إلى اللّه عزّ و جلّ بعد النبيين و الصديقين، و حشرة اللّه يوم القيامة مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا.

و

في الخصال عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «من حفظ من أمتي أربعين حديثا من السنة كنت له شفيعا يوم القيامة»

أقول: و أفضل السنة هو القرآن، أصلا لسائر السنة.

و

في صحيفة الرضا (عليه السّلام) عن آباءه (عليهم السّلام) قال: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «من حفظ على أمتي أربعين حديثا ينتفعون بها بعثه الله تعالى يوم القيامة فقيها عالما» (العوالم 2- 3: 465- 468).

(1). هذه كلها مروية عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته (عليهم السّلام) كما في سفينة البحار 1: 504- 505.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 279

هنا يقول‏ «مُوسى‏ لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» و هو بطبيعة الحال بأمر اللّه، و هكذا علي (عليه السّلام) و بأحرى فأين ضرورة الخلافة في ثلاثين يوما أو أربعين من الخلافة بعد موت خاتم النبيين (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

و كما

يقول: «و اختصني بوصيته و اصطفاني بخلافته في أمته فقال (صلى الله عليه و آله و سلم):- و قد حشده المهاجرون و الأنصار و انغضت بهم المحافل- أيها الناس إن عليا مني كهار المؤمنون عن الله نطق الرسول إذ عرفوني أني لست بأخيه لأبيه و أمه كما كان هارون أخاه لأبيه و أمه، و لا كنت نبيا فأقتضي نبوة، و لكن كان ذلك منه استخلافا لي كما استخلف موسى هارون صلى الله عليهما حيث يقول: اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» (35)

و هنا نتبين أنه كان في قومه مفسدون يحاولون أن يحولوه عن صالح المجموعة فيوصيه أن يراقب الأوضاع بكل حائطة فلا ينجرف بجارف في خلافته.

و هنا لهارون مثلث من زوايا الخلافة المؤقتة- مما تصلح أن تكون نموذجة كاملة عن المستمرة- هي قاعدة الخلافة: «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» ثم زاوية إيجابية هي الإصلاح: «و أصلح» ثم سلبية الإفساد: «وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» و هذان هما العمادان لكل داعية ربانية على درجاتهم.

و عل «قومي» هنا دون «بني إسرائيل» لكون الشجرة المؤمنة أو جمع منهم كانوا فيهم.

ذلك موقف هارون (عليه السّلام) في حقل‏ «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» و أين هو من موقف علي (عليه السّلام) من خلافة النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و

قد قال له: «أنت الخليفة من بعدي» «1»

حيث‏

«في النبوة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 62 عن خطبة الوسيلة يقول فيها بعد ذكر النبي (صلى الله عليه و آله و سلم): و اختصني .. و قد أوردنا قسما من متواتر حديث المنزلة في الفرقان 16: 81- 87 على ضوء آية الوزارة فلا نعيد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 280

و في علي الخلافة» «1»

و

«إن عليا خليفة الله و خليفتي» «2»

أجل‏

«هو خليفتي من بعدي» «3»

كما

«اثني عشر خليفة» «4»

«ان لمحمد (صلى الله عليه و آله و سلم) من الخلفاء اثني عشر إماما عدلا لا يضرهم من خذلهم» «5»

و

«من نازع عليا الخلافة بعدي فهو كافر» «6»

و

«يا عمر هذا وصيي و خليفتي من تقدم عليه كذب بنبوتي» «7».

وَ لَمَّا جاءَ مُوسى‏ لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسى‏ صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143).

هنا «وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ» من المتشابهات التي يخيل إلى جاهليها أنه كلام كسائر الكلام، أو تكليم كسائر التكليم، كلا إنه كلام مخلوق كسائر الخلق، و لكنه متميز كما الخالق، عن كلام سائر الخلق، و هو يكلم رسله بالوحي كما يعون و يستطيعون و «له قوة الألسن كلها» «8».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 4: 92

(2) المصدر 4: 297.

(3) المصدر 4: 29، 55، 61- 69، 73، 74، 79- 83، 149، 194، 277،

(4). 286، 288، 296، 327، 333، 337، 339، 346، 350، 352، 384، 385، و 5: 42 و 20: 338- 340، 459 و 13: 67- 68 و 15: 213- 218، 197- 212 و 20: 338- 340.

(5) المصدر 13: 1- 74.

(6) المصدر 8: 216.

(7) المصدر 7: 331. (8) المصدر 4: 81.

(8)

الدر المنثور 3: 115- أخرج البزار و أبن أبي حاتم و أبو نعيم في الحلية و البيهقي في الأسماء و الصفات عن جابر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لما كلم اللّه موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه فقال له موسى: يا رب أ هذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: يا موسى إنما كلمتك بقوة عشر آلاف لساني و لي قوة الألسن كلها و أقوى من ذلك فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا يا موسى صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا تستطيعونه، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقبل في-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 281

و من ميزات كلامه تعالى أنه ليس له جهة ثم هو يحتل كيان السامع من كل جهة، فقد أصبح موسى كله سمعا لذلك الكلام، ما لا يمكن لأي متكلم غير اللّه أن يكلم دون جهة خاصة و يشمل كل جهات المستمع!.

ذلك، و مهما كانت المواعدة لهم أجمع و لكن سماع كلام اللّه يختصه قضية اختصاصه بالرسالة فلذلك‏ «وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ» دون «كلمهم».

أ ترى موسى الرسول (عليه السّلام) على محتده المعرفي الرسولي بربه يسأله أن يريه نفسه لينظر إليه نظر البصر؟ و ذلك طلب الجهلة السفهاء الظلمة من قومه: «وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى‏ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (2: 56)- «وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ» (7: 155)- «فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ..» (4: 153) و «قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى‏ رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً» (25: 31).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أحلى حلاوة سمعتموه فداك قريب منه و ليس به.

و

فيه عن ابن عباس عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن اللّه تبارك و تعالى ناجى موسى (عليه السّلام) بمائة ألف و أربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عزّ و جلّ فكان فيما ناجاه أن قال يا موسى انه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا و لم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم و لم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي فقال موسى يا رب و يا إله البرية كلها و يا مالك يوم الدين و يا ذا الجلال و الإكرام ماذا أعددت لهم و ماذا جزيتهم؟ قال: أما الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم جنتي حتى يتبوءوا فيما حيث شاءوا، و أما الورعون عما حرمت عليهم فإذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلّا ناقشته الحساب و فتشت عما في يديه إلّا الورعون فإني أستحيهم و أجلهم و أكرمهم و أدخلهم الجنة بغير حساب. و أما الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركهم فيه أحد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 282

أ ترى العتو الكبير، و السفاهة المغلظة التي تتطلب الصاعقة بظلمهم هي جامعة بين موسى الرسول و سفهاء ظالمين من قومه؟ فما ذا يبقى بعد لهذه الرسالة السفيهة الظالمة المستكبرة العاتية عتوا كبيرا، التي يبعد عنها بسطاء الموحدين! فضلا عن عظماء النبيين!.

قد يكون موسى (عليه السّلام) محمّلا في ذلك السؤال من قبل قومه كما يبدو من‏ «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» و الصاعقة لم تأخذ إلّا إياهم دون موسى (عليه السّلام) فلو كان هو أيضا سائلا كما هم لكانت الصاعقة تأخذه كما أخذتهم، و آيات البقرة و النساء و الأعراف تقول:

«أخذتكم. أخذتهم. أخذتهم» دون أخذة في هذه المجالة لموسى (عليه السّلام) مما يدل على أن سؤال الروية كان لهم دونه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 64 في باب ذكر مجلس الرضا (عليه السّلام) عند المأمون في عصمة الأنبياء (عليهم السّلام) حدثنا تميم بن عبد اللّه بن تميم القرشي قال حدثني أبي عن حمدان بن سليمان النيسابوري عن علي بن محمد الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (عليه السّلام) فقال له المأمون: يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فما معنى قول اللّه عزّ و جلّ:- إلى أن قال-: «وَ لَمَّا جاءَ مُوسى‏ لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي» كيف يجوز أن يكون كليم اللّه موسى بن عمران (عليه السّلام) لا يعلم أن اللّه تعالى ذكره لا تجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال؟ قال الرضا (عليه السّلام):

ان كليم اللّه موسى بن عمران (عليه السّلام) علم أن اللّه تعالى منزه عن أن يرى بالأبصار و لكنه لما كلمه اللّه عزّ و جلّ و قربه نجيا رجع إلى قومه فأخبرهم أن اللّه تعالى كلمه و قربه و ناجاه فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته و كان القوم سبعمائة ألف فاختار منهم سبعين ألفا ثم اختار سبعة آلاف ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين رجلا لميقات ربه فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل و صعد موسى (عليه السّلام) إلى الطور و سأل اللّه عزّ و جلّ أن يكلمه و يسمعهم كلامه فكلمه اللّه تعالى ذكره و سمعوا كلامه من فوق و أسفل و يمين و شمال و وراء و أمام لأن اللّه أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثا منها حتى يسمعوه من جميع الوجوه فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذي سمعناه كلام اللّه حتى نرى اللّه جهرة فلما قالوا هذا القول العظيم و استكبروا و عتوا بعث اللّه عليهم صاعقة و أخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا فقال موسى يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 283

فلمّا يسأل هو الرؤية و لا تأخذه الصاعقة ثم لا يسقّه و لا ينسب إلى الظلم، فقد يتبين من ذلك أن السؤال إن كان للرؤية البصرية فهو (عليه السّلام) محمّل عليه منهم فيسألها ربه بعد إذنه تعالى إتماما للحجة و إنارة للمحجة.

و القول إن: «أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» دون «أرهم ينظروا إليك» يرد ذلك التحميل، يردّ بأنه جائز على هامش قصده الأصيل من الرؤية القمة، و أنه جمع في ذلك السؤال بين أمرين ثانيهما ما تطلبوه و لكنه خص نفسه ليظهر لهم أن استحالة رؤيتهم أحرى بعد استحالة رؤيته، فقد قدم نفسه فيما حمّل تثبيتا للسلبية الأخرى لهم في حقل الرؤية البصرية، و القول بأنه كان عليه- إذا- كرسول أن يوضّح لهم بطلان سؤالهم؟ مردود بأنه أبطله طول رسالته و هنا القصد إلى إبطاله عمليا حين تبطل رؤيته هو ربّه على محتده الرسالي!.

ثم الأظهر الأخفى أن الرؤية المسؤولة هي قمة المعرفة الممكنة باللّه، اللائقة لأول العارفين و العابدين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حيث إن تجليه تعالى «للجبل» لا «في الجبل» دليل تجلي القدرة الربانية التي لا يتحملها الجبل إلّا أن يندك، و لا بد للمثال أن يشابه الممثل في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رجعت إليهم و قالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقا فيما ادعيت في مناجاة اللّه عزّ و جلّ إياك، فأحياهم و بعثهم معه فقالوا إنك لو سألت اللّه أن يريك ننظر إليه لأجابك و كنت تخبرنا كيف هو و نعرفه حق معرفته؟ فقال موسى (عليه السّلام): يا قوم ان اللّه تعالى لا يرى بالأبصار و لا كيفية له، و أنما يعرف بآياته و يكلم بأعلامه، فقالوا:

لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى (عليه السّلام) يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل و أنت أعلم بصلاحهم فأوحى اللّه تعالى إليه: يا موسى سلني ما سألوك فلن آخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى (عليه السّلام): رب أرني انظر إليك قال لن تراني و لكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه «و هو يهوي» فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل «بآية من آياته» جعله دكا و خر موسى صعقا فلما أفاق قال‏ «سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ» يقول:

رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي‏ «وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» منهم بأنك لا ترى، فقال المأمون: للّه درّك يا أبا الحسن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 284

أهم مواضعه، و هو هنا لو كانت الرؤية البصرية للّه، لكان تجليه تعالى نفسه في الجبل دون «تجلى ربه للجبل».

ثم ما هي الصلة بين إمكانية رؤيته تعالى لموسى و بين أن يستقر الجبل مكانه في ذلك التجلي، إلّا أن يكون الجبل في ذلك التجلي مثالا لموسى (عليه السّلام) أنه لا يستطيع التجلي المعرفي القمة للّه ما دام هو موسى الذي لم يبلغ مبلغ أول العارفين إلّا أن يموت في ذلك التجلّي، ثم لا يفيده الموت أيضا أن يتجلى له ربه في الحالة التجردية البرزخية، فإنما ذلك مخصوص بأول العارفين و خاتم النبيين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حين‏ «دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏ ... وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏» (53: 12) و لو لم يكن مكلفا باستمرارية هذه الرسالة التي تتطلب مواجهة الخلق لم يخرج عن هذه الحالة التجردية المعرفية القمة، خارقة لكافة الحجب الظلمانية و النورانية بينه و بين اللّه، حتى حجاب نفسه، فلم يبق- إذا- حجاب لتلك المعرفة، إلّا ذات اللّه التي لا ترتفع لأحد «1» و هنا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أز آن ديدن كه غفلت حاصلش بود |  | دلش در چشم و چشمش در دلش بود |

و التفصيل راجع إلى آيات الأسرى.

ذلك، و علّه سأل ربه بلفظة طلبة الرؤية التي ظاهرها طلبة قومه، و هو يعني بها طلبته نفسه، جمع جميل ما أجمله يجمع بين الأمرين الأمرين الأمرّين، فليس يؤنب موسى بالأول لأنه سؤالهم، و لا بالثاني لأنه سؤله قضية الشغف البالغ في سلك المعرفة الربانية «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 66 في كتاب التوحيد خطبة للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و فيها: فتجلى،

و

من خطبة الرضا (عليه السّلام): متجلّ لا باستهلال رؤية،

أقول: و تفصيل البحث حول الرؤية مذكور على ضوء «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ ..» فراجع.

(2) و قد يساعد كون‏

سؤاله عن الرؤية المعرفية ما رواه في العلل عن علي بن أبي طالب (عليه السّلام) انه سئل مما خلق اللّه عزّ و جلّ الذر الذي يدخل في كوة البيت! فقال:

ان موسى (عليه السّلام) لما قال: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» قال اللّه عزّ و جلّ: ان استقر-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 285

«رب ارني» نفسك‏ «أَنْظُرْ إِلَيْكَ» في هذه الإراءة الربانية، ف «رب» مما تلمح أنها رؤية معرفية بعناية ربانية.

و قد وردت الرؤية في العلم و المعرفة بغير البصر في آيات عدة، بل هي أقوى من رؤية البصر، «لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» (12: 14) ليوسف حيث منعه عن أن يهم بها، ليست إلا الرؤية المعرفية المعصومة لساحة الرب.

كما أن‏ «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏» (53: 11) هي رؤية الفؤاد، و هو هنا القلب المتفئد بنور المعرفة التامة الطامة قلب العارف و كل كيانه، و هكذا «لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الجبل لنوري فانك ستقوى على أن تنظر إلي و إن لم يستقر فلا تطبق إبصاري لضعفك، فلما تجلى اللّه تبارك و تعالى للجبل تقطّع ثلاث قطع فقطعة ارتفعت في السماء و قطعة غاصت في تحت الأرض و قطعة بقيت فهذا الذر من ذلك الغبار غبار الجبل،

أقول: و ان كان في ذيله شي‏ء من الغرابة.

(1).

في معاني الأخبار للصدوق باسناده عن هشام قال: كنت عند الصادق جعفر بن محمد (عليهما السّلام) إذ دخل عليه معاوية بن وهب و عبد الملك بن أعين فقال له معاوية بن وهب: يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما تقول في الخبر المروي: إن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رأى ربه؟ على أي صورة رآه؟

و

في الخبر الذي رواه‏ أن المؤمنين يرون ربهم في الجنة؟ على أي صورة يرونه؟ فتبسم ثم قال:

يا معاوية! ما أقبح بالرجل يأتي عليه سبعون سنة و ثمانون سنة يعيش في ملك اللّه و يأكل من نعمه ثم لا يعرف اللّه حق معرفته ثم قال: يا معاوية إن محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لم ير الرب تبارك و تعالى بمشاهدة العيان و ان الرؤية على وجهين: رؤية القلب و رؤية البصر فمن عني برؤية القلب فهو مصيب و من عني برؤية البصر فقد كذب و كفر باللّه و آياته لقول رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من شبه اللّه بخلفه فقد كفر،

و

لقد حدثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي (عليهما السّلام) قال: سئل أمير المؤمنين (عليه السّلام) فقيل له: يا أخا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هل رأيت ربك؟

فقال: لم أعبد ربا لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان و لكن تراه القلوب بحقائق الإيمان، و إذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصر فإن كل من جاز عليه البصر و الرؤية فهو مخلوق و لا بد للمخلوق من خالق فقد جعلته إذا محدثا مخلوقا و من شبهه بخلقه فقد-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 286

و من رؤية العلم: «إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (6: 74) «أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ» (11: 29) «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ» (2: 243) «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ» (105: 1).

و من رؤية المعرفة بالتدبر «أَ لَمْ تَرَ إِلى‏ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» (25:) 45)- «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» (22: 18)- «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ» (24: 41).

و هكذا نجد استعمال الرؤية في مثلث العلم، و المعرفة بالتدبر، و المعرفة بالجهاد، و الأخيرة هي المعنية من رؤية اللّه، و لأنها درجات حسب درجات العارفين فهنا الجواب لموسى:

«... قالَ لَنْ تَرانِي» ف «لن» تحيل الرؤية المطلوبة و هي بين إحالة أصلية فيما يراد رؤية البصر، و رؤية نسبية في رؤية البصيرة- القمة- الخاصة بأوّل العارفين، فأنت يا موسى «لن تراني» لا هنا و لا في الأخرى ما دمت أنت موسى المحدود بحدودك، فلو رقيت إلى مرقى محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لكنت تراه كما راه هو بنور المعرفة القمة، و لكن رؤية البصر مستحيلة على أية حال و بأي مجال.

إذ «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اتخذ مع اللّه شريكا، ويلهم ألم يسمعوا لقول اللّه تعالى: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» و قوله لموسى: «لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسى‏ صَعِقاً» و إنما طلع من نوره على الجبل كضوء يخرج من سم الخياط فدكدكت الأرض و خر موسى صعقا- أي ميتا- فلما أفاق ورد عليه روحه قال سبحانك تبت إليك من قول من زعم أنك ترى و رجعت إلى معرفتي بك أن الأبصار لا تدركك‏ «وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» بأنك ترى و لا ترى و أنت بالمنظر الأعلى.

أقول: غير المصدق من هذا الحديث هو موت موسى ثم حياته لمخالفة النص.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 287

فالهرطقات الغائلة القائلة أن‏

«وعده الله أن يقعد في موضع ليراه» «1»

و ما أشبه، هي مضروبة عرض الحائط لمضادتها نصوص الكتاب و دليل العقل و الفطرة.

«وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ» جبل الطور و هو مهبط الوحي و محطه‏ «فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ» بتجلي الرب له في قدرة و قوة لا يتحملها «فَسَوْفَ تَرانِي» في تجلي المعرفة القمة التي لا تتحملها و هنا «سوف» في معاكسة الأمر تسلب تلك الرؤية في طليق المستقبل في الأولى و الأخرى و إلا كان الصحيح «فستراني» أو «تراني».

«فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» ما لا يتحمل‏ «جَعَلَهُ دَكًّا» «2» لا يستقر مكانه حيث تمزق و تفرق أيادي سبا، و بالنتيجة «وَ خَرَّ مُوسى‏» من تلك الوقعة القارعة «صعقا» إذ خرّ مغشيا عليه و لم يمت إذ ليست الصعقة هي الموت ثم هو الذي قال لما أخذتهم الرجفة «لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في نور الثقلين 2: 63 عن تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السّلام) يقول: إن موسى بن عمران (عليه السّلام) لما سأل ربه النظر إليه وعده اللّه أن يقعد في موضع ثم أمر الملائكة أن تمر عليه موكبا موكبا بالبرق و الرعد و الريح و الصواعق فكلما مر به موكب من المواكب ارتعدت فرائضه فيرفع رأسه فيسأل: أ فيكم ربي؟ فيجاب: هو آت و قد سألت عظيما يا بن عمران.

(2)

نور الثقلين 2: 66 عن كتاب التوحيد حديث طويل عن أمير المؤمنين (عليه السّلام) يقول فيه- و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات- و سأل موسى (عليه السّلام) و جرى على لسانه من حمد اللّه عزّ و جلّ: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» فكانت مسألته تلك أمرا عظيما و سأل أمرا جسيما فعوقب فقال اللّه تبارك و تعالى: لن تراني في الدنيا حتى تموت فتراني في الآخرة و لكن ان أردت أن تراني في الدنيا فانظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني، فأبدى اللّه سبحانه بعض آياته و تجلى ربنا للجبل فتقطع الجبل فصار رميما و خر موسى صعقا ثم أحياه اللّه و بعثه فقال (عليه السّلام): «سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» يعني أول من آمن بك منهم أنه لن يراك، أقول: هذا الحديث مخدوش في مواضيع عدة منها «فعوقب» كأنه سأل الرؤية البصرية، فلو سألها و كان عصيانا فكيف وعده أن يراه في الآخرة؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 288

(4: 153) و ذلك رغم أن التجلي كان للجبل دونه‏ «فَلَمَّا أَفاقَ» عن صعقته، و الإفاقة ليست إلا عن الغشوة و الخروج عن الوعي دون الموت، فمهما استعملت الصعقة أحيانا في الموت و لكنها هنا الغشية دون الموت و كما قال: لو شئت أهلكتهم و إياي، «قالَ سُبْحانَكَ» أن ترى بعين البصر، أم أن ترى بعين البصيرة فوق ما أتحمل‏ «تُبْتُ إِلَيْكَ» عما سألت‏ «وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» بك أنك لا ترى.

و هذه الأوّلية ليست زمنية، بل هي في المكانة الإيمانية- و لأقل تقدير- بالنسبة لمن يعيشهم، ثم و من قبله دون من بعده، إذ إن محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» على الإطلاق، و لو كان موسى أوّل المؤمنين في مثلث الزمان لكان يريه ربه نفسه في حقل المعرفة القمة و أحرى من محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، و لكن أين موسى (عليه السّلام) من محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هو الرسول إلى الرسل أجمعين.

فاللّه تعالى يتجلى بقدرته لخلقه قدر ما يتحملون، فإن تجلى فوقه فدكّا دكّا، كما يتجلى بآياته و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «فتجلى لخلقه من غير أن يكون يرى و هو بالمنظر الأعلى» «1»

: منظر البصر- فهو أعلى من أن ينظر إليه على الإطلاق- و منظر البصيرة الأعلى و هو المعرفة القمة العليا الخاصة بمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «2».

أجل، إن اللّه متجل لخلقه قدر المقدور لهم و المقدر لباقة و لياقة في مسالك المعرفة، ثم التجلي القمة خاصة بمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ذويه من بعده.

ذلك، فسؤال الرؤية البصرية لذات اللّه ليس إلّا من أجهل المجاهيل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير روح البيان 3: 231 روي عن ابن عباس.

(2) التوحيد عن الإمام الصادق (عليه السّلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 289

بكيان الألوهية، فالذي‏ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ» كيف بالإمكان أنى يري نفسه للأبصار، إلا بتحويل الإله المجرد عن كيانه إلى كيان خلقه، أم تحويل خلقه إلى كيانه لتتسنى الرؤية بتلك المماثلة.

و حين لا تحس أية حاسة أيّ محسوس إلّا ما يساميه أو يساويه في حقل الإحساس، فلا يحس الطعم باللّامسة و لا يلمس بالباصرة و لا يبصر بالسامعة، و لا يسمع بالباصرة، فكيف يرجى أن يحس أو يمس أو يجس غير المحسوس بأحد من الحواس الخمس، في أيّ من عوالم الوجود.

و لأن المستحيل ذاتيا لا تتعلق به القدرة فلا يمكن أن يري اللّه نفسه رؤية البصر، اللّهم إلا رؤية البصيرة المستطاعة لمن يبصر.

فرؤية الرب منها مستحيلة ذاتية هي بإبصار ذاته تعالى حيطة ببصر أم بصيرة، إدراكا إياه، إذ «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ»، أم نسبية هي البصيرة معرفة بالقلب، بمرتبة هي أعلى من محتد الرائي، كما المعرفة القمة لموسى (عليه السّلام)، أم ممكنة مأمور بها و هي سائر درجات المعرفة الربانية لسائر الخلق أجمعين، فعلى كلّ قدر مستطاعه من معرفة اللّه و عبوديته و «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها».

فمثل‏ «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ» (75: 23) موجهة إلى وجوه القلوب، و كما تؤيده‏ «وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» حيث الظن هو من أفعال القلوب.

فمهما يكن من شي‏ء هنا، من أقصى دلالة النص، أن موسى تطلّب الرؤية و هي بين مثلثها، فلتفسر بمحكمات ك «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ» و بجنبها محكمات أدلة العقول و الفطر، التي تحيل الرؤية بالبصر، ثم رؤية المعرفة المستطاعة بحول العارف و قوته لا تحتاج إلى «أرني» كما و أن محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏» دون تطلب لها: «أرني» فلم تبق إلا الرؤية فوق المستطاعة، الممكنة في ذاتها و هي المعرفة القمة، و بجنبها نقل لتطلّب قومه بما أذن اللّه.

ذلك، و ليست الرؤية المعرفية تعني كل درجة منها، و إنما البالغ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 290

فيها ذروة من اليقين لحد يصح التعبير عنها بأنها رؤية ف «اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فالرؤية الأولى هي محسوب بحساب الرؤية المعرفية البالغة و لها درجات أعلاها الرؤية المحمدية إذ «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏. أَ فَتُمارُونَهُ عَلى‏ ما يَرى‏. وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏» (53: 14) «1».

فالحجاب عن الرب الممكن خرقه هو حجاب المعرفة برين القلوب: «كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ. كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» (83: 15) فتلك إذا هي رؤية القلب المحجوب برينه.

ذلك، و موسى الرسول الذي لا تصعقه الآيات الكبرى الربانية إلّا خوفا مّا لأول وهلة، انقلبت عصاه حية تسعى، هذا الرسول يصعقه اندكاك الجبل بما تجلى له ربه، حيث كانت سائر الآيات تجلّيات مستطاعة لما تجلى له مهما كانت خارقة العادة، و هذه غير مستطاعة للجبل بذلك التجلي فوق الطاقة له.

هذا، و يعاكس نصّ القرآن في استحالة الرؤية المطلوبة نصّ التوراة في واقعها كما في سفر الخروج 23: 9 ثم صعد موسى و هارون و ناداب و أبيهو و سبعون من شيوخ إسرائيل. و رأوا إله إسرائيل و تحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف و كذات السماء في النقاوة و لكنه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا اللّه و أكلوا و شربوا!.

و حصيلة البحث في حقل الرؤية أنها- على أية حال- هي الوصول إلى المرئي بعين اليقين فوق علمه، ثم و حق اليقين بمراتبها، فإن كانت بالبصر فكما تناسبه، و إن كانت بالبصيرة فكما تناسبها، و الرؤية الحيطة المعرفية باللّه مستحيلة على من سوى اللّه في كافة النشآت إذ لا يحيط المحدود باللّامحدود، و المعرفة القمة العليا التي لا تساوى و لا تسامى هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 291

خاصة بأوّل العابدين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في كافة النشآت مهما كانت في الأولى أضيق دائرة قضية ضرورة المواجهة الرسالية مع المرسل إليهم، و لا يشاركه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أيّ من السابقين و المقربين من جبريل الأمين و الروح و سائر المعصومين عليهم سلام اللّه أجمعين، و هذه هي التي تطلّبها موسى من ربه- كما سمع الكلام فطمع في الرؤية- فأجيب ب «لن تراني» المحيلة لتلك الرؤية له في الدنيا و الآخرة، و الرؤية البصرية هي بديهية الاستحالة في كافة الموازين و المقاييس.

و «لن تراني» هي أظهر في استحالة تلك الرؤية المطلوبة المعرفية من البصرية، فإن كان القصد إلى الرؤية البصرية لكان النص «لا أرى» دون «لن تراني» و «لن» إذا تحيل تلك الرؤية الخاصة لموسى (عليه السّلام) لأنه أدنى محتدا منها، و حين لا تصل بصيرة المعرفة الربانية الموسوية إلى تلك القمة السامقة فهل يصل بصر المعاينة لقومه و أضرابهم إلى رؤية ذاته القدسية؟!.

و عدم استقرار الجبل مكانه لما تجلّى ربه له يقرر الاستحالة النسبية لتلك الرؤية المعرفية لموسى (عليه السّلام). و مما يؤكد عناية الاستحالة لمدخول «لن»- «سبحانك» تنزيها للّه أن يكون يرى، و لا تتقيد «سبحان» بزمان دون زمان و إلّا فلا سبحان، ف «سبحان» في كل مجالاتها تنزيه للّه عما يمس من كرامة ألوهيته و ربوبيته، كما و «تُبْتُ إِلَيْكَ- وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» هما الأخريان من آيات استحالة تلك الرؤية بصرا أم بصيرة.

ذلك و لقد حاول جمع بمختلف المحاولات أن يجعلوا هذه الرؤية التي تطلبها موسى إدراكا بالبصر أم بالبصيرة، دون إبقاء لكيان من المدرك إلّا أن يدركه.

فمن قائل غائل إن اللّه لا يعجزه أمر لمكان قدرته الطليقة الحقيقية لإجابة أي أمر و سؤل، فهنا «أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» له جانبان اثنان، أرني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 292

بترفيعي إلى مكانة الرؤية، أم تنزيلك إلى مكانتي في الرؤية، و هما مستحيلان ذاتيا أو نسبيا، ففي الرؤية البصرية يعني الترفيع التجريد الطليق عن حالة الإمكان لكي يتمكن من رؤية المطلق، و يعني التنزيل تجريده عن التجرد حتى تتسنى الرؤية قضية المجانسة في الجسمانية و المحدودية، و في الرؤية المعرفية القمة أن يترفع إلى تلك القمة أو يتنزل ربنا إلى هذه المحدودية المعرفية، فالأول مستحيل نسبيا ما دام موسى هو موسى، و الثاني مستحيل ذاتيا إذ لا يتغير ربنا سبحانه و تعالى بأي غيار و بأي معيار.

ذلك و كافة المحاولات الفلسفية أو العرفانية هي محاولات خرفانية إلّا ما أشرنا إليه على ضوء الآية و ما يفسرها من آيات.

و في حقل المعرفة القمة التي هي مرغوبة لكل عارف‏ «لَنْ تَرانِي» هي كلمة واحدة لكافة المقربين إلّا خاتم النبيين و أول العارفين و العابدين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و

قد يروى أنه‏ لما قال موسى (عليه السّلام): «أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» كشف الحجاب و أبرز له الجبل و قال أنظر فنظر فإذا أمامه مائة ألف نبي و أربعة و عشرون ألف نبي محرمين ملبين كلهم يقول: «أرني أرني» (43)

و

في الحديث‏ «ما رأيت شيئا إلا و قد رأيت الله قبله و بعده و معه و فيه» (44)

و

«لم أعبد ربا لم أره»

«لم تره العيون بمشاهدة الأبصار و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»

«.. و ليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى الله عما يصفه المشبهون و الملحدون» (45)

و

«كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا نظر إلى ربه بقلبه جعله في نور مثل نور الحجب حتى يستبين له ما في الحجب» (46).

ذلك، و في نظرة أخرى إلى الآية «قال رب» لمحة لاستدعاء ما لم يصل هو إليه و ليس يصله بنفسه فاستدعاه تعالى أن ينعم عليه في تلك الرؤية المعرفية بنعم.

ثم «أرني» دون متعلّق من «نفسك و ما أشبه» تحاش أدبي أمام ربه سبحانه، و كأنه يستدعيه ما يراه صالحا من درجات الرؤية غير الحاصلة له، و كما يراه ربه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 293

و من ثم‏ «أَنْظُرْ إِلَيْكَ» ربا، نظرا يناسب محتدك الربوبي، فقد يقرب أنه ك «ناظرة» في‏ «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ» نظرة بوجه القلب الفؤاد.

و حين يؤنّب نوح (عليه السّلام) بعرضه: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ» عرضا- و لمّا يسأل- بقوله تعالى: «إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» و لا يؤنب موسى بسؤاله الرؤية، فقد نتأكد قطعيا أنه لم يكن سؤالا محظورا في أصله، به مس من كرامة ربه، و إنما سأل فوق قدره، فأجيب بمثال فوق قدر للجبل.

ذلك، و الرؤية هي أعم من رؤية البصر، بل البصيرة فيها أحرى لأنها أمكن و أقوى ك «لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» (12: 24) و «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏» (53: 11) «وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا» (7: 149).

و على أية حال لأن الرؤية هي الإدراك أو ما دونه و هما يعمان رؤية البصر و البصيرة، لذلك ليست لتختص برؤية البصر و لا رؤية البصيرة اللّهم إلّا بكلّ بقرينة، و لأن إفراد النص «أرني» دون «أرنا أو- أرهم» يرينا أن موسى (عليه السّلام) إنما تطلب الرؤية لنفسه، فقد نتأكد أنها كانت رؤية معرفية بصيرة، دون المعاينة بصرا، إذ لو كانت بصرا لكان يجمع:

«أرنا» حيث الأصل في ذلك التطلبة الحمقاء هم قومه دونه، أم و إذا شملت الرؤية البصرية فلما ذا سألوها و أذن اللّه، و إنما أفرد لكي يعرفوا بسلبيتها عن نفسه سلبها عنهم بأحرى، و لقد كان سؤال الرؤية البصرية بإذن اللّه حملا عليه ثقيلا عله أثقل من حمل ابتلاء إبراهيم بذبح ولده إسماعيل.

ذلك، و هنا «أرني» دون «أرنا- أو- أرهم» كما بينا، تجعل الأصل في السؤال الرؤية الممكنة الصالحة و هي المعرفة القمة، و على هامشها الرؤية المسؤولة الحمقاء، فحين سمع- أم و سمعوا-: «لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ ..» تأكدوا من عدم إمكانية رؤيته المسؤولة لهم، فحين لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 294

يستجاب موسى الرسول في تطلب هكذا رؤية فبأحرى هؤلاء البعيدون.

فقد جمع موسى في سؤاله بين مستحيل الرؤية بناء على طلبهم بإذن اللّه، و بين الرؤية الممكنة لمن سوى اللّه في قمتها، فلم يستقل في سؤاله كلا منهما لوحدها، تحاشيا عن محظور، و لكنه هيمانا لمعرفة عليا، و تطبيقا لأمره تعالى بسؤاله الرؤية المقترحة، يقول: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» فإن فيه جماع الأمرين الأمرين، ثانيهما أمر من الأوّل لأنه سؤال الجاهلين، و أولّهما يحمل رجاء إذ لم يرهو من نفسه أن يصل بجهاده و جهوده إلى المعرفة القمة المحمدية، فتطلب من ربه أن «أرني» فجاء الجواب كلمة واحدة «لن تراني» أنت كموسى على محتدك المحدد بالمعرفة الموسوية، و لا هم أيا كانوا بالرؤية البصرية.

و قد ترتسم رؤية الرب في مربع: 1 مستحيلة ذاتيا ببصر العين المعاينة 2 أم ببصيرة مدركة محيطة بالرب، 3 أو مستحيلة نسبيا كالرؤية المعرفية ما فوق الطاقة و المقدرة المقررة لمن دون المعصومين (عليهم السّلام). 4 ثم ممكنة مأمور بها كأصل المعرفة، و قد تطلب موسى لنفسه الرؤية القمة التي هي فوق كيانه المعرفي، و على هامشها الرؤية البصرية المقترحة من قومه فجاء الجواب «لن تراني» و الأصل رؤيته الخاصة، و هي المناسبة ل «وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ..» دون المستحيلة، فانها مبرهنة البطلان و الاستحالة دون حاجة إلى برهنة حسية.

ذلك، فلا موقع لعرفانيات خرفانيات و فلسفيات تتعدى عن طور المعرفة الصالحة إلى خرافة الحلول، أو الوحدة الحقيقية للوجود خالقا و مخلوقا و ما أشبه من هذه الهرطقات البعيدة عن العقلية و الفطرة السليمة، و عن نصوص الكتاب و السنة. فثالوث الصلاحات المنطقية و الفلسفية و العرفانية، هي خارجة عن دور معرفة اللّه الصالحة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من قيلاتهم الغيلات الويلات «بسيط الحقيقة كل الأشياء» توحيدا بين الحقيقة البسيطة الإلهية و كافة المركبات الخلقية!-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 295

ذلك، فليس التدلي المعرفي انمحاء الذات المحمدية عن بكرتها أو اتحادها بذات اللّه، أو تبدلها بها، فإن تبدّل الممكن بالواجب قوسا صعوديا، كتبدل الواجب بالممكن قوسا نزوليا، كلّ منهما تجاف عن كيانه ممكنا أو واجبا، و التجافي غير التبدل، و التبدل تناقض حين يراد منه التحول على حالته إلى الحالة الأخرى و انمحاء حيث يراد زوال كل و حدوث الآخر.

إنما هي غاية المعرفة الممكنة بإزالة كافة الحجابات تفاضلا دون إزالة حقيقية، فحين يتغافل الإنسان عن كل شي‏ء يتجلى له ربه كما يصح و يمكن.

فلا يتصاعد الخلق إلى كيان الخالق، و كما لا يتنازل الخالق إلى كيان الخلق. و كل ما في الدور هنا تقرب الخلق إلى الخالق معرفة و عبودية، دون وصول أو اتصال أو فناء حقيقي، اللّهم إلا التناقل القاصد عن كافة الحجابات الممكنة الزوال.

ذلك، و على زغم البراهين الفطرية و العقلية و نصوص الكتاب و السنة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و يقول ابن العربي: «سبحان من أظهر الأشياء و هو عينها» اعتبارا انه التوحيد الحقيقي و كما يعتبر الثالوث عند المسيحيين هو التوحيد الحقيقي المعبر عنه بتوحيد التثليث و يقول: فإن قلت بالتشبيه كنت مشبها و إن قلت بالتنزيه كنت معطّلا و إن قلت بالأمرين كنت مسودا و كنت إماما في المعارف سيدا.

و يقول صدر الدين القونوي: «فقل الله و ما سواه عدم بحت» و على ضوء وحدة حقيقة الوجود و الموجود يقولون ما يعنيه: اگر مسلم بدانستى كه بت چيست يقني كردى كه دين در بت پرستى است.

و يقول ابن العربي «إن الله شاء أن يعبد في كل صورة» و قال في قوله تعالى: «وَ قَضى‏ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» بأن: «هذه قضاوة تكوينية، أي واقع الأمر كذلك، فعبدة الأوثان و الأصنام عبدة الله» و قال أيضا: إن فرعون قد غرق في بحر التوحيد، و قال في الفص الهاروني من كتاب فصوص الحكم: إن غضب موسى على هارون إنما كان لأجل منع هارون بني إسرائيل عن عبادة العجل، و عن إلقاءه التفريق بينهم حيث كانوا عبدة اللّه، فلهذا أخذ موسى بلحية هارون!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 296

نرى مختلقات توراتية- هي من مصادر روايات الرؤية البصرية- تقول:

«إن الله خلق آدم على صورته كما في (التكوين 5: 1: 3)» هذا كتاب مواليد آدم. يوم خلق اللّه الإنسان على شبه اللّه عمله. ذكرا أو أنثى خلقه و باركه و دعا اسم آدم يوم خلق».

و ما يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «ان الله خلق آدم على صورته» هي بين مقطعة و مأولة «1» ذلك، و الرؤية البصيرة- إضافة إلى جسمانية المرئي- هي بحاجة إلى فاصل الهواء، و كما

يروي عن أبي الحسن الثالث (عليه السّلام) قوله: «لا تجوز الرؤية ما لم تكن بين الرائي و المرئي هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء و عدم الضياء بين الرائي و المرئي لم تصح الرؤية و كان في ذلك الاشتباه، لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه و كان في ذلك التشبيه، لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ففي التوحيد و العيون باسناده عن الحسين بن خالد قال‏ قلت للرضا (عليه السّلام) يا بن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! إن الناس يروون أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: إن اللّه خلق آدم على صورته! فقال (عليه السّلام): قاتلهم اللّه لقد حذفوا أوّل الحديث، إن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مرّ برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبح اللّه وجهك و وجه من يشبهك، فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك فإن الله عز و جل خلق آدم على صورته» و فيه عن علي (عليه السّلام) مثله‏

، و

روى الزهري عن الحسن أنه كان يقول: مر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) برجل من الأنصار و هو يضرب وجه غلام له و يقول:

«قبح الله وجهك و وجه من يشبهك»، فقال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «بئس ما قلت، فإن الله خلق آدم على صورته».

ذلك و من تأويله ما

رواه الصدوق في التوحيد عن محمد بن مسلم قال‏ سألت أبا جعفر (عليهما السّلام) عما يروون أن اللّه عزّ و جلّ خلق آدم على صورته؟ قال: هي صورة محدّثة مخلوقة اصطفاها اللّه و اختارها على سائر الصور المختلفة فأضافها إلى نفسه كما أضاف الكعبة إلى نفسه و الروح إلى نفسه ...

(2) مشكلات الأخبار (1: 198) للسيد عبد اللّه شبّر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 297

[سورة الأعراف (7): الآيات 145 الى 156]

وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (145) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (146) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (147) وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى‏ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ (148) وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (149)

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى‏ إِلى‏ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)

وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155) وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (156)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 300

قالَ يا مُوسى‏ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144).

هنا طمأنة لخاطر موسى المحروم عن الرؤية القمة المعرفية ب «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ» لا على المرسلين ككلّ «برسالاتي» التي تحملها إلى الناس «و بكلامي» إياك، و ذلك حدّك الذي حددته لك‏ «فَخُذْ ما آتَيْتُكَ» دون ما ليس لك‏ «وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» ما آتيتك من الرزق المقسوم، فلا تحزن و لا يضق صدرك بحرمانك عن تلك الرؤية القمة، و اكتف بما أعطيت، و كن من الشاكرين اللّه عليه.

«اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ..» ل

«إني قلبت عبادي ظهرا لبطن فلم أجد فيهم أحدا أذل لي نفسا منك ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 67 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: أوحى اللّه عزّ و جلّ إلى موسى (عليه السّلام) أن يا موسى أ تدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا رب و لم ذاك؟ قال: فأوحى اللّه تبارك و تعالى إليه يا موسى ...

يا موسى إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب- أو قال- على الأرض،

و

فيه عن علل الشرايع باسناده إلى محمد بن سنان عن إسحاق بن عمار قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السّلام) يقول: إن موسى (عليه السّلام) احتبس عنه الوحي أربعين أو ثلاثين صباحا، قال: فصعد على جبل بالشام يقال له: أريحا فقال: يا رب إن كنت حبست-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 301

و الاصطفاء هو استخلاص الصفوة الصالحة بين الناس و من أشبه، و هكذا يكون كل رسل اللّه أنهم مصطفون على كل الناس الذين هم أرسلوا إليهم، من مرسلين ككل مثل خاتم النبيين (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أم نبيين إسرائيليين و من سواهم من المكلفين أجمعين كموسى (عليه السّلام).

وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (145).

«الألواح» هنا هي ألواح التوراة، ثم «و كتبنا» هي كتابة ربانية كما الكلام رباني، فلم يكن هنا و هناك وسيط غير رباني في الكتابة و الكلام، فقد «كلمه ربه» و كتب «في الألواح» و فيه‏ «مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» تحتاجه الأمة التوراتية من شرعة «موعظة» هي جانب العظة التوراتية «وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» من الأحكام و سائر المعارف الربانية لدور الشرعة التوراتية «فخذها» ما كتبناها «بقوة» إيمانية رسولية و رسالية علمية و عقيدية و عملية «وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها» و كلّها الحسنى لردح الزمن الرسالي التوراتي‏ «سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ» هنا و يوم الدين، و الفاسقون هنا هم المتخلفون عن التوراة، المستكبرون أمامها، و ترى كيف‏ «يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها»؟ و هي كلها الحسنى!.

هنا «أحسنها» قد تعني أحسن قوة، أن خذوها بأحسن قوة فإنها أقرب مرجعا و أصلح معنى، و هنا «أحسنها» دون موسى فإنها له «بقوة» فإن قواتهم كانت مادية ناحية منحى الشهوات، و أما موسى ف «بقوة» رسولية و رسالية عاصمة عن كل زلة و علة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عني وحيك و كلامك لذنوب بني إسرائيل فغفرانك القديم، قال: فأوحى اللّه عزّ و جلّ إليه: يا موسى بن عمران أ تدري لما اصطفيتك لوحيي و لكلامي دون خلقي؟ فقال: لا علم لي يا رب، فقال: يا موسى اني اطلعت إلى خلقي اطلاعة فلم أجد في خلقي أشد تواضعا لي منك فمن ثم خصصتك بوحيي و كلامي من بين خلقي قال: و كان موسى (عليه السّلام) إذا صلى لم يتنفل حتى يلصق خده الأيمن بالأرض و الأيسر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 302

أم تعني أحسن أخذة، دون أن يأخذوها علميا و يتركوها بغيره، أم يأخذوها عقيديا و يتركوها عمليا، فهي إذا أخذة شاملة كاملة تحلّق على كل واجهات التوراة علميا و عقيديا و تطبيقيا و دعائيا.

هذا و من «أحسنها» هو أحراها بالأخذ في دوران الأمر، ففي الواجبات أوجبها، و في المندوبات أندبها، ثم في المحرمات تركا لها أشدها و كذا في المرجوحات، و من ثم فيما يتقرب به إلى اللّه على ضوء شرعة اللّه يأخذوا بأشقها فإن أفضل الأعمال أحمزها.

و باحتمال خامس القصد من أحسنها كلّها، لأن كلها هي الحسنى فهي من إضافة الشي‏ء إلى نفسه، فموعظة التوراة و تفصيلها لكل شي‏ء، هما أحسن مما في سواها من كتابات الوحي على مدار الرسالات حتى اختتام شرعة التوراة.

ثم الأحسن المطلق هو وحي القرآن: «وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ» (39:) 55).

و من الفوارق بين التوراة و القرآن أن التوراة «مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ»: بعضا منهما، و القرآن‏ «تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» كما أن رسول القرآن هو شهيد الشهداء رسوليا و رساليا: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى‏ لِلْمُسْلِمِينَ» (16: 89) «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً» (17: 9) و كما يذكر بعد التوراة و الإنجيل مهيمنا عليها: «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 68 في كتاب الاحتجاج عن عبد اللّه بن الوليد السمان قال قال أبو عبد اللّه (عليه السّلام): ما يقول الناس في أولي العزم و صاحبكم أمير المؤمنين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 303

ثم اللوح هو صحيفة معدّة لأن يكتب فيها، لائحة ظاهرة لمن يقرءها، من لاح البرق إذا لمع، إذا فألوح الألواح هنا هو لوح قلب موسى (عليه السّلام) له و لمن يقرء الرسالة التوراتية من قاله و حاله و أعماله، ثم هو لوح التوراة حيث كتبه اللّه بيده، و من ثم ألواح صدور و قلوب المؤمنين بها، و ألواح قالاتهم و فعالاتهم، فالكتابة هنا- إذا- تعم أصلها من اللّه، و فصلها من أهل اللّه رسلا و مرسلا إليهم.

ذلك، و أما ما هي نوعية الألواح المكتوب فيها التوراة؟ فقد أجمل عنها القرآن، فلا علينا أن نعرف ماهية؟ بعد ما نعرف التوراة التي هي الأصل فيها، و قد وردت فيها آثار مستغربة و أخرى مستقربة إلى التصديق‏ «1».

ثم‏ «دارَ الْفاسِقِينَ» الموعودة إراءته لهم قد تعني إلى دور الفسوق هنا «2» و الدار الدنيا لأهليها الفسقة و في الأخرى، تعني الأرض المقدسة التي كتب اللّه لهم، و قد كانت دار الفاسقين من العمالقة المشركين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السّلام)؟ قال قلت: ما يقدمون على أولي العزم أحدا، قال فقال أبو عبد اللّه (عليه السّلام): إن اللّه تبارك و تعالى قال لموسى (عليه السّلام): و كتبنا له في الألواح من كل شي‏ء موعظة .. و لم يقل: كل شي‏ء، و قال لعيسى (عليه السّلام): و لأبين لكم بعض الذين تختلفون فيه و لم يقل: كل شي‏ء و قال لصاحبكم أمير المؤمنين (عليه السّلام): قل كفى باللّه شهيدا بيني و بينكم و من عنده علم الكتاب و قال اللّه عزّ و جلّ: «وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ» و علم الكتاب عنده.

(1). كما

في الدر المنثور 3: 130- أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح أثنى عشر ذراعا.

(2)

نور الثقلين 2: 70 في تفسير العياشي عن محمد بن سابق بن طلحة الأنصاري قال: كان مما قال هارون لأبي الحسن موسى (عليه السّلام) حين دخل عليه: ما هذه الدار؟

قال: هذه دار الفاسقين، قال: و قرأ هذه الآية، فقال له هارون: فدار من هي؟ قال:

هي لشيعتنا قرة و لغيرهم فتنة قال: فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟ قال: أخذت منهم عامرة و لا يأخذها إلّا معمورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 304

ذلك، و في نظرة أخرى إلى الآية «مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» لا تعني «كل شي‏ء» على الإطلاق، و لا كل شي‏ء من دين اللّه الموزع على الشرائع الخمس، بل هو «مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» تصلح للشرعة التوراتية لزمنها، ف «كل شي‏ء» في حقل شرعة اللّه تعني الدين كله، و «من» هنا تعني بعضا منه يختص بالدور التوراتي و كما تعنيه‏ «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ..» (42: 13).

ثم «موعظة» تليينا لهم بعد بالغ الحجة التي تحويها هذه الألواح، و من ثم‏ «تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» تخص الشرعة التوراتية، دون كل شي‏ء كما القرآن، المهيمن على ما بين يديه من كتاب، الحاوي لزيادة عليه يحتاجها المكلفون إلى يوم الدين.

«فَخُذْها بِقُوَّةٍ» في بعدي العصمة البشرية التي حصلت عليها قبل العصمة الرسالية، و هذه العصمة الرسالية، تكريسا لكل قواتك لأخذ الألواح علميا و عقيديا و عمليا رسوليا و رساليا.

«وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها» و هنا مفعول «يأخذوا» محذوف معروف من ذي قبل و هو الألواح، فالباء في «بأحسنها» لا تعني التعدية، فهي في مثلث العناية: ابتداء و مصاحبة و سببية، أن يكون بازغ أمرهم «أحسنها» مصاحبين إياه و متسببين به إلى كل خير.

و «أحسنها» كما أسلفناه هو أحسن أخذة و أحسن قوة، و أحسن نفسية و نفاسة حيث الألواح كلها أحسن، ثم و أحسن عند دوران الأمر بين المهم و الأهم فيها، أم و الأخذ بالأحسن هو أقل تقدير في تلك الأخذة بالقوة، دون و خزة.

فيقرب خماسية بأحسنها في مثلث معاني الباء تصبح المحتملات خمسة عشر احتمالا: أخذا بأحسن أخذة ابتداء و مصاحبة و سببية، و بأحسن قوة كأخذة، و بأحسنها ككل، ابتداء بالكل و مصاحبة للكل و تسببا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 305

بالكل، و بأحسنها عند دوران الأمر، ابتداء به و مصاحبة و تسببا، و بأحسنها نسبيا.

و المحتملات الخمسة عشر كلها صالحة للعناية من «بأحسنها» أدبيا و معنويا.

و إذا كان الأخذ بأحسنها فريضة توراتية، فبأحرى الفريضة القرآنية، يجب أخذها بأحسن أخذة و أحسن قوة و سائر الأحسن دون أي فتور.

استقطابا و تكريسا لكافة الطاقات الحاضرة و المستحصلة لتحقيق حقيق بالقرآن بكل حقوله الدراسية و العقيدية و العملية و الدعائية.

و أين هذا مما تعيشه الحوزات الإسلامية من رفض القرآن، مهما خيّل إليها أنه أول الأدلة الشرعية، و لكنك لا تجده وجدا صالحا في العلوم الحوزوية عن بكرتها!.

و هنا «سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ»- و هي الجحيم بدركاتها- تهديد مديد بهؤلاء الذين لا يأخذونها بأحسنها، تركا لأية أخذة بأية قوة، أم أخذة بوخزة.

و من المسائل المستفادة هنا أن الأمر هو برهان الفرض، فإن تاركي هذه الأخذة التوراتية مهددون بدار الفاسقين، الذين يفسقون عن أمر اللّه بلسان رسوله، و أن الأمر بالأمر كما الأمر من أدلة الفرض.

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (146).

«سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ» كلها، رسولية و رسالية، تكوينية و تشريعية، صرفا عن نقضها أو النقص منها، و صرفا عن الإيمان بها قضية استكبارهم في الأرض بغير الحق.

فهنا صرف عن آيات اللّه حفاظا عليها من دوائر المتكبرين، و صرف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 306

لهم عنها ألا يؤمنوا بها حيث عاشوا تكذيبها و التغافل عنها، جزاء وفاقا.

فالمتكبر في الأرض بغير الحق- و كل تكبّر في الأرض هو بغير الحق و ليس التكبر مع المتكبر تكبرا في الأرض بل هو خاص بحقله الخاص- هو مصروف عن آيات اللّه، و من منتجات ثاني الصرفين- الذي هو من منتجات‏ «بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ» بعد تكبرهم في الأرض و قضيّته- إن منها «وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها» كرأس الزاوية من ثالوث منتجاتهم‏ «وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» رغم رؤيتهم‏ «إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» جبلة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رأته، و تجنح إلى سبيل الغي حيثما لاح لها.

إذا فهي جبلة الغي و الضلال إذ هي تعاكس الحق إلى الباطل و الباطل إلى الحق: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 104).

فهنا سببان اثنان تلو بعض، و نتيجة بعضها البعض، هما «يتكبرون- كذبوا ..» و هما الموجبان لصرفهم عن آيات اللّه، و لثاني الصرفين ثالوث «لا يؤمنوا بها- لا يتخذوه- يتخذوه».

هذا، و ذلك تهديد شديد مديد بما يحاوله المتكبرون من نقض القرآن و نقصه أو نقده، و لحد الآن ما استطاعوا على شي‏ء من ذلك و لن، و كذلك يهدّدون أن يصرفوا عن تفهّم القرآن كما يحق نتيجة تكذيبهم به، فهم في ريبهم يترددون.

ذلك و هنا لك صروف أخرى «عن آياتي» أن يصبحوا فاضي الأيدي و الأبصار عن آيات اللّه البينات بكل حصائلها و وسائلها، صرفا عن بيناتها، و زياداتها، و نقضها، و النقص فيها، و الصد عنها، ثم و اجتياحهم و اصطلامهم صدا عن كل ما يريدون من دوائر السوء بها، فتصبح الآيات النافعة لمن يبصرون إليها و بها، اليافعة لهما في الأولى و الأخرى، تصبح لهم ضارة فيهما.

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 307

ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (147).

أولئك‏ «حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ» الصالحة عن آثارها الأخروية مهما كانوا موحدين فضلا عن المشركين و الملحدين حيث الحبط في مقام العقوبة ليس إلّا في حقل الحسنات، فتتمحض الأعمال في السيئات، و أصل الحبط من قولهم: حبطت الناقة إذا رعت نباتا سامّا فانتفخ بطنها ثم نفقت، فهؤلاء الأنكاد يتنفخون و يتنفجون بمظاهر من زخرفات الحياة، فيحسبهم الجاهل على شي‏ء من القوة و المكانة، ثم ينفقون كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السامّ، فالتكذيب بآيات اللّه يعم مثلث التخلف في حقل الإلحاد 1 تكذيبا باللّه، 2 و الإشراك تكذيبا بتوحيد اللّه، 3 و التوحيد تكذيبا بشرعة اللّه المحكّمة.

ثم‏ «وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ» تكذيبا لأصل لقاءها، أم حق لقاءها إلى باطله كمن يخيّل إليهم أن اللّه لا يحاسب عباده يوم لقاءها أم يعفو عنهم جميعا، أماذا من الضلال تصورا خاطئا عن لقاء الآخرة.

«هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ» فإن حبط أعمالهم في الأخرى هو نفسه حبطها في الأولى، لخبطها بفراغها عن الإيمان الصالح، إذا فالجزاء هو نفس العمل دون مغايرة بينهما أو زيادة، و هذه الضابطة برهان لا مردّ له على أن لا جزاء بمجرد النية في حقل العقوبة، مهما كان الجزاء بصالح النية، فإنه قضية فضله تعالى، و ذاك قضية عدله، فلا جزاء في قسطاس العدل لمجرد النية الطالحة إلّا مجرد النية الطالحة دون أية عملية عقوبية، فالقصد من العمل هو الحالة الفعلية من قالة أو عقيدة أو عملية، و ليست النية بالنسبة لها إلّا حالة شأنية، إذا فقضية العدل هي فعلية بفعلية و شأنية بشانية، اللهم إلا في نية الخير فإن فعلية الثواب لها هي من قضايا فضله تعالى.

أجل، قد يصح القول إن نية السوء محرمة فيما إذا أدت إلى فعل السوء لأنها- إذا- من الإثم- و هو كل ما يبطئ عن الثواب-، و لكن الجزاء هنا يختص بواقع السوء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 308

فحتى لو شملت‏ «ما كانُوا يَعْمَلُونَ» النية الطالحة «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ» تقرر الجزاء بظهور نفس النية مظهر العذاب النفسي دون واقع له آخر خارج عن نفس النية.

فذلك الاستنكار يستنكر القول: إن المخلدين في النار مؤبدون فيها لغير نهاية مهما كانت أعمالهم محدودة، إذ كان من نيتهم السوء أن لو ظلوا أحياء لغير النهاية لاستمروا في سوء أعمالهم؟ حيث تدلنا هذه الآية و أضرابها أن لا دور للنية الطالحة في حقل العقوبة العملية قضية العدالة مهما كان للنية الصالحة دور في حقل المثوبة بفضل من اللّه و رحمة!.

و هنا احتمال آخر في‏ «ما كانُوا يَعْمَلُونَ» هو أن الجزاء حسنا و سيئا ليس إلّا بالعمل، فلما حبطت حسناتهم فلم تبق لهم إلّا سيئات فهم- إذا- مجزيون- فقط- بسيئات حيث‏ «قَدِمْنا إِلى‏ ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً» (25: 23).

و ترى أن حصر الجزاء فيما كانوا يعملون كما ينفي العقاب عن نية السوء، كذلك ينفيه عن ترك الواجب لأنه ليس عملا، فيختص بفعل الواجب و الحرام دون تركهما؟.

كلّا حيث العمل يشمل الإيجاب و السلب، فكما أن فعل الواجب عمل كذلك تركه لأنه باختيار، و هكذا فعل الحرام و تركه، فالمعنيّ من العمل في موقف الثواب و العقاب هو الفعل و الترك، اللذان هما بالفعل فعل إذ لا يتحققان إلّا باختيار الواقع فعلا و تركا.

و لو أن العمل يختص بالموجب دون المنفي فقد تكفي الآيات المهدّدة لترك الواجبات و المرغّبة إلى ترك المحرمات، تكفي توسعة في حقل الجزاء من العمل إلى تركه.

و بوجه ثالث قد تعني هنا «بما تعملون» فقط الحسنات بقرينة الإحباط، فالذين تحبط حسناتهم فبماذا يثابون و ليست لهم حسنات، فإنما يعاقبون عقابا خالصا بعد فالس الحسنات و كالسها، بما فعلوا من عصيانات و تركوا من واجبات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 309

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى‏ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ (148).

قصة العجل الجسد الذي له خوار مفصلة بحذافيرها في «طه» «1» فلا نعيدها، و لا نعيد هنا إلّا قصة الحلي المذكور هناك بصيغة «زِينَةِ الْقَوْمِ» أنها كانت من حليّهم دون حلي آل فرعون، لمكان «حليّهم».

و هنا «جسدا» وصفا متميزا ل «عجلا» تخرجه عن كونه حيا، فإن «عجلا» تكفي لكونه حيا، فلا دور إذا ل «جسدا» إلا تجسيد العجل الذهبي ذهبيا كما «أخرج لهم السامري» و لأن السامري لم يكن ليخرج لهم إلّا ما أخرج، دون معجزة تحويله إلى عظام و لحم، فضلا عن إحياءه كسائر العجل التي يخلقها اللّه، فقد نتأكد بهذا أو ذاك أن العجل لم يتحول عن البنية الذهبية إلى غيرها بحياة و غير حياة، و أما «له خوار» فلأن «خوار» هو صوت العجل الحقيقي فليكن خواره الحقيقي، إلّا أن «جسدا» يفصل عن ذلك.

و لأن «له خوار» دون «للسامري فيه خوار» أم بجري الريح من دبره إلى فمه خوار، لذلك فليس- إذا- خواره إلا بما أخار اللّه من صوت العجل الحي في العجل الجسد، و هذه هي أقل فتنة شر لهؤلاء الأنكاد البعاد، و ليعلموا من هم أولاء في حقل المعرفة الربانية، بعد تواتر الآيات البينات التي رأوها منذ الرسالة الموسوية.

أجل «له خوار» بما اللّه أخار «2» فتنة لهم و ابتلاء بما يستحقون و كما قاله موسى (عليه السّلام):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفرقان 16: 167- 185، فيه تفصيل مشبع عن تمام القصة بتمامها.

(2)

نور الثقلين 2: 70 في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في الآية فقال موسى: يا رب و من أخار الصنم؟ فقال اللّه: يا موسى أنا أخرته فقال موسى: «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ..» و فيه عن أبي جعفر (عليهما السّلام) قال: إن فيما ناجى اللّه موسى (عليه السّلام) ان قال: يا رب هذا السامري صنع العجل فالخوار من صنعه؟ قال:

فأوحى اللّه إليه يا موسى ان تلك فتنة فلا تفحص عنها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 310

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ (7: 155).

فهي- إذا- فتنة شر للشريرين و كما افتتنوا بها و تبلبلوا، و فتنة خير للخيّرين كما نجحوا فيها حيث تبلور الإيمان و لم يتبلبل، كما «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً».

«أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ» و لو كان إلها لكلّمهم ليهديهم سبيلا «وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» فهل هو بعد إله يعبد على كونه ميتا ليس له صوت حتى صوته، فضلا عن صوت يهدي سبيلا «اتخذوه» إلها «وَ كانُوا ظالِمِينَ» أنفسهم إذ ضلوا دونما حجة، و إنما لجاجا أوقعهم في لجة، فكانوا صراحا، إذ لا يقيل الإشراك باللّه إلّا أنه ظلم غير قاصر و لا معذور، فحتى الحشرة تميز بين الفاضل و المفضول في حقل معرفتها، و هذا الإنسان الذي جعل نفسه في أسفل سافلين انقلب إلى أدنى من الحشرة حيث يترك خالق الكون أجمع و يعبد عجلا جسدا له خوار!.

و إنما ذكر هنا من شؤون الألوهية التكليم و الهداية، دون شؤون أخرى لها كالتجرد و اللّامحدودية و الحياة و ما أشبه؟ لأن حصيلة الألوهية الصالحة للمألوهين هي التكليم بما يسعدهم، و الهدى بما يتبعونه، فحتى إذا وجد كائن له كافّة ميّزات الألوهية دون هداية فهي- إذا- ألوهية خاوية غاوية!.

لست أقول: إن كل من كلّم و هدى هو إله، إنما أقول: من لا يكلم و لا يهدي ليس إلها، فللألوهية ميّزات أبرزها في حقل الربوبية التكليم بما يرشد و يهدي المألوهية، فالربوبية لزامها التكليم بالهدى و ليس هو لزامه الربوبية لأن لها ميزات أخرى معها، كان تلون هدى طليقة لا يخلطها خطأ فضلا عن أن تخلص في خطأ، و ترى‏ «قَوْمُ مُوسى‏» هم كلهم في اتخاذ العجل إلها؟ علّه نعم لإطلاق القوم عليهم كلهم، و أن دعاءه اختصه و أخاه: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي»! و لكنه لا، حيث القوم لا يدل على الاستغراق، و موقف الدعاء هنا خاص بمنزلة الرسول و خليفته، ثم‏ «مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» (7: 159) تبعّض قومه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 311

إلى صالحين مصلحين و إلى طالحين مفسدين.

وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (149).

هنا لا نعرف من آية الأعراف كيف‏ «سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ» إنما هي آية طه: «وَ انْظُرْ إِلى‏ إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً» (20: 97) فقد سقط محروقا أمامهم ثم نسف في أليم نسفا، إحراقا و نسفا له و لضلالهم المبين‏ «رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا» بأم أعينهم حسيّا، بعد ما كانوا يرونهم ضلّالا فطريا و عقليا و شرعيا، و لكنهم ما أمروا بضلالهم إلّا على ضوء الحس و كما عبدوا العجل الجسد قضية أصالة الحس.

ذلك، و عند ضلالهم بحاضر الإحساس‏ «قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا» فغضب علينا بما ضللنا «و» لم «يغفر لنا» خطايانا «لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ» الذين خسروا أنفسهم إذ ماتوا عطاشا يمّ اليمّ الزاخر من دلالات آيات ربنا البينات.

ذلك، فقد سقط كثير من الوجوه المذكورة في المفصلات ل «سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ» في أيديهم، حيث الساقط البين هنا هو العجل الذهبي الإله بزعمهم، إذ أحرق و نسف في أليم نسفا.

و قد يعنى معه «سقط» ذلك الاتخاذ في أيديهم المحاولة لأخذه إلها بما بينه موسى بلسان الوحي، و بما أحرق و نسف في أليم نسفا.

و ثالثة لما ندموا بأشده و أشده حيث يقال لمن ندم «سقط في يده» إذ نفض يده عما كان يرجوه، ففند و نفد ما كان يرجوه.

و رابعة بمعنى وقع في يده السقيط كالسّقاطة و النفاية، فقد كانت ألوهة العجل سقاطة مقيّتة و نفاية منفية في كافة الموازين المعنية و لكنها لما سقطت في أيديهم بحقل الإحساس حين أحرق و نسف رأوا أنهم قد ضلوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 312

و على أية حال «سقط» العجل «في أيديهم» حرقا و نسفا أمامهم، فسقط ما بأيديهم من زعم ألوهته و رأوا أنهم قد ضلوا.

أجل، هذا العجل الذهبي الذي عبدوه لأنه له خوار و من الذهب الذي هو معبود إسرائيل على طول الخط، هذا العجل سقط في أيديهم فسقط ما اتخذوه إلها عن ألوهته أمامهم.

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى‏ إِلى‏ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150).

«.. قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» فَرَجَعَ مُوسى‏ إِلى‏ قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» (20:) 86).

«رجع غضبان» على ما حصل «أسفا» لماذا حصل؟ أم و أسفا مما عنهم أعجل‏ «قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي» من الخلف دون الخلف حيث الخلف هو الخلف المخالفة أن يجعل خلفه أمامه: و خلفتم إياي إذ أخلفتم موعدي فما تبعتموني إلى الطور، ثم لما ظللتم في خلفكم ضللتم بخلفي في شرعة التوحيد، خلفا في تخلّفين إثنين ثانيهما أخلف، و لماذا أخلفتموني هكذا؟.

«أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ» من وعده الذي. وعدكم من إنزال التوراة بمواعدة الثلاثين المتمّمة بعشرة، و من وعيده‏ «أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ» «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي»؟ و هما ينتظمان هكذا في‏ «أَمْرَ رَبِّكُمْ».

«وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ» بما ألغوها فيما خلفوا من بعده و خالفوه، و قضية الغضب و الأسف على ما حصل، حيث القصد منها هداهم و هم قد عبدوا العجل الجسد!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 313

«وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» غضبان أسفا من خلفية هذه الخلافة «ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي» «قالَ يَا بْنَ أُمَّ «لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» (20: 94).

«قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي» بكثرتهم و قلتي‏ «وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي» لما ذا أمنعهم و لا أتبعهم فيما ضلوا و ظلوا عليه عاكفين‏ «فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ» الذين‏ «اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي» أن يرونني مذلّلا بين يديك‏ «وَ لا تَجْعَلْنِي» في ذلك التأنيب الشديد «مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

هنا «ابن أمّ» و قد كانت «أماه» لمكان الفتح، و ليستجيش في نفس موسى الغضبان الأسف عاطفة الأخوة الرحيمة من ناحية الأم الحنونة- مهما كان هناك والد «1» واحد أم اثنان‏ «2» فهذا النداء الرقيق الرفيق، و تلك الوشيجة الرحيمة الحميمة يريد التخفيف عن هياجه و اندفاعه أمام ذلك الواقع الجلل المرير.

فلقد تهدرت أعصاب موسى (عليه السّلام) بهذه الجيئة الفجيعة إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في خطبة الوسيلة لعلي (عليه السّلام): كان هارون أخاه لأبيه و أمه.

(2)

نور الثقلين 2: 72 في العلل باسناده إلى علي بن سالم أخبرني عن هارون‏ لم قال لموسى: يا ابن أم ..؟ و لم يقل: يا ابن أبي؟ فقال (عليه السّلام): ان العداوات بين الأخوة أكثرها يكون إذا كانوا بني علات و متى كانوا بني أم قلت العداوة بينهم إلّا أن ينزغ الشيطان بينهم فيطيعوه فقال هارون لأخيه موسى (عليهما السّلام) يا أخي الذي ولدته أمي و لم تلدني غير أمه لا تأخذ بلحيتي و لا برأسي و لم يقل يا ابن أبي لأن بني الأب إذا كانت أمهاتهم شتى لم تستبعد العداوة بينهم إلا من عصمة اللّه منهم و إنما تستبعد العداوة بين بني أم واحدة، قال قلت له: فلم أخذ برأس أخيه يجره إليه و بلحيته و لم يكن في اتخاذهم العجل و عبادته له ذنب؟ فقال: إنما فعل ذلك به لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك و لم يلحق بموسى و كان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب ألا ترى أنه قال لهارون: «ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي» قال هارون: لو فعلت ذلك لتفرقوا «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 314

رأى تهدرت كل دعواته الرسالية في قومه، فلم يتمالك نفسه، إلّا أن يفعل ما فعل، و هو قضية الموقف المحتار، و علّه هكذا فعل بأخيه المختار من باب إياك أعني و اسمعي يا جار، أنه إذا كان دوره مع خليفته المعصوم العزيز الحفيظ هكذا، فما هو دوره- إذا- مع هؤلاء الذين ضلوا و استضعفوه و كادوا يقتلونه، تعبيدا لجو التأنيب الشديد بهم و أمرهم الإمر أن «اقتلوا أنفسكم ..».

ذلك، و ليعلموا أن شرعة العدل لا تعرف قرابة و آصرة إلّا قرابة الإيمان و آصرته، و حين يؤنّب أخاه البري‏ء هكذا فما ذا هو فاعل بهم و هم خونة مجرمون؟.

ذلك و قد يعني من أخذه رأس أخيه يجره إليه معذلك التخفيف عن غضب أخيه و التحبب إليه، و لذا «يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» دون أن «يبعده عنه» فلذلك الجر معنيان اثنان، تأنيب من باب «إياك أعني و اسمعي يا جاره» و تجيب أنه- فقط- «إليه» في هذه المعركة الصاخبة، فقد هدّموا بعبادتهم العجل الثقلين، و علّ من غايات ذلك الإلقاء و الأخذ هو بيان ذلك التهدير الحذير.

و قد يضرب الإنسان على وجهه نفسه و رأسه و يعض على يديه عند الغضب و الأسف و ليس له ذنب فيما حصل، و هكذا فعل موسى بأخيه اعتبارا له أنه نفسه تحسرا و غضبا على ما حصل، و لكنه على أية حال لا يخلو من تأنيب بهارون كما يعرف من جوابه.

ذلك و قد يوجه ما فعل موسى (عليه السّلام) بالثقلين: الألواح و أخيه، بأنه رأى أنهما ألغيا في رأس الزاوية لهما و هو التوحيد، فألقاهما تأشيرا أنهم ألغوهما، ثم أخذ الألواح و استغفر لنفسه و لأخيه إعادة لكيانهما استمرارا للدعوة التوحيدية في قومه‏ «1» ذلك، و هذه المواجهة المرة في ظاهر الحال مع هارون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد التفصيل على ضوء الآيات في طه من الفرقان 16: 173- 178.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 315

(عليه السّلام) كانت: 1 أن ملكه الغضب إذ رأى أن رسالته كلّها تهدرت في تلك الفترة الفتيرة القصيرة و فيهم هارون أخوه و خليفته! 2 و أن هذه بعناية قاصدة بإياك أعني و اسمعي يا جاره لكي يعلم بنو إسرائيل ماذا عليهم من عقوبات بفعلتهم القاصدة الحمقاء العاندة، حين يواجه هارون بتلك المواجهة المرة و كما يخاطب اللّه محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بخطابات قاسية تعني ما تعنيه ك: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ»- «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ» «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» و ما أشبه، و المقصود غيره، و الزاوية الثانية- و هي غير معنية- أنه هتك أخاه كأنه قصّر فيما حمّل من خلافته الرسالية، فأعذر نفسه من هذه الزاوية، لكي يعلموا أنه ليس هو المقصود بالمهانة.

ذلك، و على أية حال، كما ملكت النبوة موسى (عليه السّلام) بكل كيانه و شراشر كونه، كذلك يملكه الغضب حين يرى نبوته و دعوته الطائلة ساقطة بين يديه من هؤلاء الذين عبدوا العجل، إذا فحق له أن يلقي الألواح- دون إلغاء- و إنما إلقاء لقاء ما رأى نبهة لهم أنكم القيتموها إلغاء، و حق له أن يأخذ برأس أخيه يجره إليه- دون أن يبعده عنه- حين لا يرى حاصلا صالحا لكونه فيهم حيث استضعفوه و كادوا يقتلونه.

و حق لهارون أيضا أن يدافع عن نفسه تبيينا لموقفه المرير أمام ذلك الواقع الشرير.

و لما أعذر هارون نفسه من هذه المزرئة المضلّلة: «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي» فلم يكن لي عليهم من سلطان حتى أمنعهم عما ضلوا، بل قد أبلغت خلافتي الرسالية لمنتهاها، و حتى‏ «وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي»، عذره موسى و دعا له و لنفسه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 71 في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: ان اللّه تبارك و تعالى لما أخبر موسى (عليه السّلام) أن قومه اتخذوا عجلا له خوار فلم يقع منه موقع العيان فلما رآهم اشتد غضبه فألقى الألواح من يده و للرؤية فضل على الخبر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 316

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151).

«اغفر لي» ما عجلت عن قومي و ما صاحبتهم إلى الميعاد فحصل ما حصل، و «أغفر لي» ما فعلت بأخي حيث لم يستحق ذلك التأنيب الشديد، و اغفر «لأخي» إذ لم يستطع أن يخلفني كما يجب قصورا و لا تقصيرا إذ قدم ما قدم بطوعه و قوته على ضعفه: «وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي. قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى‏» (20: 90- 91) مما يلمح إلى مدى عذره بدوره خليفة الرسول بغيابه، «وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ» الخاصة بعد ما خرجنا منها فترة الابتلاء «وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

فقد نرى أن هارون لم يقصّر في خلافته، اللّهم إلا قصورا باستضعافه و خوف قتله، إلا أن واقع الحال يتطلب تلك الظاهرة الغضبانة الأسفة من موسى (عليه السّلام) بهارون، و رغم أنهم استضعفوه و عظهم و ندد بهم: «إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ ..» حتى كادوا ليقتلوه، و قتل الداعية قد يسمح له في سبيل الدعوة إن أثر في تحقيقها أم في مزيد الحجة و إنارة المحجة، و لكن بني إسرائيل المعروفين بقتل النبيين لم يكونوا ليتأثروا بقتل هارون إلّا حظوة لهم في خطوتهم الخاطئة هذه، إزالة لمن يصدهم عنها، و تقليلا لساعد الداعية و مساعده، فتعريض هارون نفسه للقتل- إذا- لم يكن إلّا تعريضا للرسالة التوراتية إلى الخمول بفقد وزيرها الحزير الحريز العزيز و دونما فائدة و عائدة إلا لعمق الضلال و حمقه لهؤلاء الأنكاد الأوغاد.

ترى و لماذا لم يلق الألواح في الطور إذ قال له ربه‏ «وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ» و لم يغضب غضبه إلا هناك بعد ما رجع إلى قومه؟ لأنه لم يقع هناك موقع العيان و للرؤية فضل على الخبر «1» ثم و إلقاءه الألواح و أخذه برأس أخيه هما ظاهرتان دعائيتان أمام القوم فلم يكن لهما موقع في الطور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن المجمع روي أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: .. و

في الدر المنثور 3: 127 عن ابن عباس قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يرحم اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 317

إلّا باطن الغضب.

و فيما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «رحم اللّه أخي موسى (عليه السّلام) ليس المخبر كالمعاين، لقد أخبره اللّه بفتنة قومه و قد علم أن ما أخبره ربه حق و أنه على ذلك لمتمسك بما في يديه فرجع إلى قومه و رآهم فغضب و ألقى الألواح‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه تبارك و تعالى أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم و عاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر،

أقول: مثل هذا الإلقاء إلغاء لكتاب اللّه فلا يصدّق على رسول اللّه، فإنما ألقى الألواح بكل حرمة و رعاية تدليلا على أنهم ألغوها في غيابه برأس الزاوية التوحيدية فيها.

و

في المصدر في بصائر الدرجات عن رجل عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: دخل رجل من أهل بلخ عليه فقال له: يا خوزستاني تعرف وادي كذا و كذا؟ قال: نعم قال:

من ذلك الصدع يخرج الدجال قال ثم دخل عليه رجل من أهل اليمن فقال: يا يماني تعرف شعب كذا و كذا؟ قال: نعم. قال له: تعرف شجرة في الشعب من صفتها كذا و كذا؟ قال: نعم قال له تعرف صخرة تحت الشجرة؟ قال: نعم قال: تلك الصخرة التي حفظت ألواح موسى على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)،

و

في آخر عنه (عليه السّلام) قال لي أبو جعفر يا أبا الفضل تلك الصخرة التي حين غضب موسى (عليه السّلام) فألقى الألواح فما ذهب من التورية التقمته الصخرة فلما بعث اللّه رسوله (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أدته إليه و هي عندنا.

أقول: ألم تكن تلك التي التقمته تحمل شرعة توراتية، فكيف ظلت في الصخرة فما أدته إلى موسى و لا المسيح (عليهما السّلام) و هي تحمل شرعتهما، ثم أدتها إلى محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لا تحمل شرعته؟!.

(1). نور الثقلين 2: 74 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سلمان الفارسي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حديث طويل يقول فيه لعلي (عليه السّلام): ...

و

فيه عن روضة الكافي خطبة لعلي (عليه السّلام) و هي الخطبة الطالوتية و في آخرها: ثم خرج من المسجد فمر بصبرة فيها نحو من ثلاثين شاة فقال: و اللّه لو أن رجالا ينصحون للّه عزّ و جلّ و لرسوله بعدد هذه الأشياء لأزلت ابن آكلة الذبان- جمع ذباب- عن ملكه فلما أمسى بايعه ثلاثمائة و ستون رجلا على الموت فقال أمير المؤمنين (عليه السّلام): أغدوا بنا إلى أحجار الزيت محلقين و حلق أمير المؤمنين (عليه السّلام) فما وافى القوم محلقا إلا أبو ذر و المقداد و حذيفة بن اليمان و عمار بن ياسر و جاء سلمان في آخر القوم فرفع يده‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 318

أجل فحينما يملك الغضب موسى (عليه السّلام) لحد يلقي ألواح التوراة فهلا يأخذ- إذا- برأس أخيه، حيث يرى سحقا و محقا للرسالة و الرسول في تلك الفترة القصيرة الفتيرة، فأين الرسالة- إذا- و أين الرسول؟!.

فكما أن إلقاءه الألواح لا يعني إهانة لها، كذلك أخذه برأس أخيه لا يعني مهانة، إنما هو هو الغضب الذي لا يتمالك صاحبه نفسه فضلا عمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إلى السماء فقال: إن القوم استضعفوني كما استضعفت بنو إسرائيل هارون (عليه السّلام)،

و

فيه عن الإحتجاج في رواية سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي حديث طويل و فيه قال قال أمير المؤمنين (عليه السّلام) لأبي بكر و أصحابه: «أما و اللّه لو أن أولئك الأربعين الرجل الذين بايعوني وفوا لي لجاهدتكم في اللّه حق جهاده، أما و اللّه لا ينالها أحد من عقبكم إلى يوم القيامة ثم نادى قبل أن يبايع: يا ابن أم إن القوم استضعفوني و كادوا يقتلوني».

و

فيه باسناده إلى محمد بن علي الباقر (عليهما السّلام) قال: لما حج رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من المدينة و بلغ من حج مع رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من أهل المدينة و أهل الأطراف و الأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى السبعين ألفا الذين أخذ عليهم بيعة هارون (عليه السّلام) فنكثوا و اتبعوا العجل و السامري، و كذلك أخذ رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) البيعة لعلي (عليه السّلام) بالخلافة على عدد أصحاب موسى (عليه السّلام) فنكثوا البيعة و اتبعوا العجل و السامري سنة بسنة و مثلا بمثل ...

و

فيه عن العلل باسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما لأمير المؤمنين (عليه السّلام) لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية؟ فبلغ ذلك عليا (عليه السّلام) فأمر أن ينادى الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد اللّه و اثنى عليه ثم قال: معاشر الناس انه بلغني عنكم كذا و كذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين (عليه السّلام) قد قلنا ذلك، قال: إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال اللّه تعالى في محكم كتابه‏ «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» قالوا: و من هم يا أمير المؤمنين (عليه السّلام)؟ قال: أولهم إبراهيم (عليه السّلام)- إلى أن قال-: و لي بأخي هارون (عليه السّلام) أسوة إذ قال لأخيه: «ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي» فان قلتم: لم يستضعفوه و لم يشرفوا على قتله فقد كفرتم، و ان قلتم استضعفوه و أشرفوا على قتله فلذلك سكت عنهم فالوصي أعذر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 319

سواه، و لا سيما الغضب في اللّه حيث يراه يشرك به!، و إن كان عن غير تقصير من الداعية الرسولية، إنما ذلك لواقع الأمر الإمر.

و في نظرة أخرى إلى مسرح الآيات التي تستعرض قصة موسى و هارون هنا و في طه لا نجد أية لمحة مركزة إلى تقصير لموسى و أخيه (عليهما السّلام).

ففي طه‏ «قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي» (93) لا يعني ذلك السؤال إلا كما يعنيه لإبراهيم: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى‏ قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى‏ وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..» (2:) 60) حيث يعني معرفة الجواب من إبراهيم حتى لا يخيل إلى أحد أنه سأل لكونه لم يؤمن.

فقد يسأل موسى أخاه حتى يبين موقفه المعصوم السليم في خلافته لهؤلاء الأنكاد، و لمن قد يخيّل إليه من أتباعه أنه عصى موسى إذ لم يتبعه، فجاء الجواب: «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» (94).

فقد تفرقوا في حقل عبادة العجل بين ثلاث، عابدة له و تاركة للنهي عنه، و ناهية عنه، و هو من خلفيات الدعوة الهارونية و كما تخلفه كافة الدعوات الرسالية.

فإذا اختلفوا هكذا بغياب موسى و حضور هارون و الذين معه، فقد يتوسع خلافهم بغياب الداعية الرسولية و الذين معه، إكبابا أكثر من رؤوس زوايا الضلال و الإضلال، و التحاقا بهم للمترددين بين الأمرين حيث لا يلتحقون بهارون و الذين معه، و توانيا قد يحصل للبعض من الذين معه، فيخلو الجو- إذا- لتوسع الضلال من السامري بعجله، و الذي عبدوه أو كاد أم يكاد.

و ذلك التفريق بين بني إسرائيل ليس إلّا باتباع هارون موسى أن يلتحقه في ذلك الجو المحرج المخرج عن الهدى، و ما كانت وصية موسى لهارون إلّا «أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» و خروجه عنهم إفساد و اتباع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 320

لسبيل المفسدين الذين يحبون تخلية الجو و تصفيته عن الداعية الرسولية و الرسالية.

ذلك، ثم و ليس في آيات الأعراف آية مزرءة بموسى و هارون، إلا بيانا لعصمتهما و براءة هارون عن أي، تخلف فان تلك المواجهة الموسوية لهارون أوجبت بيان البراءة التي لم تكن باهرة للكل انهم‏ «اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي ..»!.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153).

«الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» عنوان مشير يشير إلى هؤلاء اليهود، و رأس زاوية الضلال فيهم هو العنوان الذي يشير إليهم- اتخذوا العجل- بما لهم من كافة السيئات و النكبات بدء ختم.

إذا «سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» ليست لتنافي توبتهم عما عبدو العجل: «وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى‏ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (2: 54).

إذ إن توبتهم هذه مهما كانت مقبولة فليست لتردع عن حاضر الغضب و الذلة في الحياة الدنيا، لعمق الجريمة المحتاجة إلى كفارة كمثل‏ «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» و لسائر الجرائم المتواصلة منهم من تكذيب آيات اللّه، و تقتيل أنبياء اللّه، و قلب و تحريف أحكام اللّه.

إذا فقد «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ» (2: 61) و «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ» (3: 112). كما «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 321

مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ» (7: 167) ذلك، و العذاب قد يكون مثناه دنيا و عقبى، أم في الأول دون الأخرى أم في الأخرى دون الأولى، أم لا عذاب فيهما، و أقل العذاب للذين اتخذوا العجل هو «غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا».

أجل‏ «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» هم مغضوب عليهم في الدنيا و الآخرة إن لم يتوبوا عن عبادة العجل، أم تابوا و لكنهم استمروا في سائر الضلال و الإضلال، و لا أقل من أنهم‏ «سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» فإنهم تختصهم اللعنة بين سائر الملعونين: «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ» (5: 60) و لقد «باؤا بِغَضَبٍ عَلى‏ غَضَبٍ» (2: 90) أن كذبوا بما كانوا به يستفتحون على الذين كفروا: «وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ» (2: 89).

ذلك، و بوجه آخر قد تعني‏ «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا ...» حكاية حال الماضي أنه تعالى قرر و قدر عليهم نيل الغضب و الذلة، و كما نراهما مستمرّين عليهم منذ بداية تأريخهم المنحوس المركوس.

فمن نيل الغضب‏ «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ..» إذا فمن: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» عنوانا خاصا لبني إسرائيل، ثم من‏ «لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ..» (4: 66)

و من ثم سكوت الآيات بحق المرتدين عن هكذا قتل قضية الارتداد، من هذه الزوايا الثلاث نتأكد أنه ليس إلا حكما توراتيا يختص ببني إسرائيل، فلا يشمل المسيحيين فضلا عن المسلمين.

إذا «سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» قد تعني مثنى الغضب‏ «فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» و سائر الغضب و الذلة السائران عليهم طول حياتهم الدنيا، مستمرا إلى يوم القيامة من المجاهدين الأحرار على هؤلاء الأشرار، لا فقط لأنهم عبدوا العجل، بل و لاستمرارهم في كل إفساد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 322

لحد يشمل العالم مرتين، و في خلالهما هم أفسد المفسدين في الأرض، فهم بتخلفاتهم و إفساداتهم الدائمة يختزنون النقمة في قلوب الشعوب، و يهيئون الرصيد الوصيد الذي يدمّرهم- أخيرا- عن بكرتهم.

ذلك، و ليست سلطاتهم منذ بدأت و استمرت باحتلال القدس و فلسطين إلّا لغيبوبة المسلمين المحليين و سواهم عن السلاح الوحيد الإسلامي و الراية الوحيدة الوطيدة، و هي فترة الغيبوبة بحكم السموم التي بثتها الصهيونية و الصليبية العالمية، و لكن سوف تجي‏ء الصحوة من هذه الغفلة و الغيبوبة و كما وعد اللّه في آيات الأسرى: «فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما ... فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ» فراجع.

فهؤلاء هم اليهود، المعرقة في عقولهم المخبولة المدخولة، و قلوبهم المقلوبة، فكرة التجسد الرباني، فإن لم يستطيعوا أن يرووا اللّه بأم أعينهم فليتحولوا إلى‏ «عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ» و ليؤوّلوا قصة الميعاد عن أصلها إلى معاكس فيه مسّ من كرامة اللّه- خلافا للقرآن: و هكذا نراهم يحرفون التوراة حسب المزاعم المادية، كما في (سفر الخروج 24: 9- 18): «ثم صعد موسى و هارون و ناداب و أبيهو و سبعون من شيوخ إسرائيل و رأوا إله إسرائيل و تحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف و كذات السماء في النقاوة. و لكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله و أكلوا و شربوا. و قال الرب لموسى اصعد إلى الجبل، و كن هناك فأعطيك لوحي الحجارة و الشريعة و الوصية التي كتبتها. فقام موسى و يشوع خادمه. و صعد موسى إلى جبل الله. و أما الشيوخ فقال لهم: اجلسوا هاهنا حتى نرجع إليكم. و هو ذا هارون و حور معكم. فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما. فصعد موسى إلى الجبل. فغطى السحاب الجبل. و حل مجد الرب على جبل سيناء و غطاه السحاب ستة أيام- و في اليوم السابع دعى موسى من وسط الحجاب. و كان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل. و دخل موسى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 323

في وسط الحجاب و صعد إلى الجبل. و كان موسى في الجبل أربعين نهارا و أربعين ليلة».

ثم في الفصل (25) أن «مما كلم الرب موسى أن كلم بني إسرائيل يصنعوا لي مقدسا من ذهب و فضة و كأس و اسمانجوني و أرجوان و قرمز و بوص و شعر معزى و جلود كباش محمرة و جلود تخس و خشب سنط و زيت للمنارة و أطياب لدهن المسحة و البخور العطر و حجارة جزع و حجارة ترصيع للرداء و الصدرة فيصنعون لي مقدسا لأسكن في وسطهم، و تصنع غطاء من ذهب .. و أنا أجتمع بك هناك و أتكلم معك من على الغطاء من الكرد بين للذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل»!!!.

ذلك، و لئن استضعف بنو إسرائيل خليفة موسى في تغيّبه، فقد استضعف المسلمون خليفة الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بعد موته و انطبق عليه كما هو: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله لعلي (عليه السّلام): يا أخي أنت سيفي بعدي و ستلقى من قريش و من تظاهرهم عليك و ظلمهم لك، فإن وجدت عليهم أعوانا فجاهدهم و قاتل من خالفك بمن وافقك، و إن لم تجد أعوانا فاصبر و كفّ يدك و لا تلق بها إلى التهلكة فإنك مني بمنزلة هارون من موسى (عليهما السّلام) و لك بهارون أسوة إذ استضعفه قومه و كادوا يقتلونه فاصبر لظلم قريش و تظاهرهم عليك فإنك بمنزلة هارون و من تبعه و هم بمنزلة العجل و من تبعه.

وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154).

هنا «سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ» دون «سكت موسى عن الغضب» شاهد صدق على بالغ ذلك الغضب حيث ملك موسى فلم يملكه موسى حتى ألقى الألواح و أخذ برأس أجنة يجره إليه، و ذلك لأنه ملكه التوحيد بعد أن ملك هو التوحيد، فلم يستطع أن يتمالك نفسه إذ رأى القوم قد ضلوا ضلالا بعيدا، فذلك التعبير العبير يشخص آماد الغضب و أبعاده لحد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 324

يملك موسى رسول اللّه في اللّه.

ثم‏ «أَخَذَ الْأَلْواحَ» و اللام للعهد، تعني نفس الألواح التي ألقاها دون أن تتكسر أو بعضها، و دون أن يرفع بعضها، خلافا لمختلقات الروايات، و على أية حال‏ «أَخَذَ الْأَلْواحَ» التي ألقاها، «وَ فِي نُسْخَتِها» و هي زبرها و خطها «هُدىً وَ رَحْمَةٌ» هما نفس‏ «مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» إذ لم يكن اللّه ليلغي نسخة «هُدىً وَ رَحْمَةٌ» يلقيها موسى غضبا للّه و أسفا على الإشراك باللّه.

«هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» فهما واقع‏ «هُدىً وَ رَحْمَةٌ» حيث هما من أصول الحصائل‏ «لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» و أما الذين لربهم لا يرهبون فهما- فقط- دلالة هدى و رحمة دون واقعهما، فهنا واقع بواقع و شأن بشأن، واقع‏ «هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» و شأن للذين لا يرهبون و لهم شأن الاهتداء و الاسترحام و لكن لا حياة لمن تنادي.

و هنا «لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» دون «يرهبون ربهم» للتأشير إلى واجب حصر الرهبة لربهم فلا يرهبون سواه إلا فيه، ثم و هم يرهبونه لأنه ربهم لا لطوارئ أخرى مصلحية الحفاظ على ما يعنون.

ذلك، و إلى مشهد جديد في تفصيله هو مديد لمشهد سؤال الرؤية حيث هما واحد:

وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (155).

لقد تطلبوا إليه أن يروا اللّه جهرة: «وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى‏ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (2: 56).

و هنا يختار موسى سبعين رجلا لميقات ربه بعد ما سألوه الرؤية جهرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 325

و لكن خيرته لم تكن خيّرة إذ لم تكن باختيار اللّه، إذا فكيف يكون أمر خيرة الأمة الإمر في انتخاب صاحب الأمر بعد الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ كما يروى عن صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف‏ «1».

و هنا الرجفة ليست إلّا لما اختاره هؤلاء المختارون من اقتراح هارف جارف هو سؤال الرؤية كما في آية البقرة، و اللّائح من آية النساء أنه كان قبل اتخاذهم العجل: «فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ» (153) و هذه المجاهرة في‏ «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» بعد «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ» كما في البقرة، كانت قريبة الصلة بأمر الوحي المكالمة، أن لن نؤمن لك، أن اللّه هو الذي كلمك، إلّا أن نرى اللّه جهرة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 76 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سعد بن عبد اللّه القمي عن الحجة القائم (عليه السّلام) حديث طويل و فيه: قلت: فأخبرني يا بن مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار الامام لأنفسهم؟ قال: مصلح أو مفسد؟ قلت:

مصلح، قال: فهل يجوز أن تقع خيرتهم على المفسد بعد أن لا يعلم أحد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال: فهي العلة و أوردها لك ببرهان ينقاد لك عقلك، ثم قال: أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم اللّه عزّ و جلّ و أنزل عليهم الكتب و أيدهم بالوحي و العصمة و هم أعلام الأمم و أهدى إلى الإختيار منهم مثل موسى و عيسى (عليهما السّلام) هل يجوز مع وفور عقلهما و كمال علمهما إذ هما بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق و هما يظنان أنه مؤمن؟ قلت: لا، قال: هذا موسى كليم اللّه مع وفور عقله و كمال علمه و نزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه و وجوه عسكره لميقات ربه عزّ و جلّ سبعين رجلا ممن لا يشك في إيمانهم و إخلاصهم فوقع خيرته على المنافقين قال اللّه عزّ و جلّ: «وَ اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا» إلى قوله‏ «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ» فلما وجدنا إختيار من قد اصطفاه اللّه عزّ و جلّ للنبوة واقعا على الأفسد دون الأصلح و هو يظن انه الأصلح دون الأفسد علمنا أن الإختيار لا يجوز إلا لمن يعلم ما تخفي الصدور و ما تكن الضمائر و يتصرف عليه السرائر و ان لا خطر لاختيار المهاجرين و الأنصار بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد لما أرادوا الصلاح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 326

فقد يكون السبعون المختارون المصعقون من ضمن هؤلاء الذين اتخذوا العجل، و كأنه بديل عن رؤية اللّه جهرة!.

«فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» المهلكة إياهم «قال» موسى رب‏ «لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ» كيلا يحتج عليّ الباقون أنك أهلكتهم بديلا عن إجابتهم في سؤلهم‏ «أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا» «1».

و ترى السبعين المصعقين لم يكونوا من السفهاء لئلا يستحقوا الإهلاك؟ و هم السائلون: «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً»! أم تعني السفاهة هنا عبادة العجل؟ و قد تأخرت عنها حسب آية النساء!.

«منا» هنا تعني من السبعين المختارين و سائر السائلين، مع موسى (عليه السّلام)، و «السفهاء» جمعا، تدل أن السفاهة هنا حصلت من جمع من الثلاث لا كلهم، فلم يكن سؤال الرؤية إلّا من الجل دون الكل، إذا «أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا» وارد مورد السائلين منهم الرؤية أن كيف تهلك غير السفهاء معهم بما هم دونهم «من قبل» الميعاد و حاضر السؤال فيه.

و هنا «من قبل» ثم من قبلها «لو» إضافة إلى «منا» هي زوايا ثلاث في هندسة القصة تدل على أن القصد ليس هو الإهلاك الواقع، بل هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار 13: 217- 10 في أسئلة الزنديق عن الصادق (عليه السّلام) قال: إن اللّه أمات قوما خرجوا مع موسى (عليه السّلام) حين توجه إلى اللّه فقالوا: أرنا اللّه جهرة فأماتهم اللّه ثم أحياهم.

و

في نور الثقلين 2: 76 في كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا (عليه السّلام) مع أصحاب المقالات و الأديان قال (عليه السّلام): .. ثم موسى بن عمران (عليه السّلام) و أصحابه السبعون الذين اختارهم و صاروا معه إلى الجبل فقالوا له: إنك قد رأيت اللّه فأرناه سبحانه كما رأيته فقال لهم: إني لم أره فقالوا: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ» و احترقوا عن أخرهم و بقي موسى وحيدا فقال: يا رب اخترت سبعين رجلا من بني إسرائيل فجئت بهم و أرجع وحدي فكيف يصدقني قومي بما أخبرتهم به؟

فلو شئت أهلكتهم و إياي أ تهلكنا بما فعل السفهاء منا؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 327

المستدعي أن يكون «من قبل» حضور الميعاد، أو «من قبل» سؤال الرؤية فيه بعد ما سألوه مرة أولى، و هنا «لو» تحيل هذه المشية، ثم «أ تهلكنا» متفرع على تلك المشية المستحيلة، «بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ» تعني السفهاء الذين يستحقون الإهلاك و هم الذين سألوا الرؤية، دون سائر السفهاء في ذلك الحقل، من الذين سكتوا عن النهي عن المنكر، و الذين سألوها نيابة عن الباقين السائلين، «أ تهلكنا» جميعا الشامل لموسى و «مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» و الذين سكتوا و الذين سألوا نيابة «بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا» و هم السائلون الرؤية، أم و القائلون لما نجوا عن البحر «يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» (7: 138).

فلو أن هناك عذابا من ذي قبل لم يكن على سواء بالنسبة للسفهاء، فضلا عن أن يشمل غيرهم بمن فيهم موسى نفسه.

و كما في قصة السبت‏ «أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ» فلم ينج التاركون للنهي عن السوء كما الفاعلين للسوء مهما تفارقا في نوعية العذاب، حيث اختص‏ «كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» بالذين صادوا يوم السبت باحتيال، و للذين تركوا النهي عنه دون ذلك.

أجل إن هي: «الرجفة» الواقعة- أم و المتوقعة ب «لو»- الشاملة المزمجرة «إِلَّا فِتْنَتُكَ» امتحانا لمن سكت و امتهانا لمن سفه، و عبرة لمن غاب، و تذكرة لأولي الألباب.

فسماحه سبحانه لذلك السؤال، و أخذهم جميعا سائلين و سواهم بالرجفة، هذا و ذاك فتنة ربانية «تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ» إضلاله و هو الذي يشاء الضلال‏ «وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ» هداه و هو الذي يشاء الهدى، و ترى كيف حذفت الباء في تهدي؟ علّه لأن الهداية أعم موردا من مثل هذه الفتنة الصعبة و سواها، و أما الإضلال فهي بصعاب الفتن كما يستحقها أهلوها.

«أنت ولينا» فيما تفتننا «فاغفر لنا» ذنوبنا سؤالا و سكوتا، «وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 328

ذلك، و قد يتبين هنا أن الساكتين هنا- غير السائلين- ما كانوا من الذين عبدوا العجل بعد ذلك، و ذلك بأحرى لمن لا يسأل الرؤية الذي هو أخف من عبادة العجل، ألا يعبدوا العجل، فقد كان بين هؤلاء المختارين من سألوا الرؤية و عبدوا العجل، و سواهم الذين لم يسألوا و لم يعبدوا و لكنهم سكتوا عما حصل فوصلهم- إذا- ما وصل.

و غريب من هؤلاء المجاهيل المغافيل أن يتخذوا العجل بعد سؤال الرؤية و أخذة الرجفة بالصاعقة، كيف لم ينتبهوا فدخلوا فيما هو أفضح من سؤال الرؤية و هو عبادة العجل، ثالوث تصاعدي سجله عليهم تاريخهم المنحوس، إعلانا بعد التوراة في هذه الإذاعة القرآنية كثالوث النصارى فلقد تشابهت قلوبهم المقلوبة في ذلك الانحراف الانجراف السحيق المحيق!.

ذلك، و قد أحياهم اللّه بعد موتهم بدعائه (عليه السّلام) و كما في آية البقرة: «ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (56) و لكنهم كفروا أكفر مما كفروا بديل أن يشكروا إذ «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ» (4: 153).

و ذلك البعث بعد الموت برهان لا مردّ له على البعث يوم القيامة الكبرى، و البعث يوم الرجفة و هي القيامة الصغرى، و الحياة البرزخية و هي القيامة الوسطى.

و في رجعة أخرى إلى آية الإختيار أدبيا و معنويا، ترى كيف اختارت «اختار» مفعولين اثنين و ليس لها إلّا مفعول واحد؟ و الحل أن «سبعين» عطف بيان للمفعول و ليس مفعولا ثانيا أو بدلا.

ثم و لا يصح أنه ثاني المفعولين اللهم إلا بدل البعض من الكل، أم بدل فإن قضيته أن قومه كانوا- فقط- سبعين رجلا، و إنما «اخْتارَ مُوسى‏ قَوْمَهُ» و المختارون منهم سبعون كما هو قضية الإختيار.

و لأن عبادة العجل كانت بغياب موسى (عليه السّلام) حين أعجل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 329

عن قومه إلى الميقات، و سؤال الرؤية كان قبل اتخاذ العجل، إذا فهما ميقاتان اثنان لأمرين إثنين أولهما هذا الذي أخذتهم فيه الرجفة، و الأخرى ما أعجل موسى فيه عن قومه فعبدوا العجل بعد، و هذا مما يبرر ذكرى كلّ لحاله و على حدة، مهما صح فصل قسم من قصة لمناسبة عن قسم آخر تقديما للمؤخر أو تأخيرا للمقدم، كما تقتضيه المصلحة البلاغية قضية الملابسات المؤاتية، و هنا تأخر المقدم و تقدم المؤخر في العرض، لأن المؤخر كان أخزى و أمرّ!.

ثم ترى‏ «أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا» اعتراض على اللّه أنه أهلك غير المستحقين له؟ كلّا! و إنما هو استعلام يبينه‏ «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» أن ذلك الإهلاك فتنة لكل من هؤلاء الثلاث: السائلين الرؤية، و الساكتين عن النهي، و الغائبين عن المسرح المنتظرين للنتيجة، فلقد أجاب موسى نفسه عن سؤاله بإجمال، إجمالا عن التفصيل الذي علّه بين له دوننا، و القول أن «فعل» الظاهر في العمل لا يشمل قول السفهاء، إذا فهي سفاهة أخرى غير قولة الرؤية، مردود بأن الفعل أعم من العمل، فهو يشمل مثلث فعل اللسان و القلب و الأركان سلبا و إيجابا، و فعل السفهاء هنا هو قولهم:

أرنا اللّه جهرة، و ترك جمع منهم النهي عن المنكر، و نقل ثالث سؤال الرؤية.

ذلك، و قد أضل اللّه بهذه الرجفة و الإحياء بعدها جمعا من هؤلاء و هم الذين أصروا على الضلال بعد سؤال الرؤية «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ» (4: 153) و هدى آخرين لم يسألوها أم سألوها و تابوا فلم يتخذوا العجل، أم و نهوا عن ذلك السؤال و ما أشبه، و الآخرون هم من المعنيين في‏ «مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» (7:) 159).

هذا، و في‏ «لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ» من أدب السؤال ما لا قبل له لمكان «لو» المحيلة تلك المشية غير الصالحة، فإن موسى (عليه السّلام) لم يكن يستحق معهم الهلاك، و لكنه قد يترجاه حفاظا على رسالته من الهلاك بتكذيب رفاق هؤلاء الهلكى، ثم «أ تهلكنا»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 330

استبعاد لإهلاكه معهم إذ لم يكن يستحقه أبدا، ثم استعلام لإهلاك غير السائلين، التاركين للنهي عن المنكر، و قد أجاب عنه نفسه‏ «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ».

و أخيرا يستسلم في دعاءه للّه قائلا: «أنت ولينا» لا سواك، فأنت تفعل بنا ما تشاء و لا تسأل عما تفعل و هم يسألون، و ما ذلك السؤال العضال إلّا استعلاما و استرحاما، فإذ «أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا» لمن سأل و لمن سكت «و ارحمنا» برحمتك‏ «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ» عن الذنوب.

و اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة إنا هدنا إليك.

قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (156).

«حسنة» فيها تعني حياة حسنة، و لماذا «اكْتُبْ لَنا»؟ ل «إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ»، و ذلك لموسى (عليه السّلام) و قومه، ثم ولنا «رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ» (2: 201).

و «هدنا» من الهود، و هو الرجوع برفق، و القصد من الجمع في «هدنا» طائفة من السبعين الراجعين إلى اللّه من سؤالهم أو سكوتهم أما أشبه من تقصير أو قصور مع موسى نفسه و «أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» و «يهود» هي مضارعة «هاد» تعني ترجع برفق، فقد سميت اليهود هودا و يهود بتلك المناسبة، ثم عمت في أهل التوراة ككل، و مما يوجه التعميم أن الراجعين إلى اللّه هادوا إليه، و الراجعين منهم عن اللّه هادوا عنه، فهم هود و يهود بإحدى الواجهتين.

و لقد أجيب موسى (عليه السّلام) بتفصيل هو «قالَ عَذابِي‏ ...

وَ رَحْمَتِي ..»: «ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ» (4:) 147)- «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ» (14:) 7).

و رغم أن موسى (عليه السّلام) دعا لخصوص قومه قضية أن المجال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 331

مجالهم، نجد اللّه يجيبه بخاصة العذاب و عامة الرحمة دون اختصاص بقومه، و إنما «من أشاء- و- كل شي‏ء- و للذين يتقون و ..».

فقد «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» طليقة، و لم يكتب على نفسه العذاب إلّا إذا لزم الأمر في ميزان العدل و كما وعد، فقد استجاب اللّه هنا لموساه دعاءه و زيادة كما استجاب لإبراهيمه مقيدة حيث‏ «قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» (3: 124) و استجاب له أوسع مما طلب‏ «وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى‏ عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» (2: 126) و هكذا يؤدب اللّه أنبياءه من خلال طلباتهم و سواها من حاجيات و دعوات.

و انما حذفت هنا «حسنة» للآخرة، و ذكرت هنا في دعاء المؤمنين‏ «رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً» لأن بني إسرائيل ما كانوا يستحقون تأكد الحسنة في الآخرة، و المؤمنون بهذه الرسالة يستحقونها، و هذا من أسباب الفرق بين الدعائين، و ما أشبه.

فمن آداب الدعاء تعميمه لمن يحتاجه و يصلح له و هم كافة المكلفين إلّا لمن تبين أنه من أصحاب الجحيم،

فقد «قام النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) في الصلاة فقال أعرابي و هو في الصلاة: اللهم ارحمني و محمدا و لا ترحم معنا أحدا، فلما سلم (صلى الله عليه و آله و سلم) قال للأعرابي: لقد تحجرت واسعا، يريد رحمة الله عز و جل» «1».

و

«أوحى الله إلى داوود (عليه السلام) يا داوود كما لا يضيق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 77 عن المجمع في الحديث أن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) ...

أورده البخاري في الصحيح، و

في الدر المنثور 3: 120- أخرج أحمد و أبو داود عن جندب بن عبد الله البجلي قال‏ جاء اعرابي فأناخ راحلته ثم عقلا ثم صلى خلف رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ثم نادى: اللهم ارحمني و محمدا و لا تشرك في رحمتنا أحدا فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): لقد حظرت رحمة واسعة إن الله خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها و إنسها و بهائمها و عنده تسعة و تسعون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 332

الشمس على من جلس فيها كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها» «1».

و هنا خاصة العذاب و عامة الرحمة مما يدل على سبق رحمته غضبه و أنها هي الأصل، ما كان إليها سبيل، و لم تكن خلاف العدل و الحكمة الربانية، ف «عذابي» هنا و في الآخرة «أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ» و هو من يشاء الضلالة و يصر عليها «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» مكتوبة.

و في رجعة أخرى إلى الآية «عَذابِي أُصِيبُ» يسع النشآت الثلاث رغم اختصاصه ب «من أشاء» و هو الذي يستحقه و لا سبيل عدلا للعفو عنه.

و اما «رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» فلا ريب أنها الرحمة الرحمانية العامة في كل النشآت، حيث الرحيمية لا تسع كل شي‏ء لا سيما و انها كالصيغة الماضية، و أما «فسأكتبها» فهنا لمرجع الضمير المؤنث استخدام يعني سأكتب الرحمة الرحيمية للذين .. فالمكتوبة هنا هي حصيلة رحمة الشرعة المصدّقة المطبّقة «للذين».

فالمكلفون بشرعة اللّه مكلفون برحمة خاصة رحيمية من اللّه، فإن آمنوا بها في مثلث‏ «يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» «فسأكتبها» تثبيتا لخلفية التصديق و التطبيق لهذه الرحمة، و إلا فلا تكتب عليهم إلا العذاب.

و ترى بعد «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ..» نزلت بمعناها على موسى ضمن ما أوحي إليه إجابة عن دعاءه‏ «قالَ عَذابِي ..»؟ و لمّا ينزل الإنجيل بعد حتى يجدوه فيه!، فقد تكون هذه التتمة زيادة قرآنية على ما أجيب به موسى (عليه السّلام) إعلاما حاضرا لأهل الكتاب أجمع؟ أم و بضمنها إشارة توراتية إلى نزول الإنجيل بعدها، و كما نجد على هامش البشارات القرآنية في التوراة بشارات إنجيلية، فصلناها في «البشارات».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 77 في روضة الواعظين قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): .. و

فيه عن أبي سعيد الخدري أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: افتخرت الجنة و النار فقالت النار يا رب يدخلني الجبابرة و الملوك و الأشراف و قالت الجنة: يا رب يدخلني الفقراء و الضعفاء و المساكين فقال اللّه للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء و قال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شي‏ء و لكل واحدة منكما ملؤها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 333

ثم‏ «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» يشمل صالح الإيمان أيا كان و من أيّ كان و أيان، و لزامه بعد نزول القرآن هو الإيمان بالشرعة القرآنية.

و هنا «يؤمنون» دون «آمنوا» توسيع لدائرة الإيمان لتشمل هؤلاء الذين يفتشون عن آيات الإيمان و لمّا يصلوا إليها، فإن وصلوا إليها آمنوا، و إلا فهم مؤمنون و ان لم يصلوا و ماتوا غير حاصلين على آيات الإيمان الملحق بإيمانهم الحالي، أم بأصل إيمانهم بشرعة ربانية، و إنما الأصل حالة «يؤمنون» و إن لم يصلوا إلى هالته، و غير مكتوبة، و من الثانية ما تشمل المذنبين غير المعاندين أو المصرين على الضلال، حيث الرحمة العامة الرحمانية تغمرهم، ثم الرحيمية الموجهة إليهم دلالة الطريق تعمرهم و هم رافضوها «فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» و من أبرزهم:

[سورة الأعراف (7): الآيات 157 الى 163]

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (159) وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160) وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161)

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (162) وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (163)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 335

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157).

فذلك الرسول النبي الأمي هو الرحمة الواسعة الربانية حيث «سأكتبها» فطليق الرحمة مكتوبة لكافة المتقين المؤتين الزكاة، المؤمنين بالآيات، ثم الرحمة الطليقة مكتوبة مستقبلة ل «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ...».

فهنا عذاب مكتوب للمعاندين على طول الخط، و رحمة واسعة مكتوبة للمتقين المؤتين الزكاة المؤمنين بالآيات المتبعين هذا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و رحمة غير واسعة لهؤلاء المتقين غير المتبعين له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قصورا دون عناد و تكذيب، إذ «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» (3: 113- 115).

فهؤلاء هم من المتقين مهما لم يتبعوا هذا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قصورا دون تقصير أم بتقصير يسير مسامح، و تلك الرحمة الواسعة تسع كل شي‏ء واقعا رحمانية، و تسع من لا يرفضها رحيمية، فليس النقص- إذا- في فاعلية الرحمة الرحيمية، إنما هو في القابلية، فمن استقبل لها و قبلها فهي له قدر الاستقبال و القبول، و القصد هنا إلى الرحيمية لمكان‏ «فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ ...» حيث الرحمانية مكتوبة لكافة الكائنات دون إبقاء و استثناء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 336

و هنا «فَالَّذِينَ آمَنُوا» تعم الإيمان بدرجاته العالية من القمة السامقة العلوية، و هكذا يكون علي (عليه السّلام) رأسا و قائدا و شريفا و أميرا، في خطابات الإيمان بآياتها كما أصفق عليه الفريقان‏ «1» و ترى «يجدونه» تعني وجدانه بمواصفاته الثمان ثلاث متقدمة و خمس متأخرة عدد أبواب الجنة؟ الظاهر نعم حيث الضمير الغائب في «يجدونه» راجع إلى‏ «الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» ثم «يأمرهم ..» حال للموصوف.

و هنا «الرَّسُولَ النَّبِيَّ» و هناك في مريم لموسى: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى‏ إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (51) و لإسماعيل: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (54) و كذلك‏ «ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى ..» (22: 52) إضافة إلى أن عديد الرسول و الرسل في القرآن أكثر بكثير من النبي و الأنبياء، كل ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في ملحقات إحقاق الحق (3: 476- 479) عن ابن عباس عن أربعة عشر من فطاحل العامة قوله: «ما في القرآن آية إلا و علي رأسها و قائدها، هو أحدهم: أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (186) بسند عن ابن عباس يقول: «ليس من آية في القرآن‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلا و عليّ رأسها و أميرها و شريفها و لقد عاتب اللّه أصحاب محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في القرآن و ما ذكر عليا إلا بخير» و أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء (1: 64)

بسند عنه قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما أنزل اللّه آية فيها «يا أيها الذين آمنوا إلا و عليّ رأسها و أميرها،

و هكذا محب الدين الطبري في ذخائر العقبى (89) و الرياض النضرة (207) و الگنجي الشافعي في كفاية الطالب (54) و السبط ابن الجوزي في التذكرة (19) و الشبلنجي في نور الأبصار (105) و غياث الدين بن همام خواند مير في جيب السير (2: 13) و صاحب المناقب المرتضوي (31) و الهيثمي في الصواعق المحرقة (38) و (125) و السيوطي في تاريخ الخلفاء (116) و القندوزي في ينابيع المودة (125) و القاسم بن حماد في البحار (9: 67) و أحمد في مسنده كما في مناقب الكاشي- المخطوط- و المناوي في الكواكب الدرية (39).

و هكذا ما نزل في أحد من كتاب اللّه ما نزل في علي (عليه السّلام) إلا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء (117) و الهيثمي في الصواعق (125) و المناوي في الكواكب الدرية (39) كلهم رووه عن ابن عباس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 337

يدل على أن النبي هو الرسول الرفيع المنزلة بين الرسل، كما النبي هو من النبوة: الرفعة.

فالنبي بمشتقاته يذكر في ثمانين موضعا بميزات فوق الرسالة، حال أن الرسول بمشتقاته يذكر زهاء (400) مرة دون هذه الميزات، اللهم إلا لرسول نبي، ففي مثلث النبوءة و الرسالة و النبوة، الأولى هي نبوءة الوحي و ان لم يرسل صاحبها، و الثانية هي الرسالة بالوحي كيفما كانت درجته، و الثانية هي الرسالة الرفيعة، و لم يأت «النبي» معرفا في القرآن إلا لنبينا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مما يبرهن على نبوته الرفيعة بين الأنبياء أجمعين.

ذلك، و قد أفردنا مؤلفا حول البشارات الواردة بحق هذا الرسول النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في كتب السماء «1» و إليكم نماذج منها:

و من ميزات النبيين اجمع- على درجاتهم- أنهم أصحاب الكتاب، «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ ..» (2: 213) «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ..» (3: 82)، فنبينا أفضل أولي العزم، و هم أفضل النبيين، ثم أصحاب الكتاب هم أفضل المرسلين، و في كل درجات أعلاها لخاتم النبيين (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

ذلك، و أمية الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هي من ميّزاته الرسولية و الرسالية، إذ لم يتلون طول حياته قبل الرسالة بألوان الثقافات البشرية المدخولة أو الناقصة، و منذ رسالته أخذ يدرس في مدرسة الوحي الرباني، فلأنه مدرس العالمين و مربيهم، لا بد له أن يدرس- فقط- عند رب العالمين، حتى يصلح مربيا للعالمين لمن شاء منهم أن يستقيم.

فقد يشير إلى الثلاث الأول قوله تعالى في التوراة حسب النص العبراني صوتيا:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هو «رسول الإسلام في الكتب السماوية» بالعربية و «بشارات عهدين» بالفارسية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 338

«يدعو ييسرائل اوايل حنابي مشوكاع إيش هاروح على روب عونخا و رباه مسطماه»- «بنو إسرائيل يعلمون و يعرفون أن الرسول الأمي المصروع رجل صاحب روح إلهامي و صاحب وحي» و هنا «المصروع» إشارة إلى ما يصفونه به: «وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ» (68: 51) و في كتاب هوشيع النبي (عليه السّلام) (الفصل 9 الآية 6) بعد التصريح باسمه المبارك «محمد لكسفام»: محمد لفضتهم، إشارة إلى الجزية التي يأخذها منهم، يقول باختلاف يسير في التعبير: «لأن النبي الأمي المصروع و صاحب الروح بسبب كثرة العصيان و البغض أصبح مجنونا» يعني بحسبانهم هؤلاء العصاة المبغضين، و من حنقهم و بغضهم إياه إن أرادوا أن يسموا بعض أولاهم محمدا ليخيّلوا إلى البسطاء أنه هو محمد المبشر به في التوراة فهددهم اللّه في (هوشيع 9: 16) بقوله: «و همتي محمدي بيطنام»: «أقتل محمدا في البطون» مهما حرفوا «محمدا» هذا إلى «مشتهيات بطونهم» كما حرفوه في «محمد لكسفام» حيث حرفوها إلى مشتهياتهم و مرغوباتهم في «هوشيع 9: 5).

و إشارة إلى أميته بمعنى أنه لم يدرس إلّا عند اللّه يقول في كتاب أشعياء (عليه السّلام) (28: 9):

«إت مي يوره دعاه و إت مي يا بين شموعاه غگمولي محالاب عتيمي مثادايم»- «لمن ترى يعلم العلم و لمن يفقه في الخطاب للمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي» ثم يستمر في قرآن ذلك المفصول عن الثدي بمواصفات‏ «1».

و إشارة إلى أميته نسبة إلى أم القرى انه نبيّ من «فاران- حرى»:

كما في التوراة (تث 33: 1- 2):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان 1: 361 و رسول الإسلام في الكتب السماوية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 339

«و زئت هبراخاه اشر برخ موشه إيش ها الوهيم إت بني يسرائيل لفني موتو و يومر 1 يهواه مسيني باو زارح مسعير لامو هو فيع مهر فاران و آتاه مر ببت قدش مي مينو إش دات لامو 2»-:

«و هذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل وقت موته و قال 1 الله جاء من سيناء تجلى من ساعير و تلعلع من جبل فاران (حرى) ورد مع آلاف المقدسين، ظهرت من يمينه الشريعة النارية».

و هنا مضي التعبير لتجلي الرب بالرسالة المحمدية من فاران اعتبارا بقاطع وقوعه مستقبلا، و كما في كتاب حبقّوق النبي (عليه السّلام) (3:

3):

«إلوه متيمان يابو و قادوش مهر فاران سلاه شاميم هودد و تهلاتو مالئاه هاآرص»-:

«الله يأتي من تيمان- و هو ساعير جنوبي القدس- و القدوس يأتي من فاران (حرى) إلى الأبد، يغطى جلاله السماوات و ثناءه الأرض».

و لقد يوجد أسمه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): محمد- أحمد- و ميزاته في التوراة و الإنجيل و ملحقاتهما كما فصلناه في البشارات و بطيات آياتها المناسبة في هذا الفرقان فلا نعيد.

هنا يصرح القرآن أن أهل الكتاب يجدونه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مكتوبا عندهم في التوراة و الإنجيل، و لو لم يكن له ذكر فيهما عند نزول القرآن- و رغم تحرف الكتابين- لكفى تكذيبا منهم بهذه الرسالة، و لم يؤثر و لا مرة يتيمة من أحد من معاصريه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يكذبه في هذه الدعوى، بل نجد التصديق الرفيق من صالحيهم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 79 في الخرائج و الجرايح عن الرضا (عليه السّلام) حديث طويل و فيه: فقال الرضا (عليه السّلام): أنت يا جاثليق أمن في ذمة اللّه و ذمة رسوله لا يبدؤك مناشئ تكره مما تخافه و تحذره، فقال: أما إذا أمنتني فإن هذا النبي الذي اسمه محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هذا الوصي الذي اسمه علي و هذه البنت التي اسمها فاطمة و هذان-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 340

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- السبطان اللذان اسمهما الحسن و الحسين (عليهم السّلام) في التوراة و الإنجيل و الزبور.

و فيه عن كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا (عليه السّلام) مع أصحاب الملل و المقالات قال الرضا (عليه السّلام) لرأس الجالوت: تسألني أو أسألك؟ قال: بل أسألك و لست أقبل منك حجة إلا من التوراة أو من الإنجيل أو من زبور داود أو بما في صحف إبراهيم و موسى (عليهما السّلام)، قال الرضا (عليه السّلام) لا تقبل مني حجة إلا ما نطق به التوراة على لسان موسى بن عمران (عليه السّلام) و الإنجيل على لسان عيسى بن مريم (عليهما السّلام) و الزبور على لسان داود (عليه السّلام) فقال رأس الجالوت: أين ابن ثبت نبوة محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال الرضا (عليه السّلام): شهد بنبوته موسى بن عمران و عيسى بن مريم و داود خليفة اللّه في الأرض (عليهم السّلام)، فقال له ثبت قول موسى بن عمران (عليه السّلام) قال الرضا (عليه السّلام): هل تعلم يا يهودي أن موسى أوصى بني إسرائيل فقال لهم: انه سيأتيكم نبي هو من إخوانكم فيه فصدقوا و منه فاسمعوا فهل تعلم أن لنبي إسرائيل إخوة غير ولد إسماعيل إن كنت تعرف قرابة إسرائيل من إسماعيل أو السبب الذي بينهما من قبل إبراهيم (عليه السّلام) فقال رأس الجالوت: هذا قول موسى لا ندفعه فقال له الرضا (عليه السّلام): هل جاءكم من إخوة نبي إسرائيل نبي غير محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: لا، قال الرضا (عليه السّلام): أ فليس قد صح هذا عندكم؟ قال:

نعم، و لكني أحب أن تصححه لي من التوراة، فقال له الرضا (عليه السّلام): هل تنكر أن التوراة يقول: جاءكم النور من جبل طور سيناء و أضاء لنا من جبل ساعير و استعلن علينا من جبل فاران؟ قال رأس الجالوت: أعرف هذه الكلمات و ما أعلم تفسيرها، قال الرضا (عليه السّلام): أنا أخبرك به، أما قوله: جاء النور من جبل طور سيناء فذلك وحي اللّه تبارك و تعالى الذي أنزله على موسى على جبل طور سيناء، و أما قوله: و أضاء (لنا من جبل ساعير، فهو الجبل الذي أوحى اللّه تعالى إلى عيسى بن مريم (عليهما السّلام) و هو عليه، و أما قوله: و استعلن علينا من جبل فاران، فذلك جبل من جبال مكة بينه و بينها يوم، و قال شعيا النبي (عليه السّلام): فيما تقول أنت و أصحابك في التوراة: رأيت راكبين أضاء لهما الأرض أحدهما على حمار و الآخر على جمل فمن راكب الحمار و من راكب الجمل؟ قال رأس الجالوت: لا أعرفهما فأخبرني بهما، قال:

أما راكب الحمار فعيسى (عليه السّلام) و أما راكب الجمل فمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أ تنكر هذا من التوراة؟ قال: لا ما أنكره ثم قال الرضا (عليه السّلام): هل تعرف حيقوق النبي (عليه السّلام) قال: نعم إني لعارف به قال: فإنه قال- و كتابكم ينطق به-: جاء اللّه بالبينات من جبل فاران و امتلأت السماوات من تسبيح أحمد و أمته-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 341

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يحمل خيله في البحر كما يحمل في البر يأتينا بكتاب جديد بعد خراب بيت المقدس يعني بالكتاب القرآن أتعرف هذا و تؤمن به؟ قال رأس الجالوت: قد قال ذلك حيقوق و لا ننكر قوله، قال الرضا (عليه السّلام): و قد قال داود في زبوره و أنت تقرء: اللهم ابعث مقيم السنة بعد الفترة، فهل تعرف نبيا أقام السنة بعد الفترة غير محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال رأس الجالوت: هذا قول داود نعرفه و لا ننكره و لكن عنى بذلك عيسى (عليه السّلام) و أيامه هي الفترة، قال الرضا (عليه السّلام): جهلت، إن عيسى لم يخالف السنة و قد كان موافقا لسنة توراة حتى رفعه اللّه إليه، و في الإنجيل مكتوب أن ابن البرة ذاهب و الفارقليط جاء من بعده و هو الذي يحقق الأخبار و يفسر لكم كل شي‏ء و يشهد لي كما شهدت له أنا جئتكم بالأمثال و هو يأتيكم بالتأويل، أ تؤمن بهذا في الإنجيل؟

قال: نعم لا أنكره!.

و

في الدر المنثور 3: 131- أخرج ابن سعد و أحمد عن رجل من الأعراب قال‏ جلبت حلوية إلى المدينة في حياة رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل و لأسمعن منه فتلقاني بين أبي بكر و عمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرءها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان و أجمله فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجدني في كتابك ذا صفتي و مخرجي؟ فقال برأسه هكذا- أي: لا فقال ابنه أي و الذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك و مخرجك و اشهد أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه، فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أقيموا اليهودي عن أخيكم ثم ولى كفنه و الصلاة عليه.

و

فيه عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): صفتي أحمد المتوكل مولده بمكة و مهاجره إلى طيبة ليس بفظ و لا غليظ يجزي بالحسنة الحسنة و لا يكافئ بالسيئة أمته الحمادون يأتزرون على أنصافهم و يوضوون أطرافهم أنا جيلهم في صدورهم يصفّون للصلاة كما يصفون للقتال قربانهم الذي يتقربون به إلى دمائهم رهبان بالليل ليوث بالنهار.

و

فيه أخرج الحاكم و البيهقي في الدلائل عن علي بن أبي طالب‏ أن يهوديا كان له على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) دنانير فتقاضى النبي فقال له: ما عندي ما أعطيك، قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني قال: إذن أجلس معك يا محمد فجلس معه فصلى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الظهر و العصر و المغرب و العشاء و الغداة و كان أصحاب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يتهددون اليهودي و يتوعدونه فقالوا: يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يهودي يجلسك؟ قال: منعني ربي أن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 342

ذلك، و قد

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «أنا محمد النبي الأمي أنا محمد النبي الأمي أنا محمد النبي الأمي و لا نبي بعدي أوتيت فواتح الكلم و خواتمه و جوامعه و علمت خزنة النار و حملة العرش فاسمعوا و أطيعوا ما دمت فيكم فإذا ذهب بي فعليكم كتاب الله أحلوا حلاله و حرموا حرامه» «1».

ثم‏ «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ» لها صلة ب «هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ» أكثر من الصلة بما قبلها، فإن ذلك الإتباع يتبع الإيمان «بآياتنا» التي منها البشارات المودوعة في التوراة و الإنجيل، مهما كان ل «يتقون» أصلا و ل «يُؤْتُونَ الزَّكاةَ» فرعا، صلة تحضيرية للإيمان «بآياتنا» فإن الذي لا يتقي اللّه ليس ليؤمن بآيات اللّه.

و ليس «يتبعون» تختص بالعائشين زمن الرسالة المحمدية (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليحرم عن رحمتها الشاملة هؤلاء الذي ماتوا قبلها، بل هم الذين حضروا أنفسهم لذلك الإتباع- إن عرفوه- عمليا إن أدركوها، و هم متبعوها علميا و عقيديا مهما لم يدركوها، إذا فالإتباع يشمل كلا الفعلية و الشأنية علميا و عقيديا و تطبيقيا، فالأولان حاضران على أية حال و يبقي الثالث لدوره الواقعي و هو منذ ابتعاث هذا الرسول النبي الأمي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هنا بشارة بنزول الإنجيل بعد التوراة في واجب ذلك الإتباع كما و نجدها في التوراة في عدة آيات تبشر بظهور الرب من ساعير و ما أشبه.

ذلك، و ترى الخمسة الباقية من الثمانية هي من ميزات هذا الرسول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أظلم معاهدا و لا غيره فلما ترحل النهار أسلم اليهودي و قال: شطر مالي في سبيل اللّه، أما و اللّه ما فعلت الذي فعلت بك إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة: محمد بن عبد اللّه مولده بمكة و مهاجره بطيبة و ملكه بالشام ليس بفظ و لا غليظ و لا صخاب في الأسواق و لا متزين بالفحشاء و لا قوال للخنا.

(1). الدر المنثور 3: 121- أخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمرو بن العاصي قال: خرج علينا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يوما كالمودع فقال: أنا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 343

(صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ و ما هي إلا هيه لسائر الرسل (عليهم السّلام)!.

ليست هذه الثمانية إلّا «الأمي» و قسم آخر، هي من اختصاصاته (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، فإنما القصد من سردها تبيين انه مذكور بها في التوراة و الإنجيل فليتبعوه اتباعا لأمر اللّه فيهما و انه من نفس النمط الرسالي المعروف عند الرساليين، فليس- إذا- بدعا من الرسل، ثم فيه مزيد من هذه قضية ختم الرسالة و النبوة به كما يعرف تماما من المقارنة بين هذا الرسول و رسالته و بين سائر الرسل برسالاتهم: «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

ثم‏ «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» تتبلور في‏ «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ» (3:) 110).

و قد نجده في التورات و الإنجيل و القرآن آمرا ناهيا، نفخت شرعته في واجب الأمر و النهي كل ما يسعه من الروحية الحيوية الشاملة، و إلى درجات متعاليات لطليق الجهاد في سبيل اللّه بالأموال و الأنفس و كل النفائس حفاظا على الأدب الإسلامي السامي في المجموعة المسلمة ككل، و نموذجا من التوراة ما في كتاب هوشيع النبي (عليه السّلام) (16: 9) حسب النص العبراني الصوتي:

«سوفه إفريم عم الوهاى نابى‏ء فح ياقوش عل كال دراخايو مسطماه بيوت الوهايو» (9)-:

«افرايم منتظر عند إلهي. النبي فخ صياد على جميع طرقه. حقد في بيت إلهه. و قد توغلوا و أفسدوا كأيام جبعة. سيذكر إثمهم. سيعاقب خطاياهم» (9).

فالقصد من «النبي» هنا هو «محمد» المذكور في الآية (6) «...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 344

محمد لكسفام ..»: محمد لفضتهم، حيث تعني الجزية التي يأخذها منهم، و قد رموه بالجنون و الحمق كما في الآية (7): «.. النبي أحمق.

إنسان الروح مجنون من كثرة إثمك و كثرة الحقد» و كما مضى من ذي قبل.

فقد برز محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) المحقود في بيت إسرائيل، المرمي بالحمق و الجنون، و هو الموصوف بالنبي الأمي صاحب الروح و الوحي، برز أنه «فخ صياد في جميع طرقه» و هي طرق الدعوة الرسالية، برز هاديا و مبشرا و نذيرا و داعيا إلى اللّه و سراجا منيرا، فخّ للشاردين، صياد للواردين، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر «1».

ثم‏ «يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ» كما أحلت أو حرمت في سائر شرائع اللّه، و لكنه إحلال و تحريم أبديان لا يتغيران أو يتطوران، و قد كان في الشرعة التوراتية تحريمات ابتلائية أم عقوبية موقتة و تحليلات، مما أصبح من ميّزات الشرعة الإنجيلية تحليل بعض ما حرم عليهم: «وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ..» (3: 50) و من «الطيبات» التي يحلها هي المحرمة على الذين هادوا عقوبة، و من الخبائث التي يحرمها هي التي حللوها كالخمر و ما أشبه، ثم يقر سائر الخبائث على تحريمها و سائر الطيبات على إحلالها، فليس بدعا من الرسل يخالف خط الرسالة و سنتها الشاملة.

ثم‏ «وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ» فقد أشير إليهما في (أشعياء 28: 12) بخلال التعريف بالقرآن:

«اشر آمر إليهم زئت همنوحاه هانيحو لعايف و زئت همرجعاه و لا آبوء شموع» «2»-:

«الذين قال لهم هذه هي الراحة فأريحوا الرازح و هذه هي الرفاهية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2). راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و «الفرقان 1: 361 تجد تفصيل هذه البشارة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 345

فأبوا أن يسمعوا» (12) قال لهم رسول هذا القرآن «هذه» الشرعة القرآنية «هي الراحة فأريحوا الرازح» عن أسره و إصره، و حلوه عن غلّه و غلّه.

هذا «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» و هذه زوايا أربع لقاعدة إتّباعه: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ..» إيمانا به كما هو، و تعزيرا له: دفاعا عنه، و هو الحالة السلبية تجاهه ذودا عنه ما يمس كرامته، و نصرة إياه، و هو الحالة الإيجابية تجاهه، تحقيقا حقيقا لكلمة الإخلاص: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» سلبا و إيجابا عمليا، بعد الإيمان به قلبيا، و هذه الثلاثة تكرّس في الزاوية الرابعة:

«وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ» و هو القرآن، اتباعا في كل حقوله في كل الحقول، لا اتباعا في خيال خاو زاو، دون أن يظهر في حال و فعال، أو يخطر خطرّ له ببال.

«أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» في كل معتركات الحياة، المفلجون كل دوائر السوء المتربصة بهذه الرسالة السامية.

و إنما «أنزل معه» دون «أنزل عليه» لنعرف المعية بين القرآن و رسول القرآن فهما فرقدان لا يتفارقان و كلّ دليل على صاحبه، فكما إتباع النور الذي أنزل معه مفروض، كذلك إتباعه في سنته الجامعة غير المفرقة، فهما نوران متواتيان متواليان مهما كان نور القرآن أطول أمدا و أبقى أبدا فإنه الثقل الأكبر.

و هنا مثلث‏ «آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ» يتوحد في‏ «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ» فإنه إمامه حيث هو أمامه في كل رسالاته، و هذا النور المتّبع هو الذي يأمرنا باتباعه كمأموم أول لذلك الإمام، فلنصطفّ وراءه اقتداء بالقرآن الإمام، لكي نفلح كما هو أفلح، و نفلج خصومنا كما هو أفلج.

تتمه فيها إشارات إلى بشارات‏

كما في تصريحات آيات كهذه و في روايات الإحتجاجات للرسول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 346

(صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته المعصومين (عليهم السّلام)، و بعد مضي زمن طويل بيننا و بين هذه التصريحات، نجد في التوراة و الإنجيل- على تحرفهما و لا سيما في البشارات- نجد تصريحات لا حول عنها لهذا الرسول النبي الأمي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و إليكم نماذج أخرى تصديقا لاحتجاجات.

مما أشار إليه الإمام الرضا من البشارات آية «التثنية 18: 17) و نصها بالعبراني الصوتي:

«نابى‏ء آقيم لاهم مقرب إحيحم و ناتتّي دبارى بفيو و دبر إليهم ات كال اشر اصّونو» (17)-:

«بني أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى و أضع كلامي في فيه لكي يقول لهم كلما آمره» (18) فطالما حرفت أقلام الزور و الغرور ذلك النبي المبشر عن بيت إسماعيل إلى بيت إسرائيل، و لكنه بعد النص «مقرب إحيحم»: من أقرباء أخي بني إسرائيل، لا منهم، و قد تسمى التوراة أبناء الأعمام إخوة، ف «عيص» و هو أخو يعقوب، يصبح بنوه إخوة بني إسرائيل كما في «تث 28: 8- 10) «و مر القوم و قل لهم إنكم على حد إخوانكم بني عيص ..» و عيص هذا هو صهر إسماعيل بن إبراهيم و من أولاد بنت إسماعيل، إذا فولد إسماعيل هم أخوال بني عيص، فأقرباء بني إسرائيل هنا هم من بني إسماعيل، و لم يظهر نبي من بنيه إلّا محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ذلك و قد مضى نص التورات و حبقوق النبي بمطلع النور القدسي المحمدي من «پاران»: حرى، فلا نعيد.

و في «نبوءت هيلد»: وحي الطفل: لحمان حطوفاه، بحرف الميم من سلسلة مقالاته حول الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حسب حروف الحساب:

«محمّد كايا إعا بايا ديطمع هويا و يهي كليليا»-:

و هي حسب مختلف التراجم اليهودية: «محمد عظيم قدير.

الشجرة الطيبة البارزة. المأمول المغبوط المرتجى. الذي يخمد. و يفني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 347

ما مضى. هو الجمع و الكل. هو التاج. و هو الكلّ» و في أناشيد سليمان النبي (عليه السّلام) (5: 16):

«حكو ممتقيم و كولو محمد يم زه دودي وزه رعى بنت يرشالام» «1»-:

«فمه حلو- و كله محمد- هذا محبوبي- و هذا ناصري- يا بنات أورشليم»!.

و ذلك بعد مواصفات عدة لمحبوب له لا يسميه، فخيّل إلى بنات أورشليم أنه يعني واحدة منهن حتى صرح باسمه و سمته أخيرا بما صرح!.

و في كتاب أشعياء النبي (عليه السّلام) بشارات عدة

أشار إلى بعضها الإمام الرضا (عليه السّلام) في حواره و إليكم بعضا آخر، ففي (41: 1- 25): مواصفات دون تصريح بالموصوف بها، و هي لا تنطبق بالضبط إلا على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حيث يقول اللّه فيها: 1 هوذا عبدي الذي أعضده. مختاري الذي سرّرت به نفسي.

وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم 2 لا يصيح و لا يرفع و لا يسمع في الشارع صوته. 3 قصبة مرضوضة لا يقصف و فتيلة خامدة لا يطفئ. إلى الأمان يخرج الحق 4 لا يكلّ و لا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض و تنتظر الجزائر شريعته- 5 هكذا يقول اللّه الرب خالق السماوات و ناشرها باسط الأرض و نتائجها، معطي الشعب عليها نسمة و الساكنين فيها روحا 6 أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك و أحفظك و أجعلك عهدا للشعب و نورا للأمم 7 لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للتفصيل راجع «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و وحي الطفل عرض نموذجي عن كيان الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و حياته الرسالى و ميزاته نقلناه عن كتاب منقول الرضائي للحبر العظيم اليهودي الذي أسلم و ألف هذا الكتاب ردا على اليهود.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 348

الجالسين في الظلمة- 8 أنا الرب هذا اسمي و مجدي لا أعطيه لآخر و لا تسبيحي للمنحوتات 9 هوذا الأوليات قد أتت و الحديثات أنا مخبر بها. قبل أن تنبت أعلمكم بها 10 غنّوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض. أيها المنحدرون في البحر و ملؤه و الجزائر و سكانها 11 لترفع البرية و مدنها صوتها الديار التي سكنها «قيدار» لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا 12 ليعطوا الرب مجدا و يخبروا بتسبيحه في الجزائر 13 الرب كالجبار يخرج. كرجل حروب ينهض غيرته. يهتف و يصرخ و يقوى على أعدائه- 14 قد صحت منذ الدهر سكتّ تجلّدت. كالوالدة أصيح. أنفخ و انخر معا 15 أخرب الجبال و الآكام و أجفف كل عشبها و أجعل الأنهار يبسا و أنشّف الآجام 16 و أسيّر العمي في طريق لم يعرفوها. في مسالك لم يدروها أمشّيهم. أجعل الظلمة أمامهم نورا و المعوجّات مستقيمة. هذه الأمور أفعلها و لا أتركهم 17 قد ارتدوا إلى الوراء. يخزي خزيا المتكلمون على المنحوتات القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا- 18 أيها الصمّ اسمعوا. أيها العمي انظروا لتبصروا 19 من هو أعمى إلّا عبدي و أصم كرسولي الذي أرسله. من هو أعمى كالكامل و أعمى كعبد الرب 20 ناظر كثيرا و لا تلاحظ. مفتوح الأذنين و لا يسمع 21 الرب قد سرّ من أجل برّه. يعظم الشريعة و يكرمها 22 و لكنه شعب منهوب و مسلوب قد اصطيد في الحفر كلّه و في بيوت الجوس اختبئوا. صاروا نهبا و لا منقد و سلبا و ليس من يقول ردّ- 23 من منكم يسمع هذا. يصغي و يسمع لما بعد 24 من دفع يعقوب إلى السلب و إسرائيل إلى الناهبين. أليس الرب الذي أخطأنا إليه و لم يشاءوا أن يسلكوا في طرقه و لم يسمعوا لشريعته 25 فسكب عليه حمو غضبه و شدة الحرب فأوقدته من كل ناحية و لم يعرف و أحرقته و لم يضع في قلبه».

هذه الآيات البينات تبشر بولي عظيم من أولي العزم من الرسل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 349

(عليهم السّلام) ليس ليصدق على المسيح (عليه السّلام) الآتي بعد أشعياء اللّهم إلّا على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) خاتم الأنبياء.

فالآيات (1- 3- 4- 10) تبشر بولاية عزمه و انه صاحب شرعة مستقلة جديدة، و شرعة المسيح حسب نصوص من الإنجيل إضافة إلى خلوه عن أحكام، هي شرعة التوراة إلّا في قليل هو تحليل البعض من المحرمات العقوبية.

و الآيات (1- 2- 3- 4- 6) تصرح بأممية شرعته العالمية و أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هدى و نور لقاطبة الملل، و الآيتان (4- 10) تقول إن كافة الأمم تنتظر مجيئه و هي مأمورة بالدخول في شرعته، و هو يكسر الأصنام و يزيل عبادة الأصنام (8- 17).

و مبدء ظهوره و انتشار شرعته البلاد المسكونة ل «قيدار» «1»- و هو الولد الثاني لإسماعيل (تكوين 13: 25) و هو جد محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أعظم معبد لأمته في هذه البلاد حيث المستطيعون يقصدونه من مشارق الأرض و مغاربها و ترفع البرية و مدنها و صوتها الديار التي يسكنها قيدار، ترنّما بتسبيح اللّه من على رؤوس الجبال (11- 12).

و قد تعني «مختاريّ» في‏ «2» المصطفى حيث حرّف بالمعنى و كما يؤيده الآية (10) كما ترجمها القسيس أو سكان الأرمني‏ «3»: «يسبحون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2). لقد ذكر «قيدار» في (أشعياء 60: 7) أيضا كما يقول في بشارة أخرى في آيات عدة تعريفا بصاحب هذه الشرعة المبشر بها: «كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحي و ازين بيت جمالي» و للاطلاع على تفصيل بشارات أشعياء راجع (رسول الإسلام).

(3) هذه الترجمة كتبها هذا القسيس على كتاب أشعياء في 733» 1 و قد طبعت في مطبعة (أنتوني بورتولي).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 350

الرب تسبيحا جديدا و أثر سلطانه يكون بعده و اسمه «أحمد».

هذه نماذج من البشائر بحق هذا الرسول النبي الأمي، و لكن ترى ماذا كانت المواجهة اليهودية و النصرانية لهذا الرسول و لرسالته؟ لقد كانوا أنحس و أتعس من المشركين و سائر الملحدين لحد يندّد اللّه بفعلتهم قائلا:

«وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ» (2: 41).

ذلك و على طول الخط نرى دوائر السوء في كافة الحلقات مستخدمة من الصهيونية و الصليبية ضد الكيان الإسلامي، حيث تعالج- بزعمها- إزالة هذا الدين من الوجود.

فهل يبقى هنا مجال التعاون بيننا و بين اليهود و النصارى في وجه التيار المادي و سائر الإلحاد و هؤلاء و هم أهل كتاب أخطر و أضر على الكيان الإسلامي من كافة الكفرة و الملحدين!.

ذلك، هو «الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ».

«فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أركان أربعة للإفلاح ابتداء من الإيمان به كما يصح، ثم «و عزروه» توقيرا ثقيلا قدر ما وقره اللّه، فليس الإيمان به كسائر الإيمان بسائر الرسل، إنما هو الإيمان بمن يحمل الرسالات كلها، فليوقر كما توقر الرسل كلهم و زيادة هي رمز الخلود.

ثم و ليس الإيمان و التوقير- فقط- في زوايا القلب، بل و هناك ترسيم للإيمان الموقّر في صحيفة العمل، فيه نفسه: «و نصروه» في حمل هذه الرسالة تطبيقا إياها و دعاية لها، و في كتابه‏ «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ» و هو رأس الزاوية من نصرته.

فقد تلخصت هذه الزوايا الأربع في الرابعة «وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ» و إذا «أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» في معارك الحياة و ملتوياتها و منحنياتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 351

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158).

هنا في هذه الإذاعة القرآنية مجاهرة صارحة صارخة بأممية هذه الرسالة السامية حيث تحلّق على الناس كل الناس، فكما اللّه هو «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» كذلك هذه الرسالة الأخيرة تدير أمر الشرعة العالمية في السماوات و الأرض، دون إبقاء لمكلف في الكون إلّا و هي تشمله.

«فآمنوا» أيها الناس هودا و نصارى و سائر الكتابيين و غيرهم من المكلفين ملحدين و مشركين‏ «فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ...» كما و هو «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»، «فَآمِنُوا بِاللَّهِ»- «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ...» «و رسوله» الذي ملّك الدعوة الربانية لمن في السماوات و الأرض، و كما اللّه يحيي الأموات و يميت الأحياء، كذلك يسلب الرسالة عن قوم و يرسلها إلى آخرين، و ذلك رغم المزعمة الإسرائيلية أن رسالة اللّه خاصة بهم.

«فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ» المبشّر به في كتاباتكم‏ «الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ» فآمنوا أنتم باللّه و كلماته، و منها هذا الرسول نفسه بكلماته.

و لأن السورة مكية و هذه الآية دعوة للناس كافة، و قد كان الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في العهد المكي يعيش تحت كافة الضغوط المشركة ما يؤيس صاحب الدعوة عن تأثيرها حتى في بلده فضلا عن العالمين، من هنا نعرف أن هذه الرسالة بدأت عالمية، رغم الزعم الفاسد الكاسد أن محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لم يكن يخلد بخلده أن يمد بصره بهذه الرسالة إلى غير مكة، و إنما بدء يفكر في توسعتها العالمية بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف المدنية.

كلّا يا هؤلاء الأغبياء! إن هذه الرسالة ختمت بما بدأت و بدأت كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 352

ختمت في صيغة و صياغة واحدة و في قوة التعبير و التدبير و مسالك الدعوة و الدعاية.

فما هؤلاء المجاهيل من المبشرين الإنجيلين المدّعين- لأكثر تقدير- أن الرسالة القرآنية خاصة بالعرب لإشارات آيات يزعمونها، ما هؤلاء بناس، حيث الدعوة القرآنية تحلق على كل الناس، فإن كانوا هم من الناس فلتشملهم هذه الدعوة، و إن كانوا من النسناس فأنّى لهم أن يتحدثوا عن شرعة الناس؟!.

«ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ» (34: 28) و «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها» (6: 92) «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ» (21:) 107) و ما أشبه، هي القواعد الأصيلة لأممية هذه الدعوة، مما تفسر الآيات التي تخيّل اختصاص الدعوة بالعرب، و اجتثاثها عن غير العرب، تفسر أنهم هم المبدء الأول لهذه الدعوة لكون الداعية منهم و فيهم، و كما في سائر أولي العزم من الرسل سلام اللّه عليهم أجمعين.

أجل، و هذه الجمعية الرسولية و الرسالية العالمية هي حقيقة بهذا الرسول النبي الأمي المعروف الشهير حيث «أرسله بالدين المشهور، و العلم المأثور، و الكتاب المسطور، و النور الساطع، و الضياء اللامع، و الأمر الصادع، إزاحة للشبهات، و احتجاجا بالبينات، و تحذيرا بالآيات، و تخويفا بالمثلات، و الناس في فتن انجذم فيها حبل الدين، و تزعزعت سوارى اليقين، و اختلف النجر، و تشتت الأمر، و ضاق المخرج، و عمي المصدر، فالهدى خامل، و العمى شامل، عصي الرحمان، و نصر الشيطان، و خذل الإيمان، فانهارت دعائمه، و تنكرت معالمه، و درست سبله، و عفت شركه، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، و وردوا مناهله، بهم سارت أعلامه، و قام لواءه، في فتن داستهم بأخفافها، و وطئتهم بأظلافها، و قامت على سنابكها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون، في خير دار و شر جيران، نومهم سهود، و كحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، و جاهلها مكرم» (الخطبة 2).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 353

و في وصف الأنبياء و خاتمهم (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نراه أكرمهم و أعزهم حيث «استودعهم في أفضل مستودع، و أقرهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خلف- حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) فأخرجه من أفضل المعادن منبتا، و أعز الأرومات مغرسا، من الشجرة التي صدع منها أنبيائه، و انتخب منها أمناءه- عترته خير العتر، و أسرته خير الأسر، و شجرته خير الشجر، نبتت في حرم، و بسقت في كرم، لها فروع طوال، و ثمرة لا تنال- فهو إمام من اتقى، و بصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوءه، و شهاب سطع نوره، و زند برق لمعه- سيرته القصد، و سنته الرشد، و كلامه الفصل، و حكمه العدل- أرسله على فترة من الرسل، و هفوة عن العمل، و غباوة من الأمم إلى دار السلام، و أنتم في دار مستعتب على مهل و فراغ، و الصحف منشورة، و الأقلام جارية، و الأبدان صحيحة، و الألسن مطلقة، و التوبة مسموعة، و الأعمال مقبولة» (الخطبة 93).

«مستقرة خير مستقر، و منبته أشرف منبت، في معادن الكرامة، و معاهد السلامة، قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، و ثنيت إليه أزمة الأبصار، دفن الله به الضغائن، و أطفأ به النوائر، ألف به إخوانا، و فرق أقرانا، أعز به الذلة، و أذل به العزة، كلامه بيان، و صمته لسان» (الخطبة 95).

«أختاره من شجرة الأنبياء و مشكاة الضياء، و ذؤابة العلياء، و سرة البطحاء، و مصابيح الظلمة، و ينابيع الحكمة- طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، و أحمى مواسمه، يضع من ذلك حيث الحاجة إليه، من قلوب عمي، و آذان صم، و ألسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة، و مواطن الحيرة، لم يستضيئوا بأضواء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 354

الحكمة، و لم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، و الصخور القاسية، قد انجابت السرائر لأهل البصائر، و وضحت محجة الحق لخابطها، و أسفرت الساعة عن وجهها، و ظهرت العلامة لمتوسمها- مالي أراكم أشباحا بلا أرواح، و أرواحا لا أشباح، و نساكا بلا صلاح، و تجارا بلا أرباح، و أيقاظا نوما، و شهودا غيبا، و ناظرة عمياء، و سامقة صماء، و ناطقة بكماء» (الخطبة 107).

ذلك! و ترى كيف لا يضمن هنا الاهتداء بذلك الإيمان و الإتباع و قد كتب اللّه رحمته لهؤلاء المؤمنين المتبعين؟ لأن مجرد بادئ الإيمان و الإتباع أيّا كان لا يضمن دائب الاهتداء، و إنما هو الاستمرار فيها بشروطهما بعون اللّه و فضله، فرب مؤمن به متبع له سوف يكفر، و رب كافر به ناكر له سوف يؤمن، فلنسأل اللّه حسن العاقبة و الخاتمة كما نسأله حسن البداية.

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (159).

هنا «مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ ..» و في أخرى‏ «مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» (7: 181) و في ثالثة «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ» (: 66).

فالأولى خاصة بقوم موسى و مثلها: «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ» (32: 24) و هنا ما تختص بالذكر من هؤلاء الأئمة الهادية كإبراهيم و لوط و إسحاق و يعقوب: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» (21: 73).

ثم الثالثة تعمهم إلى قوم عيسى، و آية الأنبياء تعمها إلى قوم محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مما يدل على أن هذه الأمة الهادية بالحق العادلة به هي الأئمة من كل أمة، معصومين كأصول، و علماء ربانيين كفروع لهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 355

«يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» هي الهداية بمصاحبة الحق و بسببه، و هو حق الوحي كتابا و سنة، ثم‏ «وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» هو العدل بالحق و العدول عن الباطل بالحق، فالحق هو الذريعة الوحيدة في العدل و الهدى ليس إلّا، دون مصلحيات هاوية و قياسات خاوية غاوية و ما أشبهها من دون الحق الحقيق بالاتباع.

ذلك، «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» (10: 35)- «و لم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة إليه، و متعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأقلون عددا، و قد بين اللّه ذلك من أمم الأنبياء و جعلهم مثلا لمن تأخر مثل قوله فيمن آمن من قوم موسى: «وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ».

فرأس الزاوية في مثلث الهداية هو رسول كل أمة، ثم الأئمة من قومه، و من ثم ربانيو الأمة و قد يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله:

«معاشر الناس أنا الصراط المستقيم الذي أمرتم بإتباعه ثم علي من بعدي ثم ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق و به يعدلون» «1».

ذلك، و لأن «يهدون» مضارعة تشمل الحال إلى الاستقبال، فالأصل فيهم بالنسبة لزمن نزول القرآن هؤلاء الذين آمنوا به و دعوا له و هدوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 86 في كتاب الإحتجاج باسناده إلى الإمام محمد بن علي الباقر (عليهما السّلام) عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في خطبة الغدير: .. و

فيه في الكافي عن مسعدة بن صدقة سمعت أبا عبد اللّه (عليه السّلام) يقول‏ يسأل عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر أو واجب هو على الأمة جميعا؟ فقال: لا فقيل له: قال:

إنما هو على القوى المطاع العالم بالمعروف من المنكر لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلا إلى أيّ من أيّ و الدليل على ذلك كتاب اللّه تعالى قوله: «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» فهذا خاص غير عام كما قال اللّه:

«وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» و لم يقل على أمة موسى و لا على كل قومه و هم يومئذ أمم مختلفة و الأمة واحدة فصاعدا كما قال اللّه سبحانه و تعالى: «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ» يقول: مطيعا للّه تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 356

إليه، و قد سبقهم نبيون و ربانيون و مؤمنون إسرائيليون كانوا ينتظرون تشريف هذه الرسالة السامية.

و على أية حال ف «أمة» هنا تضم من‏ «قَوْمِ مُوسى‏» كلّ من‏ «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» و قضية احتمال الواو أنها حالية، أن‏ «وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏» بيان حال الماضية، كما أن قضية احتمال العطف بيان الحال الحالية، و الجمع أجمل و أجمع، لأن أمة الحق بين الأمم الرسالية لا يختصون بزمان دون زمان، و الآية طليقة في هؤلاء الأكارم.

و في أحاديثنا أن هذه الأمة من قوم موسى هم ممن يرجعون في دولة المهدي عجل اللّه تعالى فرجه و سهل مخرجه.

وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160).

آية وحيدة في بيان عديد الأسباط، بعد آيات أربع تذكرهم دون عديدهم، و هم هنا «أمما» بعد كونهم أمة واحدة في شرعتهم.

و ترى كيف هنا «أَسْباطاً أُمَماً» و تمييز ما فوق العشرة مفرد؟، إنه قد لا يكون تمييزا، بل هو بدل يعني قطعناهم أسباطا أمما هم اثنتي عشرة، أم ان‏ «أَسْباطاً أُمَماً» حالان ل «هم» فإن واقع عديد الأسباط لا يقبل التقطيع لأنه تحصيل للحاصل، و إنما «قطعناهم» تفريقا بينهم حالكونهم أسباطا أمما، أم لأن تمييز ما فوق العشرة لا يختص بالإفراد، فقد يجمع كما هنا، و أخرى يفرد ك «عينا» تمييزا ل «اثنتا عشرة» و القاعدة الأدبية المخالفة لأدب القرآن هي خارجة عن الأدب البارع.

ذلك، فتقدير تمييز مفرد حفاظا على الأدب المزعوم تغدير على أدب القرآن، و لا يصلح تمييزا ل «اثنى عشر» إلا «أسباطا».

و ترى هذا التقطيع لهم رحمة؟ و هو زحمة قضية الاختلاف! إنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 357

زحمة كأصل حيث الوحدة هي الرحمة «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (11: 119) ثم هو رحمة في غير أصل حين لا تعايش سلميا بين مختلف الأسباط، و هكذا كانوا مختلفين لا يتعايشون فقطعهم اللّه حتى يتخلصوا عن أعباء الخلافات، قطعناهم لحد «أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ ..» و كما «بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً» (5: 12).

ذلك، و سائر مواضيع الآية مفسّرة مفصّلة على ضوء آيات البقرة اللّهم إلّا «وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» و كما في البقرة «وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى‏ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (57).

و هذه حقيقة هي حقيقة بالاتباع أن اللّه لا يظلم كما لا يظلم حيث الظلم هو الانتقاص و لا ينتقص من ربنا في واقع كيانه بشي‏ء و كل شي‏ء غيره قابل للانتقاص.

و لقد ظلمت هذه الآية فيما ظلمت أى أخرى من القرآن بما اختلقت من رواية تروى لقلة الفهم و سوء التفهم أنها نزلت‏ «وَ ما ظَلَمْناهُمْ ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين (2: 87) في أصول الكافي عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي (عليه السّلام) في الآية قال: ان اللّه أعز و أمنع من أن يظلم و ان ينسب نفسه إلى الظلم و لكن اللّه خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه و ولايتنا ولايته ثم أنزل بذلك قرآنا على نبيه فقال: «وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم، و فيه مثله عن أبي جعفر (عليهما السّلام)،

و فيه ما يعارضهما عن الإحتجاج‏

عن أمير المؤمنين (عليه السّلام) حديث طويل: و أما قوله‏ «وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» فهو تبارك اسمه أجلّ و أعزّ من أن يظلم و لكنه قرن أمناءه على خلقه بنفسه و هو عرّف الخليقة جلالة قدرهم عنده و ان ظلمهم ظلمه بقوله: «وَ ما ظَلَمُونا» ببغضهم أولياءنا و معونة أعدائهم عليهم‏ «وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» إذ حرموها الجنة و أوجبوا عليها دخول النار.

أقول: و في خلط أولياءه بنفسه خلط لا يناسب شرعة التوحيد!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 358

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161).

لقد مضى قول فصل حول مغزى الآية على ضوء نظيرتيها و هما (2: 58 و 4: 154) مهما كان بين هذه الثلاث تقديم و تأخير في التعبير، و مثلث العرض في القرآن لهذه الذكرى هو قضية مثلث الملابسات البيانية في الذكر الحكيم.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (162).

و لها ثانية باختلاف يسير في التعبير هي: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (2: 59).

[سورة الأعراف (7): الآيات 164 الى 169]

وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (166) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى‏ وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (169)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 360

وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (163).

و هنا عرض منقطع النظير عن حيلة شرعية! لهؤلاء المحتالين الأنكاد البعاد تبين مدى غيلتهم على شرعة اللّه تحويلا لمحرمات إلى محللات و كأن شرعة اللّه مبنية على الحيلة حتى تقبل حيلة تحولها إلى ما يشتهون، و كما تفعله جماعة من المسيحيين و المسلمين المجاهيل مستندين إلى مختلقات زور زعم أنها حيل شرعية! قررها صاحب الشرع للقضاء على شرعته!.

و «الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ» هي ليست حاضرة الاسم، إذ القصد هنا هو واقع الاحتيال، دون مكانه الخاص و أشخاصه الخصوص، و مهما اختلفت الروايات في أنها: إيلة أو طبرية أو مدين، فنحن نسكت عما سكت اللّه عنه دون محاولة للحصول على اسم القرية.

و هنا «يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ» تعني- فيما تعني- صيد الحيتان يوم السبت بحيلة أم غيلة لمكان‏ «إِذْ تَأْتِيهِمْ ...» و السبت هو القطع، حالة اليقظة عن أفعال اختيارية بالإرادة، و حالة النوم، سبتا عنها دون إرادة، «جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً» (78: 9) تعني ثاني القطعين من قطاع السبت، فإنه فيه الراحة و الدعة، فقد يمتن اللّه بالسبت كما في النوم لما فيه لنا من المنفعة و الراحة، لأن التهويم و النوم الغرار لا يكسبان شيئا من الراحة، بل يصبحهما في الأكثر القلق و الانزعاج و الهموم التي تقلل النوم و تنزّره، و فراغ القلب و رخاء البال يكون معهما غزارة النوم و امتداد، و هذا هو النوم السبات، دون سائر النوم غير السبات.

و يقابل سبات النوم سائر النوم، و كذلك السبت الذي يصد عن منافع معنية معينة في الحياة كما فعل باليهود يوم السبت.

فلقد كان يوم السبت يوم السبت: القطع عن الأعمال غير الضرورية، و منها صيد الحيتان، و لكنهم عدوا فيه، و لم يكن يقصد من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 361

الصيد- فقط- عمله يوم السبت حتى يكونوا أحرارا في سائر المحاولات حول صيد السبت.

فكما «حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً» (5: 96) تحرّم كافة المحاولات حول الصيد حالة الإحرام، إشارة و أخذا و بيعا و شراء و أكلا و إيكالا و ما أشبه في حقل الإحرام، كذلك السبت كان إحراما على هؤلاء، إذ حرم عليهم فيه- فيما حرّم-: صيد الحيتان، فكل المحاولات يوم السبت حول الصيد محرمة، أخذا فيه، أو حصرا ليأخذوه بعده، أم أكلا مما أخذ يوم السبت أو سواه من قضايا الصيد من تقدمات و نتائح و أية ولائج في حقل صيد السبت.

و قد اختص الصيد هنا بالذكر من بين كل مسبوت فيه يوم السبت، لأنه كان أفيد من كافة الأعمال، و لا سيما أن حيتانهم كانت «تأتيهم يوم سبتهم شرعا و يوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك» الصعب الملتوي «نبلوهم» مثل هذه البلوى الشديدة «بما كانوا» طول حياتهم النحيسة «يفسقون» عن شرعة اللّه أصولا و فروعا.

«و سألهم» سؤال تنديد و تبكيت عن ماضي تأريخهم الأسود، المستمر على طول الخط بمختلف ألوان فسوقهم عن شرعة اللّه ... «إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ» عدوا معتديا متعديا على شرعة اللّه‏ «إِذْ تَأْتِيهِمْ ...».

فتراهم كيف عدوا فيه؟ هل صادوا فيه الحيتان جهارا و دون ستار؟

و العصيان الجاهر هو دأبهم الدائب في المحرمات الأصلية، و السبت عن العمل يوم السبت كان ابتلاء لهم لردح محدد من الزمن! سبتا عن مختلف تخلفاتهم النحيسة عن شرعة اللّه، و ليس مجرد الصيد في أصله مما يستحق به غليظ العذاب: «كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ».

أم احتالوا في صيدهم إذ لم يصيدوها يوم السبت، و إنما سدوا عليها منافذ الفرار فصادوها بعد السبت؟ أم تأولوا محرم الصيد يوم سبتهم أن القصد منه حرمة أكل الصيد يوم السبت دون مجرد صيده؟ و هذا أنحس و أنكى لأنه يضم إلى محرم العمل محرم الحيلة الغيلة في حكم اللّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 362

تحليلا لما حرمه اللّه بتلك الحيلة، أم افترقوا في عدوهم إلى هذه الفرق الثلاث؟ قد تحتملها كلها «إذ يعدون» فإن مجرد الصيد يوم سبتهم كان محرما عليهم سواء أ صادوا و لم يأكلوا، أم و أكلوا، أم لم يصيدوا في نفس اليوم و إنما سدوا عليها طرق الفرار «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 88 في تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن أبي عبيدة عن أبي جعفر (عليهما السّلام) قال: وجدنا في كتاب علي بن أبي طالب صلوات اللّه عليه أن قوما من أهل إيلة- و هي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام- أو آخر الحجاز و أول الشام- من قوم ثمود و أن الحيتان كانت سيقت إليهم يوم السبت ليختبر اللّه طاعتهم في ذلك فشرعت إليهم يوم سبتهم في ناديهم و قدام أبوابهم في أنهارهم و سواقيهم فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها فلبثوا في ذلك ما شاء اللّه لا ينهاهم عنها الأحبار و لا يمنعهم العلماء من صيدها، ثم إن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم إنما نهيتهم عن أكلها يوم السبت و لم تنهوا عن صيدها فاصطادوها يوم السبت و أكلوها فيما سوى ذلك من الأيام فقالت طائفة منهم: الآن نصطادها فعتت و انحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين فقالوا: ننهاكم عن عقوبة اللّه أن تتعرضوا لخلاف أمره، و اعتزلت طائفة أخرى منهم ذات اليسار فسكتت فلم تعظهم فقالت للطائفة التي و عظتهم: «لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً» فقالت الطائفة التي وعظتهم: «مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» قال: فقال اللّه عزّ و جلّ‏ «فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ» يعنى لما تركوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة فقالت الطائفة التي وعظتهم: لا و اللّه لا نجاكم و لا نأتيكم هذه الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتم اللّه مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعمنا معكم، قال: فخرجوا عنهم من المدينة مخافة أن تصيبهم البلاء فنزلوا قريبا من المدينة فباتوا تحت السماء فلما أصبحوا أولياء اللّه المطيعون لأمر اللّه غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت فدقوه فلم يجابوا و لم يسمعوا منها حس أحد فوضعوا سلما على سور المدينة ثم اصعدوا رجلا منهم فأشرف على المدينة فنظر فإذا هو بالقوم قردة يتعاوون فقال الرجل لأصحابه: يا قوم أرى و اللّه عجبا، قالوا: و ما ترى؟ قال:

أرى القوم قد صاروا قردة يتعاوون لها أذناب، فكسروا الباب، قال: فعرفت القردة أنسابها من الإنس و لم تعرف الإنس أنسابها من القردة فقال القوم للقردة: ألم ننهكم؟

فقال علي (عليه السّلام): و اللّه الذي فلق الحبة و برأ النسمة إني لأعرف أنسابها من هذه الأمة لا ينكرون و لا يغيرون بل تركوا ما أمروا به فتفرقوا و قد قال اللّه: «فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» و قال اللّه: «أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 363

ففي صيد الحيتان و أكلها يوم السبت ثالوث من المحظور فإنه عمل و صيد و أكل منه و كلها ممنوعة فيه، و في صيدها فيه- فقط- دون أكل محظوران اثنان، ثم في سد طريقها دون صيد يومه و لا أكل محظور واحد، و لكنه مع الثاني قد يكون أشد من ثالوثهم لمكان الحيلة على شرعة اللّه، فرية وقحة على اللّه كأنه سن في شرعته حيلة و غيلة و هما من قضايا الجهالة و الضعف!.

و هنا «إذ تأتيهم ..» دليل أنهم كانوا لا يصيدون يوم السبت لفترة، ثم لما رأوا «تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ» أخذوا يعدون في السبت في حقل هذه الثلاث.

أجل، و لأن الحيتان كانت متعودة على حريتها يوم السبت، لذلك جعلت تترائى لهم على الساحل، كثيرة الورود، قريبة المأخذ، سهلة الصيد، فكانت تفوتهم متنقلة من أيديهم يوم سبتهم و قطعهم الصيد فيه، ثم‏ «يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ» و هو غير السبت من أيام الأسبوع «لا تأتيهم».

و تراها تشاورت في أمرها فعاكست إتيانها في معاكسة السبت مع سائر الأيام، و ذلك الترتيب الرتيب هو منقطع النظير في السواحل، فليكن بخارقة ربانية إذ «كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» نبلوهم بسبتهم يوم السبت، و بسبت حيتانهم في غير السبت‏ «إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً» بوفرة و كثرة شارعة هارعة إلى الساحل و كأنها تسخر من هؤلاء المسبوتين، فلم يتحمل فريق منهم هذه السخرية فأخذوا يصطادون جهارا، و راح آخرون يحتالون على السبت، يقيمون الحواجز على الحيتان يخوّطون عليها يوم سبتهم حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليها و اصطادوها زاعمين أنهم لم يصطادوا في السبت إذ كانت في الماء وراء الحواجز غير مصيدة، و

قد يروى عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في ذلك المضمار قوله: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» «1»

فليست الحيلة لتغير واقع المحظور حين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 139- أخرج ابن بطة عن أبي هريرة أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 364

يكون المحظور واقعا من الأمور.

و راح ثالث يصيدونها في يوم السبت و لا يأكلونها في نفس اليوم تأويلا أن المحرم هو أكلها يوم السبت، رغم أن الأكل لم يكن بنفسه من ضمن السبت: القطع، إنما هو العمل صيدا أم صدا للصيد أما أشبه من أعمال غير ضرورية يومية.

و ترى كيف كانت حالة الباقين الذين لم يعدوا في السبت تجاه الذين عدوا فيه؟ إنهم اقتسموا قسمين اثنين، قسم نهوا عن السوء، و آخرون سكتوا عنه و نهوا هؤلاء عن نهيهم عن السوء، أم و ثالث سكتوا عن النهيين، نهي الناهين و نهي العاصين.

وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164).

فهنا عظة للذين كانوا يعدون في السبت من أمة منهم‏ «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ»، و أمة أخرى لا تعظ العادين، و إنما تعظ هؤلاء الواعظين:

«لم تعظون ..» تنديدا بهم كأنهم أتوا بمنكر في نهيهم عن المنكر، «قالُوا مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» و هما دعامتان في حقل الأمر و النهي للحافظين حدود اللّه و كما يقول اللّه: «فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً. عُذْراً أَوْ نُذْراً» (77: 6).

فعلى الداعية مواصلة الدعوة بإلقاء الذكر، فإن لم يؤثر ف «عذرا» عند اللّه أنني بلغت، و لكيلا يكون في تركه حجة للمتخلفين، و إن أثر ف «نذرا» «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ» (36: 11) إنذارا مؤثرا.

فالإنذار بكل بنوده هو واجب الداعية في كافة الحقول. سواء لهؤلاء الذين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (36: 10) فإنه‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ» لا عليك‏ «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ» (3: 20).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 365

أم‏ «مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ»: «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ..». إذا فليس احتمال التأثير في باب الأمر و النهي مما يحتمله هذان الفرضان الإلهيان، و إنما «عذرا»: «مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ» أو «نذرا»: «وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» و هنا «ربكم» في موقف التنديد بهؤلاء الذين تركوا واجب التربية بذلك النهي و انحازوا إلى النهي عن ذلك النهي.

ثم من عظيم الفائدة فيمن تعلم أنه لا يتأثر بالفعل، أنه لعلّه يتأثر بتكرار العظة و تواترها، أم- و لأقل تقدير- تكون العظة حجة عليه كيلا يقول الذي لا يتأثر: إن وعظت تأثرت، أو إن كررت لاتعظت، فتواتر العظة البالغة- إذا- حجة بالغة على طول الخط، و قد تؤثر في قوم لدّ:

«لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» (19: 97)- «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ» (36: 6)- «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» (32: 3) فالنهي فرض رباني نؤديه على أية حال لنبلغ إلى ربنا عذرنا بما أدينا من واجبنا، ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية القاسية الجاسية فيثير فيها حراس التقوى بعد مراس الطغوى.

ذلك، فكل من‏ «مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ» و «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» موجب بنفسه واجب الأمر و النهي على أية حال، و اشتراط احتمال التأثير في فرض الأمر و النهي لا يعدو الخيال مهما أفتى به جموع من هؤلاء الذين لا تهمهم النصوص القرآنية، ماشين وراء الشهرات و الإجماعات مهما خالفت نصوص الكتاب!، و لا يفلت عن واجب الأمر و النهي إلا في ظروف الحفاظ على الأهم القاطع الناصع، و ما سواها على سواء في فرضهما، سواء أيقن بالتأثير، أم ظن أو شك أو احتمل أو لم يحتمل، فإن الواقع أوسع من احتماله، و على فرض العلم بالواقع فهما حجة على الخاطئين لكيلا يقولوا علنا نتأثر بكرور العظة البالغة.

و القول: إن الجمع بين الأمرين هو الذي يفرض النهي، دون كل واحد منهما، مردود بأن‏ «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»- إذا- كاف، فإن النهي عنده عذر كاف، فليكن كلّ منهما مستقلا في فرض النهي، و الأصل العام هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 366

«مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ» فيما لا يؤثر أو نعلم ألا تأثير، إذ لا نحيط علما بواقع الأمر. ثم‏ «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» حين نحتمل التأثير أم أثر مهما نعلم ألا تأثير.

و مما يبين استقلال كل واحد من الأمرين‏ «عُذْراً أَوْ نُذْراً» ف «عذرا» هو «مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ» و «نذرا» هو «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

و مما يبين أن ظاهر الحال ما كان يشير إلى احتمال التأثير قول هؤلاء لهم: «لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً» فذلك التعبير القاطع يدل على أنه لم يكن هناك دور حاضر لاحتمال التأثير.

فإجابة عن حال عدم الاحتمال‏ «مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ» و أخرى مشيرة إلى واقع الحال‏ «وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» فلا يطغون، فلا دور هنا لترجي التقى إلّا فيما وراء الاحتمال الحاضر، رعاية الواقع الذي هو أوسع من ظاهر الحال.

و من عظيم فرض النهي عن السوء فيما لا يحتمل التأثير أن اللّه لم ينج من عذابه البئيس إلّا الذين ينهون عن السوء، حيث شمل هؤلاء الذين لم ينهوا عن السوء هناك بل و نهوا الناهين عن السوء كأنهم أتوا بسوء!.

و هكذا الساكتين عن كلا النهيين حيث يختص الإنجاء بالذين ينهون عن السوء:

فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (165).

فلما لم يجد النصح و لم تنفع العظة و سدر السادرون في غيهم حقت كلمة العذاب عليهم و تحققت نذره، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نجوة من السوء ثم الآخرون أخذهم عذاب بئيس بما كانوا يفسقون، اقترافا للفسق الأصيل، أم تركا للنهي عنه، فضلا عن نهي الناهين عن السوء «لم تعظون»؟.

ذلك، و مما يلمح له ذلك العذاب البئيس أن الجهل بذلك الحكم غير معذور لأنه جهل مقصر من هؤلاء الذين عاشوا رسالة اللّه المذكرة إياهم بواجب الأمر و النهي و حدودهما، أم أن العذاب موجه إلى الذين ظلوا على جهلهم جهالة بواجب النهي فلم ينهوا، و هذا أولى و أحرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 367

«فَلَمَّا نَسُوا» الذين عدوا في السبت‏ «ما ذُكِّرُوا بِهِ» من عظة الواعظين، كما «فَلَمَّا نَسُوا» التاركون للنهي عن السوء، الناهين عن ذلك النهي و سواهم‏ «ما ذُكِّرُوا بِهِ» من‏ «مَعْذِرَةً إِلى‏ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»- «أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ» سواء الأولين، أم التاركين للنهي المتعظين بالعظة فأصبحوا معهم من الناهين‏ «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» و هم كلا العادين في السبت، و التاركين للنهي عنه نسيانا معمدا لتلك العظة «بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ».

فيا لذكرى الرب من حامية حائطة على الإنسان النسيان، و لو أننا ذكرنا و علمنا واقع حالاتنا المزرية المخجلة لما رفعنا رؤوسنا اختجالا، و كما

يقول إمام الذاكرين للغافلين: «و لو تعلمون ما أعلم مما طوي عنكم غيبه إذا لخرجتم إلى الصعدات تبكون على أعمالكم، و تلتدمون على أنفسكم، و لتركتم أموالكم لا حارس لها و لا خالف عليها، و لهمت كل امرئ منهم نفسه لا يلتفت إلى غيرها، و لكنكم نسيتم ما ذكرتم، و أمنتم ما حذرتم، فتاه عنكم رأيكم، و تشتت عليكم أمركم ..» (من الخطبة 115).

و لأن العذاب البئيس دركات حسب دركات السوء و الفسق، فقد اختص العاتون عما نهوا عنه بأتعسه:

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (166).

فقد نجت فرقه و هي الناهية عن السوء أولا أو أخيرا، ثم الذين ظلموا عاتين أم تاركين لنهيهم عن السوء أخذهم عذاب بئيس، و قد أجمل عن عذاب الآخرين تصريحا بعذاب الأولين أن: «قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ».

أجل فقد

«افترق القوم ثلاث فرق: فرقة نهت و اعتزلت، و فرقة أقامت و لم تقارف الذنوب، و فرقة قارفت الذنوب، فلم ينجو من العذاب إلا من نهى ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 90 عن تفسير العياشي عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمد عن أبيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 368

فهم إذا

«صنف ائتمروا و أمروا فنجوا، و صنف ائتمروا و لم يأمروا فمسخوا ذرا و صنف لم يأتمروا و لم يأمروا فهلكوا» «1»

و هؤلاء الآخرون هم الذين‏ «قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ» و هذا جزاء وفاق أنكم كما جعلتم أنفسكم قردا خاسئة فلتكن أبدانكم كأنفسكم، مسخا عن صورة الإنسانية كما مسختم عن سيرتها، فقد انتكسوا إلى عالم الحيوان حين تخلوا عن خصائص الإنسان، فقيل لهم قيلة التكوين: كونوا حيث صنعتم بأنفسكم، كذلك بأبدانكم انتكاسا إلى هوان الحيوان.

كما و أن الساكتين مسخوا ذرا إذ كان موقفهم موقف الذر حيث كانوا سكوتا عن النهي في ذلك المسرح القاحل المتعاضل.

و هنا «خاسئين» وصفا ل «قردة» تميزهم عن سائر القردة، حيث القردة الحيوان ليست خاسئة بعيدة عن رحمة اللّه لأنها خلقت قردة فما ذنبها إذا حتى تخسأ؟.

و لكن هؤلاء الخاسئين إنما خسئوا بكونهم خاطئين فتحوّلهم إلى قردة- إذا- عذاب لهم في الأولى فلتكن أرواحهم كما هي، و التحول يخص أبدانهم حتى يدركوا عذاب ذلك التحول، فهم ليس لهم نسل و لا بقاء، و لا يجانسون سائر القردة في سائر الميّزات حتى ينسلوا، و كما

يروى عن رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «إن الله لم يمسخ شيئا فجعل له نسلا و عقبا» «2»

ذلك و قد دلت على ما تنبهناه روايات مضت و منها ما لم ننقلها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليهما السّلام) في الآية قال: افترق ... قال قلت لأبي جعفر (عليه السّلام): ما صنع بالذين أقاموا و لم يقارفوا الذنوب؟ قال: بلغني أنهم صاروا ذرا».

(1).

المصدر عن روضة الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في الآية قال: أقول: الذين ائتمروا و أمروا هم الذي لم يعدوا و لم يسكتوا فنجوا، و الذين ائتمروا و لم يأمروا هم الذين سكتوا، و الآخرون الذين لم يأتمروا و لم يأمروا هم الذين عدوا.

(2) المصدر عن مجمع البيان وردت الرواية عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): و

في الفقيه قد روي‏ أن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام و أن هذه مثل لها فنهى اللّه عزّ و جلّ عن أكلها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 369

ذلك خزي لهم في الحياة كأشخاص خصوص، و من ثم خزي لهم يشملهم ما هم متخلفون عن شرعة اللّه:

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167).

و التأذن هو التكلف بأذان: النداء الإعلان الإعلام، و هو مأوّل لساحة الربوبية بكثرة النداء و مبالغته، و هنا «ربك» لمحة إلى مدى ذلك التأذن للحفاظ على هذه الشرعة الربانية الخاصة التي تعاديها الصهيونية العالمية، و تتربص بها كل دوائر السوء.

كلام حول الحيلة- الشرعية!.

الحيلة- كيفما كانت- لا دور لها في أحكام اللّه، و كيف يحتال اللّه في حكمه أم يسمح بحيلة تحول بين حكمه و تحقيقه، و ما هي الحاجة إلى الحيلة في أحكام اللّه، و اللّه هو الحاكم يحكم كيف يشاء؟! فحين يقول‏ «وَ حَرَّمَ الرِّبا» لا يعني إلّا واقع الأكل بالباطل لواقع الاختلال المعيشي فيه، حيث الربا هو الزيادة عن المستحق فهو باطل عاطل، فهل الحيل الربوية تحوّل الأكل بالباطل إلى الحق، بحيلة لفظية أو عملية، و المحرم هو واقع الربا دون لفظته و صيغته.

و ترى هنا فارقا في واقع الأكل بالباطل بين من يربي ماله بقدر قدر زمن القرض، بألف، و بين من يبيع عشرة آلاف مع سمّ الخياط بأحد عشر ألفا بنفس القدر؟ و ليس يباع عشرة آلاف بأحد عشر ألفا، و لاسم الخياط بألف! إلا سفاهة و حماقة هي تبطل المعاملة قبل كونها أكلا بالباطل.

و لو استحلت الحيلة الشرعية في هذه الأمور التي هي محظورة بواقعها، لحلت كل المحرمات الواقعية بهذه الحيل، و أصبح شارع الشرعة بواقعها، هادما لها بالحيل التي تحول دون تحقيق الحق فيها، و لأمكن تحليل كل ألوان المعاملات الربوية بيعا و قرضا و ما أشبه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 370

و هنا الروايات المتعارضة في حيل الربا معروضة على‏ «وَ حَرَّمَ الرِّبا» حيث إن واقع الربا لا يزول بهذه المحاولات المزاولات‏ «1».

ذلك، و هنا يجدر ذكرى إمام المتقين علي (عليه السّلام) حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للاطلاع الواسع على أحكام الربا و مواضعها و مواضيعها راجع هنا الفرقان (4: 307- 360).

و مما يمنع عن أمثال هذه الحيل ما

في النهج عن علي (عليه السّلام) أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال له: يا عليّ إن القوم سيفتنون بأموالهم .. و يستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة و الأهواء الساهية فيستحلوا الخمر بالنبيذ و السحت بالهدية و الربا بالبيع».

و

في الدر المنثور 1: 367- أخرج أبو داود و ابن ماجة و البيهقي في سننه عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره».

و

عن الإمام الرضا (عليه السّلام) في حكمة حرمة الربا: «.. لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهما و ثمن الآخر باطلا، فبيع الربا و شراءه وكس على كل حال على المشترى و على البائع» (الوسائل 12: 424).

و تقابل هذه النصوص، روايات أخرى تحاول تحليل الحيل في حقل الربا، كما

في التهذيب 2: 146 صحيح البجّلي قال: سألته عن الصرف فقلت له: أشترى ألف درهم و دينارا بألفي درهم؟ فقال: لا بأس بذلك، إن أبي كان أجرأ أهل المدينة مني و كان يقول هذا فيقولون: إنما هذا الفرار، لو جاء رجل بدينار لم يعط ألف درهم و لو جاء بألف درهم لم يعط ألف دينار، و كان يقول: «نعم الشي‏ء الفرار من الحرام إلى الحلال».

و

في المصدر صحيح آخر عنه قال: كان محمد بن المنكدر يقول لأبي جعفر (عليهما السّلام) يا أبا جعفر رحمك اللّه و اللّه إنا لنعلم أنك لو أخذت دينارا و الصرف ثمانية عشر فزرت المدينة على أن تجد من يعطيك عشرين ما وجدته و ما هذا الفرار؟

و كان أبي يقول: «صدقت و الله لكنه فرار من الباطل إلى الحق».

و

في ثالث عنه: «لا بأس بألف درهم و درهم بألف درهم و دينارين، إذا دخل فيها ديناران أو أقل أو أكثر فلا بأس» (التهذيب 2: 145).

فرغم صحة أسناد هذه الثلاثة، هي مضروبة عرض الحائط لأنها تحلل الأكل بالباطل بهذه الحيلة الغيلة، و كلاهما محرمان بآيات تحرّم الأكل بالباطل و تحرّم الربا و تحرّم الحيلة كآية «يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 371

يحظّر عن أحاديث تخالف القرآن يتبعونها و يخالفون كتاب اللّه بقوله:

«اعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم و تركوا كتاب ربهم» «1».

كلام حول حدود الأمر و النهي:

كما أن نطاق الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر واسع بالنسبة للمأمور و المنهي، فلا يشترط حاضر التأثير و لا جوازه، و إنما هما «عُذْراً أَوْ نُذْراً».

كذلك الآمر و الناهي لا يشترط فيهما الائتمار بكل أمر و الانتهاء عن كل نهي، و إلّا لم يحصل كفاح و كفاف في حقل الأمر و النهي، فإنما الشرط هنا ائتمار الآمر بما يأمر به و انتهاء الناهي عما ينهى عنه، فالتارك للمأمور به و المقترف للمنهي عنه، و لا سيما المتجاهر، ليس له الأمر و النهي كما تدل عليه آيات و روايات مسرودة في بابه بصورة مفصلة «2».

فالأمر و النهي ما لم يحملا ضررا هما أهم من تركهما على الآمر و الناهي، أو من فعلهما على المأمور و المنهي، هما مفروضان، فما لم يحمل المأمور بأمره على تصلبه في ترك الواجب، أو يحمل المنهي بنهيه على تصلبه في ترك المحرم، فهما واجبان على سائر شروطهما.

إذا، فقد يجب على تارك المعروف و فاعل المنكر خفية أن يأمر و ينهي، و يحرم على الجاهر أن يأمر و ينهى، قضية الهدف الاسمي من الأمر و النهي، فكل مؤمن له- على أية حال- مسئوليتان اثنتان، تبني شخصه مؤمنا، و تبني الآخرين، بصورة مترتبة أو متوازية، ما لم يضر في تبني الآخرين بأصل الهدف.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رجال الكشي ص 22 عن جابر بن عبد اللّه عن عبد اللّه بن يسار سمعت عليا (عليه السّلام) يقول: .. و فيه عن سلمان الفارسي: «هربتم من القرآن إلى الأحاديث، وجدتم كتابا دقيقا حوسبتم فيه على النقير و القطمير و الفتيل و حبة خردل فضاق بكم و هربتم إلى الأحاديث التي اتسعت عليکم.

(2) هي في تفسير آية البقرة «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 372

و لأن الشرعة القرآنية عالمية أممية أبدية لصالح كل الأمم، فليدرّبنا عند ما يمسّ من كرامتها من قبل الصهيونية العالمية بذلك البعث البعيث البحيث: «لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ» منذ بداية تأريخ الإفساد العالمي منهم «من يسومهم» اضطرارا دون قرار «سُوءَ الْعَذابِ» المتواصل ل «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ» و أشد المعاقبين في موضع النكال و النقمة «وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» و أرحم الراحمين في موضع العفو و الرحمة.

لذلك نراهم طول تأريخهم المنحوس شذر مذر، متفرقين أيادي سبا دون أيّة دولة لهم خاصة، اللّهم إلّا دويلة العصابات حيث احتلت فلسطين و القدس بمساعدة كل سواعد الكفر و الاستكبار شرقا و غربا، و حتى القيادات العربية التي فسحت المجال لذلك التجوال و الاعتداء، أم و ساعدتها على ذلك، و لكنها ما ظلت آمنة مطمئنة من بأس مبعوثي اللّه من مؤمنين و كافرين، فالبعثة الإيمانية عليهم هي الخاصة المبشر بها لمرتيها في آيات الأسرى: «فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولًا ... فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً» (17: 7).

ثم البعثة الإيمانية المستمرة من قبل الفدائيين المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، و من ثم البعثة الكافرة كالهتارية و ما أشبه، التي دمرتهم، فكما «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19:) 83) «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ» (41:) 25) كذلك «ليبعثن ..» قد تعم كلا البعثين حيث الشيطنة الإسرائيلية تعم في إفسادها كل ربوع العالمين مؤمنين و كافرين، فلتستمر- إذا- تلك البعثة المختلطة عليهم إلى يوم القيامة.

فذلك التأذن بتواتر سوء العذاب منذ صدوره على ضوء ذلك البعث المستمر، يختص بالصهيونية العالمية في فترات متلاحقة من الزمن إذ يبعث اللّه عليهم بين آونة و أخرى من يسومهم سوء العذاب، و كلما انتعشوا و انتفشوا و طغوا في الأرض و بغوا أكثر، جاءتهم الضربة كما هم ضاربون،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 373

و ليست دويلة العصابات و تغلّبها على أراض و بلاد إسلامية إلّا في فترات عارضة غير فارضة، هي من قضايا تهاون المسلمين عن جهادهم و جهودهم المتواصلين.

ثم و هذه البعثة الربانية المنبثة بين بعيثي الكفر و الإيمان، هي بين تكوينية و تشريعية، و ليست السيطرة الصهيونية في فترات كهذه التي طالت سنين، إلّا من وراء و جرّاء فترة المبعوثين المؤمنين توانيا عن تحقيق واجبهم الإيماني في الدفاع عن حوزة الإيمان. و «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» (13: 11).

ذلك، فهم أولاء الأنكاد يعيشون سوء العذاب بصورتيها:

المستمرة، و المرتين في إفساد العالميين.

ذلك، و قد تبلغ بهم الحال العضال لحد

«تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر» «1».

وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168).

هنا «أمما» قد تعني إلى أمم مذهبية تحت قيادات روحية، أمما تحت قيادات زمنية أنهم هم مقطّعون أمما بين هذين و كما نجدهم أمما حتى الآن رغم تأسيس دويلة العصابات، فمنهم من يرفضها فلا ينحو نحوها، و منهم من يفرضها فينضم إليها، و منهم عوان بين ذلك، فالصالحون منهم بين من يؤمن و من هو قاصر فلا يؤمن، و منهم دون ذلك بمختلف دركات الدون، و أنحسها الصهيونية التي قد لا تحسب بحساب الأمة الدينية حيث تغلبت عليها السياسة الإبليسية فنسيت أنها أمة دينية كتابية.

ذلك‏ «وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ» المرغوبة لديهم في الحياة «و السيئات» غير المرغوبة «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» و يهودون إلى اللّه بعد ما هادوا عن اللّه، فمن الناس من يرجعه إلى اللّه الحسنة، و منهم من ترجعه السيئة، و منهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الاطلاع الواسع على تفاصيل آيات الأسرى راجع ج 15: 37- 70 من هذا الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 374

من لا يرجع إلى اللّه بحسنة و لا سيئة، و المتابعة بالابتلاء رحمة ربانية وقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار و البوار و الطغيان.

ذلك، و

قد يصدّق المروي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن «الناس لنا فيه تبع اليهود غدا و النصارى بعد غد»

فقد يعنى من الغد آخر الزمن قبل ظهور المهدي (عج) و «بعد الغد» زمنه (عج) راجع تفسير آيات الأسرى.

و كل هذه البلايا المتواصلة ضدهم لأنهم عار و بوار على الإنسانية كلها، لا فقط على المسلمين، أم و المسيحيين فحسب، حيث يرونهم أنفسهم فقط شعب اللّه المختار و أبناء اللّه الإخصاء، و هم الإنسان فقط دون سائر الناس، و إنما خلقوا بصورة الإنسان ليصلحوا حذاما لشعب اللّه.

لذلك فهم يظلمون النسل الإنساني غير الإسرائيلي و يفسدونهم كما يستطيعون، و من بالغ تزمّتهم و تمسكهم بقوميتهم أن ليست لهم أية دعاية لجذب سائر الناس إلى شرعتهم اختصاصا لهم بذلك الإختيار، و اجتثاثا له عمن سواهم من غير الشعب المختار!.

إذا فليست لهم إيجابيات الدعوة الإسرائيلية لغيرهم، بل هم سلبيات تنحو منحى إفساد كل الشعوب عن بكرتها، عن عقيدتها و فكرتها و اقتصادياتها و سياساتها و عن كل الميزات لإنسانيتها، و لكي تصدق تحيّلتهم العمياء و الحمقاء أنهم إنما خلقوا بصورة الناس، و ليسوا من الناس!.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى‏ وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (169).

«فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ» أولاء المتخلفين الأنكاد البعاد «خَلْفٌ وَرِثُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 375

الْكِتابَ» و هم علماءهم العملاء حيث‏ «يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى‏» في متجر الكتاب، فيشترون به ثمنا قليلا بكلّ غرّة، حيث‏ «وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا» ويكأن اللّه ضمن لهم مغفرة متواصلة متآصلة دونما شرط، فأصبحوا إباحيين رغم أنهم‏ «وَرِثُوا الْكِتابَ» ثم‏ «إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» حيث الأخذ بهكذا وخز أصبح من جبلتهم، فهم تجار فجّار في حقل الكتاب و هم دارسوه، يقولون على اللّه غير الحق بغية أخذ هذا الأدنى، فليست دراسة في الكتاب وحدها تكفل تطبيقه حيث الإيمان هو الركن الركين المكين، فقد لا يدرس الكتاب لأنه أمي و هو مؤمن، و لكنه يطبقه تقليدا صالحا من الربانيين الدارسين له، و قد لا يدرس و لا هو مؤمن، فهو فاقد الجناحين، و لكن الذي يدرسه و لا يؤمن هو أخطر في هذا البين، فكم من دارسين الكتاب و هم عنه بعاد، إذ يدرسونه ليتأولوه و يحتالوا فيه و يحرفوا الكلم عن مواضعه، ناسين حظّا مما ذكروا به و لا تزال تطلع على خائنة منهم.

أجل، يدرسونه ليجدوا المخارج لفتاواهم الحارفة الهارفة الخارفة، و يريدون ليزينوا بالكتاب هذه الفتاوى النكاوى تدجيلا على السذج البسطاء، فهم أخطر آفة على الدين و الدينين، فإن غير الدارس للكتاب لا يستطيع أن يحرف الكتاب أو يأوّله كما يهواه، فذلك الدارس للكتاب هو كارث على الكتاب حيث لا يتقي اللّه!.

و مخترعوا المذاهب المختلفة المختلفة عن شرائع اللّه هم كلهم ممن درسوا في الكتاب فحولوه إلى ما يهوون، و كأن الكتاب خادم لهم غير مخدوم، فلا تجد عندهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، و لا أغلى منه إذا حرف عن جهات أشراعه.

ذلك، و لأن كل ما دون الكتاب هو عرض هذا الأدنى، إذا فالأخذ بغير الكتاب برفض الكتاب، إنه من عرض هذا الأدنى، بل و أدنى من كل أدنى.

فرفض الكتاب بأخذ مال أو أي منال رفض، و رفضه بأخذ كتاب آخر تقديما له عليه رفض، و أين رفض من رفض؟!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 376

فيا للحوزات الرافضة للقرآن من بأس و بؤس، تفسح كافة المجالات لأقلام سامّة تمس من كرامته بسند آياته نفسه كما تهوى.

هؤلاء ورثوا الكتاب بظلم إذ لم يحرسوا الكتاب، فحرسة الكتاب بحق هم- فقط- ورثة الكتاب، كما «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» (35: 32).

فهم أولاء الأكارم ورثة الكتاب بالحق المطلق و كما

يروى عن رسول الكتاب (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «علي وارثي» «1»

كما هو

«وارث علم النبيين» «2»

و

«مستودع مواريث الأنبياء» «3»

و

«أنت وصيي و وارثي» «4».

«أَ فَلا تَعْقِلُونَ»؟

أ فلا تستعملون عقولكم التي هباكم اللّه إياها لتعقلوا الحق فتفرضوه، و تعقلوا الباطل فترفضوه؟ «عجبت لمن يتفكر في مأكوله كيف لا يتفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، و يودع صدره ما يرويه»

«ألا و مثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت» «5»

و قد «خلق اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملحقات احقاق الحق 4: 69، 71- 75، 79، 99، 100، 160، 172، 178، 227، 277، 357 و 5: 35، 37، 41، 50، 277، 357 و 15:

191- 195 و 7: 414 و 20: 220، 445- 446.

(2) المصدر 4: 122.

(3) المصدر 4: 170 و 20: 309، 311، 407.

(4) المصدر 4: 82، 160 و 20: 230.

(5)

العوالم (2- 3) عن العلل عن أمير المؤمنين عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «سئل مما فلق اللّه عزّ و جلّ العقل؟ قال: خلقه ملك له رؤوس بعد الخلائق، من خلق و من خلق إلى يوم القيامة، و لكل رأس وجه، و لكل آدمي رأس من رؤوس العقل، و اسم ذلك الإنسان على وجه ذلك الرأس مكتوب، و على كلّ وجه ستر ملقى لا يكشف ذلك الستر من ذلك الوجه حتى يولد هذا المولد، و يبلغ حد الرجال أو حدّ-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 377

تعالى العقل من أربعة أشياء: من العلم و القدرة و النور و المشية بالأمر، فجعله قائما بالعلم، دائما في الملكوت» «و للعقل مراتب و درجات قضية الحكمة الربانية «1» «أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» و هم ورثة الكتاب و درسته حيث‏ «وَرِثُوا الْكِتابَ‏ ... وَ دَرَسُوا ما فِيهِ»؟ تفضيلا للدنيا على الآخرة «وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» الدنيا المناحرة لها، المنافية إياها «أَ فَلا تَعْقِلُونَ»؟.

ذلك‏

«و لن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، و لن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم و موت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، و صمتهم عن منطقهم، و ظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين و لا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق و صامت ناطق» «2».

و هنا «سَيُغْفَرُ لَنا» طليقة دون تقيد بتوبة، و تحتيما دون قرن برجاء، إنه دليل أنهم كانوا يحتّمون على اللّه الغفران رغم مواصلة العصيان، و ذلك من أنحس العصيان! فما دائهم؟ و ما دواءهم؟ و ما بالهم يقولون‏ «سَيُغْفَرُ لَنا» متهافتين على عرض هذا الأدنى، و كأنه هو الذي يحتّم الغفر على اللّه، فهم أولاء يبررون لأنفسهم ذلك بتقول تغوّل على اللّه أنه «سيغفر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

النساء، فإذا بلغ كشف ذلك الستر، فيقع في قلب هذا الإنسان ثور، فيفهم الفريضة و السنة، و الجيد و الرديّ، ألا ..».

(1).

المصدر 42 عن العلل عن إسحاق بن خالد قال: قلت لأبي عبد اللّه (عليه السّلام):

الرجل آتيه أكلمه ببعض كلامي فيعرف كلّه، و منهم من آتيه فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كله ثم يرده عليّ كما كلمته، و منهم من آتيه فأكلمه فيقول: أعد علي؟ فقال:

يا إسحاق! أو ما تدري لم هذا؟ قلت: لا، قال: الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرف كلّه فذاك من عجنت نطفته بعقله، و أما الذي تكلمه فيستوفي كلامك ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركّب عقله في بطن أمه، و أما الذي تكلمه بالكلام فيقول: أعد عليّ فذاك الذي ركّب عقله فيه بعد ما كبر فهو يقول: أعد علىّ».

(2) المصدر عن الإختصاص للمفيد عن الصادق (عليه السّلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 378

لنا» و هم بدراستهم للكتاب يعلمون أن اللّه لا يغفر إلا للتائب حقا توبة نصوحا، دون هؤلاء المصرين الذين‏ «إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» إصرارا و تكرارا للذنب!.

ذلك و قد أخذ عليهم ميثاق الكتاب في مجالات عدة منها الآتية في‏ «إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (171) و لكنهم رغم أنهم ورثوا الكتاب و درسوا ما فيه أخذوا يأخذون بديله عرض هذا الأدنى، و كلما يؤخذ ثمنا عن الكتاب، هو عرض أدنى من كل دان لأنه فان، و الآخرة خير و أبقى للذين آمنوا و كانوا يتقون‏ «أَ فَلا تَعْقِلُونَ»؟.

و للعقل- ككل- جنود بمشتقاته هي كلها عقال للنفس بجنودها، و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «إن العقل عقال من الجهل، و النفس مثل أخبث الدواب فإن لم تعقل جارت، فالعقل عقال من الجهل، و إن اللّه خلق العقل فقال له: أقبل فأقبل، و قال له: أدبر فأدبر، فقال اللّه تبارك و تعالى: و عزتي و جلالي ما خلقت خلقا أعظم منك، و لا أطوع منك، بك أبدأ و بك أعيد و عليك العقاب، فتشعب من العقل 1 الحلم، و من الحلم 2 العلم، و من العلم 3 الرشد، و من الرشد 4 العفاف، و من العفاف 5 الصيانة، و من الصيانة 6 الحياء، و من الحياء 7 الرزانة، و من الرزانة 8 المداومة على الخير، و من المداومة على الخير 9 كراهية الشر، و من كراهية الشر 10 طاعة الناصح- فهذه عشرة أوصاف من أنواع الخير، و لكل واحد من هذه العشرة الأصناف عشرة أنواع- فأما الحلم فمنه 1 ركوب الجميل، 2 و صحبة الأبرار، 3 و رفع من الضعة، و رفع من الخساسة، و تشهّي الخير، و يقرب صاحبه من معالي الدرجات، و العفو و المهل، و المعروف و الصمت، فهذا ما يتشعب للعاقل بحلمه-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 379

و أما العلم فيتشعب منه الغنى و إن كان فقيرا، و الجود و إن كان بخيلا، و المهابة و إن كان هيّنا، و السلامة و إن كان سقيما، و القرب و إن كان قصيا، و الحياء و إن كان صلفا، و الرفقة و إن كان وضيعا، و الشرف و إن كان رذلا، و الحكمة، و الحظوة، فهذا ما يتشعب للعاقل لعلمه فطوبى لمن عقل و علم- و أما الرشد فيتشعب منه السداد، و الهدى، و البر، و التقوى، و المنالة، و القصد، و الإقتصاد، و الثواب، و الكرم، و المعرفة بدين اللّه، فهذا ما أصاب العاقل بالرشد، فطوبى لمن أقام به على منهاج الطريق- و أما العفاف فيتشعب منه: الرضا، و الاستطانة، و الحظ، و الراحة، و التفقد، و الخشوع، و التذكر، و التفكر، و الجود، و السخاء، فهذا ما يتشعب للعاقل بعفافة رضيّ باللّه بقسمه، و أما الصيانة فيتشعب منها: الصلاح، و التواضع، و الإنابة، و الفهم، و الأدب، و الإحسان، و التحبب، و الخير، و اجتناب الشر، فهذا ما أصاب العاقل بالصيانة، فطوبى لمن أكرمه مولاه بالصيانة- و أما الحياء فيتشعب منه: اللين، و الرأفة، و المراقبة للّه في السر و العلانية، و السلامة، و اجتناب الشر، و البشاشة، و السماحة، و الظفر، و حسن الثناء على المرء في الناس، فهذا ما أصاب العاقل بالحياء، فطوبى لمن قبل نصيحة اللّه و خاف فضيحته- و أما الرزانة فيتشعب منها: اللطف، و أداء الأمانة، و ترك الخيانة، و صدق اللسان، و تحصين الفرج، و استصلاح المال، و الاستعداد للعدو، و النهي عن المنكر، و ترك السفه، فهذا ما أصاب العاقل بالرزانة فطوبى لمن توقّر و لمن لم تكن له خفة و لا جاهلية و عفا و صفح.

و أما المداومة على الخير فيتشعب منه: ترك الفواحش، و البعد من الطيش، و التحرّج، و اليقين، و حب النجاة، و طاعة الرحمن، و تعظيم البرهان، و اجتناب الشيطان، و الإجابة للعدل، و قول الحق، فهذا ما أصاب العاقل بمداومة الخير، فطوبى لمن ذكر أمامه، و ذكر قيامه، و اعتبر بالفناء-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 380

و أما كراهية الشر فيتشعب منه: الوقار، و الصبر، و النصر، و الاستقامة على المنهاج، و المداومة على الرشاد، و الإيمان باللّه، و التوقر، و الإخلاص، و ترك ما لا يعنيه، و المحافظة على ما ينفعه، فهذا ما أصاب العاقل بالكراهية للشر، فطوبى لمن أقام الحق للّه و تمسك بعرى سبيل اللّه- و أما طاعة الناصح فيتشعب منها: الزيادة في العقل، و كمال اللّب، و ممهرة العواقب، و النجاة من اللّوم، و القبول، و المودة، و الإسراج، و الإنصاف، و التقدم في الأمور، و القوة على طاعة اللّه، فطوبى لمن أسلم من مصارع الهوى، فهذه الخصال كلها تتشعب من العقل- قال شمعون: فأخبرني عن أعلام الجاهل فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إن صحبته عنّاك، و إن اعتزلته شتمك، و إن أعطاك منّ عليك، و إن أعطيته كفرك، و إن أسررت إليه خانك، و إن أسرّ إليك اتهمك، و إن استغنى بطر، و كان فضا غليظا، و إن افتقر جحد نعمة اللّه و لم يتحرّج، و إن فرح أسرف و طغى، و إن حزن آيس، و إن ضحك فهق، و إن بكى خار، يقع في الأبرار، و لا يحب اللّه، و لا يراقبه، و لا يستحيي من اللّه، و لا يذكره، إن أرضيته مدحك و قال فيك من الحسن ما ليس فيك، و إن سخط عليك ذهبت مدحته و وقع فيك من السوء ما ليس فيك، فهذا مجرى الجاهل» «1».

و

عن الصادق (عليه السّلام): العاقل من كان ذلولا عند إجابة الحق، منصفا بقوله، جموحا عند الباطل، خصيما بقوله، يترك دنياه و لا يترك دينه، و دليل العاقل شيئان: صدق القول، و صواب الفعل، و العاقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر (54) تحف العقول قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في جواب شمعون بن لاوي ابن يهودا من حواري عيسى (عليه السّلام) حيث قال: أخبرني عن العقل ما هو؟

و كيف هو؟ و ما يتشعب منه و ما لا يتشعّب؟ و صف لي طوائفه كلها فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إن العقل عقال ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 381

لا يتحدث بما ينكره العقل، و لا يتعرض للتهمة، و لا يدع مداراة من ابتلي به، و يكون العلم دليله في أعماله، و الحلم رفيقه في أحواله، و المعرفة تعينه في مذاهبه، و الهوى عدو العقل، و مخالف الحق، و قرين الباطل، و قوة الهوى من الشهوة، و أصل علامات الشهوة أكل الحرام، و الغفلة عن الفرائض، و الاستهانة بالسنن، و الخوض في الملاهي» «1».

و

عنه (عليه السّلام): «الجهل صورة ركبت في بني آدم، إقبالها ظلمة، و إدبارها نور، و العبد متقلب معها كتقلب الظل مع الشمس، ألا ترى إلى الإنسان تارة تجده جاهلا بخصال نفسه، حامدا لها، عارفا بعيبها، في غيره ساخطا، و تارة تجده عالما بطباعه، ساخطا لها، حامدا لها في غيره، فهو متقلب بين العصمة و الخذلان، فإن قابلته العصمة أصاب، و إن قابلته الخذلان أخطأ، و مفتاح الجهل الرضا، و الإعتقاد به، و مفتاح العلم الاستبدال مع إصابة موافقة التوفيق، و أدنى صفة الجاهل دعواه العلم بلا استحقاق، و أوسطه جهله بالجهل، و أقصاه جحوده العلم، و ليس شي‏ء إثباته حقيقة نفيه إلا الجهل و الدنيا و الحرص، فالكل منهم كواحد، و الواحد منهم كالكل» «2».

و

من وصية موسى بن جعفر (عليهما السّلام) لهشام بن الحكم ملتقطات منها تالية: «يا هشام من سلط ثلاثا على ثلاث كأنما أعان هواه على هدم عقله: من أظلم نور فكره بطول أمله، و محا طرائف حكمته بفضول كلامه، و اطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، و من هدم عقله أفسد عليه دينه و دنياه- يا هشام! كيف يزكو عند اللّه عملك و أنت قد شغلت عقلك عن أمر ربك، و أطعت هواك على غلبة عقلك-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر (70) عن مصباح الشريعة.

(2) المصدر (72) عن مصباح الشريعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏11، ص: 382

يا هشام! الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن اللّه تبارك و تعالى اعتزل أهل الدنيا و الراغبين فيها، و رغب فيما عند ربه، و كان اللّه أنسه في الوحشة، و صاحبه في الوحدة، و غناه في العيلة، و معزّة في غير عشيرة» «1».

و هناك قصار من الكلمات حول العقل هي طوال في معناه و مغزاه ك:

«العقل مركب العلم»

«الإنسان بعقله»

«الإنسان عقل و صورة، فمن أخطأه العقل و لزمته الصورة لم يكن كاملا، و كان بمنزلة من لا روح فيه»

«العقل رسول الحق»

«العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة القلوب و القلوب أئمة الحواس، و الحواس أئمة الأعضاء»

«العقل أقوى أساس»

«العقل حسام قاطع»

«ثمرة العقل لزوم الحق»

«ثمرة العقل الاستقامة»

«العقل حيث كان آلف مألوف» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر (84- 106).

(2) و العناوين على الترتيب غرر الحكم 20- 14- البحار 78/ 7 عن كتاب مطالب السؤول- غرر الحكم 15- مستدرك النهج- الغرر 31- الغرر 31- الغرر 20- الغرر 158- الغرر 158- الغرر 27